

تجدید و ترقی

پروفیسر ڈی. پی. سہاسانی

الاشنولس والتاریخ



پروفیسر ڈی. پی. سہاسانی

Ю. Бромлей, Р. Подольный

ЭТНОС И ИСТОРИЯ

На арабском языке

БРОМЛЕЙ Юлиан Владимирович
ПОДОЛЬНЫЙ Роман Григорьевич

ЭТНОС И ИСТОРИЯ

На арабском языке

Редактор русского текста О. Ф. Тихомиров
Контрольный редактор С. Э. Налич
Художник В. Навиков
Художественный редактор Н. Чернышова
Технический редактор С. А. Рябинина

ИБ № 16184

Сдано в набор 25.02.87. Подписано в печать 29.06.88. Формат 84×100/16.
Бумага Висера № 1—70 г. Гарнитура изразская. Печать литьевая.
Условн. печ. л. 15,6. Усл. кр.-отт. 16,23. Уч.-изд. л. 22,33. Тираж
8185 экз. Заказ № 531. Цена 1 р. 60 к. Изд. № 43447. Ордена Тру-
дового Красного Знамени издательство «Прогресс» Государственного
комитета СССР по делам издательства, полиграфии и книжной тор-
говли, 119841, ГСП, Москва, Г-21, Зубовский бульвар, 17. Ордена Тру-
дового Красного Знамени Московская типография № 7 «Искра револю-
ционная» «Специализированная» Государственного комитета СССР по
делам издательства, полиграфии и книжной торговли. Москва, 121019,
пер. Авантюра, 13.

دار التقدّم، ١٩٨٨

طبع في الاتحاد السوفيتي

Б 0506000000—537 225—88
014(01)—88

ISBN 5-01-000747-9

المقدمة . الشعوب تكون البشرية

البشرية كبيرة ، ومجتمعاتها متنوعة : كل انسان ينتمى الى فئة اجتماعية معينة ، الى طبقة ، وهو فرد فى أسرته وساكن بلدة او قرية او مدينة ، ومواطن لهذه الدولة او تلك .
وكل منا يمثل شعبه واثنوسه ، ويحمل فى ذاته ثقافة سلافية . لقد وجدت الاثنوسات قبل وجود الدول والمدن . كانت البشرية ، باختصار ، مقسمة الى شعوب واثنوسات منذ البداية . ويبدو ان كل ما فى هذه العبارة صحيح ، ولكن الافضل القول على نحو آخر : البشرية تتكون من شعوب . او بتعبير ادق : البشرية هى الشعوب . الروس والعرب . لانكليين والزولو ، الاستراليون والمجريون ، النجر والكيشوا . اننا نكثر بحيث لا نستطيع بعد تحديد العدد الدقيق للشعوب القاطنة فى الارض : الامم والاقبوام والقبائل . من المعروف انها تبلغ الالوف : منها الكبيرة والصغيرة ، منها ما يعد بالملايين ومنها ما يعد بمئات الاشخاص فقط . الشعوب مختلفة ، ولكنها متساوية تاريخا : ان تطورها ، مع كل تبايناتها التاريخية ، يخضع لقوانين تاريخية واحدة .

تضطلع العمليات السلافية بدور جبار فى حياة المجتمع . والدراسة النظرية لهذه العمليات المرتبطة ارتباطا وثيقا بالعوامل الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية امر فى غاية

الاهمية ، ولا سيما اذا اخذ في الاعتبار ان العمليات السلافية نفسها تمارس ، بدورها ، تأثيرا كبيرا الى حد بعيد فى المجالات الاخرى من الحياة الاجتماعية .

وبهذا يتطوّر البحث فيها سواء على مغزى نظرى ، او على مغزى عملى ملمح ، مع العلم انه لا يكفى لتحقيق مذهبين الغرضين البحث فى حالة الشعوب الراحنة وعلاقاتها وتأثيرها المتبادل فى الوقت الحاضر فقط ، اذ لا يمكن فهم ما هو حيوى بدون دراسة الماضى ، كما لا يمكن بدون هذه الدراسة الفناء نظرة على مستقبل الشعب المحتمل .

ومهمة هذا الكتاب ، كما يراها المؤلفان ، اعطاء تصور لكيفية نظر العلم المعاصر الى سنن تطور الانثوسات والروابط السلافية الاخرى ولخارطة العالم السلافية المعاصرة ، واطهار مختلف طرق تكون الشعوب وانماط اهم العمليات السلافية ، وقد سعينا الى اخضاع كل هذا لهدف عام ، وهو تعيين مكان الانثوسات فى التاريخ ، بما فى ذلك تاريخ ايماننا .

وبناء على فكرة المؤلفين تتعاقب المواضيع النظرية العامة هنا مع المواضيع المكرسة لتوزع الانثوسات فى المعمورة وتاريخ تكون الشعوب على حدة ، مع العلم ان كل موضوع اختير ليعرض ، كما نفترض ، مثالا نموذجيا بما فيه الكفاية ، مع كل خصائصه ، لنمط تطور الروابط السلافية .

وبودنا الا يقتصر هذا الكتاب على اثاره انتباه زملائنا - الاختصاصيين والاختصاصيين المقبلين - من مؤرخين واثنوغرافيين فحسب ، بل ان يثير ايضا انتباه كل من يهتم «مجرد» اهتمام جدى وعميق بتاريخ شعبه والشعوب الاخرى التى تكون بمجموعها البشرية .

تعالج علوم كثيرة قضية تكون الشعوب وتطورها . انها الفلسفة والتاريخ ، علم الآثار ووقته اللغة ، السوسنيولوجيا والجغرافيا . وطبيعى ان يشغل حيزا خاصا بينها العلم الذى يعتبر دراسة الملامح المميزة لشعوب العالم مهمته الرئيسية . وهذا العلم تطلق عليه تسميات مختلفة فى شتى البلدان . فهو يسمى انثولوجيا وعلم منشأ الشعوب ، وحيانا انثروبولوجيا . وهذا العلم يسمى فى بلادنا تقليديا بالاثنوغرافيا (تعنى «الاثنوغرافيا» حرفيا باللغة اليونانية القديمة «وصف الشعوب») . والاثنوغرافيا مادة تاريخية ، وهى تدخل الى جانب المواد المماثلة الاخرى فى دائرة واسعة من العلوم التى تدرس المجتمع فى تطوره ، وتهتم على نحو خاص بمنشأ الشعوب وتغيراتها فى الزمان . وفى غضون ذلك تشغل مركز الصدارة من دراستها دراسة الثقافة المادية والروحية للشعوب الانثوسات . ويعار اشد اهتمام فى ثقافة الانثوسات لجوانبها التى تتجلى فيها باوضح ما يكون الملامح الاكثر تميزا لنمط حياة الشعب .

لا يمكن فى كتاب واحد ، طبعا ، ان ينعكس الا جزء صغير من العمل الذى انجزه العلماء الذين يقومون بدراسة الشعوب .

سيتجدون هنا عرضا لمواقع انطلاق المؤلفين الاساسية فى صدد جملة من المسائل الرئيسية للموضوع الذى اختاراه ، وستعشرون على امثلة لدى توضيح ما يجرى للشعوب -

الانثوسات في تطورها التاريخي ، وستقرأون كيف تدل في الابحاث الانثوغرافية قضايا المنشأ السلافي والتاريخ السلافي ، بما في ذلك التاريخ المعاصر . نبدأ بوصف الكيفية التي يرى فيها الانثوغرافيون السوفيت علمهم ودائرة المواضيع الملموسة لدراسته .

تتجلى خاصية الانثوغرافيا باسطق ما يكون في ان هذا العلم لا يهتم في المواضيع التي يبحث فيها بما هو عام لدى مختلف الشعوب فحسب ، بل يهتم كذلك وقيل كل شيء بما هو خاص ومميز وملامز لكل انثوس . ومن هذه الناحية تختلف مادتنا كل الاختلاف عن السوسيوولوجيا التي ربما كانت اقرب العلوم الى علمنا . ان السوسيوولوجيين ، اذ يدرسون البنى والاحداث الاجتماعية ، يبحثون عن تجليات القوانين العامة التي تسيطر حركة التاريخ ، ولهذا تجذب العمليات النموذجية اهتمامهم قبل كل شيء . اما الانثوغرافيون فيهتمون بالدرجة الاولى لدى دراسة مواضيعهم بما هو خاص ، متميز ، فريد ، ويقسط هذا الفريد في العام . السوسيوولوجي يلاحظ ويسجل ما هو عام وملامز للناس كلهم او لتشكيلات اجتماعية واسعة : على هذا النحو تقريبا ينظر السوسيوولوجي الى المجتمع الذي يدرسه . اما اهتمام الانثوغرافي فينصب على الملامح والخصائص غير العادية ، ولكن للشعب ، لا للفرد . اذا اطلقنا العنوان للتشبيه نستطيع القول ان السوسيوولوجيا تعالج مواضيعها وكأنها ساكن من سكان المريخ قدم الى الارض ، اما الانثوغرافي فيتصرف وكأنه محقق يقوم بدراسة ملابسات جرمية غريبة . من شأن ساكن المريخ ، ولا شك ، ان يهتم بعدد عيون الانسان اكثر من اهتمامه بلونها ، وان يعد اصابع اليد ، ولكن من المستبعد ان يهتم ببصمات هذه الاصابع . ومن شأنه ان يعير اهتمامه وانتباهه لما هو مميز للناس جميعا او لمجموعات كبيرة جدا على الاقل . وهكذا ينظر السوسيوولوجي تقريبا الى خلية المجتمع التي يبحث فيها .

اما المحقق فانه ، على العكس ، يهتم بتفاصيل المظهر

الخارجي التي تميز شعبنا معينا عن الناس الاخرين . يلزمه هنا لون العينين ونوع بصمات الاصابع وامور كثيرة اخرى ، ولكنه لن يهتم بعدد العينين الا اذا . . . اكتشف ان الانسان قاعد لاحدى عينييه ، مما يشكل عنده علامة فارقة . وكذلك تشغل اهتمام الانثوغرافي ، شأن المحقق الذي تخيلناه ، العلامات الفارقة الفارقة ولكن لشعب كامل ، لا لشخص واحد .

لا توجد ، طبعا ، مقارنة تخلو من الهنات . فليس من النادر ان يتصرف السوسيوولوجي كاثنوغرافي ، وان يمارس الانثوغرافي قضايا يمكن ان تعزى الى السوسيوولوجيا . وكلاهما يبرز من حيث الجوهر كباحث في العام وكباحث في الخاص في آن واحد ، والامر ينحصر في الصفة الغالبة على كل من الباحثين ، وفي الحقيقة الكامنة في لب دراستها .

ناخذ ، على سبيل المثال ، كتابين صدرا مؤخرا في بلادنا ، وكل منهما مكرس لبلدة كولخوزية سوفيتية . احدهما لبلدة مولدافية واسمه «كوبانكا بعد ٢٥ سنة» ، والاخر لبلدة روسية ، واسمه «بلدة فيرياتينو في الماضي والحاضر» . الاول محصلة لبحث سوسيوولوجي ، والثاني لبحث اثنوغرافي . تحدث السوسيوولوجيون في كتابهم قبل كل شيء عن ملامح حياة ومعيشة البلدة الكولخوزية المولدافية ليست مميزة لهذه البلدة فحسب ، ولا حتى للكولخوزيين المولدافيين فقط ، بل لكل الفلاحين السوفيت . اما الانثوغرافيون فدرسوا وبرزوا في فيرياتينو خصائص للثقافة والمعيشة تلازم معيشة وثقافة الشعب الروسي باسره وتميزهما عن معيشة وثقافة الشعوب الاخرى ، وكذلك بعض الدقائق الخاصة التي تميز اهل فيرياتينو عن سكان المناطق الاخرى في البلاد ، ومن بينهم سكان البلدات المجاورة .

احيانا يعرب عن رأي مفاده ان اختلافات الانثوسات عن بعضها البعض مسألة ثانوية بالنسبة الى استيضاح جوهرها . ولكن يغيب عن الانظار في غضون ذلك ان وحدة الخصائص المميزة الخارجية للروابط السلافية تشكل بعد ذاتها تعبيراً

الانثوس كرابطة

يعود الى شيروكوغوروف اول وصف مسهب للانثوس في مرجعنا الروسية . وبناء على تعريفه ، فإن «الانثوس هو مجموعة من الناس الذين يتكلمون بلغة واحدة ويعترفون باصلهم الواحد ويملكون جملة من العادات ونمط حياة تحفظه وتكرسه التقاليد التي تميز هذه المجموعة عن المجموعات الاخرى المماثلة» . لقد اقترن فهم الانثوس عند شيروكوغوروف بادراج الظواهر البيولوجية في هذه الرابطة . وينبغي القول ان هذا التصور استمر فترة مديدة .

هذا ويمكن العثور في الادبيات السوفيتية ، مثلا ، على راي مفاده تقريبا ان الانثوسات تمثل ارتقاء للوحدات البيولوجية ، اى السكان ، او انظمة تظهر نتيجة تغير فجائى . ولكن بين اختصاصيينا اجمالا يسود بوضوح تصور الانثوس بمثابة ظاهرة اجتماعية بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . والى جانب ذلك يوجد فى اطار التناول العام لفهم طبيعة الانثوس غير قليل من الاختلافات فى تعريفاته الملموسة . فبعض المؤلفين ، مثلا ، يعتبرون رابطة اللغة والثقافة سمة الانثوس الرئيسية ، ويضيف بعضهم الى هذا رابطة الارض والوعى السالى ، ويشير بعضهم ، علاوة على ذلك ، الى خصائص التكوين النفسى ، ويثوه احيانا فى اطار التصنيف نفسه بالخصائص الانثروبولوجية ، وتضاف ايضا الى اعداد السمات السلافية رابطة الاصل ، وكذلك الجنسية . ويعرب عن راي مفاده ان اية سمة من سمات الانثوس لا تعتبر حتمية . ومع ذلك يشار الى ان الانثوسات هى انظمة متكاملة ترتبط ارتباطا لا ينقسم بالعوامل الاقتصادية - الاجتماعية .

ما هو سبب الاختلافات فى وصف الحقائق السلافية فى المراجع العلمية ؟ فى رايانا ، ان الجواب عن هذا السؤال ينبغي البحث عنه قبل كل شئ . فى اعتقد مادتنا وتعدد جوانبها . فى بعض الحالات يقصد المؤلفون الروابط البيولوجية (السلافية) على وجه الحصر او بصورة غالبية ، وفى حالات

غن صلات داخلية معينة فيها . والغاصية المميزة للروابط السلافية تكمن على وجه التحديد فى كون اختلافها المتبادل يشكل خاصيتها الاكيدة التي تنطوى على مغزى تصنيفى هام . ولعله يمكن القول ان الانثوغرافيا استطاعت ان تحافظ بدرجة من الدرجات على تناول موضوعها بالشكل الذى كان ملازما لرحالة عصر الاكتشافات الجغرافية العظيمة . لقد ادهشتهم فى الازمنة الفائرة الاختلافات بين الشعوب التى اكتشفوها وتلك التى يعرفونها ، بحيث ان هؤلاء الباحثين الجريئين لم يلاحظوا تقريبا ما هو عام بين الناس المنتشرين الى هذه الشعوب وبين مواطنهم ، وحينما لاحظوه عجبوا للتشابه اكثر من عجبهم للاختلافات .

يعرف الانثوغرافيون اليوم ان الملامح المشتركة بين اناس العالم باسره اكثر من الاختلافات بما لا يقارن ، ولكنهم يدرسون بشكل خاص هذه الاختيرة بالذات . ولهذا فان الانثوغرافيا تكتنفها الى الان حالة من السحر ، مع انها لا تقتصر ايدا على دراسة الشعوب البعيدة ، واهتمام الانثوغرافيين بالروس والعرب والايطاليين لا يقل عن اهتمامهم باليابوسيين . وليس ثمة ما يدعو الى العجب فى كون هذا العلم قد احتفظ بالقوة التي ورثها عن طفولته ، القدرة على ان يدهش ويندهش ، وهى قدرة مميزة ، فى نهاية المطاف ، لكل علم حقيقى ، حى . وسوف نتذكر ايضا انه حتى ولو بدا للكثيرين اليوم ان الفيزياء والرياضيات هما اعقد العلوم ، فان العلوم التى تدرس الانسان ليست فى الواقع اقل تعقيدا ايدا ، ان القضايا التى تواجهنا ليست ، بالطبع ، اقل جدية ايدا . ان اكتشافات علم التاريخ اجمالا ، والانثوغرافيا جزء هام منه يتمتع بكامل الحقوق ، تمارس فى حياة البشرية تأثيرا جبارا لا يقل ايدا عن اكتشافات العلوم الدقيقة .

ومعروف منذ زمن بعيد انه بدون دراسة الغاص يستحيل فهم العام والمبدئى . واذا يدرس علمنا الغاصية السلافية لهذا الشعب او ذاك ، يؤدى قسطه الذى لا يستغنى عنه فى معرفة الانسان والبشرية والتاريخ .

غيرها يقصدون ايضا الروابط البيولوجية والاجتماعية ، وفي حالات اخرى الروابط الاجتماعية . في بعض الحالات يقصدون شعوب العالم كلها ، وفي حالات اخرى لا يقصدون سوى تلك التي في درجة بدائية من التطور او الجماعات المنعزلة التي تشكل شعوبا . اما في الحالات التي تؤخذ فيها مواد متجانسة نسبيا لظواهر الخصائص المميزة للوحدات السلالية ، فإن التباين في تعريف هذه الخصائص ناجم الى درجة كبيرة عن تعقد هذه المواد نفسها . وتؤثر ايضا الاختلافات في تناول كيفية حل مهمة اظهار خصائص مواد البحث ، ولا سيما تلك التي يمكن اعتبارها نموذجية الى الحد الاقصى .

فما هي روابط الناس التي يمكن عزوها الى الانثوسات - الشعوب ؟ وما هي صفاتها المميزة ؟ ان احدي هذه الصفات ، والتي ربما كانت اكثرها وضوحا ، هي ما يلي : كل من الانثوسات - الشعوب يملك سمة جليلة واكيدة هي التسمية التي يطلقها على نفسه وما يرافقها من اسم خاص به ، الانثونيم . نونه - التسمية الذاتية على وجه التحديد . وذلك لان الاسماء التي تطلقها الشعوب الاخرى على الانثوس لا يندر ان تختلف الى حد بعيد لا عن الانثونيم - التسمية الذاتية - فحسب ، بل عن بعضها البعض ايضا . اذ ان الانثوس ذي الانثونيم الدائلي «ووتش» ، ومثلا ، يسمى بالروسية «فيمتسي» ، وبالفرنسية «المان» ، وبالانكليزية «جيرمان» ، وبالايطالية «تيديسكو» وبالفنلندية «سكسالانين» وبالصربية «شغاب» الخ .

والى جانب ذلك يجب ان يؤخذ في الاعتبار ان كلمة «الشعب» يمكن ان تطلق على مجموعة الناس ذات التسمية الذاتية حتى وان كان توزيعها لا يتطابق بهذه الدرجة او تلك مع حدود الدولة الواحدة ، حيث تتجاوز اطارها او تعيش في جزء منها فقط . وثمة هنا احتمالان اساسيان : (أ) حينما تعود التسمية الذاتية للمجموعة الى اسم الارض التي تعيش فيها ، اى حينما تكون طوبونيا : (ب) حينما تعكس التسمية الذاتية للمجموعة الطابع السلالي ، اى حينما تكون اثنونيميا .

كفكيف نميز بين الانثونيمات والطوبونيمات والبوليتونيمات ؟ يبدو ان رسموخ التسمية الذاتية يشكل في هذه الحالة احد المؤشرات الاساسية . اذ ان لشعوب العالم ، كما هو معروف ، روابط راسخة للغاية تحل التسمية الخاصة ذاتها على امتداد اجيال عديدة . ولعله من المميز بشكل خاص في غضون ذلك تلك الحالات ، حينما يعيش بعض اجزاء هذه الرابطة لمد طويل بعيدا نسبيا عن نطاق اقامته الاولى لهذا السبب او ذاك . اذا كانت هذه المجموعة من الناس تحافظ على تسميتها الذاتية بنيت ومن جيل الى جيل ، تكون هذه التسمية الذاتية اثنونيميا على الارجح ، وتكون المجموعة المعنية اثنوسا .

والى جانب ذلك ، فان جوهر الانثوسات لا يقتصر ، طبعاً ، على تسميتها الذاتية مهما كانت راسخة . ولهذا يجب لفرزها من بين الروابط البشرية الاخرى معرفة ما الذي يوجد اناس الانثونيم المعنى الى جانب هذه السمة الخارجية البحث . ان توفر اسم ذاتي - اثنونيم واحد يفترض وعيا ذاتيا لدى كل من الروابط التي تبحث فيها .

وبالفعل ، فحتى في تلك الحالة اذا كانت ، مثلا ، جماعات من الاسبان والصينيين والفرنسيين تعيش في بلدان مختلفة ، فان كلا من هذه الجماعات تعي رابطتها المعينة . وممثلو كل من هذه الجماعات يميزون انفسهم عن افراد كل الروابط المماثلة الاخرى ، وهم يتسمون في هذا الخصوص بتصور التعارض بين «نحن» و«هم» (بما في ذلك التصور المبتذل ، العادي) .

لا تصعب ملاحظة اننا لا نزال نتحدث عن التجليات الذاتية لخصائص الانثوس . وقد يتكون انطباع ان امامنا معايير متداخلة له ، ولا سيما اذا راعيننا في غضون ذلك الطابع الكيفي بدرجة من الدرجات لتجديد الناس انتباههم الى هذا الانثوس او ذاك . احيانا نجد الشخص ذاته يعزو نفسه الى هذا الانثوس مرة والى ذاك مرة اخرى ، كان يعزو نفسه الى الليتوانيين مرة والى البيلوروسيين مرة ثانية . بيد ان

هذا «الطابع الكيفي» مردّه في هذا المثال الى ان ذلك الشخص يملك بهذه الدرجة او تلك خصائص كلا الانثوسين اللذين يعزو نفسه اليهما ؛ ومن المميز ان هذا الانسان لا يضع نفسه ابدا في عداد اى انثوس ثالث .

ان تصورنا الامر هو ان الوعي السلاي ، شأنه شأن اى شكل آخر للوعي ، ظاهرة ثانوية ناجمة عن عوامل موضوعية . ومن الخطا جعل جوهر الانثوسات يقتصر على الوعي بصورة غالبة او على وجه الحصر ، فترك جانبا او لا نراى كما يجب الوجود الفعلي لهذه الروابط الذى يعكسه . لا تظهر الانثوسات وفقا لرادة الناس ، بل نتيجة التطور الموضوعى للعملية التاريخية . وهى تشمل اجيالا عديدة من الناس ، اى ان رسوخ جذور الانثوس هو من اكثر صفاته تميزا .

ان الانثوسات مقولة تقوم على المقارنة ، وتكمن فى اساس هذه المقارنة خصائص الانثوسات - الشعوب الموضوعية التى توجد بصورة مستقلة عن رغبات افرادها الذاتية .

واذ نتقل الى ايضاح هذه الخصائص الموضوعية نفسها للانثوسات ، نبدا باحدى اكثر المسائل تعقيدا : ما مدى حتمية رابطة الارض كوسط طبيعى للحياة بالنسبة الى معيشة الانثوسات ؟ ينبغى لدى حلها التحديد الواضح لوحدة الارض كشرط لظهور الانثوس وكعامل وجوده ، اى من الناحية التاريخية . واذا تبرز وحدة الارض بمثابة اهم شرط لتكون الانثوس ، لا تعود فى تطوره التاريخى اللاحق عاملا حتميا لا مفر منه لتجديد خصائصه المميزة .

وليس من النادر ان نرى اصحاب الانثونيم الواحد ، حتى وان كانوا يعيشون متباعدين ، يحتفظون من جيل الى جيل بانتماهم السلاي (مثل الارمن فى الاتحاد السوفيتى وسمورية والولايات المتحدة الامريكية الخ . ، والاوكرانيين فى الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا وكندا الخ .) .

على الخارطة المفصلة للتقسيمات الادارية فى الاتحاد السوفيتى ترون ، ضمن اراضى اذربيجان السوفيتية ،

مقاطعة ناغورنى كاراباخ ذات الحكم الذاتى التى يشكل فيها الارمن اغلب السكان . اما فى جمهورية نوحيتشيفان ذات الحكم الذاتى فيشكل الاذربيجانيون اغلب السكان ، رغم ان اراضى ارمينيا تفصلها عن الجزء الاساسى من اذربيجان . وضمن روسيا الاتحادية تقع الجمهورية الاوسيتية الشمالية ذات الحكم الذاتى ، وضمن جورجيا السوفيتية تقع المقاطعة الاوسيتية الجنوبية ذات الحكم الذاتى . لقد اصبح الشعب الاوسيتى تاريخيا منقسما الى جزئين استقرا على جانبى سلسلة القفقاس الجبلية الكبرى . وشعبا مياو وياو مشتتان فى جنوب الصين ، وفى فيتنام ، وفى لاوس ، وهما يعيشان فى هذه البلدان كلها على شكل جزر وسط محيط السكان الاساسيين .

وقد يغير الشعب ارضه على امتداد تاريخه كله . فالكالميكيون كانوا منذ اربعة قرون فقط يعيشون فى وسط آسيا ، اما الان فيعيشون فى منطقة مجرى الفولغا الاسفل ، وغير الانثوس المجري فى خلال الالف وخمسمئة سنة الاخيرة اراضى اقامته اربع ، وربما خمس ، مرات .

قد يبدو للوهلة الاولى انه تاتى ضمن الصفات الخاصة للانثوسات الخصائص المميزة الخارجية لمنط الناس الجسدى ، اى السمات العرقية (الانثروبولوجية) . وليس من النادر ان تشكل هذه السمات الواضحة والناطقة والمميزة فى الممارسة الحياتية نقطة انطلاق ومؤشرا اوليا لدى تقرير مسألة الانتماء السلاي لهذا الشخص او ذاك . ولهذه المجموعة من الناس او تلك .

اما فى خصوص التفسير العلمى لهذه القضية فيلفت النظر الظرف التالى الذى لا يخلو من تناقض معين . ففى مؤلفات بعض العلماء ، مثلا ، يشار احيانا الى ان اغلبية شعوب العالم تملك فى داخلها بنية عرقية متجانسة فى الغالب . وتتنوع جملة من المؤلفات الاخرى بشأن النمط الجسدى ، العرقى لعدد من الروابط السلاية ليس متجانسا كقاعدة عامة ، وبالتالى تتحدث عن ضرورة التفريق الصارم بين

الاجناس والاثنوسات . والمقصود فى الحالة الاولى هو الاجناس الكبرى بصورة رئيسية .

وبالنسبة الى الخصائص الجسدية الخارجية التى تتسم بها الاجناس الكبرى ، فانها ، كقاعدة عامة ، لا تبرز بمثابة سمات مميزة بشدة للاثنوسات المجاورة . لا توجد حدود انتروبولوجية دقيقة بين الشعوب - الاثنوسات المتجاورة المنتمية الى احد الاجناس الكبرى . ان كلا من الاجناس الكبرى يملك مناطق شاسعة جدا تشمل عادة عددا كبيرا من الاثنوسات ذات القربى من وجهة نظر جذورها التاريخية . وهكذا فان ٥٨٪ من مجيوع الناس المتحدثين من الشعوب الهندية الاوربية ينتمون الى الجنس الاوروبى .

ولوحظ بعض التنوع فى الانماط العرقية الاساسية بين شعوب الاسرتين اللغويتين السامية - الهامية (الافريقية الاسيوية) واللاتينية ، ولكن هاتين الاسرتين لا تشكلان سوى نسبة تروى قليلا على ٣٪ من البشرية جمعاء . وينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار كذلك ان قرابة ٣٠٪ من سكان العالم ينتمون الى مجموعات مختلطة وانتقالية من الناحية العرقية ، وهذا ما يصعب للغاية وبصورة موضوعية تماما صياغة المعايير الانتروبولوجية بمثابة سمات سلائية مميزة . واخيرا ، لا بد من التذكير بان عددا من الاثنوسات مكون من اناس ينتمون الى اجناس مختلفة (اغلبية شعوب اميركا اللاتينية مثلا ، وفى البرازيل يعيش الى جانب الناس ذوى النعم الاوربى - الهندى - الافريقى اوربيون نموذجيون وزنوج صرى) . ان استعالة النظر الى الاختلافات العرقية كاختلافات سلائية امر واضح فى هذه الحالات .

وفى الوقت نفسه نجد ، على العكس ، ان الاختلافات الخارجية العادة بين اناس شعب واحد ليست ابدا بالامر النادر . ويكفى ان نتذكر الزوج الاميركيين الذين يشكلون ، فى رأى اغلبية العلماء ، جزءا لا يتجزئ من الامة الاميركية شأن اخلاف الانكليز والاييرلنديين والفرنسيين والايطاليين والسويديين المقيمين فى الولايات المتحدة الامريكية .

فالسكن المتوسط فى جنوب المانيا - بافاريا - هو اقتم لونا واعرض وجها واقصر قواما من الشمالي . ونسبة الشقر بين الالمان الشماليين اعلى بكثير مما فى بافاريا . والصينى من المناطق الشمالية الغربية فى البلاد يميز بسهولة عن صينى ساحل بحر الصين الجنوبى بلامح وجهه فقط .

فى اراضى صغيرة من افريقيا الوسطى تعيش بصورة متداخلة ثلاثة مجموعات من الناس تتكلم بلغة واحدة ، لغة الاورونيا رواندا ، وهى ، فى رأى بعض العلماء ، على وشك الاندماج فى قوم واحد ، مع انها مجموعات لاناس مختلفين اشد الاختلاف من حيث المظهر : انهم اقزام باثقا الاقوياء البنية القصار القامة والباوتوسى ذوو القامة الطويلة الى درجة خارقة والوجوه الطويلة واناس قبيلة الباخوتو الذين لا يتسمون ابدا بطول القامة على الخلفية العامة للبشرية . وما الطول ، طبعاً الا احدى الخصائص الكثيرة التى تميز بين هذه المجموعات الثلاث .

لدى تطور الاثنوس يزول بالتدرج ، فسى الاغلب ، الاختلافات العرقية العادة فى داخله .

اليكم ما يقوله العالمان السوفييتيان تشيبوكساروف فى كتابهما «الشعوب ، الاجناس ، الثقافات» : «ان الاختلافات والفروق بين «الببيض» والهنود والزنوج والهجناء والخلاسيين تنمى بصورة متزايدة باطراد فى الكثير من بلدان اميركا اللاتينية . وعلى مرأى العين يتكون ، مثلا ، النظم البرازيلى . ولا مجال للشك فى ان البرازيلىين لن يكونوا بعد عدة اجيال اقل تجانسا من الانكليز او السكاندينافيين من الناحية العرقية» .

السبب مفهوم . فالناس ، الذين يشكلون الشعب ، يتزوجون بعضهم البعض اكثر مما يفعل ممثلو الاثنوسات المختلفة . ومن العوامل الهامة التى تفعل فعلها فى اثناء ظهور الشعوب وتطورها ما يسمى بالاندوغامية ، اى التزاوج داخل الاثنوس الواحد .

وهكذا ، فان لا توجد اسس كافية ، كما يبدو من وجهة

النظر العلمية ، لادخال المعايير الانثروبولوجية فى عداد اهم صفات الانثوس الميدنية . ومن الواضح ان لهذا اهمية لدى تناول المسالة من الناحية التاريخية اذ ان التشكيلات العرقية سبقت الروابط السلالية نفسها .

سيتجلى الموضوع الذى ننظر فيه على نحو مغاير بالمرة ، حينما نتوجه الى خصائص الثقافة او ، بصورة اوسع ، الى ما يمكن تسميته بالملامح السلالية لنمط حياة الشعب .

اين يمكن هذا النمط الخاص ، المتفرد لحياة كل شعب - انثوس ، وكيف تتبدى الخاصية السلالية فى الثقافة بالمعنى الواسع لهذا المصطلح ؟ واين تتجلى ؟ انها تتجلى فى الكثير جدا ، وفى الثقافة المادية بصورة رئيسية ، ولا سيما فى كيفية عمل الناس ونوعية الادوات التى يستخدمونها فى غضون ذلك .

ليس مقعدا «تصميم» المحراث ، احدى اقدم ادوات الفلاحة التى كان فلاحو اوربا الشرقية يزعمون بها الارض على امتداد قرون طويلة . ولكن توجد العشرات من انواع هذه المحارث . والفرق فى انماط الاداة الواحدة مردّه الى الاختلافات فى ظروف العمل نفسها . لقد كان صانعو المحراث يكتفون ، مثلا ، مع خصائص التربة المميزة لمنطقتهم . واذا ياخذ الانثوغرافى هذا فى الاعتبار ، ينظر الى نتائج هذا التكيف كعلامات خاصة جوهرية مبدئية للشعب ، لا انما أسلوب انتاج الخيرات المادية يمكن فى اساس حياة الشعب .

ان المساكن التقليدية المتميزة لدى مختلف شعوب العالم اهم عنصر للثقافة المادية . هنا نجد بيوتا على الاوتاد (مثلا ، عند عدد من الملاينيزيين والميكرونيزيين) ، ومساكن عائمة (مثلا ، عند الاورانغ لاوتين وبعض الشعوب الاخرى فى جنوب شرقى آسيا) ، ومساكن متنقلة - يورات ، تشومات ، تاي (عند رحل آسيا الوسطى وشعوب الشمال وهنود البريرى) ، وبيوتا ابراجا (عند شعوب القفقاس وعدد من الشعوب العربية وبعض شعوب افغانستان) ، ومساكن من التلج - ايفلو (عند «اسكيمو القطب») وما شابه ذلك .

سنقوم بجولة عبر التاريخ ضرورية لمادتنا . فى السابق كان الفلاحون الروس فى كل الظروف تقريبا يبنون تقليديا بيوتا من الخشب ، حتى ولو انتقلوا الى مناطق تخلو من الغابات . فى التوندرا القطبية كانوا يبنون البيوت من جذوع الاشجار العائسة قرب الضفة . اما النازحون من وسط روسيا الى جنوب كازاخستان واوزبكستان وكوبان ، فغالبا ما كانوا يعيشون طويلا فى مساكن مدفورة فى الارض ، مدخرين النقود باصرار لبناء مسكن من خشب . وفى جنوب اوكرانيا لم ينتقل الفلاحون الروس النازحون الا بالتدريج وفى بعض الاماكن قفط الى مادة بناء جديدة بالنسبة اليهم ، وهى اللبن ، وذلك تحت تأثير السكان المحليين القدماء .

وفى القفقاس كان البلقاريون يبنون بيوتا حجرية من طابق واحد ، الاوسيتينيون والشاشان والانغوش بيوتا من طابقين او ثلاثة ، وذلك رغم الظروف الطبيعية المتشابهة . تمس الاختلافات بين الشعوب بنية الطعام المستهلك واساليب طهوه . وهكذا ، فان منتجات الزراعة تشكل اساس الطعام عند بعض الشعوب ، واللحم عند بعضها الاخر ، وهناك شعوب اختيرواغاية ، اى تستهلك فى غذائها السمك بصورة رئيسية . وانه لمعروف جيدا وجود محرمات عند الكثير من الشعوب تمنعها من تناول بعض اصناف الطعام . مثلا ، لا تاكل غالبية شعوب الهند لحم العجل ، ولا تاكل الشعوب التى تعتنق الاسلام واليهودية لحم الخنزير ، وبعض الشعوب لا تتناول تقريبا الحليب فى طعامها ، مثل المونغيريين .

ان الاشكال القومية للغذاء التقليدى ثابتة للغاية . وحتى الاتجاهات المعاصرة للتقريب بين الاطعمة تتطور فى اطار نماذجها القومية بصورة رئيسية . والتقاليد المتكونة باقية على نحو راسخ بشكل خاص فى غذاء سكان الريف ، ولكن غذاء سكان المدن ، على الرغم من التحولات الملحوظة فيه تماما لا يزال تقليديا بصورة عامة .

وليس من النادر حتى فى المدن الكبيرة ان يؤكل الخبز التقليدى بالنسبة الى منطقة معينة ، فالارمن والاذربيجانيون

يجبون كالسابق الخبز المشروح والرقيق كالورق ، وفي آسيا الوسطى ياكلون الارغفة المألوفة . . .
هذه التقاليد فى الطعام ذات «صبغة» سلافية وصفة تاريخية فى الوقت نفسه .

عرفت البطاطا فى بيلوروسيا منذ حوالى مئة وخمسين سنة ، ولكن هنا بالذات تحضر من البطاطا اصناف متنوعة كثيرة بشكل خاص ، وبيلوروسيا هى المكان الوحيد فى كل كوكبنا الذى يعرف فيه شئ اسمه عصيدة البطاطا . لم يبدأ الشاى والقهوة بالتسرب فى اوربا الا فى اواخر القرن السابع عشر ، وموقف سكان مختلف البلدان الاوربية منها ينطوى بوضوح على خصائص قومية . فى فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ، مثلا ، لا يشربون الشاى تقريبا . وفى لانغيا وليتوانيا واستونيا وارمينيا تستهلك القهوة «مقابل» الفرد من السكان اكثر بكثير مما فى المناطق الاخرى الواقعة فى الجزء الاوربى من الاتحاد السوفييتى . والانكليز يشربون الشاى دائما تقريبا مع الحليب .

ان الملابس عنصر هام للثقافة المادية . فبالطاقة وحدها كان يمكن عند الاوربكيين ان يحدد المرء بلا خطأ المكان الذى نشأ فيه الشخص . والى الآن يمكن عند بعض شعوب الهند الصينية ان يعرف عن طريق ملابس المرأة المكان الذى اتت منه الى المدينة الكبيرة . ولا تزال بعض قرى بامير الجبلية تحتفظ بالملابس المميزة لها وحدها .

تعدو الان ملابس مختلف الشعوب متشابهة اكثر واكثر وتفقد طابعها السلاوى . فالاحذية الروسية تدخل ازيا، فرنسا ثم تاتى الى الاتحاد السوفييتى كزى فرسى جديد . ويقوم بجولة منتصرة ناجحة فى العالم الجاكيت والبنطال عند الرجال ، والتئورة والثوب والبدلة ذات البنطال عند النساء . اما الملابس القومية فتعدو فى حالات كثيرة ، كما فى منطفة البليطيق او العراق مثلا ، مجرد ملابس للاعياد .

وكذلك تختلف بشكل جوهري عند شعوب العالم المعيشة العائلية وعادات وطقوس الزواج . فالى جانب الاسر المونوغامية

(وحدانية الزوجين) المنتشرة حاليا لدى السواد الاعظم من البشرية ، لا يزال يوجد الى الان لدى بعض الشعوب سواء البوليفامية (تعدد الزوجات) او البولياندرية (تعدد الأزواج) .

ان مراسيم الزواج متنوعة للغاية . عند بعض الشعوب (مثلا ، عند قبيلة البونانيين فى جزيرة كاليمنتان) يكفى لعقد الزواج ان يعلن العريس والعروس بحضور شيخ العشيرة اتقاكما المتبادل على الزواج ، ولدى بعض الشعوب (مثل قبيلة كوشى فى افغانستان) قد تستمر مراسيم العرس يومين ، وعند شعوب اخرى (بعض شعوب الهند) تستمر ثمانية ايام . والى جانب الاعراس المميزة لاجلبية الشعوب الاوربية والتي لا يحضرها الا اقرب الاقرباء والمعارف ، فان بعض الاثنوسات (كما هو الامر عند عدد من شعوب القفقاس) تدعو الى العرس ، حسب التقليد ، مئات الضيوف .

وتختلف مراسيم الطلاق ايضا : عند الشعوب ذات الديانة الكاثوليكية الزواج لا ينقصر ، وعند الشعوب التى تعتنق الاسلام يكفى للطلاق ان يعلن الزوج هذا لزوجته .

فى مجال الثقافة الروحية تعتبر اللغة ، بدون براهين خاصة ، طبعا ، اهم سمة مميزة للاثنوس . انها تشكل الوسيلة الاساسية للاختلاط بين افراد الاثنوس ، وفى الوقت نفسه تفصلهم عادة عن ممثلى كل الاثنوسات الاخرى او اغلبيتها على الاقل .

بيد ان الانكليز والاستراليين ، مثلا ، يتكلمون بلغة واحدة ، هى الانكليزية . ويتكلم بها ايضا سكان الولايات المتحدة الاميركية والعدد الاكبر من الكنديين وسكان جزيرة جامايكا فى اميركا الوسطى والنيوزيلانديون والسواد الاعظم من الايرلنديين .

ومع ذلك فهم جميعا شعوب مختلفة .

لقد جرى فى النروج امر اثار الدهشة . فهناك ثلاث لغات نروجية ، وان لم تكن والحق يقال تختلف بشدة عن

بعضها البعض . ويستحيل القول إنها ثرجية «أكثر» وإنها «أقل» .

وفي الاتحاد السوفيتي تتكلم الآن مجموعات الشعب الموردي في المختلفة بثلاث لغات من حيث الجوه : بعضهم باللغة الموكشانية والبعض الآخر بلغة الارزيا ، والآخرين ، مع بقائهم مورديين ، يقيمون ثقافتهم القومية الخاصة ، مستخدمين اللغة الروسية التي أصبحت بالنسبة اليهم اللغة الام والوحيدة . والكثير من الكاريبيين ايضا يتكلمون ويكتبون بالروسية فقط .

وتحدث حالات أكثر مدعاة للدهشة . ان الايرلنديين الحاليين يتكلمون الانكليزية باغليهم ، والقلائل منهم فقط ما زالوا يستخدمون اللغة التي كان يتكلم بها كل الايرلنديين منذ حوالي ثلاثمئة سنة . ومع ذلك فهم شعب واحد .

ان وجهة النظر ، التي لا تراعي الا الدور «الداخلي» لرابطة اللغة كسمة سلافية ، لا تلائم الحالات التي يتكلم فيها مثلث شعب واحد بلغات مختلفة . ويحاولون عادة ازالة التناقض الذي يظهر في غضون ذلك بالتذرع بندرة هذه الحالات . ولكنها في الواقع ليست ، كما رأينا لتونا ، نادرة الى هذه الدرجة ، وتسير لتكمل الصورة الى البشكيريين والايفينكيين الذين يعتبر عدد كبير منهم اللغة الروسية لغتهم الام . و«رابطة» اللغة بالمعنى الكامل للكلمة تنعدم لدى الاوكرانيين السوفيت ، حيث يتكلم ثمنهم باللغة الروسية . ولا يجوز ان نسقط من الحساب تلك الحالات ايضا ، حينما يتكلم اجزاء الشعب الواحد بلهجات متباينة جدا . وهذا ما ينطبق ، مثلا ، على الالمان ، وبشكل خاص على الصينيين الذين لا تفهم مجموعاتهم الشمالية والشرقية والجنوبية بعضها البعض .

ليس من النادر ان يتقن الجزء الاساسي من الانثوس اللغة التقليدية بالنسبة اليه ، في حين ان مجموعة سلافية انضملت عنه وتعيش في وسط قوى مغاير تنتقل الى لغة هذا الوسط .

وباختصار ، اذا انطلقنا من فكرة «رابطة اللغة» كسمة

سلافية الزامية ، فان الكثير من الشعوب «يفقد حثه» في هذه التسمية تلقائيا .

ومع ذلك فان اللغة تشغل ، في رأى الاغلبية العظمى من الاختصاصيين ، اهم مكان بين سمات الشعب الاساسية ، ويستحيل الاعتراض على هذا رغم كل الاستثناءات . وفي الحالة التي تتكلم فيها عدة اثنوسات بلغة واحدة (الانكليزية ، الاسبانية ، البرتغالية ، الصربية الكرواتية الخ .) ، فان كل اثنوس ، كقاعدة عامة ، يدخل خاصيته في هذه اللغة . وقد تلخص في ابجدي او قواعد كتابسة مغايرة ، في الخصائص الفونيتيكية ، في المفردات ، في العبارات الخاصة والاوقال الماثورة ، ولكنها موجودة عادة في هذا الشكل او ذاك . وتتسم الاسبانية الارجنتينية والبرتغالية البرازيلية بخاصية واضحة وبتفرد واضح وهما تشجعان بدرجة معينة . ترتبط الوحدة الثقافية لاراد الانثوس ارتباطا وثيقا ببعض خصائص نفسيتهن ، واسلاما بتلاوين واسلوب تجلي الخصائص الانسانية العامة لنفسيتهن . وهذه الخصال المميزة تشكل في وحدتها ما يسمى بالطابع السلافي (القومي) .

وفي ميدان الثقافة يعتبر اغلب الانتوغرافيين المعتقدات الدينية سمات سلافية ذات شان . وبالفعل ، توجد حالات تضطلع فيها الاختلافات الدينية بدور واضح لا شك فيه . مثلا ، يتكلم الكرواتيون والصربيون والبوسنيون في يوغسلافيا بلغة واحدة ، ولكن الكرواتيين كاثوليك ، والصربيين اوثوذكس ، والبوسنيين مسلمون ، فينظر الى الكرواتيين والصربيين والبوسنيين كثلاثة شعوب مختلفة ، يبدو ان الاس ممتنع جدا . بيد انه توجد في يوغسلافيا ، على اي حال ، مجموعات صغيرة من الصربيين الكاثوليك والكرواتيين الارثوذكس .

اما العرب اللبنانيون فجزؤهم مسلمون وجزؤهم الآخر مسيحيون ، بالاضافة الى انهم من مختلف الطوائف . بيد ان هذا لم يجعلهم ينقسمون الى شعوب مختلفة .

وفي الاختلاط بين الناس يتجلى التفرد السلافي في كل

خطوة تقريبا . ومن الامثلة النموذجية البلغار الذين ، خلافا للاغلبية الساحقة من شعوب العالم ، يعنى عندهم من الراس من الاعلى الى الاسفل النقى ، ومن اليسار الى اليمين الايجاب . انها خاصيتهم السلافية .

الاوربيون يصنفون علامة للجزن وخيبة الامل .
الصينيون يصنفون علامة للجزن وخيبة الامل .

ان الروس يبين محدته اذا قضى راحة يده وجعل الابهام يبرز من بين السبابه والوسطى . اما عند اليابانيين فتعنى الحركة نفسها اقتراحا بذينا .

يبدو ان التكى لم تظهر منذ امد بعيد ، ولكن الناس فى الولايات المتحدة يوقفونها برفع الابهام ، وفى الجزء الاكبر من روسيا يوقفونها برفع اليد من الكتف الى الاعلى ، وفى جورجيا يرفعون اليد الى مستوى الكتف ثم يسقطونها على الفور .

ان الروس ، اذ راوا الاوربيين يدخلون غرفة السكن يراس مكتشوف وبجذ الطريق ، قالوا يوما : الراس فى الحمام والقدمان فى الطريق .

ان رحالة اوربيا متنكرا ، كان يظن انه يعرف عادات الشرق على نحو ممتاز ، انكشف فى القرن الماضى بين حشد من التجاج المسلمين لسبب واحد ، وهو انه كان يتابع ايقاع الموسيقى بقدمه ، ووشى برحالة اوربي آخر فى حالة مماثلة واقع انه لم يبدأ خطوته الاولى فى الصباح بالرجل نفسها التى يبدأ بها الآخرون خطواتهم هذه .

هذه الامثلة كلها قديمة تعود الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بالإضافة الى نكتها غير المألوفة . ولكن اليكم هذا الحديث من رواية بقلم كاتب امريكى تعود الى الستينات :

«قال فجأة : اعذرونى ، من فضلكم ، ولكن لا بد من ان اطرح عليكم سؤالا . انه يعدبنى منذ بداية الرحلة . اخبرونى ، لماذا يفسسل الاميريكون ايديهم بالماء القذر دائما ؟ لا استطيع ابدا ان افهم هذا» .

هذا ما يقوله فى رواية ميتشيل ولسون «لقاء فى ارجاء بعيدة» الغزيانى الروسى غوتشاروف الذى قدم لاول مرة الى الولايات المتحدة لحضور مؤتمر علمى . ويقسول هذا لفزيانى امريكى . فيجب الاخير : «ولكننا لا نفسل ايدينا بالماء القذر» . «المعذرة ، بل تفسلون ! النظافة تعنى عندنا الغسل بماء جار . بلابلع مغاسلنا لا تغلق ابدا . اما عندكم تكل البلاليع مزودة بسدادات ، وما ان تبدأ بالغسل حتى تصبح المياه اقذر واقذر . ولما كانت عندكم حفيات منفصلة للماء البارد واخرى للماء الساخن ، لا يتسنى ابدا التوصل الى حرارة ممثلة ، واذا اردت ان تغسل بالماء النقى عليك ان تنتقل باستمرار من الغليان الى الجليد . او ان الماء فى اميركا كان شحيحا على الدوام ؟ كلا ، لا استطيع ان اصدق ان مثل هذا البلد المتطور ، المتحضر يعانى نقصا فى المياه» . وباختصار ، تغفل فى معيشة كل بلد خصائص سلافية بالذات ، وليس من النادر الا استطيع ملاحظتها وفهم مغزاها الا انسان غريب .

ينبغى التنويه بان خصائص سلافية معينة بوسعيها ، اذ تميز الاثنوس عن بعض الشعوب ، ان تكون مشتركة مع اثنوسات اخرى او وحدات سلافية اصغر .

انها لكبيرة شحنة الخصائص السلافية فى الفن الشعبى . وبعض انواع الفن لا وجود لها عموما الا عند شعوب قليلة . اذ ان سكان الشمال السوفييتى ، الخانتيين والماسى ، مثلا ، يضغطون باستانهم على لواء البتولا فتنتطمع زخارف جميلة جدا . وتعتز بعض البتاح بهذه المناذج للقاء ، فى حين لا وجود لهذه الانواع من الفن التشكيلى عند الشعوب الاخرى .

ولكن حتى فى انواع الفن المنتشرة بين الجميع تتجلى الفوارق السلافية على نطاق واسع جدا . فالموسيقى الصيفية والكازاخية والهنديّة الجنوبية والاسترالية تختلف بشدة عن بعضها البعض ، وتختلف عن الموسيقى الاوربية بحيث يحتاج الامر الى اعتياد طويل او اعداد خاص ليتذوق الموسيقى الغربية كفن فعلا ، لا كواقع طريق . ولكن حتى حينما يكون الفن

سهل الفهم بالنسبة للجميع بدون اعداد خاص ، ليس من النادر ان تكون ملامحه السلافية بادية للعيان .

يستمتع الفرنسيون بحماسة الى الاغاني الشعبية الروسية والاوكرانية ، ويجب الناس في بلادنا الشانسونيه المشهورين من ضفاف السين ولوار - ولكن اليس واضحا الطابع القومي للاتاني الروسية والاوكرانية والفرنسية ؟ وبالمنااسبة ، لعلنا ، اذ نتحدث عن الشانسونيه الحاليين ، نقترح ميدان فن محترف وان حافظ من نواح كثيرة على الاخلاص للتقاليد الشعبية .

ان التفرد السلافي يتجلى في الفن المحترف ايضا . وعلاوة على ذلك ، اخذ دور الفن المحترف كميدان لتجلى الخصائص السلافية ينمو بسرعة في القرن التاسع عشر ، وفي القرن العشرين بشكل خاص .

يبدأون عادة عرض الخصائص السلافية من الانتاج ، ومن أدوات العمل . ولكن مع تطور العلم والتكنيك تفقد وسائل الانتاج في عدد متزايد من البلدان صبغتها القومية . خلافا للمعرات يستحيل القول عن التراكور والحصادة انهما بولنديان او روسيان . والان لايتضمن التفريز والغزل والنقب خصائص بارزة بوضوح يمكن تفسيرها بالخصائص القومية للناس الذين يصنعون هذه الالات . والامر نفسه ينطبق على افران مارتان والمناشير الكهربائية والاشياء الكثيرة الاخرى التي لم يعد لاثنوغرافى شأن بها .

ويجرى الامر نفسه ، وان كان ببطء اشد ، مع مواد الاستهلاك ، وتكفى الإشارة الى الملابس التي سبق وتحدثنا عنها . اما الفن فيبقى قوميا ، ونظرا لتقلص الخاصية السلافية في الثقافة يضطلع بدور متزايد الاهمية بالنسبة الى الوعي الذاتي القومي .

لقد لوحظ منذ امد بعيد ان ايا من عناصر الثقافة لا يشكل سمة سلافية مميزة حتمية . في بعض الحالات يعود الدور الرئيسي في هذا الخصوص الى اللغة ، وفي حالات اخرى الى الدين ، وفي حالات تالسة الى ملامح السلوك المميزة الخ .

وليس مصادفة ان كل المحاولات لابرار سمة سلافية مميزة اساسية واحدة الزامية لكل الحالات قد منيت بالافراق . وهذا ما يشكل احيانا مسوغا لتجاهل الثقافة اجمالا كعاملية للخصائص السلافية . في حين ان هذا في الواقع مجرد شهادة على ان الاثنوس ليس عنصرا للثقافة على حدة ، بل هو ، كقاعدة عامة شئ متكامل معين يكشف الكثير من عناصره المكونة ، بهذه الدرجة او تلك ، عن ملامح خاصة واسعة . وهذا بالذات ما يميز الاثنوس عن روابط الناس الراسخة الاقرب اليه من حيث طابعا مثل الرابطين اللغوية والدينية . واذا كانت اللغة والاثنوس ، التقسيم اللغوي والتقسيم السلافي ، مثلا ، تتطابق دائما لفقد ، على ما يبدو ، تمييز هذه المفاهيم مغزاه ، والامر نفسه ينطبق على العلاقة بين الاثنوس والدين .

من بين الادوار العديدة التي تؤديها الثقافة يبدو من الصواب ابراز وظيفتها السلافية بشكل خاص .

ان نقل معلومات الثقافة السلافية ، شأن المعلومات الاخرى في المجتمع البشرى يجري باشكل مختلفة : من خلال نتاج الثقافة المادية والروحية ، وعن طريق الایمادات وما شابه ذلك . ولكن الشكل الرئيسى لهذا النقل هو اللغة - الاعلام الكلامي (التشوي او الكتابي - الادبي) . ويجرى تبادل المعلومات ذات الطابع الثقافي السلافي سواء على اساس الاتصالات المباشرة (الشخصية) او على اساس الاتصالات غير المباشرة (غير الشخصية) . ورغم انه مع تطور وسائل المواصلات العامة تنقلص باطراد نسبة الاتصالات المباشرة في نقل الاعلام الثقافي السلافي ، فان تلك الاتصالات تبقى على اى حال اكثر الاتصالات فعالية من هذه الناحية . والانواع الرئيسية للاتصالات التي ينقل فيها الاعلام الثقافي السلافي هي الانواع العيشية والانتاجية والدراسية . واهم عملية اجتماعية تجرى في اطارها اداء مهمة النقل هذه هي عادة الاسرة في المجتمع الطبقي ، ومختلف اشكال البشاعيات في المجتمع ما قبل الطبقي .

يجرى استيعاب الاعلام الثقافي السلافي سواء عن غير قصد (بدون وعي) او بشكل مقصود (عن وعي) . والطريقة الاولى هي الاقدم ، لانها تقوم على قدرات التقليد لدى الانسان ، ولا تزال الطريقة الرئيسية الى الآن . وهذا ناجم الى درجة كبيرة عن ان الانسان يستوعب في سن مبكرة الكميات الاساسية من الاعلام الثقافي السلافي (ولاسيما المرتبط باللغة) .

والانثوسات بمعنى معين عبارة عن «تخثر» محدود مكانيا لاعلام ثقافي خاص ، اما الإتصالات بين الانثوسات فعبارة عن تبادل لهذا الاعلام . ١

وكل منا يحمل ، كممثل لشعبي ، مجموعة ضخمة من خصائصه السلافية ، وهي ، طبعاً ، لا تنتقل بالوراثة (خلافا لتفاصيل المظهر الخارجى) . ونحن نستوعب اغلبها منذ الطفولة ، من الابوين والبالغين الآخرين ، ومن الاقارب . وانتماء الانسان الى هذا الشعب او ذاك تحدده في نهاية المطاف التربية والتعليم اللذان يتشبع الانسان في خلالهما بملامح الوسط الذي وجد فيه .

انه لكبير جدا دور الطفولة في «تعليم» المرء ان يكون روسيا او سويديا ، برازيليا او صينييا . وقد تبين للمسوسيولوجيين الاميركيين ان البروفسور الانكليزي ، مثلا ، (وهو شخص يتكلم بلغة الاميركيين نفسها) يمكنه ان يعيش في الولايات المتحدة ٥-١٠ سنوات وربما اكثر ، ولكنه لا يتأقلم الى النهاية مع الكثير من تفاصيل الحياة المحلية ، ولا يغدو اميركيا . هذا في حين ان ابنها شبه امي لهماجرين ايطاليين يتكلم احيانا بلكنة صقلية شديدة يفلح بقاعدة عامة الى حين بلوغه العاشرة من العمر ان «يتعلم» ان يكون اميركيا . البروفسور لا يزال يتصرف في الولايات المتحدة كانكليزي ، والصبي كاميركي .

من الاهمية بمكان الاشارة الى ان تفرد الشعب - الانثوس لا ينجم عن عنصر منعزل له ، بل عن خصائصه الموضوعية جميعا . ليس الانثوس مجرد مجموع سمات ، بل هو تشكيلة

واحدة ورابطة واحدة يمكن ان تضطلع بالدور المنظم فيها عناصر مختلفة تكمن بدورها في اساسها البنية الاقتصادية - الاجتماعية لهذه الروابط .

هنا ، في مستهل عرضنا من المهم جدا ان نشير بشكل خاص الى ان الثقافة التقليدية لم تكن تنطوي ايدا على مغزى واحد في مختلف مراحل التطور التاريخي . وعلاوة على ذلك ، فان التقاليد نفسها متباينة تاريخيا : هي في بعض الحالات تقاليد عتيقة بالغلبا ، وهي في حالات اخرى تقاليد جديدة وفي طور النشوء .

الانواع والاتماط الاساسية للروابط السلافية

من المتعارف عليه في العلم الانثوغرافي السوفييتي ان الانثوس (الرابطة السلافية) هو نمط ظهر تاريخيا لمجموعة اجتماعية ثابتة من اناس يمثلهم الشعب (القبيلة ، القوم ، الامة) .

يقصد بالقبيلة نمط للرابطة السلافية والتنظيم الاجتماعي نعصر نظام المشاعية البدائي ، وهي تنقسم بصلبة الدم بين افرادها ، ورابطة الارض وبعض عناصر الاقتصاد والرعى والتسمية الذاتية والعادات والعبادات ، وتنقسم ، في طور لاحق ، بالادارة الذاتية . وقد بقيت مخلفات التنظيم القبلي الى مراحل من التطور التاريخي اكثر تاخرا .

والقوم واطلة اقليمية واقتصادية وثقافية ولغوية من الناس تكونت تاريخيا تأتي بعد القبيلة وتسبق الامة . وقد ظهر القوم في عصر نشوء الحضارات القديمة والمجتمع الطبقي . ٢

والامة رابطة تاريخية من الناس تتكون في عملية تشكل رابطة صلاتهم الاقليمية والاقتصادية واللغوية الادبية والخصائص السلافية للثقافة والطبع . تظهر الامم في فترة تذليل التجزئة الاقطاعية على اساس قيام الصلات الاقتصادية

لا يوجد الاثنيكوس خارج البنى الاجتماعية التى تنظمها .
ان الاثنوس والروابط الاجتماعية - من الاسرة الى الدولة -
توجد وكأنها فى حالة تعايش .

تشغل حيزا خاصا بين التشكيلات السلافية المتراسة تلك
التي تقترن بروابط اقليمية - سياسية تشكل وحدات
مستقلة للتطور الاجتماعى (وهى ، فى العالم المعاصر ، الدول
بالدرجة الاولى) . والتشكيلات الخاصة التي تظهر فى غضون
ذلك تتمتع باستقلال كبير ، وهذه الروابط تضمن عادة انسب
الظروف لرسوخ الاثنوس وتجسده . وهذه التشكيلات
«المركية» التي تعتبر من اهم تجليات وجود الاثنوس ، يمكن
تعريفها ، فى رأينا بمثابة «كيانات سلافية اجتماعية» .
والتشكيلات من هذا النوع تتمتع ، الى جانب الرابطة الثقافية ،
بروابط اقليمية واقتصادية واجتماعية وسياسية (انها ، كما
يقال ، الشكل الاعلى للاثنوس) .

ان البنى الاقتصادية الاجتماعية اكثر تحركا من
الاثنوسات . وامكان بقاء الاثنوس ذاته من حيث المؤثرات
الاساسية على امتداد عدة تشكيلات اقتصادية اجتماعية ناجم
بالذات عن صفته المحافظة نسبيا ، وكذلك الاستقلال المعين
لخصائصه . لقد وجد الاثنيكوس البولندي ، مثلا ، سواء
فى عهد الاقطاعية او فى عهد الرأسمالية ، وهو موجود فى
ظل الاشتراكية ايضا (ولهذا بالذات تتحدث عن البولنديين
سواء لدى التلرقى الى العهد الاقطاعى او العهد الرأسمالى او
العهد الاشتراكى) .

اما الكيان السلافى الاجتماعى فامر آخر . اذ ان الانتماء الى
هذه التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية او تلك لا بد وان
يسبغ عليه طابعا خاصا . ويمكن تمييز كيانات سلافية
اجتماعية ما قبل طبقة (مشاعية بدائية) ، وقديمة (عبودية)
وكيانات تعود الى القرون الوسطى (اقطاعية) ، وكيانات
رأسمالية واشتراكية . ونذكر بانّه يستخدم للمنطقتين
الاخيرتين فى الادبيات السوفيتية مصطلح «الامة» (مع تقسيمه
الى امم برجوازية واخرى اشتراكية) . ومن الهام التنويه

الرأسمالية وتكون السوق الداخلية ، وتشكل الامم من
مختلف القبائل والاقوام . والامة فى ظروف الرأسمالية تنقسم
الى طبقات اجتماعية ذات مصالح اقتصادية اجتماعية
وايدولوجيات متعارضة . وفى ظل الاشتراكية ، التي تضمني
التحركات الاجتماعية والقومية ، تتشكل الامم الاشتراكية .
ينبغى القول انه لدى الاسباب والتدقيق فى تعريف
المشعوب - الاثنوسات يعرب فى ادبياتنا عن آراء مختلفة .
وهكذا ، فان برومليه ، احد مؤلفي هذا الكتاب ، اقترح
وعلى الفهم التالى للاثنوسات : يمكن تعريف الاثنوس بالمعنى
الضيق كمجموعة تكونت تاريخيا من اناس يتمتعون بخصائص
ثابتة نسبيا للثقافة (بما فى ذلك اللغة) وللنفسية ، وكذلك
بادراك وحدتهم وتميزهم عن التشكيلات المماثلة الاخرى ،
اي بالرعى الذاتى . ان هذه الرابطة تبرز كنتيجة لممارسة
تاريخية مشتركة لعدة اجيال من الناس تتجسد فى الصفات
المادية والروحية الخاصة لهذه الرابطة وترسخ فى وعى
افرادها ، والمقصود فى غضون ذلك جملة الخصائص السلافية
التي تبقى حتى عند انتقال مجموعة اناس من هذا الشعب او
ذاك الى اراض جديدة .

ولابراز هذا النوع من الاثنوسات من بين الروابط الاخرى
ذات الطابع السلافى اقترح برومليه مصطلح «الاثنيكوس» .
والاثنيكوس يعنى باليونانية القديمة «الشعبي» ، «المازم
للشعب» . ان الحالات التي يوجد فيها اناس ذوو ملامح
مشتركة للثقافة والنفسية فى دول مختلفة ، اى لا يتمتعون
برابطة اقتصادية - اجتماعية ولا اقليمية - سياسية ،
منتشرة على نطاق واسع . وما يشهد على مقاييس هذه الظاهرة
المعطيات التالية لواخر السبعينات ومستقبل الثمانينات : يعيش
٦٥,٩٪ من الالبانيين فى البانيا و٣٠,٥٪ فى يوغسلافيا ،
ويعيش ٤٣,٠٪ من الكراد فى تركيا و٢١,٦٪ فى ايران
و٢٠,٠٪ فى العراق ، ويعيش ١٧,٧٪ من التروجين خارج
التروج ، و١١,٩٪ من الانكليز خارج بريطانيا و٩,٩٪ من
السلوفاك خارج تشيكوسلوفاكيا .

المصطلحات الموجودة بمزيد من الدقة ، او لادخال ملاحظات جديدة .

يبدو من المجدى قبل كل شىء تحديد مصطلحات مختلف مستويات التدرج السلالى . ولهذا الهدف يقترح المؤلفان ادراج المفاهيم التالية : (آ) «الاقسام السلالية الاساسية (الانثوسات)» - مجموعات من الناس تتمتع باقوى الخصائص السلالية وضوحا وتبرز بمثابة وحدات مستقلة للتطور الاجتماعى ؛ (ب) «الوحدات السلالية الاولى» ، وهى اصغر الاجزاء المكونة للقسم السلالى الاساسى التى تشكل الحد النهائى لتقسيم هذا الاخير ، (ج) «الاقسام السلالية الفرعية» - روابط تتجلى فيها الخصائص السلالية المميزة بشدة اقل مما فى الوحدات السلالية الاساسية ، وتعتبر اجزاء مكونة لها ؛ (د) «الروابط السلالية الشاملة» - تشكيلات تشمل عدة اقسام سلالية اساسية ، ولكنها تتبع بخصائص سلالية اقل قوة مما لدى كل من هذه الاقسام .

لما كان الحد الاقصى لتقسيم الانثوس ، الذى يبقى على خصائصه من حيث الاساس ، هو الانسان على حدة ، فمن الواضح انه يشكل مكووحدة سلالية . ثمة اقتراح (وهو ، والحق يقال ، لم يترسخ بعد فى العلم على نحو كاف) ، بتسمية الانسان كحامل للخصائص السلالية والمعلومات السلالية اى «انثوفور» . ومن الواضح تماما ان خاصية الانثوفور فى التدرج السلالى تلخص قبل كل شىء فى كونه لا يستطيع ، خلافا لاقسامه الاخرى جميعا ، ان يضمن بصورة مستقلة تجديد الخصائص السلالية .

وينبغى ان تعزى الى الوحدات السلالية الاجتماعية الصغرى كذلك تلك الخلية الاجتماعية الاولى ، اى الاسرة التى يعود اليها دور لا يستهان به فى تجديد الانثوس ونقل الخصائص السلالية عبر الاجيال .

تشغل «الانثوسات الفرعية» وضعاً وسطاً بين الوحدات المكووسلالية والانثوسات . وهذه المجموعات ليست ذات منشأ واحد ، ويمكن ابراز انثوسات فرعية ذات منشأ

يهدا ، لان مصطلح «الامة» لا يستخدم بمداول واحد فى مختلف اللغات .

قد يدخل اللاتيكوس الواحد فى عدة كيانات سلالية اجتماعية . يمكن الاشارة الى اوكرائى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وكندا ، او الى اللاتيكوس الالمانى الذى يمثلته الان كيانات سلاليان اجتماعيان ينتميان الى تشكيلتين اجتماعيتين مختلفتين : اشتراكية ورأسمالية .

لقد ادخل العالمان السوفيتيان تشيبيكوساروف واروتينوف هذا التسمية الموفى ، فى رأينا : ان نسبة الامم والاقوام والقبائل الى الانثوس كنسبة المادة الى العناصر التى تتكون منها هذه المادة . فالكربون ، مثلا ، يوجد فى الارضى ، مع بقائه كربونا ، على شكل صلب ، او على شكل غرافيت ، او على شكل الماس ، ولكن دائما فى احد هذه الاشكال بالذات . وهكذا فان الانثوسات على حدة مثلا الانثوسات الهنغارى (المجرى) والجورجى والارمنى ، وجدت فى ازمة مختلفة وفى اراضى متباعدة جوهريا على شكل قبائل اول الامر ، ومن ثم على شكل اقوام فى القرون الوسطى ، وبعد ذلك على شكل امم برجوازية ، والآن توجد على شكل امم اشتراكية ، وكذلك على شكل مجموعات قومية متصلة فى اراضى التوزع الاساسى لشعوب اخرى .

ان البنية السلالية للبشرية معقدة للغاية . ويتجلى هذا التعقد سواء فى وفرة اشكال وجود الانثوسات ، او فى تدرجها ، ولكن للاشارة الى كل هذا التنوع التصنيفى تستخدم ذخيرة محدودة جدا من المصطلحات . وليس من النادر بالنتيجة ان يستخدم مختلف الباحثين المصطلح نفسه للاشارة الى ظواهر سلالية متباينة تصنيفيا . هذا بالإضافة الى ان التصنيفات القائمة للروابط السلالية تقتصر عادة على الاشارة الى انماط الانثوس الاساسية المتعاقبة بانتظام ، تاركة فى الظل ، كقاعدة عامة ، مسألة تنوع اشكاله المتزامنة .

وهكذا ، تقدم واضحة الضرورة السلحة سواء لتحديد

بهذا ، لأن مصطلح «الامة» لا يستخدم بمداول واحد في مختلف اللغات .

قد يدخل الاثنيكوس الواحد في عدة كيانات سلالية اجتماعية . يمكن الإشارة الى اوكرانيى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وكندا ، او الى الاثنيكوس الالمانى الذى يملكه الان كيانات سلاليان اجتماعيان ينتميان الى تشكيلتين اجتماعيتين مختلفتين : اشتراكية ورأسمالية .

لقد ادخل العالمان السوفييتيان تشيوكساروف واروتونوف هذا التسميه الموفق ، فى رأينا : ان نسبة الامم والاقوام والقبائل الى الانثوس كنسبة المادة الى العناصر التى تتكون منها هذه المادة . فالكرپون ، مثلاً ، يوجد فى الارض ، مع بقائه كـرپونا ، على شكل هباب ، او على شكل غرافيت ، او على شكل الماس ، ولكن دائماً فى احد هذه الاشكال بالذات . وهكذا فان الانثوسات على حدة مثلاً الانثوسات الهنغارى (المجرى) والجورجى والارمنى ، وجدت فى ازمة مختلفة وفى اراضى متباينة جوهرياً على شكل قبائل اول الامر ، ومن ثم على شكل اقوام فى القرون الوسطى ، وبعد ذلك على شكل امم بريجوازية ، والآن توجد على شكل امم اشتراكية ، وكذلك على شكل مجموعات قومية منفصلة فى اراضى التوزع الاساسى لشعوب اخرى .

ان البنية السلالية للبشرية معقدة للغاية . ويتجلى هذا بالتعدد سواء فى وفرة اشكال وجود الانثوسات ، او فى تدرجها . ولكن للاشارة الى كل هذا التنوع التصنيفى تستخدم ذخيرة محدودة جداً من المصطلحات . وليس من النادر بالنتيجة ان يستخدم مختلف الباحثين المصطلح نفسه للاشارة الى ظواهر سلالية متباينة تصنيفياً . هذا بالإضافة الى ان التصنيفات القائمة للروابط السلالية تقتصر عادة على الإشارة الى انماط الانثوس الاساسية المتعاقبة بانتظام ، تاركة فى الظل ، كقاعدة عامة ، مسألة تنوع اشكاله المتزامنة . وهكذا ، تغدو واضحة الضرورة الملحة سواء لتحديد

المصطلحات الموجودة بمزيد من الدقة ، او لادخال ملاحظات جديدة .

يبدو من المجدى قبل كل شئ تحديد مصطلحات مختلف مستويات التدرج السلالى . ولهذا الهدف يقترح المؤلفان ادراج المفاهيم التالية : أ) «الاقسام السلالية الاساسية (الانثوسات)» - مجموعات من الناس تتمتع باقوى الخصائص السلالية وضوحاً وتبرز بمثابة وحدات مستقلة للتطور الاجتماعى ؛ ب) «الوحدات السلالية الاولى» ، وهى اصغر الاجزاء المكونة للقسم السلالى الاساسى التى تشكل الحد النهائى لتقسيم هذا الاخير ، ج) «الاقسام السلالية الفرعية» - روابط تتجلى فيها الخصائص السلالية المميزة بشدة اقل مما فى الوحدات السلالية الاساسية ، وتعتبر اجزاء مكونة لها ؛ د) «الروابط السلالية الشاملة» - تشكيلات تشمل عدة اقسام سلالية اساسية ، ولكنها تتمتع بخصائص سلالية اقل قوة مما لدى كل من هذه الاقسام .

لما كان الحد الاقصى لتقسيم الانثوس ، الذى يبقى على خصائصه من حيث الاساس ، هو الانسان على حدة ، فمن الواضح انه يشكل مكرووحدة سلالية . ثمة اقتراح (وهو ، والحق يقال ، لم يترسخ بعد فى العلم على نحو كاف) بتسمية الانسان كعامل للخصائص السلالية والمعلومات السلالية اى «انثوفور» . ومن الواضح تماماً ان خاصية الانثوفور فى التدرج السلالى تتلخص قبل كل شئ فى كونه لا يستطيع ، خلافاً لاقسامه الاخرى جميعاً ، ان يضمّن بصورة مستقلة تجدد الخصائص السلالية .

وينبغى ان تعزى الى الوحدات السلالية الاجتماعية الضغرى كذلك تلك الخلية الاجتماعية الاولى ، اى الاسرة التى يعود اليها دور لا يستهان به فى تجدد الانثوس ونقل الخصائص السلالية عبر الاجيال .

تشغل «الانثوسات الفرعية» وضعاً وسطاً بين الوحدات المكروسلالية والانثوسات . وهذه المجموعات ليست ذات منشأ واحد . ويمكن ابراز انثوسات فرعية ذات منشأ

اقتصادي - ثقافي ولغوي وإداري - إقليمي . ويعود مكان خاص بين الانثوسات الفرعية إلى تلك التي ظهرت على أساس المجموعات العرقية . فمن الواضح ، مثلا ، أنه يمكن النظر إلى زونج الولايات (المتحدة بمثابة أنثوس فرعي للإمة الأميركية (كيان سلاي اجتماعي) . ويتسم أفراد الانثوس الفرعي بأدراك الفوارق الثقافية التي تفصل هذه المجموعة عن الانثوس الذي تندرج فيه .

وهكذا ، يمكن لشخص يعينه أن يدخل في آن واحد في عدة روابط سلالية من مختلف المستويات . يمكن ، مثلا ، أن يعتبر نفسه روسيا (القسم السلاي الأساسي) ومن قوزاق الدون (الأنثوس الفرعي) وسلافيا (الرابطة السلالية الشاملة) . ينبغي تمييز الروابط السلالية عن تلك التي تسمى بالروابط الأنثوغرافية . فالروابط من هذا النوع تبرز في شكلين أساسيين : «المجموعات الأنثوغرافية» و«الروابط التاريخية الأنثوغرافية» . ومن المتعارف عليه أن يقصد بالمجموعات الأنثوغرافية تلك الأقسام الداخلية لشعب - أنثوس واحد التي تتميز ببعض العناصر المشتركة الخاصة للثقافة . وفي غضون ذلك يقصد بالمجموعات الأنثوغرافية خلقتا للانثوسات الفرعية ، أقسام الانثوس المحلية فقطل التي لا تتميز برعي ذاتي . وعلى هذا النحو لا تتمتع الروابط التاريخية الأنثوغرافية أيضا برعي ذاتي واحد . ويقصد بهذا المفهوم الروابط التي تشمل عدة أنثوسات في أراض واحدة ، متفردة جغرافيا تكونت لدى سكانها ملامح ثقافية عامة متشابهة بحكم رابطة التطور الاقتصادي - الاجتماعي والصلات المديدة والتأثير المتبادل . وهذه الملامح تجلي سواء في الثقافة المادية ، أو في الثقافة الروحية ، ولا سيما في عناصرها التي تعدل شحنة جمالية .

تكمن إحدى الخصائص المميزة لمنشأ الروابط التاريخية - الأنثوغرافية في كونها جميعا تشتمل على امتداد فترات طويلة من الزمن في خلال التداخل الثقافي للشعوب المتجاورة . وتنقسم هذه التشكيلات ببقا الملامح الأساسية

للثقافة على امتداد أجيال عديدة . ولهذا من الأفضل ، في رأينا ، تسميتها بالروابط «الثقافية - التقليدية» . إن للروابط التاريخية - الأنثوغرافية «الثقافية - التقليدية» مستويات تصنيفية تنظيمية مختلفة . وبالتالي يمكن أن نبرز من بينها اشخم الوحدات ، «الولايات» ، التي تشمل مجموعات كبيرة من البلدان المتجاورة ، ووحدات اصغر ، «المقاطعات» ، التي تنقسم بدورها إلى مناطق تاريخية - ثقافية صغيرة . نورد مثال ولاية سيبييريا التاريخية الأنثوغرافية التي نجد فيها مقاطعات مثل يخال - تايبير وسيبيريا الغربية والشاطئ - ساباتا وسيبيريا الشرقية وكامتشاتكا - تشوكوتسكايا وأور - ساحالين . وبالمقاربة ، فإن تعيين المعايير لتعدد مستويات الروابط التاريخية - الأنثوغرافية مهمة في غاية التعقيد . وهذا ناجم عن تنوع منشأ وبنية هذه التشكيلات وانحلاص معالم حدودها .

إلى جانب الروابط «المتعددة العوامل» من هذا النوع يمكن إبراز تشكيلات تاريخية - ثقافية «وحيدة العامل» . ويعود الدور السظلم فيها إلى بعض عناصر الثقافة ، بيد أن هذه العناصر تخلف أثرها بهذا الشكل أو ذاك على المجالات التقليدية المعيشية أيضا . وفي الحالات التي تبرز فيها اللغة بمثابة عامل منظم اصطلاح على تسمية هذه المناطق بالمناطق اللغوية الأنثوغرافية ، وغينا يبرز الدين تسمى بالمناطق الطائفية - الأنثوغرافية .

وعلى قسار الانثوسات بالذات ، «تتقاطع» الروابط التاريخية - الأنثوغرافية مع كيانات اقتصادية - اجتماعية معينة (سواء مع كيانات اجتماعية على حدة ، أو مع مجموعات كاملة من الكيانات الاجتماعية العائدة إلى تشكيلة اقتصادية اجتماعية واحدة) . مثلا ، أن الولاية التاريخية الأنثوغرافية الاستوائية الأفريقية ، التي تضم جزء القارة الواقع جنوب الصحراء الكبرى ، كانت في الماضي القريب تتكون من بلدان مختلفة من حيث تطورها الاقتصادي ، وكانت الأغلبية الساحقة من هذه البلدان مستعمرات للدول الأوروبية . ونتيجة اتحاد

الروابط التاريخية - الانثوغرافية والاقتصادية - الاجتماعية
تتكون تشكيلات يمكن الاصطلاح على تسميتها «مناطق اجتماعية
ثقافية» .

وفي كل لحظة معينة يمكن التفاعل المتبادل لعدد ضخم
من الروابط السلافية والانثوغرافية من مختلف الانماط بنيت
معتدة ، وكانما تشكل بناء مجسما للثقافة البشرية بأسرها .
ينبغي التنويه بان الروابط التاريخية - الثقافية جميعها ،
هي ، على الرغم من رسوخها ، تشكيلات دينامية تتعرض
لتغيرات في الزمان . وليس من النادر ان تقتصر هذه التغيرات
بتحول نمط هذه الروابط الى آخر . وهكذا ، قد يظهر لدى
مجوعة انثوغرافية وعي للرابطة والادراك للذات ، واذا عُلِّقَ
الانثوس الفرعي بدوره مثل هذا الادراك للذات ، يمكن ان
يتحول الى مجموعة انثوغرافية . ومثل هذه التحولات قد تجري
كذلك بين الروابط السلافية الشاملة واصناف المكيروروابط
التاريخية - الثقافية التي لا تتمتع بوعي سلافي . وقد تجري
كذلك تحولات ذات اتجاه آخر . ان تاريخ البشرية السلافي
يعرف غير قليل من هذه التحولات .

التسم الثاني

الانثوس والطبيعية

لا يخفى على احد ان من التبسيط الجلي لدى دراسة
الروابط السلافية تجاهل العوامل غير السلافية لشؤونها
وتطورها .

ومن بين هذه الاخيرية تتبني الاشارة بالدرجة الاولى ،
كمسا هو واضح ، الى الوسط الجغرافي . انه شرط اكيد
لظهور الانثوس وحياته ، وتدرس تغيراته تأثيرا جوهريا
في العمليات السلافية الصرف . والوسط الجغرافي هو
«المليئة» التي تجري فيها هذه العمليات .

تشهد على مغزى الوسط الجغرافي بالنسبة الى تكون
الانثوس وحياته تأثيراته المباشرة وغير المباشرة التي يمكن
اكتشافها في مختلف ميادين الثقافة السلافية ، ابتداء بادوات
العمل وانتهاء بتسيات الشعوب نفسها . وهكذا ، فان المناخ
يحدد كثيرا شئنا من الملابس والمسكن وتشكيله المعاصيل
الزراعية ووسائل النقل في مختلف فصول السنة الخ . هذا
وتضطلع النجوم الطبيعية (السلال الجبلية ، الانهار وما
شابه ذلك) في حالات كثيرة جدا بدور حدود سلافية ، ولا
سيما في الدرجات الاولى من تطور المجتمع .

ان بنيت النباتات المحلية تحدد الى درجة كبيرة مادة
المسكن وأشكاله ، وهي تؤثر مع صفات عالم الحيوان في
خاصية الحياة اليومية وحتى التطور الثقافي - الاقتصادي لهذه
الشعوب او تلك (يمكن هنا ان نتذكر ، على سبيل المثال ،
كيف نأطا من بعض الزراعي تطور حضارات السكان الاصليين
في اميركا بسبب غياب الحيوانات التي يمكن ، بعد تدجينها ،

ذلك ، يصبح نفسه آخر الامر في تبعية معينة لمصادرها الكامنة ، وهذه ، بالتالى ، قد تحته وقد تكبته . وهكذا ، لدى النظر الى تأثير الوسط الجغرافى في تطور العمليات السلافية لا تجوز «العمية الجغرافية» ولا المبالغة في هذا التأثير ، من المعروف ان الانتوس لدى تغيير المنطقة لا يزول ، بل يحتفظ بعلامته الى درجة كبيرة . ويشهد ايضا على انعدام التراط «العمى» في نظام «الانتوس - البيئة» واقع ان الانتوس المختلفة لا تستخدم بصورة واحدة ايدا الامكانيات التي تمنحها تضاريس جغرافية واحدة . ان انتقاء هذه الامكانيات من هذا النوع او تلك يتوقف قبل كل شىء ، على مستوى التطور الاقتصادى الاجتماعى للمجتمع . وليس من قبيل المصادرة انه لم يكن من النادر ان تنشأ في مختلف ارجاء العالم لدى الشعوب ، ذات المستوى الواحد تقريبا للتطور الاقتصادى الاجتماعى ، أنظمة متماثلة لاستخدام المصادر الطبيعية ، اى ما يسمى بالانماط الاقتصادية الثقافية . ومن الجهة الاخرى ، كما نوه بنى عالم الجغرافيا والنورى الروسى من القرن التاسع عشر ميتشينكوف ، فان «قيمة هذه البيئة الجغرافية او تلك ، حتى ولو افترضنا انها تبقى من الناحية الطبيعية ثابتة في كل الظروف ، هى على اى حال متباينة في مختلف العصور التاريخية» . ان الثورة الصناعية ، التي يرتبط بها اقتصاد الاسلوب الراسالى للانتاج ، قد وسعت بشكل خاص امكانيات استخدام المصادر الطبيعية . في فترة ما قبل الراسمالية كانت اراض شاسعة ذات ظروف طبيعية جغرافية استثنائية لا تنهيا لها مقدمات عواتية كافية للتقدم في ميدان الاقتصاد . تذكر هنا المنطقة الاستوائية الرطبة ، والمناطق الجبلية العالية جزئيا ، ومنطقة القطب بشكل خاص . وقد كشفت الثورة الصناعية مكان الكثير من المصادر الطبيعية ، بما في ذلك في الظروف الاستثنائية . ان امكانيات الانسان في استخدام الوسط الجغرافى تنمو في نحو عاصف في ظروف الثورة العلمية التكنيكية المعاصرة .

ان تصبح ماثية تستخدم في العمل ، وكيف غير ظهور الخيل في اميركا تغييرا شديدا معيشة واقتصاد الكثير من القبائل الهندية) .

تمازس الخصائص المميزة للوسط الجغرافى تأثيرا غير مباشر في ثقافة الانتوس الروحية وتكوينه النفسى . وهذا ما يجد تعبيره في السمكات والعادات والشعائر الخاصة . ان انتوس المنطقة الاستوائية ، مثلا ، لا تعرف الكثير من العادات والشعائر المميزة لشعوب المنطقة المعتدلة .

ويجد الوسط الجغرافى تعبيره ايضا في الوعى السلافى . وفي هذا الصدد لا يسعنا الا التذكير بان منظر الاراضى السلافية ينطبع في وعى الفاطنين فيها على شكل تصور «للأرض الام» . وتغدو بعض عناصر المنظر الطبيعى على شكل صور حسية (شجرة الجوز عند الاكرانيين ، والساكورا عند اليابانيين وما شابه ذلك) رموزا لالتقاء السلاف من نوع خاص ، وغالبا ما تشهد التسميات القاتية للانتوسات على تأثير الوسط الجغرافى في الوعى السلافى . ان تشموكتشيبى الساحل ، مثلا يسمون انفسهم «آن كالين» ، اى «مكان البحر» ، وتسمى احدى مجموعات السيلوكريبيين ، وهم شعب شوال صغير آخر ، نفسهم «شيتيكوم» ، اى «اناس النائية» .

يمارس الوسط الجغرافى اكبر تأثير في الانتوس في فترة تكونه ، حينما ينهيا ويتكيف «لوكه» الطبيعى . بيد انه لا ينبغي تعميم هذا العامل المعروف للجميع ، ان عملية تفاعل الانسان مع الطبيعة في خلال العمل امر متواصل . وينعش في غشوع ذلك ان يؤخذ في الاعتبار ان الوسط الجغرافى يمارس التأثير في الانتوس ، كما في الروايد الاجتماعية الاخرى ، بصورة غير مباشرة من حيث الاساس ، اى عبر تطور القوى المنتجة . والآلية المعقدة لهذا التأثير ترتبط ، بين امور اخرى ، بكون تطور القوى المنتجة ، اذ يجذب الى مجال الانتاج عناصر جديدة للطبيعة ، لم تستخدم سابقا (مثل مكونات الطبيعة والموارد المائية وما شابه

ولكن مع كل أهمية مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي للجماعات البشرية من حيث استفادتها من مصادر مختلفات المناطق الطبيعية ، فإن تنوع النشاط الاقتصادي في اطار هذه المناطق لا يمكن ان يعزى الى هذا العامل وحده . فالتاريخ يعرف غير قليل من الحالات التي كانت فيها الشعوب القائمة على مستوى واحد تقريبا من التطور الاقتصادي الاجتماعي وفي ظل ظروف طبيعية متشابهة لا تقيم انماطاً اقتصادية ثقافية واحدة ، وتستخدم المصادر الطبيعية المتشابهة على نحو متباين جدا . وكانت الاختلافات من هذا النوع ناجمة بالدرجة الاولى عن التقاليد الثقافية الخاصة لكل من الروابط السلالية . يعرف التاريخ امثلة كثيرة على الطبيعة المحافظة للغاية لدى مختلف عناصر الثقافة المادية ، ومن بينها احد عناصرها المهمة جدا ، اي الخبرات الانتاجية . ومن المميز في هذا الخصوص ، على سبيل المثال ، مصير قبيلة مارايي (تايلاند) ، فعل الرغم من الاتصالات المنتظمة والمزايدة دوما بالجيران الاكثر تلوها من مختلف الشعوب التايلاندية (انتقلت بعض مجتمعات المارايي الى اللغة التايلاندية) ، فانهم لا يعرفون مبادئ الزراعة الى الآن . ويتنصر نشاطهم الاقتصادي ، كما في الازمنة الغابرة ، على جمع الفواكه والقصص . ولا تزال شعوب جنوب الهند تمارس جميع الفباكات ، حيث يعضون كالمسابق جزاء كبيرا من السنة في مسيرات طويلة او قصيرة سعيها وراء ما تنتجه الغابة . لقد اصبحت مهمات الجسم متغيرة ، طبعاً ، ولم تعد حاجات الجامعين انفسهم هي التي تمل بنية ما يجمع في الغابة ، بل تصليها ايضا مقتضيات المكافحة . ولا يهتم جامع النباتات الان بجذور الاشجار الصالحة للاكل بقدر ما يهتم بالمواد التي تحظى باكثر اقبال في السوق : الزنجبيل ، الهال ، العسل ، الخشب الصنم الخ . بيد ان خبراتهم الانتاجية كجامعين بقيت غلى حالها من حيث المبدأ .

اما في خصوص الشعوب التي تمارس تربية الماشية ، فان رسومها تقاليدها الاقتصادية معروف للجميع . وما يشهد

على هذا يوضح تاريخ غزوات الرحل المتعددة على سكان اوراسيا العضر في القرون الوسطى التي كانت تقتصر عادة بتحويل جزء كبير من الاراضى الزراعية الى مراعى في ظروف طبيعية مغايرة تماماً .

ويشهد تاريخ الزراعة ايضا على التقاليد الاقتصادية الراسخة للغاية لدى الكثير من الشعوب . وما له دلالة الى حد بعيد في هذا الخصوص مثال المستوطنين الروس في سيبيريا في الفترة بين القرنين السابع عشر والثامن عشر الذين بذلوا جهوداً جبارة لتكييف الاساليب التقليدية لزراعة الحبوب مع ظروف الاراضى الزراعية الجديدة . وتلاحظ الصلة الراسخة بين انظمة الزراعة والاقتصاد في رعيها ايضا ، ولا سيما في تلك المناطق من العالم ، حيث العلاقات الرأسمالية لم تتغلغل بعد في الزراعة ، او ان هذا التغلغل لا يزال ضعيفاً نسبياً ، كما في جنوب شرقي اسيا ، مثلاً . وفي هذا الصدد يمكن التنويه بالملايين واليوريين الذين يمارسون الزراعة المروية التقليدية ، او بالعديد من شعوب المناطق الجبلية التي تمارس الزراعة في الاراضى التي تفرغ من الغابات عن طريق قطعها او حرقها . ان انظمة الزراعة هذه لا تراعى كل تنوع الظروف المحلية للتربة والمناخ .

ويتجلى التمايز السلالي للتقاليد الاقتصادية التي تدس وسائل كسب الرزق في بلادنا ايضا . ويمكن ان نورد كشهادة على ذلك بقا تقاليد متخصصة زراعية معينة (م بصورة متداخلة في احيان كثيرة) لدى الشعوب القاطنة في ما وراء بايكال : البوريانيين والروس والايفينكيين . واذا كانت الزراعة قد بقيت الفسرغ الرئيسي للاقتصاد الريفي عند الروس ، فان تربية الماشية تحافظ على اهميتها الاساسية عند البوريانيين على الرغم من ان الزراعة حظيت عندهم بانتشار ملحوظ تحت تاثير الروس . امسا بالنسبة الى الايفينكيين فان اقتصادهم يتسم حتى الان باقتراض ثلاثية فروع : القصب وتربية الايائل وصيد السمك .

ان التخصص الاقتصادي لكل اقنوس ثقافته تاريخياً

كقاعدة عامة العلاقة بين عاملين في لحظة ظهور هذا التخصص : خصائص النظام الاقتصادي الإجتماعي وطابع بيئة المعيشة . وعليه بالذات يتوقف قيل كل شيء اختصار الانثوس لهذا الأسلوب أو ذلك في استخدام الوسائل الطبيعية للحياة . ومدى ترسخ هذا النظام الاقتصادي فيه يحدده كذلك بصورة غالبية الاستقرار أو التغير للاختلاف سواء لحياته الاقتصادية الاجتماعية أو لوسطه الطبيعي . وفي حالة استقرارهما المتطرد يتحول النظام المتكون للاقتصاد الى تقاليد وطيدة ويكتسب قوة الاستثمار .

وهذه بعض الابعاد الداعمة ، حسب تصورها ، على تأثير استقرار الظروف الطبيعية أو تغيراتها على حد سواء ضمن مناطق متباينة الاتساع في مسيرة التاريخ السلاسل . يرى الكثير من الاختصاصيين ان اسباب فتوحات العرب الشبيهة ، التي غيرت الخارطة السلاسلية لجزء شامع من العالم ، لم تكن مرتبطة بالتطور الاجتماعي للقبائل العربية فحسب ، بل وبخصائص وطنهم الجغرافية ، وبالتغيرات المناخية وغيرها التي جرت في اراضي شبه جزيرة العرب . وحيثما سكن الانسان شبه جزيرة العرب لاول مرة كان جزء كبير منه عبارة عن غابات وسهوب ياتمة . اما اليوم فان الحدائق الغناء والاراضي الخصبة اصيحت ، كما نعلم ، وقفا على اجزاء صغيرة فقط . من اراضي شبه الجزيرة الشاسعة المتراصة الاطراف . لقد بدأ منذ الوف السنين ولا يزال في شبه الجزيرة هجوم جبار للصحراء ، فادت الرمال بالانجر والاقنية تدريجيا واضطر عدد متزايد من السكان الى الاستعاضة عن الزراعة المألوفة لهم بتربية الماشية المتنقلة . هذا الوضع التاريخي يمكن وصفه بانه يبرز على النحو التالي . ان الارض - وتمة رأى كهذا في الادبيات الانثوغرافية - شحت فلم تعد تستطيع اطعام قطعان الرجل المتزايدين باستمرار . وحيثما كانت تحدث جوائح طبيعية تسبب القحط ، كان شبه جزيرة العرب يبدو على الفور اراضي غاصة حتى الامتلاء ، فكان السكان الزائدون الذين يدركون بشكل عفوي

انهم اصبحوا اناسا قافضين في وطنهم غير المضياف بغادورونه . ربما على هذا النحو بالذات جرت عملية استيطان ما بين النهرين وفلسطين التي ادت فيها بعد الى قيام بابل واشور واوغاريت واسرائيل القديمة . اما الصحراء فكانت تنابع هجرها . وفي غضون ذلك ظهرت على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة بمساهمة القادمين منه دول قوية ، كثيفة السكان ، ففرقت المخرج السابق من الازمة الايكولوجية الذي كان يتم عن طريق الهجرة المتتامة . وبالنسبة الى شبه جزيرة العرب في مستهل القرن السابع يشبه مرجلا عملاقا تجاوز ضغطه الداخلي منذ امد بعيد حدود الممكن ... وانفجار هذا المرجل وضع نصف العالم تحت اقدام الوند السابقيين . واليك مثال آخر - كتب المؤرخ الروسي الشهير كلوتشيفسكي في حينه : «تمة خاصيات جغرافيتان تميزان اوروبا عن قارات العالم الاخرى ، وعن اسيا بشكل خاص . وهما ، اولا ، تنوع اشكال تضاريس الارض ، وثانيا ، الخلوط المتعرجة بشكل خارق للشواطئ البحرية . ومن المعروف ان تأثير قوى ومتنوع تضاريس هاتان الخاصيتان في حياة البلاد . وتعود الى اوروبا الاولوية في قوة تأثير هذين الطرفين ، لا يوجد اي مكان تتعاقب فيه السلاسل الجبلية والهضاب والسهول يمثل هذا التكرار الشديد في ارجاء صغيرة نسبيا كما تتعاقب في اوروبا . ومن الجهة الاخرى ، فان الخلدان العميقة وانشاء الجزر البارزة بعيدا والودوس كانما تشكل دانتليا ساحلية لاوروبا الغربية والجنوبية ، هنا يوجد مقابل كل ٣٠ ميلا مربعا من المجال القاري ميل واحد من شاطئ البحر ، في حين يوجد مقابل كل ميل واحد من شاطئ البحر في امسيا ١٠٠ ميل مربع من المجال القاري » . ان الفرقين الجغرافيين اللذين ابرزهما كلوتشيفسكي قد اضطلعنا ، ولا شك ، بدورهما الذي اشار اليه هاركس في تطور الراسمالية العاصف بصلاها الايكولوجية المعقدة في هذه القارة ، وبالتالي في تطور الشعوب-الانثوسيات . بيد ان مادة بحثنا التاريخي - الانثوغرافي في هذا الكتاب

لا تتيج لنا الاقتصار على هذه الاستنتاجات حتى وان كانت في غاية الامسية ، ان تاريخ البشرية يعطينا شهادات عديدة اخرى . فليستوجه الى تاريخ الانثوس اليوناني .

حينما يجري الحديث عن اليونان القديمة غالبا ما يعجز العلماء عن ايجاد الكلمات للاعراب عن كل اعجابهم بدورها في تاريخ الثقافة . وليس عيبا ان يسمى الشاعر الروسي المبقري اليكساندر پوشكين اليونان القديمة ، باطل و آلهة .

هل كانت الظروف الطبيعية لليونان القديمة ، للظاهرة التي نسميها بالانثوس اليوناني القديم ، تنطوي على مغزى بالنسبة الى دورها التاريخي الجبار ؟ من المعروف ان اليونان تنصف من الناحية الجغرافية بتسرح شواطئها وقطعها العارقين ، وبقتضاريسها الجبلية ، الوعرة للغاية . وتشغل اليونان العربية الاولى في العالم من حيث تجزؤ شواطئها ، فاذا اخذنا كل ما فيها من جزر واشباه جزر في مساحة واحدة مستديرة الشكل نجد ان نسبة طول شواطئ هذه الكتلة غير المجزأة الى طول الشواطئ الفعلية لليونان تعادل ١ على ٣,٥ ، في حين ان هذه النسبة اذا طبقت على شواطئ ايطاليا ، مثلا ، لا تعادل حتى ١ على ٢ . ومناخ اليونان متنوع للغاية أيضا . ان اثينا من حيث عدد الايام الحارة للغاية من الغيوم تضاهي القاهرة والسويس ، اما جبال شبه جزيرة بيلوبونيز فيغطيها الثلج حتى تسعة اشهر في السنة مع انها غير عالية ، ولا يذوب الا مع حلول تموز (يوليو) . وهناك مناطق يهطل فيها المطر في الشتاء غالبا ، ومناطق اخرى يهطل فيها في الصيف من حيث الاساس . وتثبت في اراضي اليونان كل اصناف النباتات الموجودة في اوروبا تقريبا . وباختصار ، جعلت اليونان في ذاتها كل التنوع الجغرافي الذي يكفي قارة كاملة .

يصعب الحكم على درجة «مسؤولية» هذا الوضع عن ظهور تلك الحضارة العظيمة هنا ، ولكن من الواضح تماما انه لا يجوز عدم اخذه في الاعتبار . ان الشواطئ المتعرجة والخلجان والجزر واشباه الجزر التي لا حصر لها قد ساعدت في الاقل

على تطوير صيد السمك اول الامر ، ومن ثم الملاحة . وفي الوقت نفسه نعرف ان الظروف الطبيعية لليونان بقيت في حالها . هذا في حين ان اليونان المعاصرة ليست الا اكثر بلدان العالم تطورا .

لعلنا في هذه الحالة بالذات امام برهان واضح يشكل خاص على قانون التطور الاجتماعي القائل بان اسلوب الانتاج ، لا الوسيط الجغرافي ، هو الذي يمارس التأثير الحاسم في ارتقاء التقدم التاريخي ، بما في ذلك في تاريخ الانثوسيات : ان الظروف الجغرافية تؤدي دور عامل حث او ابطاء للتطور التاريخي ، بقدر ما يمكنه من هذا تطوير اسلوب الانتاج . لقد عمل علمائنا كثيرا لتبيان التأثير الذي مارسته الظروف الطبيعية لروسيا في جوانب معينة من تاريخها ، وفي تكون الانثوس الروسي القديم ، ومن ثم الشعوب السلافية الشرقية المعاصرة . وينبغي القول انه غالبا ما كان يبالغ في هذا التأثير سابقا .

يبدأ سولوفيوف ، اكبر مؤرخ روسي في القرن التاسع عشر ، مؤلفه المتمدد المجلدات حول تاريخ روسيا بفصل عنوانه «طبيعة منطقة الدولة الروسية وتأثيرها في التاريخ» . يقول سولوفيوف : «امامنا سهل شاسع ! ان الرحالة لا يقابل على مسافات بعيدة من البحر الابيض الى البحر الاسود ومن بحر البلطيق الى بحر قزوين اية مرتفعات تذكر ، ولا يلاحظ تغيرات حادة في اي شيء . ان قائل الاشكال الطبيعية ينفى التحليق بالمنطقة ويجعل السكان يمارسون اعمالا متماثلة رتيبة ، وتمائل الاعمال يخلق تماثلا في العادات والاخلاق والمعتقدات ، وتماثل الاعمال والاخلاق والعادات والمعتقدات ينفى الاستدلالات الناتجة عن العداوة ، والمبتليات الواحدة تشير الى وسائل واحدة لتلبيتها : والتسليق مهما كان شاسعا ومهما تعددت قبائل سكانه في البداية سيغدو عاجلا او آجلا منطقة لدولة واحدة . . . »

من الواضح انه عرض هنا رأي حول الصلة المباشرة بين الطبيعة والتاريخ . ان المؤرخين السوفييت ، مع كل

علمى التاريخ والأنتوغرافيا التى تطولى عليها العوامل الاقتصادية الاجتماعية فى عملية التفاعل بين الأنتوس والوسط الجغرافى ، توجهنا الى الأمثلة الخاصة نسبيا لتفاعليهما الديناميكى .

لقد نوه سولوفيوف ، بشأن متعم عملة كلوتشيفسكى ، بدور شبكة الأنهار بالنسبة الى روسيا (من الطريق أن الأنهار الجارية كانت اشد ما أعجب هيرودوت فى بلاد الإسكوثيين) . كانت الأنهار شراريين التجارة ، فعملية بالذات كان يمرر القروى الشميسر من «الفاريساغ الى الغريق» ، أى من سكاندنياقيا الى ييزنطة ، وكان من المريح إقامة المستوطنات على ضفاف الأنهار لا لاعتبارات تجارية فحسب ، بل لأن النهر كان يحمى المدينة او البلدة من الأعداء ، ويمنح الماء والسماك الخ . وأصبحت شبكة أنهار سهل أوروبا الشرقية الأساس لانتشار القبائل السلافية الشرقية فيه ، وفيما بعد ارتبطت الامارات الاقتصادية الروسية المتطورة فى القرون الوسطى بأحواض الأنهار لوقت ارتباط .

وفى الوقت نفسه ، كما نوه كلوتشيفسكى ، فإن «القرب المتبادل لأحواض أنهار السهل الرئيسية الى جانب الشكل الرتيب لتضاريس الأرض كان يمنح انزعاج أجزاء السكان المقيمة فيه عن بعضها البعض والانغلاق فى غلايا جغرافية مائية معزلة ، وابقى الاختلاف فيما بينها ، وأعد وحدة الشعب وساعد على توحيد البلاد فى دولة» .

ويكتب كلوتشيفسكى عن النهر انه «رب من نوع خاص على الشعور بالنظام والروح الاجتماعية فى الشعب . . . لقد ربي روح المبادرة وعادة العمل المشترك ، التعاونى ، وكان يرغم على التفكير والحذقة ويقرب أجزاء السكان المشتتة ويعلم الإنسان أن يشعر بأنه فرد فى المجتمع ، وأن يخالط الغرباء ويراقب أخلاقهم واهتماماتهم ، ويتبادل البضاعة والتجارة ويعرف المعاملة . يمثل هذا التنوع كانت الخدمة التاريخية للنهر الروسى» .

ويكتب كلوتشيفسكى فى تعابير رائعة أيضا عن مغزى

احترامهم للعالم الروسى الشهير سولوفيوف ، لا يعملون الى استخلاص استنتاجات قاطعة كهذه . ينبغي ألا ننسى ان سهول أوروبا الشرقية لم تكن تشكل دولة واحدة على امتداد ألفى السنين . كان ذلك سواء فى الألف الأول قبل الميلاد وحتى أواخر الألف الأول بعد الميلاد تقريبا ، فأوروبا الشرقية تكشف من لوحة لقيالي واتحادات قبلية لا حصر لها تتكلم بلغات مختلفة وتفرقيا على الصعيد السياسى العداوة فى أغلب الحالات او عدم التبالاة المتبادل على الأقل . ولا شك فى أن رقابة طبيعة أوروبا الشرقية سهلت الانتشار اللاحق للسلافيين فى هذه الأراضي الشاسعة : لم يكن ينبغي فى كل مكان جديد تحويل المجتمع الاقتصادى الثقافى وتكييفه مع ظروف جديدة للحياة ، فهذه الظروف بقيت على حالها . قال فلاديمير ليتين عن دور الحدود الجغرافية فى فترة التاريخ المبكرة : «فى ذلك العهد كان المجتمع والدولة أصغر جدا من حالهما اليوم ، وكانا يتصرفان بجهاز للمواصلات أضعف بما لا يقاس من جهاز اليوم ، فوسائل المواصلات المعروفة اليوم لم تكن موجودة فى ذلك الحين . وكانت الجبال والأنهار والبحار عقبات أكبر بما لا يقاس مما هى عليه حاليا ، فيجبرى تشكيل الدولة فى إطار حدود جغرافية أضيق بكثير» (لبنين - المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٩ ، ص ٩١ ، باللغة العربية) .

فى إطار الحدود الجغرافية بالذات ، أى الحدود التى عينتها الطبيعة لتلك الفترة التاريخية ، ظهرت أول دولة روسية عامة ، روسيا كيهف . اما غياب «العقبات الأكبر بما لا يقاس» فادى الى أن تمتد الحدود الجغرافية لروسيا كيهف ، وبالتالي حدودها السياسية ، على نطاق واسع نسبيا . ولكن حينما سميت قوانين التطور الاقتصادى الاجتماعى فيما بعد النعزجة الاقتصادية للبلاد ، كانت مميزة لروسيا بدرجة لا تقل عن البلدان التى لها تضاريس جغرافية متنوعة أكثر نسبيا ، كفرنسا او ألمانيا مثلا .

إننا ، وقد نوهنا بالأولوية الهامة مبدئيا بالنسبة الى

تجمع بناء السفن في القرون الوسطى ، وكان هذا من الأسباب التي جعلت الانكليز يشغلون مكانة متقدمة في التجارة البحرية الدولية ، مما حفز بدوره تطور الرأسمالية في البلاد وجعل انكلترا فيما بعد دولة استعمارية جبارة .

لم تكن انكلترا واليابان على امتداد قرون طويلة يبناني عن اهتمام شعوب القارة لأراضيها وحتى التزوج اليها بشكل جماعي . وهكذا فمئذ التي سنة وتيف زجح الى اليابان التي كانت مأهولة منذ الأزمنة الغائرة اهل الياقوت الذين صهروا او ازاحوا الى الشمال سكان البلاد الاصليين ، الاينيين ، وفي انكلترا التي كانت ايضا مأهولة منذ زمن بعيد تغلغل السكسونيون البريتون في اواسط الالف الاول قبل الميلاد ، والفاصل بين الرومان في اواخر القرن الاول قيسل الميلاد ، وفاصل الانكليين والسكسون ، واليوتيين الجرمانية في اواسط الالف الاول بعد الميلاد ، واحتل قادمون من ايرلندا جزء الجزيرة الشمالي ، سكوتلندا حاليا . وسيطر الدانمركيون طويلا على جزء كبير من انكلترا . وفي القرن الحادي عشر جرى أخير غزو اجنبي لانكلترا ، وكان على يد الدوق النورماندي هيوم «المعبد» . ان كل الشعوب المذكورة اضلعت بدورها في البنش السلتي للانكليز المعاصرين . وفيما بعد لم تكلل بالنتائج محاولات الغزو العديدة التي قام بها الملوك الفرنسيون والاسبان في الغرب والحكام المسيحيون والعول في الشرق . وهكذا نرى ان البحر لم يكن عائقا في وجه الاجانب الى ان بلغ المجتمع في انكلترا واليابان مستوى عاليا نسبيا من التطور .

تمة صفحات يارزة في تاريخ ايرلندا القديم تستحق الحديث عنها ، لانها مميزة بالنسبة الى الماضي السلتي للكثير من البلدان الجزيرية الموقع . ولم يكن من النادر ان تصبح هذه البلدان ملجأ للثقافة المتضررة زمن الاحداث العاصفة التي تجتاح القارة المجاورة . ففي اوائل العصور الوسطى زمن الحروب الدامية بين الدول الاقطاعية التي نشأت على انقاض الامبراطورية الرومانية المنهارة ، كانت

الغاية في التاريخ الروسي : «الغاية . . . كانت متاع الحياة الروسية على امتداد قرون عديدة : فقبل النصف الثاني من القرن الثامن عشر جرت حياة السواد الاعظم من الشعب الروسي في متلف الغابات . . . لقد قدمت القابة الى الانسان الروسي خدمات متنوعة ومنها خدمات اقتصادية وسياسية وحتى اخلاقية : بنت له بيتا من خشب الصنوبر والبلوط ، دفاته بالبتولا والجور ، اضاءت بيته بهذوة البتولا ، حذته نعل ، زودته بالاواني المنزلية والليف ، غذت الاقتصاد الوطني بالحيوانات ذات الفراء ويعسل نحل الغاية . وكانت الغاية آمن ملجأ من الاعداء الخارجيين ، فاستخدمها الانسان الروسي عوضا عن الجبال والحصون» . والغاية ، في رأي كلوتشيفسكي ، حمت دولة موسكو من السهب المعادي الذي كان يأتي منه الغزاة الرحل . بيد ان الثابة والانهار لم تضطلع بهذا الدور البارز الا في مرحلة معينة من تطور الاتوس الروسي .

يمكن التحدث كثيرا عن كيفية انعكاس الطبيعة والموقع الجغرافي في تراثنا مع العامل الاقتصادي الاجتماعي على مصير فرنسا او الجزائر او المكسيك او اي كيان سلافي اجتماعي آخر .

لعل الموقع الجزيري قد مارس تأثيرا واضحا جليا بشكل خاص في المصير التاريخي للشعوب القاطنة في اقصى غرب واقصى شرق اوراسيا . ان انكلترا واليابان هما اقصى غرب اوراسيا واقصى شرقها . وكانما التاريخ قد اوجد عمدا اتوس الجزر هذين ليبن ناتج الموقع الجزيري في مصير الشعوب . اولاً ، ان الموقع الجزيري اذا كانت شواطئ الجزر متعرجة يحفز تطور سيد السمك والملاحة . بيد ان الحكومة الاقطاعية في اليابان اتخذت في القرون الوسطى اجراءات تشيطة لمكانة التجارة البحرية البعيدة وبناء السفن . هذا الاجراء ، مهد فيما بعد لتخلف البلاد . ولكن ما ان تغير الوضع الاقتصادي الاجتماعي في اواسط القرن التاسع عشر حتى اخذت اليابان تموض عما فات . وفي انكلترا ، على العكس ،

ايرلندا احد اكبر المراكز الثقافية في ذلك الحين . وقد حمل اليابون من الفارة معهم العديد من الروائع القديمة في ميدان الثقافة المكتوبة والعلم والفن . ان المشرين الايرلنديين قد «نوروا» في الفترة من القرن السادس الى القرن الثامن حكم وسكان الكثير من دول أوروبا الغربية ، وفيما بعد ، حينما تباطأ تطور ايرلندا الاقتصادي الاجتماعي احتلتها انكلترا المجاورة التي انتهت مرحلة التجزئة الاقتصادية قبلها .

ان الرأي القائل بتأثير الوسط الجغرافي على ما يسمى الطابع السلائي او القروى يجد دعما له سواء في الحياة العادية او بين الكثير من علماء الاجتماع .

ان الاختلافات في اسلوب سلوك الجنوبيين والشماليين قد لوحظت منذ اقدم الازمنة . ويلاحظ ، فان حدة وحشية سكان القفقاس تلبثان النظري لدى المقارنة بين الابخازي والكاريلي ، مثلا .

والغلب الجبلين في حياتهم العادية ، حسب الرأي السائد ، اكثر انطواء وصمتا من سكان السهول . وهذا مفهوم : في الجبال يضطر الناس عادة الى العيش في مجموعات مغلفة صغيرة ، وامكان الاختلاط فيما بينهم اقل .

يصعب دائما تعيين ذلك الشيء في سلوك الانسان ، في طبعه المرتبط بشعب الحياة التقليدي ، الذي تحدده الظروف الاجتماعية بصورة حاسمة ، والشيء الناجم عن الفلسوف الجغرافية .

ان كل واحد منا يرى العالم من خلال ارضه الام . انها تملا انظار كل منا اما بالعشب الينع او بالثلج المتدرف او بسقف التخييل المرتفعة عاليا فوق الارض . ان منظر سرب الغرائيق في الخريف يرتبط في ذهن الشمال بشعور من الانتياض والحزن ويراه حاقلا بالشاعرية . فيل ينظر سكان افريقيا الشمالية على هذا النحو الى تحليق الغرائيق الى الشمال في الربيع ؟

لعل خصائص الطبع الشعبي وارتباطه بالارض الام يتجليان بوضوح خاص لدى المراقب الغربي . وهذا ما يكتبه

عن كروز ساكورا الياباني الصحافي السوقييتي اوتشيميتيكوف في كتابه «وجه فودزي الاول بعد السنة» : «لفهم روح اليابان ينبغي رؤيتها في الربيع ، حينما يزهر الكرز ، لان اوراق زهر الساكورا هي التجسيد المجازي للشاعري للطبع القومي الياباني . . . لا يكفي تكرار هذه العبارة المفضلة للنشرات السياحية . ينبغي شرح السبب الذي يجعل اليابانيين يحبون ويجعلون هذه الاعداق الوردية بالذات .

ان الربيع لا يحل الى الجزر اليابانية ذلك الجيشان للطبيعة ، حينما تحطم الانهار قيود الجليد وتحول مياه الدوبان السهول الى بحار بلا شطآن . والفترة المشوذة لاستيقاظ الطبيعة في البلاد تبدأ بتفتح زهور الكرز فجأة وبغزارة . . . وتفتح زهور الساكورا بغير العجب قبل كل شيء . يوفرت له الغزيرة وانفداعه وسخائه الامحدود .

ومعه الزهور تبعث على تهيج الشعور ايضا - ربما يدورجة اكبر - لكننا لا نذبل ، خلافا لغربها . واوراق زهور الساكورا تطير الى الارض ، مترافضة بمرح ، حتى لاخف نسمة من الهواء . انها تفضل السقوط نضرة على التخلل مشقال ذرة عن جمالها . . . »

من لم يسمح بالابتسامة اليابانية الشهيرة التي ينبغي المحافظة عليها حتى لدى الاعلام باعور لا تبعث على السرور ؟ يقتصر ان قدرة اليابانيين التقليدية على ان يتماثلوا انفسهم مهما كانت الظروف ربما كان مردها ، بين امور اخرى ، الى التهديد الدائم بوقوع كارثة طبيعية . واليابانيون ، حتى مقارنة بالشعوب الغربية اليهم ، يستخدمون في حياتهم اليومية كمية قليلة من الانتباه ، وهذا ايضا رد فعل على تقلب الظروف الطبيعية .

ان الحياة الصارمة ، الحافلة بالاختطار الدائمة ساعدت على ان تتطور في اليابان في القرون الوسطى تعاليم فلسفية اخلاقية على غرار الرواقية . فلطرح القيم الروحية في المقام الاول ، ودعى الانسان الى العيش بانسجام مع قوانين الطبيعة والاعتناء بالقليل وتوجيه الاهتمام الى «الروح» وحدها . واذا

الأمر الرئيسي والجوهري ، في الشعور والافتكار ، وفي القدرات والامكانات .

يعيش الزوج في النصف الشرقي من الكرة الأرضية ، إفريقيا ، وغربي قسمها الغربي ، ملائيزيا وجزر المحيط الهادئ ، ويمرّز اليهم أيضا الاستراليون السود عادة .

لا يقطن الجنس الأوروبي في أوروبا وحدها ، كما تقتصر تسميته . انه يشغل إفريقيا الشمالية كلها واسمها الغربية بالبرما (العرب من الجنس الأوروبي) . وهو يشغل سيبيريا (الروس) وإيران وأفغانستان والهند (ثمة في الهند زواج ايضا) . وفي خلال الاربعة سنة الأخيرة أصبح الجنس الأوروبي السواد الأعظم من سكان أميركا ، ولا سيما أميركا الشمالية .

ليس مصادفة ان يسمى الجنس الثالث - المغولي - بالجنس الآسيوي أيضا . ان الصين واليابان وبورما وإندونيسيا وجزر الفيليبين هي المنطقة الأساسية للجنس المغولي . وتنسب شعوب شمال أوراسيا الى الجنس المغولي . ويعتبر اغلب العلماء ان هتود أميركا من الجنس المغولي .

ان التقسيم الى اجناس لا يخلو من عنصر الاصطلاح . يعتبر ان الملامح الرئيسية المحددة ، من الناحية العرقية ، للجنس المغولي هي الشعر المستقيم الناعم ، والاذن المتوسط الاتساع بين الاذن الأوروبي الفتيق والاذن الزنجي العريض والوجه المسطح نسبيا ، وثنية الجلد فوق الجفن الاعلى ، ولكن الوجه بالنسبة الى هتود أميركا ليس مسطحا ابدا ، ويمرّز فيه اذن ضخم غالبا ما يكون محدبا . في حين ان هذا الاذن هو بالنسبة الى أي صيني سمة مميزة للجنس الأوروبي . (وقد اطلق في الصين يوما لقب «الشياطين ذوي الانوف الكبيرة» على المبشرين الأوروبيين الذين حاولوا الدعاية الى المسيحية هناك ، مهددين بذلك الطريق للاستعمار) .

ويعتبر الاستراليون من الجنس الزنجي ، ويشترتهم سودا ، بالفعل . ولكن شعرهم ، خلافا لسكان إفريقيا الاصليين ،

كانت قد ظهرت باستمرار في اليونان وأوروبا الغربية ، وفي الصين والهند ، بصورة موازية الى التيارات الرواقية والتشوكية في الفلسفة ، مدارس ذات اتجاه ابيقوري ، ان صرح القول ، تدعو الى التمتع بخيرات الدنيا ، فان هذه المدارس في اليابان اضلعت بدور اقل شأننا بكثير في الفلسفة القديمة وفلسفة القرون الوسطى .

كان النوري الديمقراطي الروسي العظيم ، العالم والكاتب تسميرنيشيفسكي محقا ، اذ امتنع من الرأي السائد الذي يزعم ان الشعوب الجنوبية كسلانة ، وان المناخ العار يضعف طاقتها . وأكد ان النواقص والفضائل ليست حكرا على هذه المنطقة من الأرض او تلك . وبالفعل ، هل يمكن التحدث عن كسل سكان الجنوب اذا كانت الزراعة والحضارة اجمالا قد ظهرت في البلدان الجنوبية بالذات ؟

في عام ١٩٧٢ كتب الجغرافي السوفييتي البارز اوتوشين ، ونحن نساطره هذا الرأي : «لا تتكون الامة الا في ظل الاختلاط المنتظم نتيجة النشاط الاقتصادي المشترك الطويل ، الأمر الذي يفترض قبل كل شيء واپئة الأرض مع ظروف معينة تخلف من خلال الانتاج طابعها على الامة الناشئة ، مسجلة عليها خصائص معينة تسمى بالذات القومي» .

الاجناس

الاجناس ، او بتعبير أدق ، الاجناس الكبيرة ، ثلاثة . وهي تسمى في التداول اليومي بالاجناس الابيض والاسود والاصفر ، وتسمى في العلم بالاجناس الأوروبي والزنجي والمغولي ، وتسمى ايضا بالاجناس الهندى - الأوروبي والاسترالي - الإفريقي والآسيوي .

تتباين الاجناس خارجيا : بلون البشرة والعينين ، بشكل الشعر والشفتين ، بطول الرأس واتساع الوجه ، بتشكيل الاذن . وتقول فورا وبكل تحديد ان الاجناس متساوية في

ليس ذا تعجيدات دقيقة ، بل ممتوج ، كما هو لدى اغلب الاوربيين . ويوجد بين الكثير من الاوربيين ، كالإيطاليين ، مثلا ، من له شعر ذو تعجيدات دقيقة .

لقد اتى الجزء الاعظم من البشرية نتيجة لاختلاط الاجناس . ففى اكبر بلدان اميركا الجنوبية - البرازيل - اختلط الناس من كل شعوب الدنيا تقريبا . فقد اتى الى هناك البرتغاليون وانكليز ، عرب وياپانيون . وجلب الى هناك من افريقيا عبيد من الزنوج . وكانت تعيش هناك يوما قبال متعديرة .

طبيعى ان آثار الفوارق العرقية بين البرازيليين لسم تمنحى بعد ، ولكن فى كل سنة يحتفل بهامبة فى البلاد بعيد العرق - اى عرق - العرق البرازيلى ، طبعاً . والانتروبولوجيون لا يوافقون الحكومة البرازيلية على صمد وجود هذا العرق - فسوف يمر وقت طويل الى ان يتكون . ولكن ستحل اللحظة التى قد يصح فيها هذا العرق حقيقة واقعة : اذ يعيش فى افريقيا الشرقية عرق الاثيوبيين الوسطى بين الزنوج والاوربيين الذى يجمع على نحو فريد فى مظهره الخارجى بين ملامح هؤلاء ، واولئك .

ان الانتروبولوجيين يعززون الكثير من التغيرات بين الكازاخيين الى الجنس السيبيري الجبرى الذى يشغل مكانا وسطا بين الجنسين الاوروبى والمغولى . فى الجنس الوسطى الكوريلى ، الذى لا يشبه سوى شعب الاينيين الصغير وحده ، وفى الجنس البولينيلى الوسطى تجمع - على نحو متباين - لكل منهما - سمات كل من الاجناس الافريقى - الاسترالى والاوربى والمغولى .

لا يمكن للاجناس الا ان تختلط ، وهذا مفهوم تاريخيا . وقد اعتبر شكسبير من الطبيعى زواج «مفرى البتدية» ، عطيل الاسود وديمونا الحساء . واذا كان معاصرو عطيل قد اعتبروا مظهر «الغريب» عجيبا ومقبحا وحتى مسبوخا ، فان ديمونا (وشكسبير) لم يكونا يشاطراهم اكرامهم . وهذا شئ واضح .

لقد كان الفرنسى اليكساندر دوماس ، مؤلف «الفرسان

البلالة» و«الكونت مونت كريستو» ، حفيد زنجية . ولم يكن المغبرى الروسى پوشكين سليل عائلات روسية وجية وغير وجية فحسب . بل وكان من سلالة «زنجى بطرس الاكبر» ، احد سكان شمال شرقى افريقيا الذى جلب الى روسيا . ان وجود الدم «الغريب» لا يمنع الناس من ان يصيحوا عظاما . يعتبر علماء كثيرون ان كل اجناس الارض مستندمج تدريجيا فى جنس كبير واحد لسكان الارض . ومنذ الان يكتشف الانتروبولوجيون عند الكثير من الناس ، حتى الذين يمثلون للدولة الاولى «شعلا صافيا» لهذا الجنس الكبير او ذاك ، سمات تشبه على «اختلاط الدم» منذ ازمة بعيدة او قريبة نسبيا .

منذ اربعة او خمسة الاف سنة قدمت من اسيا الى اوربا قبائل كانت اسلافا للشعوب الفنلندية الاوغورية . وهذه القبائل شغلت شمال اوربا الشرقية ، وربما جزءا من وسط اوربا ايضا ، حيث التقت اسلاف الشعوب الهندية الاوربية . وقد حمل الفنلنديون الاوغوريون القدماء معهم وفى ذاتهم جملة من سمات الجنس المغولى .

ان الفنلندى العادى او الاستونى العادى لا يشبهان ، طبعاً ، المغولى ولا البورياتى . ولكن نظرة الانتصاضى تلاحظ عند احد سكان شرق استونيا فتحة عين تشبه ما لدى المغولى ، وعند الآخر وبها مسطحا الى حد ما . والمجموع العام لبعض السمات العرقية المغولية المبهمة ، «المزعة» بين مختلف الناس يبدو ، فى رأى العلماء ، مقنعا بما فيه الكفاية .

ولكن بعض السمات فقط ، لا اكثر . وهذا نتيجة لاختلاط السكان المحليين والدخلاء .

لقد حمل الدخلاء القدماء السمات المغولية من اسيا الى اراضى اوربا الشرقية والوسطى . ومن الجنوب تغلغل الافارقة فى اوربا على امتداد الالف السنين . ولا يلاحظ الانتروبولوجيون «شواذبهم» عند الاسبان والبرتغاليين والاطاليين وسكان جنوب فرنسا فحسب ، بل يجدونها ايضا فى مناطق ابعد ،

في المناطق الشمالية الغربية ، في أيرلندا ، يبدو أن سكان «الثقارة السوداء» بقوا الوف الستين ينزحون إلى الشمال ، وإن كان ذلك منذ قديم الأزل ، حيث خلفوا آثارهم في هذه المناطق البعيدة . ومع ذلك لم تتغير الصفات الجسدية الأساسية للشعوب الأصلية .

من المعروف أن أراضي بيزنطة وقعت تحت سلطة الأتراك نهائيا منذ خمسمئة سنة ونصف . ولكن الأتراك المعاصرين يشبهون بظهورهم الخارجي أولئك البيزنطيين أكثر مما يشبهون الأتراك القدماء الذين وراثوا لغتهم .

وتمة أمثلة أخرى من هذا النوع . أن تاريخ شبه جزيرة البلقان معتقد ومتشابه إلى أبعد حد ، قبل أن يصبح السلافيون ، سكان يوغسلافيا وبلغاريا الحاليين ، اصحاب جزئه الأكبر ، اجتاحت البلقان موجات تنقلات كبرى للشعوب ، ومن بينها الفوطيون والهون والأفارزيون وشعوب أخرى لأعد لها ولا حصر .

ولكن سلافيا البلقان يشبهون خارجيا ، من حيث الأساس ، سلافهم من الشعوب القديمة ، مثل الأيليريين الذين عاشوا غربي البلقان والفرانكيين الذين ظفونوا نسي شرق شبه الجزيرة . ويشير التشابه هنا إلى صلة قريبي مباشرة وأعمق تاريخيا .

ما الذي يجعل ذكرى الماضي المندوجة في مظهر الناس ذاتة حية إلى هذه الدرجة ؟ يجب أن نعتد قبل كل شيء ، على قاعدة عامة بالنسبة إلى التاريخ وهي أن الدخلاء عادة أقل من المقيمين القدماء ، أما الغزاة فانهم على الغالب ، وربما دائما ، أقل من الذين يتعرضون للغزو . ويمكن القول أن الذين يتعرضون للغزو يحزرون ، بدورهم ، انتصروا على الغزاة . هذا إذا كان الشعب راسخا في استقلاله . وغالبا ما يخلف المغلوبون في مظهر الاخلاف الخارجي انرا اوضح بكثير مما يخلفه التأليبون .

إن الفاتحين المتكبرين الذين يسمون انفسهم «جملة المهيبة» أو «أخلاف الالهة» وغير ذلك ينفصرون بسرعة

مدعشة بين الذين يدفون الاتاة اليهم ، أو حتى بين عبيدهم . فالنظام الغزوي الفاتح الضارعة في الهند ، الذي يمنع متما باتا الزواج بين الدلتا ، لم يستلغ في آخر الامر ان يسمد الى النهاية في وجه هذا الاختلاط . بين اليهود المعاصرين اناس يعزون الى الجنس الاوربي ، وبينهم افاقة ايضا . ولكن ملايين عديدة من سكان هندستان يحملون في وقت واحد سمات الجنسيتين الاوربي والافريقي . انهم في آن معا اخلاف سكان الهند الاصليين القاتمي البشرية و«قزاتهم» الاوربيين الاربيين الذين اقتصدوا الهند منذ حوالي ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة (وهم) علاوة على ذلك ، اخلاف مئات الشعوب الأخرى التي خلضت وخضعت .

يمكن القول ان الذين يتعرضون للغزو يحزرون ، بدورهم ، النصر على الغزاة . ومن حيث المظهر الخارجي للاخلاف المشتركين غالبا ما يكون تراث المهيومين ملحوظا أكثر بكثير من تراث المتضررين .

وهذا امر مفهوم . فالعدو الذي يحول في المجتمع الطبقى الى عبيد أو قن يورف دخلا الى «السيد» . وينبغي ان يؤخذ في الاعتبار ايضا انه حتى اقصى الفاتحين لسم يكونوا يبيدون النساء في الاراضي المهورة سواء في المجتمع الطبقى أو في المجتمع غير الطبقى . ان قبيلة الكاريبيين الهندية ، التي انتقلت من القارة الى جزر اميركا الوسطى ، ابادت قبيلة الاراكايبين التي كانت تعيش هناك . أو بالأحرى ابادت نصفها ، لان النساء الاراكايبات اصبحن زوجات للكاريبيين . وبالنسبة ظهرت حالة نادرة ، وإن لم تكن شاذة في التاريخ : عند قدوم الاسبان كان الرجال هناك يتكلمون بلغة ، والنساء بلغة أخرى .

ولكن تكفي نساء الشعب المهزوم وحدهن لجعل اخلاف المتضررين اخلافا للمهزومين ايضا . هذا مع العلم انه لم تكن تجري عادة اياةة الاطفال والغلب الرجال .

ينبغي الاعتراف بان بعض المؤرخين كانوا حتى امد قريب يبالغون احيانا كثيرة ، وإن كان ذلك من غير قصد ، بدور

الدخلاء في تاريخ الشعب نتيجة «اختلاط الدم» ، مستخفيين بمغزى السكان الاصليين الذين عاشوا في الاراضى ذاتها قبل قدوم اولئك اليها . وكان هؤلاء الباحثون يتبعون هنا الاساطير التى افنتها الشعوب نفسها ، غير متذكرة الا الاحداث الاخيرة المرتبطة بظهورها .

وبالمناسبة ، لعلنا تحدثنا كثيرا عن الفتوحات . ولكن الشعوب لا تلتقى وتختلط نتيجة لحملات الغزو وحدها . فهناك مجرد هجرات ايضا .

منذ ثلاثة آلاف سنة صارت القبائل المهاجرة تدريجيا من شبه جزيرة العرب الى ما بين نهري دجلة والفرات تسيطر على نهاية المطاف باهم دور في بابل ، على الرغم من انه لم تكن هناك ، كما يبدو ، حملات لجنوش جرارة ولا معارك ضارية . فى ختام عمرتنا لهذا القسم نذكر بالتعرف العوجى للاجناس . ان الاجناس هي اقسام لتوع «الانسان العاقل» الذى تمتلئ البشرية المعاصرة ، وتتسم اجناس الانسان بخصائص جسمية موروثية مشتركة ترتبط بوحدة الاصل ، وهذا الاصل يسبق ظهور الشعوب - الانثوسات ، الروابط الاحدث تاريخيا ، الى الروابط الاجتماعية من حيث المبدأ

هرم اللغات

ان الروسى والاوكرانى والبييلوروسى يستطيعون اجمالاً ، وان كان ذلك لا يخلو من الصعوبة ، ان يفهموا حديث بعضهم البعض . اما الروسى والبولندى والصربى والبيلغارى فلا بد لهم من مترجم . ان اللغات الروسية والاوكرانية والبييلوروسية «شقيقات» . وللغات الروسية والبولندية والصربية والبيلغارية «جدة» مشتركة ، هي اللغة السلافية الاولى . وكلما كانت القربى بين اللغات اوثق وكان الزمن الذى عاشته كلغات متصلة اقصر ، كان التفاهم بينها اشد . منذ اثني عشر قرنا كان السلافى من الدنيبر لا يحتاج الى مترجم لدى التحدث مع ساكنى وادى نيسلا ، اذ كانت لغات السلافيين الجنوبيين

والغربيين والشرقيين متشابهة اكثر مما هي الان بكثير . واذا اوغلنا في الماضى ثلاثة آلاف سنة نجد ان الاسلاف المشتركين للسلافيين واللاتفيين والليتوانيين كانوا يتكلمون بلغة واحدة . واذا اوغلنا ايضا بضع مئات اخرى من السنين نسمع اللغة الواحدة للاسلاف المشتركين للسلافيين والالمان .

لعله يصلح هنا التشبيه بنظرية الكون المتوسع ، وهى القائلة بان مجراتنا كلها كانت متركة - قبل انفجار كوثى معين - فى نقطة واحدة من الفضاء . ومع تعمقنا فى الماضى يتقلص «عالم اللغات» : عوضا عن اكثر من عشر لغات سلافية نجد اللغة السلافية المشتركة (السلافية الاولى) ، ثم تتحد اللغة السلافية العامة مع اللغة البلطيقية العامة ، ثم (قبل ذلك) مع اللغة الجرمانية العامة (جدة الالبانية والانكليزية والسويدية) . لقد انفصلت اللغتان السلافية الاولى والجرمانية الاولى (مع لغتى الكيلتيين والايطاليكيين وغيرهما) عن اللغة الاوربية القديمة . وجاءت اللغة الاوربية القديمة مع اللغات الهندية الايرانية وغيرها من حضن اللغة الهندية الاوربية المشتركة التى كان يتكلم بها (او بتعبير ادق ، بمجموعة لهجاتها) الاسلاف المشتركين للاوكرانيين والايرانيين والانكليز والهنود والارمن واليونانيين . وسنجد الصورة نفسها اذا توجهنا الى اللغات الاخرى سواء منها العربية او الاسيائية او الاميرية . امامنا هرم يقف على هامته .

كيف امكن رؤية هذا الهرم ؟ ان التشابه بين اللغات ذات القربى ملحوظ ، طبعاً ، بما فيه الكفاية حتى بالنسبة الى غير الاختصاصى ، وانه لمن الاصعب بكثير تتبع صلة القربى الاكثر بعداً . منذ اربعةة سنة كان الايطالى فيليب ساسينى اول من لاحظ ، بعد ان زار الهند ، التشابه بين الكلمات الايطالية واللاتينية والهندية . وفى ذلك العهد نفسه قسم الهولندى يوسف يوستوس سكاليجير اللغات الاوربية الى احدى عشرة مجموعة حسب درجة تشابهها . ووضع العالم الليتوانى ميخايلو ليتوانوس قائمة بالكلمات الليتوانية

الشبيهة بما يتألفها من الكلمات اللاتينية . وأثار التساؤل بين اللغتين الفنلندية والمجرية انتباه الفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني ليبنتس . وكتب العالم الروسي العظيم ميخائيل لومونوسوف عن صلة القرابة بين اللغات اليونانية واللاتينية والروسية والألمانية . وفيما بعد ، منذ قرابة مئتي سنة ، صدر في روسيا «القاموس المقارن للغات واللهجات جميعاً» ، وهو الأول من نوعه في العالم ، وقد وضع «ببساطة» ، حيث ترجمت الكلمات الروسية إلى لغات العالم كلها التي وجد مترجمون لها . وقد راعت طبعة القاموس الأول مئتي لغة في أوروبا وآسيا . وأخذت الطبعة الثانية في الاعتبار مئتين واثنين وسبعين لغة كانت بينها هذه المرة لغات إفريقية وأميركية .

ينبغي إعطاء العلماء حقهم من التقدير ، فإن إيمانهم لا تقدم اليقظة الحقيقية فحسب ، بل وتقدم معها الإحساس نفسه بقوانين التاريخية والروحية للشعوب أبعد وأبعد .

يقال إن اللغويين «يستحضرون جواز البلوط حسب شجر البلوط» . بيد إن هذا التشبيه ليس صحيحاً تماماً . فتمتد ألف أو خمسة أو عشرة أو عشرين ألف سنة لم يكن الناس يتكلمون بجنس لغة من اللغات العالية ، بل كانوا يتكلمون بلغة أخرى . وإذا كان الاختلاف في عالم الحيوان أكثر تطوراً من الأسلاف كقاعدة عامة ، فإن هذه القاعدة في عالم لغة الإنسان لا تسرى دائماً . فليس من البساطة أبداً القول عن لغات الألف الأخيرة من السنين أنها تتحسن أو تسوء . القضية تنحصر في أمر آخر : أنها تتطور وتتغير دائماً . لا يجوز تشبيه اللغتين اللاتينية والفرنسية بالحية والسنبلة ، مع أن الفرنسية تطورت من اللاتينية .

حتى اللغات الحية المعاصرة لم تدرس بالمعق الذي يريده الاختصاصيون . ومن باب أولى أن يطبق هذا على ماشى اللغات . تجرئ ، مثلاً ، على أساس تحليل اللغة المعنوية مناقشات ساذجة حول ما إذا كان الهنديون - الأوروبيون الأوائل مربي ماشية أو مزارعين بالدرجة الأولى . كانت تربية

الماشية موجودة عندهم بلا شك : لقد اضطلعت الأرقام بدور كبير في اقتصادهم ، أما الانتشار المدهش باتساعه للغات الهندية - الأوروبية فيرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع إن الهنديين الأوروبيين كانوا ، كما يرى علماء كثيرون ، أول من دجن الحصان ، وهو بالذات الذي منحهم تفوقاً معيناً في الاضطرابات مع الشعوب الأخرى . بيد أن الكلمة اللاتينية «ليبير» - «الحر» - تعني قبل كل شيء ، كما يفترض بعض اللغويين ، «المزارع الحر» ، أما المصطلح اللاتيني «العبد» فيأتي من تسمية مربي الماشية - الراعي . وهكذا فإن المعارضة بين «الحر» و«غير الحر» ترجع حسب المعطيات اللغوية إلى المعارضة بين «غير الغريب» ، «المزارع» و«الغريب» مربي الماشية .

يودنا هنا أن نورد أدبياتاً لشاعرنا السوفييتي مارشاك :

على الكلمات طابع أحداث وأمر .
بالحمد قالها الإنسان
«عصر» ، «مئذ عصر» ، «أبد العصور» ،
«عاش عصر» ، «مضى عصره والأوان» ،
«عش عصرنا تعرف دقائق النفوس» .
في الكلمات رنة لوم وغضب وأحزان .
كلا ليس هذا يقاموس .
بل قصة مبعثرة من قديم الزمان .

ننوه بأنه يمكن حتى انطلاقاً من الكلمات غير الموجودة في هذه «القصة» التعددت كثيراً عن الشعب الذي أتقها . إن الكثير من اللغات الهندية الأوروبية ، مثلاً ، اقتبست للتعبير عن مفهوم «القناعة» الكلمة التي أطلقها المصريون عليها . وهذا يعني أنه لم تكن عند الهنود الأوروبيين الأوائل كلمتهم القديمة للتعبير عن منشآت الري ، لأن الآفنية نفسها لم تكن قد وجدت عندهم بعد . والقصة تقول كذلك أنه لم تكن عند الهنديين الأوروبيين الأوائل دولة مركزية واحدة ، ولا كتابة . ويبدو أن هذين الظرفين اضطلعا - مهما يبدو في

التي ينفق اعطاء العلماء حقهم من التقدير ، فإن إيمانهم لا تقدم اليقظة الحقيقية فحسب ، بل وتقدم معها الإحساس نفسه بقوانين التاريخية والروحية للشعوب أبعد وأبعد .

يقال إن اللغويين «يستحضرون جواز البلوط حسب شجر البلوط» . بيد إن هذا التشبيه ليس صحيحاً تماماً . فتمتد ألف أو خمسة أو عشرة أو عشرين ألف سنة لم يكن الناس يتكلمون بجنس لغة من اللغات العالية ، بل كانوا يتكلمون بلغة أخرى . وإذا كان الاختلاف في عالم الحيوان أكثر تطوراً من الأسلاف كقاعدة عامة ، فإن هذه القاعدة في عالم لغة الإنسان لا تسرى دائماً . فليس من البساطة أبداً القول عن لغات الألف الأخيرة من السنين أنها تتحسن أو تسوء . القضية تنحصر في أمر آخر : أنها تتطور وتتغير دائماً . لا يجوز تشبيه اللغتين اللاتينية والفرنسية بالحية والسنبلة ، مع أن الفرنسية تطورت من اللاتينية .

حتى اللغات الحية المعاصرة لم تدرس بالمعق الذي يريده الاختصاصيون . ومن باب أولى أن يطبق هذا على ماشى اللغات . تجرئ ، مثلاً ، على أساس تحليل اللغة المعنوية مناقشات ساذجة حول ما إذا كان الهنديون - الأوروبيون الأوائل مربي ماشية أو مزارعين بالدرجة الأولى . كانت تربية

الامر من مفارقات - بدور هام في انتشار الشعوب الهندية الاوربية في ارجاء الارض : لم يكن ثمة ما يبقى القياصل المستقلة في اراضيهم المشتركة الاولى ، ولم يكن ثمة ما يعزز صلتهن ويمنع جولتهن البعيدة ، فانطلقوا من وطنهم الاول وتبعثروا في العالم .

يبدو ان الشعوب تتبع نسبها بدقة اكثر من السابق ، وتكشف جذوره بيزيد من الحق .

ان هرم اللغات الاوربية هو واحد فقط من الاجزاء المكونة «ليرم لغوي» اكبر ، وهو ما يسمى باللغات النوستراتية . فقد يرهن على وجود صلة قرى بعيدة بين الاسر اللغوية الكبرى في افريقيا واوربا وآسيا : الافريقية الاسيوية (السامية - الهامية) ، الكارتفيلية ، الهندية الاوربية ، الدرافيدية ، الالطانية . وثلاث من اللغة النوستراتية الاولى القديمة اللغات الاسيكوسية - الالبوتية واللغتان اليابانية والنيغية واللغات التشموكوتية ، الكامتشائية وبعض اللغات الاخرى .

والاسرة النوستراتية العليا ليست منعزلة . فهم تضم ، مثلا ، الشعوب الاوغرو - فنلندية واعضاء الاسرة الالطانية الذين يصر بعض العلماء على ربط لغاتهم بجملة من اللغات الهندية في اميركا . وحتى انه اخترعت تسمية لهذه الاسرة «ما بين العالدية» ، حيث يجري الحديث عن الشعوب التيقيفلندية على اسمي مثلها الذين يعيشون في اقصى الشرق (في اميركا) وفي اقصى الغرب (في اوربا) . كم هي بعيدة لغات افريقية الشمالية وشمال الازوال ، اسيكو غرونلاند وشعوب الهند ، ولكن العلماء وجدوا فيها سمات القربى البعيدة والصلات القديمة . ويبدو انه يتسنى وصل لغات سكان استراليا الاصليين بلغات شعوب جنوب الهند - وثمة اسر لغوية كثيرة تبدو الان متباعدة تنتظر العثور على رابطة توحيدها .

ان لغتنا دائمة ومتغيرة في الوقت نفسه .

ويمكن ان نبرز فيها ، من ناحية الرسوخ ، ما يسمى

«القاموس الاساسي» ، وهي الكلمات التي تعني مفاهيم تبدو انها لا تخضع للزمن (او لا تخضع الا قليلا) . ان الانسان يعيش في المجتمع دوما ، ولذا يحتاج الى استخدام الضمائر الشخصية ، «انا» و«نحن» ، «انت» و«هم» ، الى آخره . ومن المفهوم ان اللغة مستجيبة بدون كلمات معينة (اصطلاح على ان عددها يقارب المئتين) . ولكن القاموس الاساسي يتغير ايضا . اذ تختفى كلمات وتحل مكانها كلمات اخرى . وهكذا ، فمئذ الف سنة تقريبا انت الى اللغة الروسية كلمة «سبيننا» («ظهر») وقيل ذلك كان الظهر يسمى «غورب» اي «حديقة» . ونتموه بان الهم هنا ليس ، على ما يبدو ، كون القاموس يتغير ، بل كونه يتغير بقانون معين وبسرعة واحدة وسطيا في مختلف اللغات . وقد حسب انه في غضون الف سنة يذهب ويتبدل من «الكلمات الرئيسية» المئتين ٣٩ كلمة تحل مكانها كلمات جديدة ، وفي هذا الصدد ادوج اللغويون في الاستعمال مفهوم «معامل ديومعة المفردات» ، وهو يعادل ، كما نرى ، ٨٠,٦٪ وسطيا في الالف سنة . وهذا يعني انه يمكن ان نحسب بواسطة عدد الكلمات المشتركة في لغتين قريبتين الزمن الذي انفصلت فيه هاتان اللغتان ، ويتعبير آخر ، يمكن ان نستوضح متى اصبح اتنوسا مستقلين ، وكيم من القرون مضت منذ ان كانا يتكلمان بلغة مشتركة ويتكلمان اتنوسا واحدا .

في اوجاء شاسعة من شمال الاتحاد السوفييتي يعيش النيشيون ، وغير بعيد عنهم ، في تايمير يعيش التغاناسانيون ، وبين نهري اوب وبيتيهيه يعيش السيلوكيون . وهم جميعا يتكلمون بلغات سامودينية تربطها صلة القربى . ومن بين هذه اللغات اللغة الكاماسينية المندثرة حاليا ، والتي كانت شائعة في ساياي . متى انقسمت اللغات السامودينية ان عد الكلمات المشتركة في اللغتين النيشية والتغاناسانية يبلغ ٥٥٪ وفي النيشية والسيلوكية ٤٨٪ . وهناك ٤٦-٤٩٪ من الكلمات المشتركة في اللغتين النيشية والكاماسينية ، وفي اللغتين التغاناسانية والسيلوكية ، وفي اللغتين

ووحيدة المقطع ولا لتغير صيغها . وثمة لغات يتوقف فيها معنى الكلمات ومعنى العبارات على النغمة الموسيقية للكلمة أو العبارة . ويمكن إيراد أمثلة كثيرة لهذه .

ولكن لكل لغات العالم - العربية والإنكليزية ، السواحلية والأوكرانية ، اليابانية ولغة هنود الأيمارا - بعض الملامح المشتركة . يتحدث اللغويون عن الكلمات اللغوية ، وهي القواعد السارية بقوة واحدة في لغات كوكينا ولهاجاته كافة . ومن المؤكد أننا لا نعرف إلى الآن هذه الكليات جميعاً ويمكن ابتداء اقتراحات فقط . حول تفسير الكثير منها : قد يتوقف شيء منها على مجرد بناء الجهاز الصوتي للإنسان ، وقد يتوقف شيء آخر على قوانين تفكيرنا العميقة ، الأساسية الخ . من الطبيعي أن تشير الاختلافات انتباهاً أكثر من أي شيء آخر . يبدو لنا عادة أن الأهم هو كون التالطين بلغات مختلفة لا يتفاهسون . ولكن المنظرين للغويين ، الذين يتصورون جيداً الاختلافات الممكنة مبدئياً بين اللغات ، يعتبرون تنوع اللغات الفعلي ليس بلا حدود كما قد يبدو . بل العكس هو الصحيح .

إن أعمال اللغويين تجعلنا ندرك بدرجة أكبر بكثير قرباننا للشعوب العالم الأخرى ، ولا بد من إعلاء العلماء حقهم من التقدير ، لأن استقصاءاتهم لا تجلب إلينا الحقيقة وحدها ، بل تجلب معها أيضاً الاحساس بقرباننا التاريخية والروحية لشعوب أبعد فأبعد .

الشعوب والدين

انتهت في أوائل القرن السابع عشر الحرب التي خاضتها هولندا ضد إسبانياً من أجل الاستقلال . وقد تحررت المقاطعات الشمالية من هولندا حينذاك من سلطة الملوك الأسبانيين وأصبحت فيما بعد دولة مستقلة . وبقيت المقاطعات الجنوبية ملكاً لإسبانيا . وقد عرت الحدود الدولية بين فلانرا والمقاطعات الجنوبية الأخرى وهولندا . ولكن عهده

الغفاناسانية والكاماسينية ، وفي اللغتين السيلوكوبية والكاماسينية . ويبين الحساب أن تفكك اللغة السامودينية المشتركة جرى منذ ألفي سنة تقريباً ، ويبدو أن النينيين والغفاناسيين بقوا بعد هذا يشكلون اثنوساً واحداً ، وانقسموا في وقت متأخر ، في القرن السادس الميلادي تقريباً .

هذا الحساب ليس ، بالطبع ، دقيقاً دائماً بما فيه الكفاية . فبنسبة الكلمات المشتركة في اللغات التركية ، مثلاً ، هي أكثر «معاً ينبغي» بكثير ، إذا لم يؤخذ في الاعتبار سوى المعامل العادي لديومنة المفردات . ومن التفسيرات المحتملة هو أن شعوباً تركية كثيرة كانت تقضي معاً على امتداد الألفي سنة الأخيرة دول كبيرة ، مثل الغفانية التركية وغيرها من تشكيلات الدول الضخمة في القرون الوسطى ، وفي غضون ذلك بقي عدد كبير من الأتراك رحلاً يغيرون أراضهم من حين إلى آخر . وبالنتيجة كانت الانتموسات المختلفة الناطقة بالتركية مترابطة وأعيد اختلاطاً فيما بينها مما يحدث لدى الانتموسات «وسطية» . وانعكس هذا على تباطؤ التوبة التي تفرقت بها اللغات «كل إلى جية» .

لا يزال من الصعب حتى مجرد افتراض موقعي المركزين اللذين انطلق منهما انتشار اللغات الأفريقية - الآسيوية أو الأفريقية وهذا يعني أن انعام المؤرخين واللغويين وعلماء الآثار عملاً كثيراً جداً .

ولكن كل البراهين والاقتراحات في صالح القربى بين اللغات تبنت على خلفية الفرضيات التي تؤكد أننا جميعاً ، سكان العالم كلهم ، نتكلم بلغة واحدة من حيث المبدأ . إن كل واحد منا ، طبعاً ، يكتشف بدهشة عاجلاً أو آجلاً أن صيغ لغته المألوفة لديه ليست حتمية بالمرّة بالنسبة إلى كلام البشر . ويعرف علم اللغة أشياء مذهشة من وجهة نظرنا الذاتية .

في لغة الاسكيو من الصعب جداً تجزئة العبارات إلى كلمات . وكل الكلمات تقريباً عند الصينيين قصيرة جداً

الحدود لم تكن تفصل بين ممتلكات الملوك وراء البحار عن الجمهورية المستقلة فحسب ، بل كانت ايضا حدودا بين ممتلكات كنيسيين . فقد استطاعت محاكم التفتيش بعت الكنيسة الكاثوليكية في المستعمرة الاسيانية . وانتشرت البروتستانتية في هولندا .

يقطن في بلجيكا المجاورة لهولندا الحالية شعبان : الفلمنك الذين يتكلمون باحدى اللغات الجرمانية ، والفالونيون ولغتهم الفرنسية . ومن البديهي ان يخلق هذا معضلات معينة - المناقشات في البرلمان ، صعوبات التعليم المدرسي والجامعي الى آخره - ولكن لا توجد ، طبعاً ، اية مسوغات لافتراض ان بلجيكا ستستمر يوما الى قسمين . ان التاريخ المشترك صهر بشدة شعبي البلد الواحد ، وحتى ان بعض العلماء يتحدثون عن ظهور اتنوس بلجيكي بلغتين . ولا ينبغي ان ننسى ايضا دور الدين المشترك ، الكاثوليكية ، في اتحاد الشعبين هذا .

بعد قرنين من الحرب ضد اسبانيا من اجل الاستقلال اضطلع الدين بدور كبير في جعل هولندا وبلجيكا دولتين منفصلتين كل واحدة منهما مستقلة عن الاخرى . بقرار من مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، الذي فرض «نظام المنتصرين» في اوروبا بعد حروب نابليون ، وضعت بلجيكا تحت سلطة الملك الهولندي . ولكن ما لبث البلجيكيون - الفلمنك والفالونيون - ان انتفضوا وانفصلوا . لقد كان الفلمنك من حيث اللغة اقرب بكثير الى الهولنديين (يستطيع التاطقون باللغتين التغام عمليا) منهم الى الفالونيين ، ولكن المصالح الاقتصادية المشتركة والتاريخ المشترك على امتداد قرنين والدين المشترك وحدتهم مع الفالونيين ، وكانت الغلبة لكل هذا . . . واضطلعت الاختلافات الدينية ايضا بدور في كون الكرواتيين والصربيين ، الذين يتكلمون بلغة واحدة ، يشكّلون شعبين مختلفين ، اذ ان الكرواتيين كاثوليك ، والصربيين ارتودكس . بيد ان ذلك الانفصال الديني نفسه في هذا المثال التاريخي ، شأن الامثلة السابقة ، هو نتيجة

احداث سياسية ملموسة . ان كرواتيا ، خلافا لصربيا ، كانت في يوم من الايام جزءا من الدولة التركية ، وكانت منذ القرن الثاني عشر الى عام ١٩١٨ باستثناء فترات قصيرة من الزمن ، جزءا من الامبراطورية النمساوية . اما صربيا فكانت مستقلة حتى القرن الخامس عشر ، ثم تاضلت خمسة قرون تقريبا ضد النير التركي ، ولم ياتها الدين من الغرب ، بل من الشرق ، من بيزنطة ، ولذا اصبحت ارتودكسية .

احيانا يضطلع الدين - وذلك ، طبعاً ، على الاساس الاقتصادي والاجتماعي الذي يخلقه العصر المعنى - بدور اكثر اهمية بالنسبة الى تاريخ الشعب .

تمتد الدول العربية من الخليج العربي الى ساحل موريتانيا على الاطلسي عبر آسيا وافريقيا .

ان الكثير من شعوب شمال افريقيا وبعض شعوب آسيا الامامية سالت تتكلم العربية نتيجة الفتوحات التي قام بها الغزاة العرب في اوائل القرون الوسطى . اما قبائل الرحل المشتتة العديدة في شبه جزيرة العرب فاصبحت قوة عسكرية وسياسية جارية قادرة على القيام بفتوحات كذده حينما اتحدت في شعب واحد . واتحدت تحت راية ديانة واحدة ، وهي الاسلام . ومن المفهوم انه كان يجب ان تنتج الظروف الاقتصادية - الاجتماعية لهذا الاتحاد ، ان الايمان بالله الواحد الاحد اصبح من الناحية السياسية شكلا للاعتراف بالدولة الواحدة ، والدولة التي توحد الكثير من قبائل الرحل تكون عادة في الازمنة الاقطاعية ، كما تبين تجربة التاريخ ، دولة محاربة ومظفرة . وقد اندفع الاف من محاربي محمد وخطافه الى الشمال والغرب والشرق والجنوب . انهيارت سلطة بيزنطة في سورية ومصر ، وضم الى الخلافة الكثير من بلدان افريقيا وآسيا ، وفارس وارمنيا وجورجيا والجزء الاكبر من آسيا الوسطى . بقيت الخلافة الواحدة امدا قصيرا نسبيا ، وبقيت لغات ايران وما وراء النهر ، الفارسية وآسيا الوسطى في اراضيها السابقة ، ولكن اصبحت اللغة والثقافة الموريتان سائدتين في اوجها ، شامعة .

اليوم يتحدث الانوغرافيون عن الانفوسات المصرية والجزائري والليبي وغيرهما ، ولكن اناس هذه الشعوب يعزون انفسهم الى امة عربية واحدة .

كانت فتوحات جنكيز خان اقرب الينا من حيث الزمن وشملت اراضى اوسع ، وبقيت الامبرطورية المغولية الواحدة حوالى مئة وخمسين سنة . ولكن لا يوجد «عالم مغولى» ، ولا يتحدث اخلاف الشعوب التي هزمها المغول بلهجات اللغة المغولية .

بقيت مصر مثاث السنين مملكة لاخلاف بطليموس لافوس ، احد قواد امكندر المقدونى ، ثم ولاية لروما وبيزنطة . وقد عاش هناك مئات الالوف من اليونان ، وكانت اليونانية لغة بلاط البطالسة ودواوين حكام الولاية ، ولكن مصر لم تعتنق ديانة اليونان البيزنطيين . وحتى حينما انتصرت المسيحية فى وادى النيل ، اصبح اغلب سكانها اتباعا لطائفة هرطقية عن وجهة نظر الحكام البيزنطيين .

اما الاسلام فقد اعتنقت مصر بسرعة من الناحية التاريخية ، ولكن احتاجت اللغة العربية الى الف سنة تقريبا لتتجزم اللغة المحلية . وكان آخر من تبنى اللغة العربية فى البلاد ، وذلك فى القرن السابع عشر ، المسيحيون - الاقياط - المصريون ، ميثقى على لغتهم «ما قيل العربية» كلغة لاداء الشعائر الدينية فى الكنيسة .

نوه هنا من اجل العرض اللاحق لموضوعنا ايضا بان الدين اضطلع ولا يزال يضطلع - على الاساس الاجتماعى - الاقتصادى لكل عصر على حدة - بدور هام فى تاريخ الشعوب .

الاسم على مر العصور

لكل شعب عناصر تقريبا عدة القاب واسماء . لمة تسمية ذاتية يطلقها الشعب على نفسه ، فى حين يسميه الجيران على نحو آخر .

يبدو ان الروس ، مثلا ، ينبغي ان يبقوا روسا مهما كانت اللغة التي تنطق بها هذه التسمية . ولكن شعب الساميين الصغير الذى يعيش فى الشمال الاقصى للنسيم الاوربى من الاتحاد السوفيتى يسمى الروس على نحو آخر تماما - «كاريلي» . و«الروسى» باللاتفى - «كريبىسى» . وبالفنلندية والاستونية يصبح الروس «فينى» . وفى تركيا غالبا ما تستخدم معنى «الروسى» الكلمة العامة «قوزاقى» . يسهل فهم مصدر كلمة «كاريلي» فى لغة الساميين : هنا تخطر على البال قورا تسمية الكاريليين الذين كانوا منذ القدم اقرب الجيران الجنوبيين للشعب الشمالى الصغير . ومن الواضح ان اللاتفيين يتذكرون اقرب جيرانهم السلافيين فى الازمنة القديمة ، قبيلة الكريفيتشين . اما الاستونيون والفنلنديون فقد اطلقوا على الروس ، كما تشير كل الدلائل ، اسم القبائل السلافية القديمة فى منطقة البلطيق - الفينديين . وبالنسبة الى الاتراك ، فان معنى الروس - تاريخيا - هم القوزاق الذين كانوا على امتداد فرون المظارز الطبيعية لروسيا فى الجنوب واضطلعوا بدور العازل بين روسيا وتركيا .

من الاعتد بكثير بالنسبة الى المؤرخين ان ينهوا لماذا اطلق الروس على انفسهم هذه التسمية بالذات . وليس مما يدعى الى البدشة ان الجيران لا يقرن او يعترفون دائما بالاسم الذى يطلقه الشعب على نفسه . يمكن التفكير بان الصينيين يسمون انفسهم بشعب الخان .

اما الروس فيسبونهم على نحو آخر - الكيتياتى - الاسم الذى «بقى فى ذاكرتهم» والذى كان يطلق على «الجيران المشتركين» - شعب الكيدانيين . ويمكن ان تضيف ان الصينيين اطلقوا على انفسهم اسم سلالة امبرطورية قديمة ، اما فى بلدان اوربا الغربية فيطلقون عليهم اسم سلالة امبرطورية قديمة اخرى ، وهى الصين .

يفقد الاسم شرويا للاثنوس - وهذا ما يتطوى على

اهمية خاصة بالنسبة الى موضوعنا - حينما يكون قد اجتاز طريقا تاريخيا معينا في تطوره . والاسم هو قيل كل شيء . تعبير عن ان افراد الانثوس شعروا بانهم رابطة وشعب من الشعوب .

حينما كانت البشرية كلها تنقسم في نظر الناس الى جزئين - قبيلة المرء والعالم الآخر باسمه - وحينما كانت قبيلة المرء تستحق وحدها قتل ، وفي كل الحالات ، الضمير «نحن» ، وكل القبائل الاخرى تستحق على قدم المساواة الضمير «هم» ، ومجرد «هم» لا اكثر ، لم تكن ثمة حاجة الى الاسم .

يعرف الانثوغرافيون حالات كثيرة كانت فيها القبيلة البدائية لا تطلق على نفسها اية تسمية ، كما يبدو لئلا تلوذعة الاولى . ان كل (1) قبائل غينيا الجديدة تلتقت اسماءها من الاوربيين (فكانت احدى المناطق الذين رفضوا ان يعتنقوا المسيحية تلقوا من احد المبشرين اسما معينا بالنسبة الى المستعمر ، وهو «ناماو» اي «المغفلون») . ولم تلمس اغلبيّة شعوب اوقيانوسيا ضرورة التسمية الذاتية . واضطرت هذه الشعوب الى اعطاء اسماء للقبائل المجاورة لتبين احداها عن الاخرى . ولكن افراد القبيلة نفسها كانوا يعرفون من هم حتى بدون هذا ، انهم اناس وكفى - ويتعير آخر ، ان كلمة «اناس» او «انسان» كانت حتى حد تاريخي معين في التطور الاجتماعي الداخلي للرابطة السلافية تضطلع بدور تسمية سلافية .

ان عنود النافاخو يسمون انفسهم «الناس» ، الشعب» ، الى «ديشي» بلختهم . و«الالباني» يسمي نفسه «دويتشي» ، و«دويتشي» هذه جاءت يوما من كلمة قديمة تعني كذلك «الناس» ، الشعب» . و«تركي» اصليا من كلمة تعني «الانسان» باللغة التركية . وكلمة «نيغ» معناها «الانسان» باللغة النيجيرية .

وباختصار ، ثمة امثلة كثيرة في هذا الصدد . ويفترض

كثير من العلماء ان مقطع «آر» الذي تنتهي به تسميات العديد من الشعوب هو كلمة تعني «الانسان» .

حينما تفقد الكلمة التي تعني الانسان جزءا من الكلمة او العبارة التي ترمز الى القبيلة ، فان هذا يعني خلوة كبرى الى الامام في ادراك الناس التاريخي لمكانهم في العالم . فيم يجعلوننا نعرف من اسم القبيلة نفسه انهم اعترفوا بان القبائل الاخرى هي ايضا جزء من الجنس البشري المشترك ، «نحن اناس» ، «نحن» و«هم» اناس على حد سواء . ولكن «نحن» نحن ، و«هم» آخرون .

ان كلمتي «اهلنا» ، «جماعتنا» صارتا اساسا لتسميات الكثير من الشعوب . ان اللغوي البولندي المعروف يان اوتريمبسكي استخلص من بعض اهلنا في صيغتها القديمة اسماء السلافيين والسويديين وكلمة الشعوب الاخرى ، ومن بينها ، بالمانسية ، قبيلة السايبيين في ايطاليا القديمة ، وهي تنسبها التي سمي الزوجان نساءها .

وهناك اسماء كثيرة تعني ايضا «صديق» و«رفيق» و«حليف» . ان الاسم القديم لاجداد الازستيين هو الالانيون . وكلمة «آلان» تعني الى اليوم «الصديق» عند بعض شعوب القفقاس . و«الصديق» و«الحليف» هما معنى تسميتي التيوميين في جزيرة تيمور في اندونيسيا ، والغاناسانيين في تايمير .

ولكن اسم الشعب - وهذا ما تنفيض معرفته ايضا في تاريخ الشعوب - قد يعني ، ولكن نادرا ، «الغرباء» مع تلافي تعني «الاعداء» . لقد كان القرن الثامن عشر مثلا ، زمن العداوة بين قبيلتين شقيقتين من حيث النحور ، قبيلتي الكورياكيين والتشوكتشيين اللتين لم يكن قد مضى على انقضاءهما الا امد قصير . ونتيجة لهذا بقي الكورياكيون زمنا طويلا يسمون التشوكتشيين «تاتان (ابنين)» - «الغرباء» . وحينذاك اصبحت هذه الكلمة ذاتها لوقت معين اسمسا للكورياكيين في لغة التشوكتشيين .

عند زمن بعيد جدا صارت الشعوب تأخذ اسم البلد

الذي تعيش فيه . ولكن من أين يأخذ البلد اسمه ؟ يأخذه من الشعب أيضا ، ولكن من شعب أقدم .

لا وجود للبريتيين منذ زمن بعيد ، ولكن الانكليز يسمون بالبريطانيين ، لان جزيرتهم الكبيرة احتفظت باسم بريطانيا العظمى ، ولا وجود منذ اقدم الازمنة لشعب الفيطاليين الذي كان يقطن في جنوب شبه جزيرة ايبنيين - ان اليونانيين الذين قابلو الفيطاليين اطلقوا اسم ايطاليا على كل شبه الجزيرة ، والان يحمل الشعب الايطالي اسمهم القديم .

ان المقدونيين الحاليين شعب سلافي ، ولا يمت بصلة من حيث اللغة للمقدونيين الذين اخضعوا مع اسكندر الاراضي في افريقيا وآسيا .

يتعكس في اسم الشعب احيانا طابع المنطقة التي يشغلها . ان الثوريين ، البلاد الواقعة في شرق افريقيا ، اتخذت هذا الاسم وسيما منذ يضع عشرات من السنين ، و«الاثوبيون» تعني باليونانية «الذين لا يحكمهم الشمس» ، وكانت هناك على الدثيين وعلى فيسلا قبيلتان سلافيتان مختلفتان (وربما اتحاد قبائل) يحملان اسما واحدا ، هو بولاني (سكان الحقول) . وسميت إحدى القبائل السلافية الشرقية ، وكانت تسكن في منطقة مستنقعية ، بالديروفيتشيين ، وهي تسمية مشتقة من كلمة معناها متنع . مستنقع .

احيانا يتخذ نوع العمل في المنطقة المعنوية اسما ، ففي تركيا تعيش فلول قبيلة النخبج ، ومعناها «الغشاب» : لقد كان افراد هذه القبيلة حطابين ، والمهمليلون في الهند «صناع للاقواس» .

تعني بعض الاسماء السالية الموقع الجغرافي للشعب ، وثمة افتراض بان تسمية «القرغيز» جاءت من الكلمة التركية «احمر» . وكما يكتب اللغوي السوفييتي الرموق باسكاكوف ، فان «تسميات الشعوب التركية غالبا ما تنطوي في بنيتها على اسماء الالوان التي لا تتميز ، كما بينت ابحاث بعض المختصين في الشؤون التركية والانطالية ، الى مظهر الشعوب

الخارجي بقدر ما تشير الى موقعها الجغرافي في جهات المعصورة» . الاحمر هنا يعني الجنوبي ، والاسود الشمالي ، اما اللون الاصفر فيرتبط ، كما يبدو ، بالوضع الوسطي لاقنوس بين الاقنوسات القريبة اليه من حيث اللغة . ويبدو ان كلمة البرولوفيين ، التي اطلقت في روسيا على الكيتشاكين ، هي مجرد ترجمة لاسم الكومانين التركي الذي كان الكيتشاكيون يسمون به انفسهم ، والكومانيون تعني بالتركية «الصحري» : في وطن البرولوفيين - الكومانين الاول كانت تعيش شعوب تركية اخرى الى الغرب والشرق والشمال والجنوب منهم .

وبالمناخية ، يمكن الا يكون لاسم الشعب اية علاقة بالارض التي يشغلها .

ان البيكتيين («المقتضيين») - وهم مجموعة من القبائل كانت تشكل سكان سكوتلاند القديمة - قد اطلق عليهم هذا الاسم بسبب عادة تشبه الوشم .

ويمكن لتخصر معين من الملابس ان يصبح اسما لشعب ، كما هو الامر بالنسبة الى القره قليتيين - شعب في آسيا الوسطى - الذين يعني اسمهم «القبعات السود» .

وليس من النادر ان يحمل الاقنوس او جزء منه اسم فائده البارز . لقد حكم الخان التتري - المغولي نوغاي في اواخر القرن الثالث عشر اراضي من الدانوب الى القفكاس ، واثار العرب في بيزنطة ، وهدد الصربيين والبيلغار . واغار على بولندا ، وفي نهاية المطاف حلطه صنيعته الذي كان قد نصبه على عرش الارطة الذهبية ، حيث عقد حلفا مع ابتاء نوغاي نفسه . ولكن اربعين سنة من النجاحات العربية خلفت في الارض بعد موته شعبا كاملا يحمل اسم تتر نوغاي ، او النوغاينيين . ان الغز ، الذين اقتحموا ايران وآسيا الصغرى في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، كان يقدمهم زعماء من سلالة السلجوقيين ، وصار هذا الشعب يسمى بالأتراك السلجوقيين وفيما بعد وقلت على رأس اخلاف السلجوقيين

(والشعوب التي غزوها) سلالة العثمانيين ، و«ظهر» الأتراك العثمانيون .

قد يتلقى الشعب اسمه بالوراثة ، إذ يأتي من أجداد بعيدين يعيشون أحيانا في ارض أخرى تماما . ان اليافورتيين يسمون انفسهم «سباخا» ، وليس من المستبعد ان يكون هذا الاسم مرتبطا بتسمية ساكبي آسيا الوسطى ، أبناء الاسقوثيين : يبدو ان الساكبيين وصلوا مندا ما قبل الميلاد الى بايكال التي كانت تعيش في منطقتها حينذاك قبائل انطلق اخلافها بعد ذلك بامد طويل الى ارض ياقوتيا المعاصرة . هل كان من الممكن ان يدخل ساكسون حينذاك في بنية هذه القبائل ويطلقوا اسمهم على اتحادها ؟ يبدو ان ذلك كان ممكنا .

احيانا يخفي اسم الشعب قروا ، ليبعث بعد ذلك من جديد . وهذا ما حدث لاسم الاويغوريين . وحاملو هذا الاسم القدماء شعب تركي اقام في القرن الثامن دولة جبارة سيطرت بعض الوقت في وسط آسيا ، وفي شرقيها جزئيا . بعد انهيار الدولة الاويغورية فقد الشعب تماسكه الجغرافي وزالت اللغة الاويغورية الواحدة . ومن ثم اسم الشعب نفسه ، واتخذت من قبل بعض مجموعات هؤلاء الأتراك الشرقيين تسميات سلالية مختلفة سواء حسب المناطق التي كانت تعيش فيها ، او حسب نوع الاعمال التي تمارسها . واطلق الفيلولوجيون على لغتها المشتركة تسمية غير محددة ، وهي اللغة التركية-الشرقية .

وقد تم بحث الاسم بموافقة من المتقنين الأتراك الشرقيين في مؤتمراتهم في اليابان : في عام ١٩٢٦ اقترح الاختصاصي السوفييتي في شؤون الشعوب التركية هالوف اطلاق هذا الاسم على الشعب التركي - الشرقي الذي يقطن في آسيا الوسطى وشمال غربي الصين . (ينبغي التنويه بان اللغة الاويغورية الحديثة هي اقرب الى الاوزبكية بكثير منها الى لغة الاويغوريين القدماء ، ولكن الاسم يعيش مجددا ، وسوف يعيش) .

ان تاريخ اسم «التتر» مدهش حقا ، وليعدونا القارئ على ايراد مثل آخر من شعب قريب اليانا ، ولكن لهذا المثل دلالة البليغة . لقد تلقى تتر الفولغا اسمهم ، كما جاء في إحدى الموسوعات ، «نتيجة سوء تفاهم تاريخي» . وتصوروا انه كانت عند مؤلف المقالة في الموسوعة مسوغات معينة لوجية النقل هذه .

يعيش تتر الفولغا من حيث الاساس في اراض كانت تشغليها بولغاريا الفولغا منذ أكثر من سبعة قرون ، اي قبل الغزو المغولي لاوروبا الشرقية . ان الأتراك البولغار ، الذين كانوا يعيشون على الدون ، انقسموا في وقت من الاوقات الى قسمين . قسم انطلق الى الغرب وغير الدانوب واخضع منطقة في البلقان واطلق اسمه على شعبها السلافي ، وتحرك القسم الآخر في الاتجاه الشمالي الشرقي واسس في اواسط الفولغا ، مختلطا مع السكان الفنلنديين المحليين ، الدولة البولغاروية .

لقد تعرضت بلغاريا الدانوب في حياتها للكثير ، ولكنها احتفظت باللغة الملافية وباسمها الذي تلتقته من الأتراك . اما بولغاريا الفولغا فقيمت طويلا تتكلم بلغة الأتراك البولغار ، ولكنها فقدت اسمها بعد الاجتياح المغولي . وفي القرن الخامس عشر يتى احد اواخر خانات الارطة الذمعية مدينة فازان في اراضيها المقفرة ، وشجع بكل السبل على انتقال البولوقيين الى الاراضي الجبالة . ان السكان المحليين ، الاختلاف المشتركين لنهارا الفولغا الفنلندية القديمة والبولغار والبولوقيين ، وبشبة قليلة جدا التتر - المغول (وقت بعض الحسابات استوطن الفولغا منهم في عهد باتو ما لا يتجاوز الاربعة آلاف) ، بقوا لفترة تاريخية طويلة جدا يسمون باسم مدينتهم الرئيسية : القازانيين . وفي اواخر القرن التاسع عشر فقد اعترفوا باسم التتر الذي اطلقه عليهم جيرانهم . !

لقد اطلق الروس اسم التتر على شعوب شرقية كثيرة ، لما سكان اوروبا الغربية فكانوا يميلون في وقت من الاوقات

الى ان يسوا بالثر كل الشعوب تقريبا التي تعيش الى الشرق من الروس . ومن السهل ايجاد اثر هذا الميل على الخارطة : يقسم في الشرق الاقصى السوفييتي بين جزيرة سخالين والقارة مضيق التتر . وهذه التسمية الغربية من وجهة النظر المعاصرة اطلقها عليه البحار الفرنسي لايبورز منذ حوالي مئتي سنة .

وهنا ايضا «سوء تفاهم تاريخي» . ولكن اكثر ما يدعو الى الدهشة ان «حالات سوء التفاهم» هذه بالنسبة الى اسم التتر قد بدأت قبل ان يسمى القازانيون تترا بامد طويل ، ناعميك عن حادثة مضيق التتر .

الى الان يتناقش العلماء حول سبب اطلاق اسم التتر على المغول الذين قدموا فاتحين الى آسيا الوسطى واوريا في مستهل القرن الثالث عشر . لقد بحث المؤرخون والفغويون ووجدوا جذورا ايرانية وتونغوسية وتركيبية وصينية وحتى يونانية قديمة وغيرها لهذه الكلمة . تشير بعض المعلومات الى ان الصينيين في اوائل العصور الوسطى صاروا يطلقون اسم قبيلة «تاتار» او «تاتان» المغولية المزعجة بشكل خاص على كل من يهدد البلاد من الرجل الشماليين .

وحيثما كان الامر ، يبدو ان اسم التتر قد اظهر منذ ما قبل الغزوات المغولية من التيات في وجه تقلبات القدر ومن القدرة على الانتقال الى شعوب اخرى والانتشار في اراض جديدة قدر ما اظهره في حالتي القازانيين ومضيق التتر .

غالبا ما يكون تاريخ انبثاق تسميات الشعوب غامضا ، شأن هذه التسميات نفسها . . . ولكن الاسم الذي يتخذه الشعب لا يعود بالنسبة اليه مجرد كلمة عادية ، بل يغدو رمزا ، بما في ذلك لاضحية التاريخ كله .

«روح الشعب»

في مستهل الكتاب تحدثنا قليلا عما يسمى «وحدة التكوين النفسي» للاتنوس و«الطبع القومي» و«روح الشعب» . ولكن

هذه القضية هامة بحيث اننا في هذا الكتاب لا نستطيع ، طبعاً ، الاستغناء عن التحدث عنها بزيد من التفصيل ودعمها بامثلة ملموسة .

ان الوحدة الثقافية لافراد الاتنوس ترتبط ارتباطا لا ينقسم بوجود ملامح معينة عندهم لنفسية اجتماعية غالبا ما نسمي - في المؤلفات الخاصة - بالطبع القومي . ينبغي القول انه لم يتكون بعد في السيكولوجيا السوفييتية راي موحد بصورة كافية حول مفهوم «الطبع» . ويبدو انه بالنسبة الى بعض خصائصه المدروسة فقد يوجد اجماع اكبر بكثير ، ان مظاهر الطبع المدروسة متنوعة للغاية . ومن المميز في هذا الصدد ان النرد السيكول لخصائص الطبع في الادبيات السيكولوجية يعطي المئات من مختلف الصفات . ومما يشهد على تنوع خصائص الطبع البشرى ووفرة تبايناته وتلاوته واقع انه توجد في اللغة الروسية ، مثلا ، كما تبين الحسابات ، حوالي الف وخمسمائة كلمة للدلالة على هذه الظواهر .

يبدو من الواضح ان الخصائص من هذا النوع تعبر عن صفات الناس الارادية . ومن البلي كذلك انها ليست مجرد ما يدركه الناس من اراء ومثل عليا ومصالح وما شابه ذلك . وعلى الرغم من ان الوعي قادر سواء على بحث او على كبح تعجلي هذه الخصائص للطبع او تلك ، فان اكثرها عمقا يبرز بالرغم من الوعي ، اي يتجلى كشعور .

سال مراسل مجلة «فن الديكور» السوفييتية يوما فنان السيراميك بيتروف كيف يسبح الطبع القومي على مؤلفاته . وقد اجاب الفنان انه لا ضرورة له لان يحصر على اصالة سيراميكه القومية ، فباللها انه فنان روسي فلن يكون سيراميكه جوزجيا او هولنديا .

تجعلنا كلمات الفنان هذه نتذكر راي الناقد والكاتب والشخصية الاجتماعية الروسية العظيمة فيساريون بيليشسكي : « . . . بعد بوشكين اندفع الجميع نحو الشعبية ، وصار

الجميع يقتضي اثرها ، ولكن لا يصل اليها الا الذين لا يحرسون عليها اصلا ، محاولين التعبير عما في نفوسهم .

ان ملامح الطبع ، اذ تتجلى في نشاط الناس «الخارجي» ، تعبر عن خصائص موقفهم من هذه الجوانب للواقع او تلك ، ولا يصعب في هذا الصدد ملاحظة «تدرج» و«تفاوت» فريدين لخصائص الطبع . وقد يكون «مستوى» هذه الخصائص متباينا للغاية : من الثانوية نسبيا الى اكثرها جهرية . واذ نقصد بهذه الاخيرة «الاتجاه العام للطبع» ، يجب ان نبرز من بينها قبل كل شيء «الطروحات الهادفة والموقف من العمل والعلاقة بين الفرد والجماعة» .

وانه لمن التيسير الشديد اجمالا النظر الى الطبع كمجرد محصلة بسيطة لخصائصه . فهو عبارة عن نظام متكامل يتمتع بخصائص بنيوية «القدرة» ، «الصلابة» ، «الاتزان» وما شابه ذلك ، ويتمتع ايضا ، الامر الذي لا يقل اهمية ، حسب قناعتنا ، بلامح مسيطرة .

لدى الحديث عن الطبع القومي (السلالي) كمفولة اجتماعية نفسية خاصة ، ينبغي الانطلاق من ان الافراد على حدة لا يبرزون بمثابة معبر عن التكوين النفسي للأمة (الانثوس) ، بقدر ما تبرز رابطته الناس ، من المعروف ان الجماعة الاجتماعية تقوى او تضعف هذه الجوانب او تلك للمفوضية الفردية . وهذا ما ينطبق ايضا على الطبع السلالي . وقد سهبت الاشارة مرارا الى انه يتجلى بوضوح اكثر بكثير في الحالات التي لا يعمل فيها أشخاص على حدة ، بل مجموعات من الناس . ثم ان من المفهوم بادامة انه لا اعتبار لملامح خلقية ما نموذجية للانثوس المعنى يجب ان تكون ملازمة لاغلب افرادهم وتميزهم عن مثل الانثوسات الاخرى . بيد ان هذه النموذجية لا تنفي وجود اشكال لبعض الملامح الاجتماعية النفسية الخاصة لدى مختلف الجماعات المنضوية الى الرابطة السلالية المعنوية . وعلاوة على ذلك ، فان هذه الملامح تتجلى بوضوح تام في المجتمعات المنقسمة الى طبقات متناحرة . ومن الضروري كذلك الاشارة بشكل خاص الى عدم جواز

اطلاق صفة التعميم على طبع كل من الروابط السلالية . اذ ان اقلية خصائص الطبع الحاسمة ، مثل حب العمل والوطنية والافهام ، هي خصائص بشرية عامة . وبالتالي ، لا يمكن الحديث عن احتكار رابطة سلالية لواحدة من هذه الخصائص ، بل يمكن الحديث فقط عن الاختلافات بين بعض التسرب في الاشكال (او التباينات او الاسلوب وما شابه ذلك) التي تتجلى فيها . يمكن ، مثلا ، ملاحظة ان صفة ، مثل حب العمل ، لا تتجلى بحكم خاصية الظروف الاقتصادية الاجتماعية والجغرافية وغيرها على نحو واحد لدى مختلف الشعوب : يمكن للانثوسات بهذا المعنى ان تختلف ، مثبلا ، بدرجة الاقتان او الدقة . وهكذا ، فان الدقة التي يقدرها الالمان والهولنديون عاليا ، تعني القليل نسبيا في اسبانيا ، واقل من ذلك في بلدان اميركا اللاتينية . ان الارتفاع الشباضة تنطوي على خصائص متباينة فريدة لدى مختلف الشعوب ، وتتجلى الشجاعة عند كل شعب بطريقة الخاصة بالتح .

يؤكد ليف تولستوي حينما يتحدث في «الحرب والسلام» عن اعمال النقيب في الجيش الروسي توسين في خلال معركة بورودينو :

«ان الفرنسي الذي قال في وارتلو : «الحرس يموت ، ولكنه لا يستسلم» ، والاخرين ولا سيما الايطال الفرنسيين . الذين نقلوا باقوال مأثورة ، كانوا شجعانا . . . ، ولكن ثمة بين شجاعتهم وشجاعة النقيب فرق ، وهو انه حتى رلسو الحث على بطل كلمة عظيمة في حالة من الحالات ، فانا واثق بانه لن يقولها : اولا ، لانه ، اذ يقول هذه الكلمة ، يخاف ان يتسدد بهذا عملا صاعا ، وثانيا ، لان الانسان حينما يشعر في نفسه بقوة لاجترار عمل عظيم ، فلا حاجة الى اية كلمة كانت . وهذه ، في رأيي ، خاصية عظيمة ورفيعة للشجاعة الروسية» .

لعله مما يتسم بالطرافة ايضا في صدد موضوع الشجاعة امثلة تاريخية «عامة» اخرى على الاختلافات «القومية» في عادة قديمة بطلت الان ، وهي عادة حل النزاعات بواسطة المصارعة .

في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أصبحت المبارزة تقليدا للجامعات وضباط الجيش قبل كل شيء . وكان من المتعارف عليه ان الندوب التي تحملها المبارزة تزين وجه الطالب . وكان الطلاب يشتكون بالشياش من حين لآخر . وكان المتخصصون في غضون ذلك يرتدون ربطات خاصة واجزة وقائية على العينين والرقبة واليدين والصدر . فلم تكن المبارزة تسفر عن وفيات . ولكن كان الطالب يؤدي واجبه ويتلقى ندبا يزين وجهه . وفي فرنسا كانوا يقيمون في العصر نفسه مبارزات بالمسدسات عادة . وكان يساهم فيها ضباط وكتاب ونواب في البرلمان وحتى علماء . ان باستور العظيم دعاه منافسه العلمي يوصا الى المبارزة . ولكنه فضل الشكس ، لحسن حظ العلم . وكانت المبارزات الروسية اقرب بكثير الى المبارزات الفرنسية من حيث طابعها . وكان يمكن لفرنسا وروسيا ان تتباينا باكثر عدد من عشاق المبارزة والشجار المستعدين للعراك حتى الموت لاي سبب . لم ينتشر عند الفرنسيين ولا الالمان ولا الروس ما يسمى بالمبارزة الاميركية . حينما يترك المتخصصان العظ ليقرر من سيهزم منها ، حيث يتناول كل منهما مثلا حبة تسميه الاخرى بمنظرها ، ولكن احدهما لا تسبب تضررا والاخرى تجتوى على سم قاتل . وهذه المبارزة «استخدمت» بعض الشئ في الولايات المتحدة الاميركية (ومن هنا تسميتها) . وقد بطل تقريبا استخدام المبارزات المميتة في الكلترا مع بداية العصر البرجوازي . ويبدو انه اضطلع بدور منها التقليد الشعبي للفراع بالقضبات والملاكمة ، الامر الذي حل مكان «تبادل العيارات النارية» .

ان طبع كل رابطة سلافية معينة يشكل وحدة عضوية للعلم والخاص . ويتجلى تفرد آخر الامر في جملة ما يلازمه من اشكال خاصة لظهور الصفات النفسية البشرية العامة ، اي ، كما يقال ، في «اللقسط» - ولا يهم ان كان كبيرا او صغيرا - الذي يؤديه الانثوس المعنى في تروة البشرية بأسرها .

لاشك في ان التشاط هو المعجال الاساسي لتجلب طبع الرابطة السلافية والفرد على حدة . اذ لا يمكن تحديد التلعب الى الهدف . ولا الارادة . ولا خصائص الطبع البنيوية ، اذا لم نعرف كيف يتصرف الناس ، وكيف يعملون ، وما هو سلوكهم . وباية افعال يقومون . وطبيعي ان هذه الملامح او تلك للطبع التومي (السلافي) لا بد وان تخلف طابعا معيناً على لنتائج التشاط البشري . وتتجلى علامات هذا التأثير سواء في الثقافة المادية ، او في العناصر النابتة للثقافة الروحية . يرتبط بطبع الانثوس ارتباطا وثيقا بنظام الدفاع المميز لافراده : مجموعة متطلباتهم ومثلهم الخ . وهذا النظام ، اذ يعد في نهاية المطاف توجع الطبع ، يشمل كل المجالات ، وكل «طوايق» النفسية البشرية . ولما كانت عناصر التسمية هذه تعدد الظروف التاريخية الملموسة لوجود الانثوس ، فانها تعين طبع افراده في نهاية المطاف . وتغير الظروف التاريخية الملموسة ، ولا سيما الظروف الاقتصادية الاجتماعية ، لا بد وان يجر وراءه تغير نظام الدفاع ، وبالتالي الطبع السلافي .

اما في خصوص «آلية» تجدد ملامح الطبع المميزة لكل انثوس ، فان الذي يضمه بالدرجة الاولى نظام خاص ، ملازم للناس وحدهم ، وهو نظام انتقال الخبرة عبر الاجيال ، ان خصال الطبع النابتة ليست ايدا خاصة قطرية للعقل البشري ، انها نفسها نتاج لظروف خارجية معينة ، ولا سيما الظروف الاجتماعية التاريخية . ومن المعروف ان الفرد لا يولد بهذه الخصائص المتكونة للطبع السلافي او تلك . انه ينالها نتيجة لاستيعابها طوال الحياة ، او ما يسمى اكتساب الفرد للصفة الاجتماعية . وفي غضون ذلك ، فان الناس ، خلافا للحيوانات ، تبرز عندهم اداة اجتماعية ، وهي اللغة ، ببناء وسيلة اساسية لانتقال الخبرة الاجتماعية التاريخية عبر الاجيال .

يرتبط طبع الناس بالمزاج اوثق ارتباط . وينتشر نسبيا في الادبيات العلمية السوفيتية راي مفاده ان المزاج كمتصر

للتكوين النفسي لا يوجد عند الافراد فحسب ، بل عند الروابط السلالية ايضا . والى جانب ذلك توجد في مجامعنا ايضا اعتراضات على هذا التصور . وتأكيذا لهذا يشار ، بين امور اخرى ، الى انه لا يوجد ولا يمكن ان يوجد مزاج واحد «لدى الامم الكبيرة» التي تنتشر اجزائها في مناطق مناخية مختلفة . وهذا الموقف يبدو لنا قاطعا بافراط . ويبدو لنا اكثر مرونة الراى القائل بان هذا المفهوم باعتباراه احدى صفات التكوين النفسى للروابط السلالية ينبغي ان يستخدم بمعنى يختلف بعض الشيء عما فى السيكلوجيا العامة . فهو فى هذه الاخيرة يعبر ، كما هو معروف ، عن خصائص النشاط النفسى للانسان التى تنطوى كاساس لها على نمط معين للنشاط العصبى الاعلى . وعلى الرغم من انه يوجد عمليا فى الكتلة البشرية العديد من اشكال المزاج الاساسية ، فان كل فرد يتسم بمتنوع خصائص نمط من هذه الانماط . والامر يختلف بالنسبة الى الشعوب - الانثوسات . فنحن لا نستطيع ، كقاعدة عامة ، ان نقول ان هذا او ذاك منها يتسم بنمط معين من المزاج . وفى كل رابطة سلالية يمكن اكتشاف ذوى مزاج حاد وبلغنى ، او ذوى مزاج سوداوى ودوى . وفى الوقت نفسه يمكن الاعتراف بالتباين بين الجامعات السلالية فى عمق وسرعة ردود الفعل على حالات الحياة اليومية . وفى غضون ذلك يجرى الحديث ، كقاعدة عامة ، عن نمط المزاج المميز للانثوس اكثر من غيره او ، اذا كانت الروابط كبيرة من المقصودة ، عما تتسم به من النقاء لانماط السلالة السائدة .

ومن الخطأ ، الى جانب ذلك ، المبالغة فى مغزى المزاج كصفة للانثوس . اولا ، لا يجوز نسيان ان المقصود هو مجرد ابراز نسيب لنمط المزاج . ثانيا ، ان المزاج ، شأنه شأن النمط الانثروبولوجى ، متقارب للغاية عادة عند الروابط السلالية المتجاورة . واخيرا ، يجب ان يؤخذ فى الاعتبار تأثير الوسط الاجتماعى فى تكوين المزاج ، كما لدى وصف الخصائص السلالية اجمالا . وكما اشار تشيرنيشيفسكى ،

فان «مؤثرات الحياة تعجب عموما المزاج الطبيعى» .

ينبغى التنويه بان الناس ليسوا ممثلى امزجة نفسية مختلفة تحسب ، بل وفئات مختلفة فى المجتمع . يعتبر الاكادمى ليخاتشوف ان « . . . من الاصح عدم التحدث عن الطبع القومى للشعب ، بل عن اجتماع طباع مختلفة فيه ، وكل منها قومى » . ان انقسام المجتمع الى طبقات وشرائح ادى الى ظهور مجموعات داخل كل شعب تختلف كل منها عن الاخرى سواء من حيث التكوين النفسى ، او من حيث اهدافها الاجتماعية .

كتب تشيرنيشيفسكى : «ان الوجهة البرتغالى اقرب من حيث نمط حياته وعقائمه الى الوجهة السويدية منه الى فلاح شعبيه ، والعكس بالعكس : الفلاح البرتغالى اشميه من حيث طبعه بالفلاح السويدية منه والغنى البرتغالى» . تشيرنيشيفسكى يوصى بالامعان الى الامر نفسه من حيث المبدأ ، حينما يقارن بين الفلاحين والملاك اليابانيين والبورجوازيين بين تجار وحرفيين الفيليبين وافريقيين الشرقية . يكتب الانثوغرافى السوفييتى كوزلوف ، مثلا ، انه حتى لدى الحديث عن جماعة صغيرة من الناس قومية واحدة يمارسون عملا واحدا (فى مؤسسة واحدة مثلا) لا يفامر احد بتأكيد وجود تكوين نفسى مشترك عندهم .

وطالما ان الحديث يجرى عن شعب كبير ، فان الفلاح والتاجر والموظف والفعل الروس كان لهم ، كما ينوه كوزلوف ، تكوين نفسى متباين ، اما قوزاق قيريك - وجسم جزء من الشعب الروسى - فكانوا من حيث التكوين النفسى اقرب الى شعوب شمال القفقاس منهم الى بومورى الشمال الروسى . وكان البومورىون ، بدورهم ، قريبين الى الجيران الشماليين من حيث التكوين النفسى .

ولكن هذا الاعتراض ينطوى على نصيب من الموافقة ، لان كوزلوف ايضا يتحدث هنا عن تكوين نفسى معين ان لم يكن لشعوب باكملها ، فلمجموعات سلالية كبيرة فى داخلها .

وعلى الألواح المسورة عالياً تمكن قراءة هذه التسميات : الروس ، الاسميان ، السويدونيون ، الالمان ، السالطيون ، العبريون ، الهانزيون ، الاتراك الخ . في السابق كان كل تاجر يقف تحت الدوح الذي يشير الى امته . اما الآن فعيننا ثبتت عنه هناك ، لقد تحرك الناس فحيث كان يقف الاسميان يوماً يقف الآن هولنديون ، وترك العبريون مكانهم للهانزيين ، وحيث ثبتت عن الاتراك تجدد الروس الآن ، ويقف الايطاليون حيث كان يقف الفرنسيون يوماً ، وحتى الالمان تقدموا .

وكما في بورصة لندن . بقيت كذلك في العالم كله الألواح القديمة ، ولكن الناس الواقفين تحتها تحركوا واتى آخرون مكانهم ، ورؤوسهم الجديدة قلما تتناسبها اليابقات القديمة . ان الصفات الصانعة للشعوب التي نعيشها في الكومينتيديومات (أي الأوصاف الموجزة - ملاطحة من المحرر) وفي حانات البيرة ، لم يعد في مقدورها ان تساعدنا . . .

لقد اختلط بروجازيو مختلف الشعوب . ان الطبع السلافي متغير تاريخياً . وفي رأينا ان خووف ، احد العاملين في اكااديمية العلوم في مولدافيا ، قد عرض جيداً تغيرات نفسية الشعب ، حيث قال : «تمة حالات تغيير فيها كثيراً ملامح الشعب الاجتماعية النفسية تحت تأثير اسباب معينة . وفي تاريخ مولدافيا يمكن ان نتتبع كيف «تغيرت» لدى الشعب في عملية التطور السياسي خصال ، مثل الامانة والاخلاص لولاها لآذ الدولة ، والشجاعة الخ . ففي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ظهرت في الحروب الدفاعية ضد المعتدين الاجانب افضل صفات الشعب المولدافي : الصمود والاقدام . وقد تحدث مؤلفو القرنين الخامس عشر والسادس عشر كثيراً عن «سالة المولدافيين العسكرية . وعن انهم «يتكلمون بشجاعة» ، وانهم «محاربون» و«مهرة في الفن العسكري» و«يستخدمون الرمح والثرس بهارة» وانهم «عنيفون وشجعان» الخ . وتشير الوقع في القرن السابع عشر . في مصائر ذلك الزمن لم يعد يجري الحديث عن اخلاص المولدافيين وصمودهم وشجاعتهم . . .

لم يخلف كلاسيكيو الماركسية مؤلفات خاصة في صدد هذه القضية ، ولكن يمكن ان نجد سواء عند ماركس او انجلس او لينين اشارات الى الطبع القومي كمادة فعلية . بوسعنا ان نشير ايضاً كيف تجرى انتخابات الرقابة على نحو متباين في الولايات المتحدة وفرنسا . ان الساسة الاميركيين يحولون درجاتها المتتابعة (انتخاب المؤهلين للاقتراع ، تقديم المرشحين عن الاحزاب الخ) الى شيء اشبه بعرض مسل ويرفقون الاجراءات الرسمية بمختلف الفعاليات الاستعراضية التي من شأنها ، كما نعتقد ، ان تدعش كثيراً النخبين الفرنسيين الذين يرونها لأول مرة .

وقرأ في الصحف من حين الى آخر عن «الاضطرابات العنصرية» في الولايات المتحدة ، مع العلم ان عدد ضحايا النزاع حتى في مدينة صغيرة نسبياً يبلغ العشرات . اما في فرنسا ايان انتفاضة الشباب في ايار (مايو) عام ١٩٦٨ ، حينما انتصبت العتارس في الكثير من المدن الكبيرة ، وحينما هبت الى النضال جماهير تعد بالملايين ، نجابهم العديد من رجال البوليس ، وحينما كان بين اليساريين «يساريون» متطرفون ، لم يقتل في فرنسا حينذاك في معارك الشوارع سوى شخصين .

وبعداً من وجهة نظر معينة نتيجة للفوارق السلافية ايضاً بين الاميركيين والفرنسيين ، الفوارق التي تتجلى في تلك الظاهرة المعقدة والمتناقضة للغاية التي تسمى بالبلبمس القومي .

ان درجة تجل الوحدة القومية (السلافية) في مختلف الحالات الاجتماعية الملموسة تاريخياً ، سواء منها الداخلية او الخارجية هي ، كما يبدو لنا ، متباينة اشد التباين . لقد كرس الشاعر الالماني العظيم هنريخ هاينى في «لوحات الطريق» غير قليل من الصفحات للمقارنة بين الطباع القومية للانكليز والفرنسيين والالمان والايطاليين . ثم كتب ، وهو يقصد عصر تشو الاقطة الرأسمالية في اوروبا : «تحت قباب بورصة لندن كان يشار الى مكان كل امة ،

الأوربية - الأيركية بسرعة شديدة . بسرعة أثارت لدى الكثير من اليابانيين القلق على أصالة شعبهم .

نقل الكاتب السوفييتي إيليا امريورغ في أحد كتبه حديثا مع كاتب ياباني قال في نهايته ، وكأنه يرغب في طمأنة نفسه : « ليس هذا الأمر الرهيب أجلا ، فقد بينت اليابان مرارا أنها تستطيع أن تأخذ الغرب وتجعله لها . . . » وتابع امريورغ قائلا : « اعتقد انه على حق : اليابان لا تتبرأ من نفسها ، وفي هذه الحالة ليس ثمة ما يخيف إذا تغيرت هذه الجوانب من المعيشة أو تلك . ثم إن تقليد مختلف نماذج الفن الأوربي ليس مخيفا إذا كان مرتبطا بالبحث المخلص عن شكل أصيل . . . الأمر الجوهري هو روح الشعب » .

ولكن «روح الشعب» نفسها لا تبقى مغلقة إلى الأبد على الشعوب الأخرى . لقد كرس الكاتب السوفييتي الروسي ليونيد سوروفيتش كتابيه الرائعين «مكر الهدوء» و«الأمير المتيسم» لخرابه نصر الدين ، وطل العديد من الأساطير والحكايات الشعبية الشرقية . وفي الوقت نفسه كان الشعبان الأوزبكي والطاجيكي يطل هذين الكتابين . إن القراء في آسيا الوسطى يجنون كتابي سوروفيتش ، وهم موافقون على أنه استطاع أن يظهر روح الشعب الذي عاش بينه طويلا .

وليكم مثال آخر . يعتبر الكثير من الباحثين ، وبينهم باحثون فرس ، أن كتاب «مغامرات حجي بابا من اصفهان» الذي صدر في القرن التاسع عشر هو بداية الأدب الفارسي الحديث . ومؤلفه هو الانكليزي جيمس مورير . والكتاب ، في رأي الكثيرين من الإيرانيين ، يتجاوب مع روحهم القومية بحيث إن علماء كثيرين كانوا يشككون أحيانا في إمكان أن يؤلف اجنبي كتابا كهذا . وبعد مئة سنة تقريبا عن ظهور كتاب «مغامرات حجي بابا» في انكلترا أدى ، وقد صدر باللغة الفارسية ، دورا هاما بالنسبة إلى الحركة التحررية في إيران في مستهل القرن . وقد قال الشاعر والفيلولوجي ملك الشعراء بهار : «إن كتاب» حجي بابا» يشبه «برشاسة

الاسلوب وروعة الفكرة «غولستان» لسعدى» . وسعدى هو أكبر الكلاسيكيين تمعنا بالاحترام في إيران . . .

إن «حكايات» ليف تولستوي كتب الاطفال المفضلة في عشرات المارك تورين أصبحت من كتب الاطفال المفضلة في عشرات البلدان لأن الأم ، تحت كل سماء وفي الثارات والجزر جميعا ، تربى الاطفال ، ويضرب الرجال والفتيان بمنجزاتهم ، ويعانق العاشق لفقد الحبيبة . . .

من الواضح إن الملامح المشتركة للشعوب تنفوق على خصائصها .

وهذه الخصائص نفسها . . . هي ، شأن اللباغ المختلفة لدى الناس ، لا تمنعهم ، في ظل الاحترام المتبادل ، من التقام وتبادل المساعدة .

مادة الانثوغرافيا ومهامها

اردنا في هذا القسم استعراض بعض نتائج ما سبق قوله وتدقيق احكام تناول المؤلفين لموضوع البحث .

وهكذا ، فإن الانثوغرافيا هي علم تشكل شعوب العالم موضوع دراسته الاساسي . بيد ان هذا التصور لموضوع ابحاث الانثوغرافيا لم يتكون فورا . في السابق كان بعض العلماء ، يعتبر الانسان موضوعا ، وآخرون الثقافة ، وغيرهم المجتمع . وعلى الرغم من انه انتشر في الوقت نفسه رأى يقول بأن الشعوب هي مادة الانثوغرافيا ، الا انه كان المقصود بصورة رئيسية الشعوب التي لا تعرف الكتابة . والتي لا تزال في الدرجات الاولى من التطور الاقتصادي الاجتماعي . وانتشار هذا التصور يرتبط الى درجة كبيرة بواقع ان الانثوغرافيا التي تكونت كعلم في عصر ازدهار كولونيالية اوروبا البرجوازية كانت موجبة اول الامر في اغلب الاحيان نحو دراسة شعوب الاراضي غير الاوربية المتخلفة في تطورها الاقتصادي . . وكانت الانثوغرافيا توضع في غضون ذلك على طرف نقيض من التاريخ الذي كان يعتبر علمسا

يقدر الشعوب «التاريخية» على أساس المصادر الكتابية .
 أما الأنثروبولوجيا فخصص لها دور علم دراسة الشعوب «غير
 التاريخية» . هذه الجماهير شاخت الآن إلى غير رجعة ، وأصبح
 واضحا منذ عهد بيهدي تهايت تقسيم الشعوب إلى «تاريخية»
 و«غير تاريخية» . وانتشر على نطاق واسع بين الاختصاصيين
 اعتبار أن مادة الأنثروبولوجيا هي الشعوب جميعا ، سواء منها
 المتخلفة في تطورها أو الرفيعة التطور ، الصغيرة أو
 الكبيرة ، التي وجدت في السابق أو الموجودة حاليا .
 إن مصطلح «الأنثروبولوجيا» مشتق من شأن أغلب تسميات
 العلوم ، من كلمتين يونانيتين ، أحدهما «أنثوس» ومعناها
 شعب ، والآخرى «غرافيا» وتعنى كتب ، وصف * .
 الكلمة «الشعب» في اللغات المعاصرة معان كثيرة
 متباينة . إذ يقصد بالشعب سواء الجماهير الكادحة ، أو
 المجموعات القومية ، أو مجرد تجمع من الناس . ولهذا ففى

* في بعض البلدان يستخدم ، كما سبق وتونا ، مصطلح
 والأنثولوجيا للإشارة إلى العلم الذى يمارس دراسة الجماهير
 الأنثروبولوجية . وفى غضون ذلك ينشر إلى هذا المصطلح حينا كمادة
 لشريعة ويوضع في مقابل الأنثروبولوجيا التى يخصص لها دور علم
 وصفى برف . ولكن مصطلح والأنثولوجيا لم يلق انتشارا لى
 علنا السوفييتى ، حيث تضم الأنثروبولوجيا كل من الجانبين الوصفى
 والتطرقى لدراسة شعوب العالم . وفى السابق كان يستخدم أحيانا
 في الأدبيات الروسية قبل الثورة المصطلح «علم الشعوب» بمثابة
 مرادف للأنثروبولوجيا . وفى البلدان التى تنتشر فيها اللغة الألمانية
 تعنى الأنثروبولوجيا مجموعة مادتين ، هما : "Völkerkunde" ، دراسة
 الشعب (الأم) و "Völkerkunde" ، دراسة الشعوب الأجنبية ، ولا
 سيما غير الأوروبية) . وفى البلدان الناطقة بالانكليزية تطابق
 الأنثروبولوجيا من نواح كثيرة الأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا
 الاجتماعية اللتين ينتظر إليهما مع الأنثروبولوجيا الفيزيائية كعلم
 عن الإنسان أجمالا . بيد أن ادعاء الأنثروبولوجيا في البلدان الناطقة
 بالانكليزية الدراسة الشاملة للإنسان والبشرية عموما يبقى غير
 مدع بأبحاث فعلية ، علاوة على ذلك ، فإن غياب المعايير الدقيقة
 لتحريف مادة الأنثروبولوجيا الثقافية الاجتماعية يهدد بأن يعلو ،
 في المواد القومية ولا سيما السوفيولوجيا .

الحالات التى تستخدم كلمة الشعب بالمعنى الذى تتطلب
 عليه في تمييز «شعوب العالم» ، يستخدم في العلم عادة
 المصطلح العام «الأنثوس» .

بناء على التصور السائد في الوقت الحاضر بين العلماء
 السوفييت ، فإن الأنثوس (الشعب) هو نوع خاص لتكتل
 اجتماعي لا يظهر بفعل ارادة الناس ، بل نتيجة عملية تاريخية
 طليعية . والصفة المميزة للأنثوسات هي رسوخها الشديد :
 أنها تبقى ، كقاعدة عامة ، قرونا عديدة وعديدة . وكل
 أنثوس يتمتع بوحدة داخلية معينة ، وكذلك يملأ خاصية
 تميزه عن كل التكتلات من النمط نفسه . يسطح بدور
 خاص في غضون ذلك الوعي الذاتى للناس الذين يشكلون
 أنثوسا معنيا : سواء تشابههم أو اختلافهم عن الروابط
 المماثلة الأخرى في شكل تناقض بين «نحن» و«هم» . ومن
 الخطأ إلى جانب ذلك حصر جوهر الأنثوس في الوعي الذاتى ،
 كما يفعل الكثير من العلماء الغربيين . إذ تكن خلف هذا
 الوعي الذاتي ، الذى اصدلح على تسميته بالرعى السلاى ،
 صفات موضوعية ، موجودة فعلا لاناس ينتهون إلى الأنثوسات .
 أنها قبل كل شيء الملامح المشتركة والخصائص المميزة
 التى تتجلى في مختلف مجالات تمل حياة أفراد الأنثوس .
 وتشكل اللغة أحد أهم هذه المجالات . وهي وسيلة التخاطب
 الرئيسية بين الناس ضمن الأنثوس المعنى ، وإلى جانب
 ذلك تميزهم عن مثلى الأنثوسات الأخرى كلها أو أغلبها على
 الأقل . يعود إلى الثقافة دور من الدرجة الأولى في حياة
 الأنثوسات . وهذا ينطبق بالدرجة الأولى على عناصرها التى
 تطوى على طابع تقليدى ، جماهيرى ، متجذبة في الحياة
 اليومية . أنها في ميدان الثقافة المادية الاشكال التقليدية
 لخيرات العمل والسكن واللوازم المنزلية والملبس والطعام
 وما شابه ذلك . وهي في الثقافة الروحية العادات والشعائر
 والفن الشعبى والدين ، الخ . والوحدة الروحية لافراد
 الأنثوس ترتبط بدورها ارتباطا لا ينفصم ببعض خصائص
 نفسياتهم ، ولا سيما تباينات واسلوب تجل الخصائص البشرية

تصنيف الروابط السلالية الاجتماعية المعمول به في ادبيات علم الاجتماع عندنا . ومن المتعارف عليه بناء على هذا التصنيف ابراز ثلاثة انماط لها : القبيلة المميزة للعصر البدائي ، والقوم المميز لعصر الرق والاقطاعية ، والامة المميزة للراسمالية والاشتراكية .

ان الكثير من الانثوسات ، ولا سيما الكبيرة ، تكون هي نفسها في حالات ليست بالنادرة مما يسمى المجموعات السلالية او الانثوسات الفرعية . وقد جرت العادة على ان يقصد بهذين المصطلحين اجزاء الانثوس الاقليمية التي تتاين بالغاصية المحلية للغة العامة والثقافة والمعيشة ، وتملك احيانا تسمية ذاتية وما يشبه الوعي الذاتي المزدوج . وغالبا ما يعود نشوء المجموعات السلالية الى العناصر القبلية التي دخلت في القوم او الامة . وتظهر احيانا في ظل التمايز الاجتماعي الديني للانثوس ، وكذلك نتيجة التوسع الشديد للاراضي السلالية ، حينما تعيش اجزاء الانثوس المجاورة في وسط طبيعي متباين وتتفاعل مع مختلف الانثوسات المجاورة ، الخ .

ليس من النادر ، الى جانب التقسيم الداخل للانثوسات ، ان تشكل هي نفسها وحدات اضعف . وبعض هذه الوحدات ، التي تشكل على اساس التشابه اللغوي الثقافي يبين الشعوب ، تسمى بالمجموعات السلالية اللغوية ، والاخرى ، التي تتكون داخل الدول المتعددة القوميات ، تسمى بالمجموعات السلالية القومية ، فري من الخماصم تسميتها بالروابط ما بين السلالية .

ان الروابط السلالية على مختلف المستويات ، شأنها شأن الاقسام السلالية الاساسية ، تنقسم بمرسوخ كبير . بيد ان هذه الروابط كلها لا تنصف بالتعاقب فحسب ، بل وبالتغير مع الزمن . وقد اصطلح على تسمية التغير من هذا النوع بالعمليات السلالية .

هذه العمليات في غاية التنوع . يبرز قبل كل شيء نوعان اساسيان منها يختلفان طبقا لآثار التغيرات التي تطلرا على الانثوس . احدهما يؤدي في نهاية المطاف الى تغير الوعي

الذاتي السلالي لافراد الانثوس بمعنى . وهذه العمليات تسمى بعمليات التحول السلالية ، وذلك لارتباطها بالانتقال من حالة سلالية الى اخرى ، والنوع الثاني هو عمليات التطور السلالية التي تتجلى في تغير كبير لاي من مؤشرات الانثوس الاساسية ، ولكنها لا تؤدي الى تغير الوعي الذاتي السلالي مباشرة . وتغير الغاصية الثقافية للروابط السلالية هو الموضوع الموضوعي الاساسي لهذه العمليات السلالية .

لدى مراعاة توفر شكلين لوجود الظواهر السلالية ، احدهما يعبر عنه الانثوس بالمعنى الضيق للكلمة ، والاخر - البنية السلالية الاجتماعية ، يصبح من الضروري التفرقة في المؤلفات التاريخية بين العمليات السلالية الصرفة والعمليات السلالية الاجتماعية .

هذا التفرقة تقتضيه قبل كل شيء الاختلافات في انماط تغيرات المعالين السلالي الصرفة والاقتصادي الاجتماعي لنشاط المجتمع . من المعروف ان الظواهر الاقتصادية الاجتماعية هي الاكثر تحركا في كل مجموع الظواهر الاجتماعية . ولهذا فهي بالذات الحاسمة ، ولا شك ، في تغير الانظمة السلالية الاجتماعية . اما في خصوص الظواهر السلالية الثقافية فانها ، كما سبق القول ، تنقسم ، على العكس من ذلك ، بمرسوخ اشد . وهذا هو سبب البدء الشديد للعمليات السلالية مقارنة بالعمليات الاقتصادية الاجتماعية . وبالتالي لا تطابق الغزوات في العمليات السلالية الصرفة «نقاطعات التدرج» والثورات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي ، وبالتالي الغزوات في تطور الانظمة السلالية الاجتماعية .

من المصطلح عليه لدى دراسة العمليات السلالية الصرفة (وهذا ما سوف نكتب عنه لاحقا) التفرقة بين نوعين اساسيين لها : العمليات التجزئية ، حينما ينقسم الشعب الواحد الى عدة اثنوسات مستقلة او تنفصل عنه اجزاء تغدو اثنوسات مستقلة ، والعمليات التوحيدية ، حينما تندمج مجموعات من الناس متباينة سلاليا في اثنوس واحد . ويتجلى دياكتيكيا التطور السلالي معنا في ان كل عملية توحيدية تقريبا تؤدي -

وان كان ذلك على مستوى جديد - الى عزلة سلالية للانوسات التي اوجدت اليها عن الاخرى . ان العمليات الساللية التجزئية كانت منتشرة بشكل خاص في عصر الشاعسية البدائية ، وكانت ناجمة ، بين عوامل اخرى ، عن التزايد المفرط لعدد افراد القبيلة او مجرد هجرة اجزاء منها الى مسافات بعيدة . لقد كانت العمليات التوحيدية ولا تزال النموذج الأكثر شيوعا بالنسبة الى العصر الحديث ، فهي تمسك الاتجاه المنطقي تاريخيا والتقدمي نحو قرائص الشعوب .

ان التصور القائل بان الشعوب هي موضوع الانثروبغرافيا الرئيسي لا ينفي الاختلاف في تحديد مادتها . وهذا ما تجل بوضوح ، مثلا ، في فترة تكون العلم الانثروبغرافي السوفيتي . فقد كانت هناك ، من جهة ، محاولات لحصر مهمات الانثروبغرافيا في دراسة الظواهر المترسبة ، القدرية وحدها ، وبذلك ، من الجهة الاخرى ، محاولات للنظر الى الانثروبغرافيا كمادة فائقة الاهمية ينبغي لها ان تدرس كل عناصر النشاط الحيوي للمجتمع قريبا . هذه الاختلافات في تحديد ماهية الانثروبغرافيا لا تزال باقية بدرجة معينة الى الآن في كسل المدارس الانثروبغرافية قريبا (ولا سيما في المواد الشبيهة بالانثروبغرافيا ، مثل الانثولوجيا والانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية) . ولكن عن الواضح ان اول الاتجاهين المشار اليهما لا بد وان يؤدي الى تصور مادة الانثروبغرافيا بمثابة «شيء يتقلص باستمرار» ، لان العصر يتسم بزيادة متزايدة لمخلفات الماضي من حياة الشعوب . وكذلك ، فان الاتجاه الثاني ، على الرغم مما يبدو من اتساعه ، ليس اوسع افقا بالنسبة الى علم الانوسات ، انه يخلق صعوبات لا تذلل لتحديد السمات المعرفية للانثروبغرافيا والمواد العلمية الاخرى التي تدرس مختلف جوانب حياة الشعوب (السوسولوجيا ، فقه اللغة ، نقد الفن ، دراسة الفولكلور ، الخ) .

كل هذا يطرح بالبحاح مسألة معايير تعريف ميدان مادة العلم الانثروبغرافي ووضوح حدود فاصلة بينه وبين السواد

المتاخمة ، وكذلك صياغة هذه المعايير بالنسبة الى الانثروبغرافيا التطبيقية ، الامر الذي ينطوي على اهمية خاصة . ينبغي لدى اختيار معايير من هذا النوع الانطلاق من ان مادة كل علم لا تعين ابدا بصورة كيفية ، بل تتوقف قبل كل شيء ، على ابراز تلك الصفات بالذات التي يبحث فيها ذلك العلم من بين مجموع الصفات الملازمة لموضوعه . وبالتالي ، فان وجهة النظر النموذجية له لا تحددها مجموعة اعتبارية عن القضايا ، بل توفر صفات خاصة معينة موجودة فعلا لدى الموضوع . ولما كانت الانوسات - الشعوب موضوعا للانثروبغرافيا ، فمن الواضح انه ينبغي البحث بين خصائصها التصنيفية ، المميزة عن معايير لتحديد مادة هذا العلم . ونعيد الى الاذهان ان هذه الصفات هي تلك التي يمكن بفضلها ابراز الانوسات من بين الروابط البشرية الاخرى ، اي تلك التي يمكن تسميتها بالساللية ، وهي ، من جهة ، وظيفة توحيد كسل افراد الانوس (التكامل السلالي الداخلي) ، ومن الجهة الاخرى ، وظيفة فصلهم عن ممثلي الروابط الشبيهة الاخرى (التمايز ما بين الانوسات) . كما سبق وقلنا فان الوظائف من هذا النوع تؤديها ، الى جانب اللغة ، العناصر التقليدية العامة للمثقفة في الغالب (خبرات العمل ، العادات ، الشعائر ، الفن الشعبي ، الادباع الشفوي وما شابه ذلك) التي تتميز بخصائصها المتفردة ما بين انوس وآخر .

وبالتالي ، يجب ان يشكل النظر الى عناصر الانوس من خلال مؤشر قادتها الوظائف الساللية اساسا لابرار ميدان مادة الانثروبغرافيا . ونظرا لما تتمتع به الصفات الساللية المميزة (الخاصية الساللية) من وضوح اشد ، فان هذه الصفات بالذات تبرز بمثابة نقطة انطلاق لفرز ميدان مادة الاجبات الانثروبغرافية .

ولكن الانثروبغرافيا مدعوة ، بالطبع ، الى الكشف عن كل مظهر الانوس ، لا خصائصه المميزة فنسب ، بل وعلامته المشتركة مع الانوسات الاخرى . وتحديد الخاص والعلم يشكل دوما عملية واحدة . ولهذا فان الدراسة المقارنة لعناصر

الانوس كل طريقة اساسية لتحسين خصائصه المميزة تقتصر
لا محاولة اظهار الصفات المشتركة مع الانوسات الاخرى
ايضا . وفي غضون ذلك فان بعض هذه الملامح قد يكون
ملازما لكل الانوسات الموجودة والتي وجدت ، اى يعمد
طابعا بشريا عاما ، وقد يكون بعضها ملازما لمجموعة من
الانوسات فقط ، اى انه ، بالثنائي ، ذو صلة خاصة ايضا من
عده الناحية .

وهكذا ، فان التعريف الذى سبق ايراده للانثوغرافيا
كعلم مادته الاساسية الانوسات - الشعوب ، يجب ان نضيف
اليه ايضا ان هذا العلم يبحث فى تشابهها واختلافاتها .

ان التصور القائل بان الانثوغرافيا تنظر الى مواضيعها من
خلال مشهور قادية عناصرها للوظائف السلافية يمكن من فرز
النواة الاساسية لميدان عاداتها ، ومن الواضح ان هذه النواة
تشكل فى مثل هذا تناول شريحة الثقافة بالمعنى الواسع
لللمة التى تؤدى الوظائف السلافية ، اى الثقافة التقليدية -
العامة قبل كل شئ .

لا يعود الى الشريحة التقليدية - العامة للثقافة دور واحد
فى مختلف درجات التطور الاجتماعى . وعلاوة على ذلك ،
تنبأين ايضا المؤشرات الزمنية للتقاليد ، فهى تسمى بعض
الحالات قديمة ، عتيقة باغليها ، وفى حالات اخرى تقاليد
جديدة ، فى طور التكون .

فى المجتمعات ما قبل الطبقية والطبقية المبكرة تشمل
الشريحة التقليدية - العامة القديمة الثقافة بأسرها تقريبا .
وهذا ما يفسر واقعا معتقنا به منذ امد بعيد ، وهو ان
الانثوغرافيا تدرس لدى الشعوب المتخلفة فى تطورها
الاقتصادى والتى لا تعرف الكتابة الثقافة بأكملها : من وسائل
ادارة الاقتصاد الى المعتقدات الدينية واللغة . وعلاوة على
ذلك ، لما كان المجال الاجتماعى كله لدى هذه الشعوب
يتمس بصفة خاصة سلافية ، فانه يصبح اجالا مادة لبحاث
الانثوغرافيين كذلك . ان الوضع المتقدم عمليا الذى تشغله
الانثوغرافيا فى البحث فى الخصائص القديمة لدى الشعوب

المتخلفة فى تطورها الاقتصادى التى تجرى دراستها مباشرة
قد ادى الى غنائها النشيط فى معالجة قضايا التشكيلة
الاجتماعية التاريخية الشعبية البدائية اجالا .

ولكن فى العصر الحال تقتصر الدورة العلمية التكنيكية
والتقدم الاجتماعى ، كما هو معروف ، بالزوال السريع للرواسب
القديمة . ومن هنا تنبع مهمة من اكثر مهمات الانثوغرافيين
ظورة فى الوقت الحاضر وفى المستقبل القريب ، وهى
تسجيل الظواهر القديمة المتبقية . ان طابع هذا التسجيل
واهميته يتوخان كثيرا ، بدورها ، على ما اذا كان
الانثوغرافى يدرس الرواسب القديمة لدى الشعوب المتخلفة
فى تطورها الاقتصادى او الظواهر الشائعة الوجودية فسى
المجتمعات المتطورة صناعيا . ان المعطيات عن العناصر
القديمة لحياة الشعوب فى الحالة الاولى تلقى عادة
الى هذه الدرجة او تلك شوا اضافيا فى قضايا
تاريخ المجتمعات الطبقة المبكرة . او حتى ما قبل الطبقة
اجالا . اما فى خصوص الاشكال القديمة المتبقية حتى الآن
عنا وهناك فى معيشة شعوب البلدان المتطورة صناعيا ، فان
دراسة هذه الظواهر ليس من النادر تمكن من النظر ولو
جزليا الى الحياة اليومية السالفة لهذه الشعوب والتى يفصلنا
عنها قرن على الاقل ، ان لم يكن اكثر . بيد انه ينبغي ان
يؤخذ فى الاعتبار ان الثقافة المهيمنة ، المتمثلة فى الحالة التى
نحن فى صدمها تزيح مخلفات الرواسب القديمة بسرعة
خاصة . ولذا تكتسب قضية تسجيلها اصبية كبيرة . وليس
من قبيل الصاذقة ان الانثوغرافيين الذين يدرسون شعوب
البلدان المتطورة صناعيا يسيرون هذه الناحية اهتماما
شديدا .

الا انه ، مع كل ما ينطوى عليه اظهار الرواسب القديمة
من اهمية بالنسبة الى الانثوغرافيا ، من الغلا الافتراض ان
هذه المادة لا تتوجه الا الى «الامر الحى» . وهذا ما ينطبق
بشكل خاص على اتوسات المجتمعات الطبقة المتطورة . وذلك
لان جانب مضمون موضوع البحوث الانثوغرافية يتغير بشكل

جوهرى في هذه المجتمعات . فيبدو في غاية التعقيد والتنوع . ونتيجة لتطور القوى المنتجة يتوالى كل من مجالات الحياة الاجتماعية تقودا كبيرا . ويجرى تخصص في ميدان الاقتصاد وتوزيع لمجالات الإنتاج والاستهلاك يزداد على نحو خاص في عصر الرأسمالية . وتتعقد البنية الاجتماعية . ويزول التماسك في ميدان الثقافة . وتتمايز أنواعها . وتنتج فوارق عميقة في نمط حياة الطبقات والفئات الاجتماعية وسكان الريف والمدن ، وبين الثقافتين العامة واليهية .

تمارس الثورة العلمية التكنيكية تأثيرا جبارا في الروابط السلافية . ولكن هذا التأثير يندوى على طابع مزدوج : فهو ، من جهة ، يساعد على تقريب المستوى الثقافي للروابط السلافية واختلاف الثقافات وقوليتها وتعميقها . ويمكن له ، من الجهة الأخرى ، أن يؤدي . نتيجة لتطور وسائل الإعلام ، إلى فتوة الوعي الذاتي السلافي لدى أوسع جماهير السكان . وهذا ، بدوره ، يمارس تأثيرا عكسيا في الثقافة الروحية ، فيسبغ أهمية سلافية على عناصرها التي لم تكن لها أهمية كهذه إلا يادني الدرجات أو لم تكن تؤدي وظائف سلافية بالعمرة . وأجبالا ، مع انتشار مختلف الانكسار العقولية للثقافة نجد أن الخاصية السلافية للشعوب المعاصرة قد تستقل بالتدرج من مجال الثقافة المادية إلى المجال الروحي . ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أيضا ظهور تقاليد جديدة بما في ذلك في مجال الثقافة اليومية . وإلى جانب ذلك تبدأ الثقافة الروحية المهيمنة تضطلع بدور سلافي متزايد في البلدان المتطورة صناعيا ، ولا سيما حينما تتغلغل متجزئاتها في حياة الشعب اليومية . وبالنتيجة لا تعود الوظائف السلافية الأساسية لدى شعوب البلدان المتطورة صناعيا تؤديها مخلفات الرواسب القديمة ، بقدر ما تؤديها عناصر الثقافة الروحية الجديدة الراسخة نسبيا التي تكونت في نمط الحياة اليومي . والتي ليس من النادر أن تشمل ، بالتماسية ، عناصر التقاليد القديمة . وإن كان ذلك بشكل معدل .

كل هذا يمارح امام الأنثوغرافيا مجموعة خاصة من المهام

المرتبطة بالنظر إلى الشعوب المعاصرة (ومن بينها شعوب البلدان المتطورة صناعيا) كواقع حي . وطبيعي أنه ينبغي في هذه الحالة أيضا أن يعار اهتمام خاص لمجالات حياة الشعوب التي تتجلى فيها ملامحها المميزة بأوضح ما يكون . وهذا ما يتعلق بدرجة كبيرة على الحياة الروحية للشعوب ، وعلى نفسياتها الاجتماعية .

ولما كانت الانوسات أنظمة دينامية ، فإن من أكثر مهمات الأنثوغرافيا عبثورة دراسة العمليات السلافية التاريخية . وفي غضون ذلك يعار اهتمام خاص لفترتين مختلفتين في تاريخ البشرية السلافي : من جهة ، لظهور الروابط السلافية (الأنوجينيز) الذي يعود إلى الماضي البعيد بصورة أساسية ، ومن الجهة الأخرى ، للعمليات السلافية المعاصرة قبل كل شيء . إن التعامل المتزايد للعمليات السلافية في العالم المعاصر يسبغ على الأبحاث الأنثوغرافية في هذا المجال أهمية وفقا خاصين . وهكذا ، فإن الأنثوغرافيا هي مادة علمية ندرس التشابه والتباين بين شعوب العالم جميعا ، وكذلك التغيرات التي تجري فيها على امتداد تاريخ البشرية بأسره منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه .

لقد حظيت الأبحاث الأنثوغرافية بانتشار واسع في بلادنا . ويجريها معهد الأنثوغرافيا لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي مع العديد من الجامعات العلمية الأنثوغرافية الموجودة في الجمهوريات المتحدة وذات الحكم الذاتي ، وكذلك الجامعات . وتؤدي المتاحف الأنثوغرافية والتاريخية قسطا لا يستهان به في دراسة الشعوب .

إن البعثات إلى المناطق النائية ، والتي ليس من النادر أن يكون الوصول إليها صعبا ، في الاتحاد السوفيتي والبلدان الأجنبية يسبغ مسحة ورونتيكية على نشاط الأنثوغرافيين ، والاعتماد الخاص بالشعوب التي تنقسم حياتها اليومية ببعض الملامح القديمة يلفت هذا النشاط بمرئال من السحر والغموض . بيد أن كل هذا لا ينبغي الأهمية العملية الكبيرة لأبحاث الأنثوغرافية . وليس من قبيل المصادفة أن توصيات

الأميراليين لم يراعوا لدى إقامة المستعمرات القبائل والروابط السلالية اللغوية التي تكونت تاريخياً . وبالنتيجة نشأ في الكثير من المستعمرات موزاييك من قبائل وأقوام مختلفة مقسمة إلى أجزاء . ومن هنا الخليط السكاني المدهش للكثير من الدول الفتية .

تشغل دراسة العمليات السلالية المعاصرة أحد الأماكن المركزية في الاستعمارات السلالية . إن الثورة العلمية التكنولوجية في أواسط القرن العشرين ، التي قلصت على نحو خارق المسافات بين الشعوب كافة ، جعلت أثر تطورها المبشرين السابق مدووسا وغير محتمل بشكل خاص . ولدى دراسة العمليات الوطنية المتعاقبة في العالم بأسره يستلزم الجغرافي ، والحق يقال ، بصعوبات من نوع خاص ، ويتلحق هذا خاصة في دراسة شعوب البلدان الربعة التطور التي يتقارب نمط حياتها تدريجيا بصورة متزايدة . ولكن ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أن شعوب البلدان الرفيعة التطور تتمتع أيضا بخصائصها السلالية ، لا تلك المتخلفة من الماضي البعيد فحسب ، بل وتلك التي ظهرت منذ عهد قريب نسبيا . ومن الهام بالنسبة إلى الجغرافي تلقي تصور واضح ليقاء وتكيف الأشكال التقليدية للثقافة والمعيمة ، وتزايد الزواج المختلط من الناحية القومية ، وتغيرات الوعي الذاتي القومي . لدى دراسة العصر الحالي يقترب عمل الجغرافي اقترابا شديدا من الأبحاث السوسيوولوجية المدروسة . وليس من النادر أن يهتم علماء الاختصاصين بالمجالات نفسها من الحياة الاجتماعية (الحيشة ، الأسرة وما شابه ذلك) . يبدو أن السوسيوولوجي والجغرافي لا يكرر أحدهما الآخر ؛ فكأنهما ينظران إلى موضوعيهما من منظورين مختلفين . فلدى دراسة الأسرة ، مثلا ، يتصب اهتمام السوسيوولوجي بصورة رئيسية على الصلات الاجتماعية ذات البلاغ العام المتجسدة فيها ، أما الجغرافي فيهتم بخصائصها السلالية . وإلى جانب ذلك تستحيل أحيانا من الناحية العملية دراسة العلاقات الاجتماعية البدئية والسلالية كل على حدة نظرا لتشابكها الشديد .

الانثوغرافيين قد استخدمت على نطاق واسع منذ السنوات الأولى للسلطة السوفيتية لدى حل المسائل المرتبطة بتحويل اقتصاد وثقافة ومعيشة الشعوب التي خضت إلى الاشتراكية مباشرة من النظام الإقطاعي أو حتى العشائري . وبدون المعارف الانثوغرافية يستحيل ، مثلا ، اتخاذ موقف صحيح من تراث الشعوب الاقتصادي الثقافي الضخم وفصل ما فيه من تقاليد تقدمية ، وشبدة عن الظواهر الشائخة الضارة . ولدت توصيات الانثوغرافيين دورا كبيرا بشكل خاص في إعادة بناء حياة شعوب الشمال الصغيرة على أساس اشتراكي : الكوريائيين ، الأيتلمينيين ، الاسكيو ، الأيفنكيين ، النينيين وغيرهم . إن مراعاة خصائصها الثقافية المعاصرة التقليدية ساعدت كثيرا على العودة للعلاقة التي قامت بها في أقصر فترة تاريخية .

إن الانثوغرافي ، إذ تركز اهتمامها على الثقافة التقليدية المعاشية قبل كل شيء ، تساعد بهذا على معالجة أحد الجوانب الجوهرية لتاريخ البشرية بأسره الذي لا ينحصر أبدا نسي تطور الأشكال المهنية للثقافة فقط . وتضطلع الأبحاث الانثوغرافية بدور خاص في استيفاح تاريخ الثقافة نسي الدرجات المبكرة للتطور الاجتماعي . وبالأجمال تبين الأبحاث الثقافية التاريخية الانثوغرافية على نحو مقنع أن الشعوب جميعا مؤهلة للتقدم الثقافي على قدم المساواة . ولهذا يعود إلى هذه الأبحاث دور هام في التضلل ضد المفاهيم العنصرية الرجعية ومختلف الأوهام القومية . مثلا ، إن الأبحاث التاريخية الانثوغرافية ، التي كشفت للعالم الحضارات الأصيلة الرائعة للكثير من الشعوب الإنجية والتي وجدت قبل الغزو الأوروبي لأفريقيا نسفت من الأساس الأساطير حول عجز هذه الشعوب عن الإبداع الثقافي .

تتطور المعارف التاريخية الانثوغرافية على مغزى جوهري بالنسبة إلى فهم جوانب كثيرة من الحياة الحالية للشعوب . وبدون معارف كهذه يستحيل ، مثلا ، إيجاد السبل القومية لفهم العمليات الجارية حاليا في القارة الأفريقية . إذ أن

بالانثروبولوجيا في دراسة الانثروبولوجيا (الانثروبولوجيا السلافية) ، وكذلك تاريخ المجتمع البدائي . وتفاعسل الانثوغرافيا ايضا الى هذه الدرجة او تلك مع الكثير من العلوم الطبيعية الاخرى (علم النبات ، علم الحيوان ، الاقويانولوجيا ، الخ) ، التي من شأن معطياتها ان تكمل لوحة تاريخ البشرية السلافى .

لا يمكن حل مهمة الوصف الشامل للشعوب - الانثوسات والعمليات السلافية الا على اساس بحث خاص في كل عناصرها التي تنهل فيها الخاصية السلافية بالنتيجة . ومن هنا تتبع الاهمية الخاصة التي يتفادى عليها بالنسبة الى الانثوغرافيا التناول الشمولى لمادة البحث واستخدام معطيات العلوم الاخرى سواء منها الانسانية او الطبيعية . وفي غضون ذلك تبرز الخاصية السلافية بمثابة أحد المعالم الاساسية لتحديد تفاعلها مع المواد المتاخمة التي ترتبط بالكثير منها ارتباطا وثيقا . ولما كانت الانثوغرافيا واحدة من المواد التاريخية ، فانها تنطوى ، بين امور اخرى ، على نقاط تماس غير قليلة مع التاريخ المدينى العالم في دراسة العصر المشاعى البدائى ومسائل التاريخ السلافى . واذا يبحث الانثوغرافى فى مسائل الانثوجينيز ، يتوجه باستمرار الى مواد الارخولوجيا ، اما الارخولوجيا فتستخدم معطيات الانثوغرافيا على نطاق واسع من اجل استقصاءاتها ، بها فى ذلك تحديد الانتماء السلافى للآثار الارخولوجية . وتلامس الانثوغرافيا تاريخ الثقافة ونقد الفن والابحاث الفولكلورية لدى دراسة النتاج الفنى الشعبى ، وتلامس علم الاقتصاد لدى دراسة التسميات الاقتصادية . وكذلك فان الانثوغرافيا ، كما سبق واشترنا ، ترتبط بالسوسمولوجيا المموسة دراسة تفاعل الظواهر الاجتماعية الطبقة والثقافية السلافية (السوسمولوجيا السلافية) . وثمة قسم مشترك بين السيكلولوجيا الاجتماعية والانثوغرافيا ، وهو السيكلولوجيا السلافية . وترتبط الانثوغرافيا بقله اللغة دراسة القرى اللغوية بين الشعوب والظواهر والاقتباسات اللغوية المتبادلة وتفاعل العمليات اللغوية والسلافية (قله اللغة السلافى) . تتعاون الانثوغرافيا والجغرافيا فى دراسة تفاعل الانثوس والوسط الطبيعى ، واصناف توزع السكان ، وكذلك فى مسائل وضع الخرائط السلافية . وفى البحث فى تعداد شعوب العالم وعمليات الهجرة تقترب الانثوغرافيا من الديموغرافيا (الانثوديموغرافيا) . وتقترب الانثوغرافيا اوقت اقتربان

طريق من الماضي

عن تاريخ الشعوب . وطالما أن الماضي يتحدث مع العلماء ،
من صفحات المدونات والاسفار ، فإن الامر لا ينطري على
تعقيد كبير .

وإذا لم توجد مدونات ؟ تبقى العراسيم التشريعية
والوثائق الاقتصادية . وهي بالذات كانت مضمون الألواح
النجارية السومرية والبابلية ، مع العلم أن مواد ما نسميه
اليوم بكشوف المعاصيات هي أكثر من غيرها بوضوح .
ولكن حتى وثائق المستودعات تعطي الباحث في الأنثروبولوجيا
الكثير . إذ أن لغة الوثائق بعد ذاتها تشير (وإن لم يكن
دائما) إلى الشعب الذي ينشئ (إليه) واضعو هذه الوثائق .

وإنه لأكثر تعقيدا بكثير وضع الباحثين الذين يدرسون
ماضي الشعب في الفترة التي لم يكن يستخدم فيها الكتابة .
قد تساعد ، طبعاً ، شهادات الجيران الذين كانت عندهم
كتاباتهم وأحداث الذين زاروا ذلك البلد . ولا يسعنا إلا أن
نتذكر أننا مدنيون للرحالة العرب ، مثلاً ، بوفرة من
المعلومات عن تاريخ شعوب الفولغا والأورال وأوروبا الشرقية
عموماً في أوائل القرون الوسطى . ولكن هذه الشهادات
«الجانبية» ليست ، للأسف ، كاملة دائماً ، وكثيراً ، كثيراً
جداً ، لا وجود لها أصلاً .

ينبغي لعلمنا ، الأنثروغرافيا المتعاونة دوماً مع العليوم
التاريخية الأخرى ، أن يكمل تاريخ الشعوب ، وأن يقوم
أحياناً . وكلما أوفنا في القدم ، ازدادت أهمية البحث
الشامل في الأنثروبولوجيا .

إن الأنثروبولوجي يبعث مظهر الساكن القديم لهذه
المتطقة أو تلك ، فيقارن هذا المظهر بمظهر ممثلي الأنثوسات
المعاصرة ويربط بين الماضي والحاضر .

لقد اقتحم أوروبا في وقت من الأوقات شعب كان
السلافيون القدماء يسمونه بالآوريين ، ونسبه نحن الآن
بالآفاريين . ويعود منشورهم إلى أواسط آسيا وكانوا من
الجنس المغولي ، ولكنهم في طريقهم إلى السهول استغرق عقوداً
عديدة ، شمساً في بنيتهم أناساً من النمط الآوري وتزوجوا

إن تاريخ كل أنثوس جن ، لا ينبغي من تاريخ البشرية
العام . فكيف يمكن معرفة طريق الشعب الذي قطعته عبر
القرون والعصور على جذوره ونسبه القدم والجديد ؟

إننا ، في القرن العشرين أيضاً ، نعيش زمناً تتكون فيه
العشرات من الأنثوسات الجديدة . ويتنوع الأنثروغرافيون
باهتمام مفهوم كيف تتكون اليوم الأمة الاندونيسية من اقوام
وقبائل عديدة . أنها لم تنشأ بعد ، ولكن الكثير من العلماء
والقوى بأن الأنثوس الاندونيسي سينتسخ وسيغير - فسي
مستقبل ليس بالبعيد جداً - رابطة سلالية اجتماعية ، أي
أمة .

ينشأ الكثير من الباحثين بولادة روابط سلالية جديدة
في البلدان الأفريقية : فإذا كان ظهور الأمة الكينية أمراً لا
يمكن أن يعزى إلا إلى مستقبل بعيد نسبياً ، فإنه يجري في
كينيا منذ الآن اتحاد جامح للقبائل وتحويلها إلى اقوام كبيرة .
وظهرت في القرن الأخير عدة أنثوسات جديدة في أراضي
الاتحاد السوفييتي . ولعل أسطح مثال هو الألمانيون ، الشعب
الذي تشكل من قبائل واقوام صغيرة تتكلم بلغات مختلفة ،
يذلك في العهد السوفييتي . بعد عام ١٩١٧ .

إننا نهمل وقائع العمليات السلالية في القرن التاسع
عشر من كتب العلماء وملاحظات الرحالة وشهادات المعاصرين .
وكلما تولفنا في الماضي أكثر ، ازداد شح الشهادات الكتابية

من ساكنات اوروبا الشرقية والوسطى ، بحيث ان وجههم فقط ، حسب شهادة الانثروبولوجيين ، احتفظوا في مظهرهم بعلامع مغولية بارزة بوضوح ، اما عامة الناس من الافاريين فقلما كانوا . كما يثبت نتائج حفريات الفيور الانارية فسى المعبر ، يختلفون في مظهرهم عن الشعب الاوروبى المتوسط . تعتبر الارخولوجيا فى الارض على اشياء : فؤوس حجرية وسكاكين برونزية ، ورؤوس حديدية لاسهم ومقصات ، حطام اوان تكسرت منذ قرون كثيرة . ما الذى ، يا ترى ، تستطيع هذه الاشياء القديمة قوله عن انتماء اصحابها الى هذا الشعب او ذاك ؟ غالبا ما تستلجم قول الكثير جدا . ان اقلها يتسم بخصائص مميزة لاراض معينة بذاتها . فقبائل كثيرة كانت تبدي ، مثلا ، ولما خلاصا بنوع معين من الزخرفة كل على عواء . كانت الزخارف نفسها ترسم على اعناق وجوانب الاباريق ، الوف الاباريق ، المصنوعة فى منطقة واحدة على امتداد القرون ، متحولة على الحدود مع القبائل المجاورة الى زخارف مميزة لهذه القبيلة الجديدة . من هذه الآثار التى كانت تغلفها على الصلصال الغلام اصابع النساء الرقيقة (فالنساء بالذات كن اول من استوعب صناعة الفخار) ، يتوصل الارخولوجيون والانثوغرافيون الى معارف جديدة سواء عن اصل القبيلة نفسها او عن اخلافها المحتملين .

ان صلة الانثوغرافيا بفقه اللغة وثيقة بشكل خاص . فاللغويون ، الذين يميلون الى الابحاث التاريخية ، ينتبهون منشأ اللغة وتطورها على امتداد آلاف السنين ، ويجدون فيها كلمات وتركيب نحوية من اللغات الاخرى ، ويحددون أين التقت الشعوب ومتى .

«اللغة ، اللغة ! انها روح الشعوب . وفيها يتقرا مصيرها» . هذا ما يقوله احد «تلاميذ الشعب صانع اللغة» . الشاعر الفرنسى العظيم بيير جان بيرانجيه فى سيرته الذاتية . وفى هذا يتفق الشاعر والعالم : فقد اصّر القبولوجى الالمانى الشهير من القرن التاسع عشر ياكوب غريم على ان لغتنا هى تاريخنا فى الوقت نفسه .

انطلاقا من بنية مفردات اللغة يمكن الحكم بدرجة عالية من الصواب لا على حياة الشعب الاجتماعية ومعيشته فحسب ، بل وعلى منشئه . فقد بين اليرونسور اياييف ، مثلا ، فى مؤلف رائع كيف يمكن فعلا على اساس تحليل لغة الشعب استخلاص فحريته التاريخية ، وهذا ما فعله فى كتاب «اللغة والفلكلور الاوسيتيين» .

يتكلم الاوسيتيون بلغة تمت بالقربى للغات الفارسية والطاجيكية والافغانية المعاصرة . ويتكلم جيران الاوسيتيين بلغات مختلفة تماما ، بلغات قفقاسية وتركية . فمن اين ظهرت اللغة الاوسيتية فى قلب جبال القفقاس ؟ يبدو ان اجداد الاوسيتيين كان ينبغي ان يأتوا الى القفقاس من الجنوب ، حيث يتكلم الآن ملايين عديدة من الناس بالفارسية والبلجيكية والافغانية . ولكن تحليل اللغة بين ان اجداد الاوسيتيين ، الذين جذروا الكلام الايرانى الى هنا ، لم يأتوا من الجنوب ، بل من الشمال . يبدو هذا من الكلمات ذات الاصل غير الفارسى فى المفردات الاوسيتية الحالية : من بينها ، مثلا ، تسميتا الثرمان والجمل . عند الايرانيين ، طبعاً ، كلمتان خاصتان للدلالة على هذه الشجرة وهذا الحيوان ، اما الاوسيتيون فيستخدمون فى لغتهم لهذا الهدف كلمتين غريبتين . اى ان اجدادهم اتوا من اماكن لم يكن الثرمان والجمل معروفين فيها . وكانت ايران القديمة تعرف الاسد جيداً . اما الاوسيتيون فيسمونه بكلمة خاصة كانت تعنى اول الامر حيوانا آخر تماما ، وهو الثور البرى . وهذا معناه انه لم تكن توجد اسود فى وطن الاوسيتيين الاوائل ، والا لما حدث هذا التشوش .

وهكذا ، تمكن اللغة عن تعيين طريق الاوسيتيين الاوائل الى وطنهم الجديد . ويمكن لها ان تسيّر الى مصدر حياتهم ايضا . ان كلمة «رحل» ، وهى جوهرية جدا ، كما هو مفهوم - وسعت معناها الاولى كثيرا فى اللغة الاوسيتية ، واخذت مفوم «عاش» . ومن الواضح ان هذا لا يمكن له ان يحدث الا لدى اجداد رحل .

مضى قدم الاوسيتيين الاوائل الى الفقاس ؟ وهنا ايضا في وسع تحليل اللغة ان يوضح الامر . لقد جلبوا معهم تسمية خاصة للديد ، اى ان انتقالهم لم يتم الا في اوائل الالف الاول قبل الميلاد . قبل ذلك لم يكن الديد معروفا جيدا في العالم القديم ، وما كان لشعب من شعوب الاطراف ان يطلق عليه اسما .

يجيب القاموس عن كل ما يغفل على بالك من الاسئلة - المهم طرحها بطريقة صائبة فقط . . . ولا تضن المعلوم التاريخية بتأكيد الافتراضات الدقيقة . وفي مثالنا يذكرنا التاريخ بالاسقوثيين والسارماتيين الناطقين بلغة ايرانية على الشاطئ الشمالي للبحر الاسود . في القرون الاخيرة قبل الميلاد والقرون الاولى بعد الميلاد تغلغلت القبائل الاسقوثية السارماتية بمدى في الفقاس . ونتر اقرى اقتصاد قبلي سارماتي - الالانيون - نفوذ من الدانوب الى ما وراء الفقاس . ان الاسقوثيين والسارماتيين يصلحون يوضح لدور الحدود الاوائل للاوسيتيين : فقد كانوا ايضا يتكلمون بلغة ايرانية وعاشوا اول الامر في الشمال من الفقاس ، وكانوا رحلا باغليهم والى آخره . الا يصلحون ؟ يصلحون . ولكن «المصبية» ان الاوسيتيين المعاصرين يشبهون جدا ، من وجهة نظر الانثروبولوجيين ، جيرانهم الحاليين الناطقين بلغات فقاسية : التاشان ، الكاردينيين ، البلقاريين ، الخيفسوريين . . .

ما العمل ، ان معطيات الاثوغرافيا والاثروبولوجيا وفقه اللغة والارخولوجيا وغيرها من العلوم المتجاورة ليس من النادر ان تتناقض فيما بينها ، سواء «داخل» كل من هذه العلوم او على الحدود ما بين علم وآخر .

يمكن ان نشاهد في مؤلفات الاباح في ميدان الانتوجينز والتاريخ السلالي رأيا يقول يانه في القضايا الانتوجينية السلبية لا جدال في رجاء كفة الارخولوجيين والنتاح الى ان تترك الارخولوجيا بالذات الكلمة الفصل في مسائل الانتوجينز . وان منجزاتها تعتمد في غضون ذلك على التسليم

بان كل ثقافة ارخولوجية توافق اثوسا معينة ، هذا في حين ان الاثوغرافيين يعرفون غير قليل من الحالات ، حينما يوافق نودجان او اكثر للثقافة المادية اثوسا واحدا ، وحينما يكون ، مثلا ، جزء من الشعب مزارعين ، والجزء الآخر رعاة . والاهم من ذلك اننا نعرف اليوم ايضا شعوبا مختلفة ذات ثقافة مادية متشابهة جدا ، وكذلك كان يتمتع ويمكن ان يتمتع بثقافة متشابهة جدا الكثير من القبائل القديمة التي كانت تتكلم بلغات مختلفة . قول تمة مجال لان نعرف من الآثار والمكتشفات الارخولوجية لغة شعب لم تكن عنده كتابة . ولذا غالبا ما تجري نقاشات حول انتهاء هذه الثقافة او تلك الى قبائل قديمة معينة بالذات . العربية ؟ الاريقية ؟ الاربوية ؟ . ان الثقافة المادية للمسحوب ، حينما يتعلق الامر بقرون عديدة من تاريخها ، تتمتع بالاضافة الى ذلك بتأقيلة للحركة عالية نسبيا ، فهي تتغير ، ولا سيما لدى اقامة الشعب في مناطق جغرافية جديدة .

انه ليصعب جدا العثور على سمات لاختلاف مبدئي بين الثقافات المادية لاثوسات شتى تميز في ظروف طبيعية متماثلة وتملك نمطا واحدا من الاقتصاد . هنا لا تتمتع الارخولوجيا الى الآن بمنهج يعول عليه .

ليس من النادر ان تتعارض معطيات العلم مع ذاكرة الشعب التاريخية المثبتة في ما سميته الانتوجرافيون - المحترفون بالروايات الانتوجينية . اسما ذاكرة الشعب التاريخية الشفوية فيكسن ان تتغلغل الى «اعماق المصور» بمرجات متباينة . وقد سجل البولنديون رقما قياسيا فريدا في هذا الخصوص . ان بعضهم يتذكرون اسماء اجدادهم لفترة تمتد حتى الف سنة . ويستطيع الكثيرون من سكان جزر مركز سرد تسبهم على لعتداد ١٦٥ جيلا .

من المعروف ، بالمناسبة ، ان للذاكرة حدودها ، مهما بلغت من القوة . وقد بين البحث في ثقافة البولنديين ان هذه الروايات التي يبدو انها تستحق الثقة الكاملة - من حيث الاساس على الاقل - يمكن ان تضلل العلماء . وهكذا

قائمه ، وقد تتبعوا الروايات البولندية التي تتحدث كيف
اتى بحارة المحيط الهادئ العظام واستقروا في الجزر ، تبينوا
ان اول جزيرة سكنت - الوطن الاصلى - قد سُجرت للبعث
عن اراض جديدة منذ عشرين قرنا ؛ وهكذا اعتبر العلماء
بداية استيطان الجزر البولندية من قبل سكانها الحاليين
تعود الى اواخر عصر ما قبل الميلاد ، هذا في حين ان
البولنديين الاوائل ظهروا في جزرهم ، كما بينت الحفريات
الارخولوجية ، قبل ذلك بالف سنة تقريبا . ولكن حتى فترة
الفى سنة هي «عماق قرون» بعيدة الغور يشكك خيال بالنسبة
الى الذاكرة الشفوية ، ولا سيما حينما تحتفظ بوفرة من
تفاصيل التاريخ الملموسة ، من اللف اسماء الاشخاص الى
مئات الاولوف من تسميات الجزر والاماكن الضحلة والجيال
والصخور المرجانية ، وصولا الى تسميات القوارب التي كان
الاجداد ينقلون عليها من جزيرة الى اخرى .

ينبغي التوصل ان «التاريخ» لدى التنقل من لسان الى
لسان يتمتع بخاصية يمكن اعتبارها خاصية التحول الى
«ادب» ، فيتكون ويتطور وفق قوانينه . ان البيلينات
الروسية هي روايات عن اعمال وافعال اجدادنا . لقد حملت
البيلينات من القرن العاشر شخصية فلاديمير الاول الملقب
بالنفسس الحمراء ، امير كييف الاكبر الاول الذي اعتنق
المسيحية . وبناء على قوانين عديدة من كييف وغير كييف ؛
والاحداث التي يرتبط بها اسم فلاديمير الاول في البيلينات
لم تجر في الواقع في زمنه وحده . ان عمالقة فلاديمير
ينقلون التثر الذين اتوا الى روسيا في الواقع بعد موته
بأكثر من قرنين ، وحينما يصارع بفال البيلينات ، يامر من
فلاديمير ، الانعى المتعددة الرؤوس ، يميز المؤرخ في هذا
القول شخصية تاريخية تماما ، وهي الخان البولوفى طغرل كان .
ولكن الروس لم يصلندوا بلطغرل كان الا بعد فلاديمير الاول
بأكثر من قرن .

ولكن الكثير من الامراء المشهورين في اسفار ومدونات
ان فلاديمير ، منوماح ، حفيد الامبراطور البيزنطى الذى انتصر
على البولونيين وجمع موقنسا وروسيا المشتتة في قبضته
الجيابة ، قد اندمج تماما بالنسبة الى الشعب ، كما نستطيع
ان نحكم من البيلينات ، في سمية وايى جده .
ليس مصادفة ان تسمى الميثولوجيا والفولكلور بتعبير
مكثف عن الحكمة الشعبية ، فيما ليس مجرد قصة عن الاحداث
المشهورة التاريخية ، بل يقومان بالاصطفا . بين هذه الاحداث ،
قصة بيننا ما لا يريد الشعب تذكره . . .
يبدو انه قمة ما يجعل سفياتوسلاف يغوريفيتش امير
كيف شخصية من شخصيات البيلينات ؛ مساقعة على بيضة ،
المنتصر في الكثير من المعارك التى رسخ اقدمه على الدواب
بالسلاح ، الفارس الذى خلف اقبابه كلمات ابيه «لا يثنى
العار بالموتى» وذكرى عن التحذير الشريف للاعداء «اعلن
الحرب عليكم» . . . ولكن لا وجود له في البيلينات . يقصر
الاكاديسى وبيكاروف هذا بالوقف السلبي للشعب الروسى
من حملات الغزو البعيدة التي جرت مرارا في زمن امارة
سفياتوسلاف .

لقد دخل فلاديمير الاول البيلينات ، ولكن بقيت خارجا
حملات الغزو التي قام بها . انه يبرز هنا كجانب مدافع ،
كمين يتعرض للهجوم . لم يكن الشعب يؤيد اعتداءات حاكمه ،
وعرب عن هذا بوضوح كاف . وقد اثار انتباه الباحثين انه
في ملاحم مختلف الشعوب ، ومن بينها الرحل الذين غالبا ما
يعتبرون ذوى نزعة حربية بشكل خاص ، يبرز بوضوح
التنديد حتى بالانفال الايجاييين اذا كانوا يعطشون للغنجات .
ليست الاساطير المكرسة خصيصا لاصل الشعب او حكامه
هى وحدها التي تعلى معلومات عن الانتوجينز . ان التشابه
في الميثولوجيا والفولكلور لدى شعوب منفصلة اقليميا يمكن
ان يؤكد ، بل ويثبت قرابتها ، وصولا الى البرهان على واقع
وجود شعب واحد في البياض العميد تحدثت منه ؛ وغالبا ما
يمكن انطافسا من الابداع الشعبى ، الذى يعكس التغيرات

الاجتماعية بدقة ، تحذير مرحلة التلوث الاجتماعي التي وصل اليها انثوس الاجداد حينما كان انثوسا واحدا .

بيد انه ينبغي هنا دائما تذكر ان موضوعين متشابهين في حكايات او في ملامح مختلف الشعوب يمكن انهما الا عكسا القريب القديمة والصلة القديمة بين هذه الشعوب فحسب ، بل في رسمهما ، من حيث المبدأ ، ان يظهر بصورة مستقلة . وهذه إحدى «التشايلا الزلية» سواء لعلم الفولكلور او لتاريخ الميثولوجيا .

هذا مع العلم ان الوضع بالنسبة الى التاريخ السلافي يكتسب حدة اكبر : على الباحثين في الانثوجينيت حتى في حالة الصلة الجلية بين الموضوعات ان يتصوروا بوضوح ما اذا كان امامهم اقتباس بسيط ، من «هيكلة متفصلة» او تبدلتا لثرات مشتركة خلقة الاسلاف القدماء .

ان مايه ، احد اكبر اللغويين الفرنسيين ، معروف ايضا كباحث في الفولكلور . واذا قارن روايات مختلف الشعوب ، توصل الى هذا الاستنتاج :

«ان الحكايات عن الحيوانات موجودة في كل مكان ، والشبه بين بعض الحيوانات والانسان واضح بحيث يصبح عن المنطقي تماما عزو الصفات الملزمة للناس الى الحيوانات والتعير بهذا عما يصعب قوله مباشرة . يمكن المقارنة بين هذه الحكايات لتحديد اشكالها وطاقها ومجالات استخدامها والقيام على هذا النحو بوضع نظرية عاسمة للحكايات عن الحيوانات . والتطابقات ، التي يعثر عليها في غضون ذلك ، تنبع من الخصائص البشرية العامة ، اما التباينات فمن ثلوع الانباط والاختلاف في مستوى الحضارة . ويمكن عن هذا الطريق معرفة شيء عن الملامح المميزة ، العامة للبشرية ، ولكن تستحيل معرفة أي شيء عن تاريخها . اما اذا نظرنا الى . . . الاساطير الهندية الاوربية عن شراب الخلود فنحصل على نتائج مغايرة ، ان فكرة الشراب ، الذي يستطيع ان يمنح الخلود ، طبيعية تماما بحيث لا يمكن لها ان تعود الى شعب واحد . ولكن حينما تكتشف عند شعوب مختلفة نكلم باللغات

الهندية الاوربية ، وروايات كاملة الى هذه الدرجة او تلك ، اسطورة شراب الخلود الذي يحضر في خافية كبيرة ، وتضاف اليها علاوه على ذلك قصة العروس الخائفة واسطورة الصراع بين الآلهة والمخلوقات الشيطانية ، فان هذا التتابع لدواضيع متفرقة ، غير مترابطة داخليا بالرة ، لا يمكن ان يظهر بمحض المصادفة» .

وبالفعل ، ان هذه الحكمة موجودة في اساطير الايسلانديين وسكان البنجاب في الهند على حد سواء . من الواضح ان هذا تراث مشترك فعلا . ولكن هذا التشابه الجلي في التفاصيل امر نادر . ان الباحثين يصادفون في حالات اكثر بما لا يقارن تشابها اجد بكثير عليهم ان يستخلصوا منه كل ما هو ممكن .

امضى العالم الروسي فيكتور غولوييف (١٨٧٨-١٩٤٥) جانبا كبيرا من حياته في الهند الصينية ، حيث بحث في فولكلورها وتاريخها . وقد اعتمد غولوييف ، بين امور اخرى ، بما اذا كان يمكن العثور من خلال الاساطير عن الآلهة والابالال القدماء على متحاح يكشف سواء عن منشأها او عن الصلات التاريخية بين الشعوب التي تعود اليها هذه الاساطير . وجادل غولوييف تبيان الصلات بين الخميريين ، وهم شعبي في جنوب شرق آسيا ، واسقوثيين شمالي البحر الاسود .

لم يمنعه عن هذا بعد المسافة التي تهلج الوفا عديدة من الكيلومترات ، ولا واقع ان لغتي الخميريين والاسقوثيين ليست بينهما صلات قريبة ، ولا ما يبدو من استحالة العثور في التاريخ القديم على حادثة تشابكت فيها بشكل من الاشكال عناصر الاسقوثيين واجداد الخميريين .

لقد وجه اهتمامه الى اسطورة منشأ المملكة الخميرية التي تقول بان اسرة كاوديشا الاولى نشأت من الافاعي . وكان غولوييف يعرف ان علماء آخرين عثروا على مصدر هذه الاسطورة الخميرية في جنوب الهند . اذ كانت توجد في إحدى الممالك هناك اسطورة عن منشأ حكام منحتم ملكة افعى قوة

خارقة . وقرر الباحث الروسي متابعة الاستقصاء . ففارق بين الاساطير عن الافاعي - ادهات الملوك التي عاشت امدا طويلا في آسيا الغربية وآسيا الصغرى وحيالاي ومنطقة البحر الاسود - ورسم الاستقصاء الصعبي قناعته بان الاسطورة الاسقوثية ظهرت قبل غيرها ، وقد سجلها «ايو التاريج» اليوناني القديم هيرودوت : ان اول ملك اسقوثي ، واسمه اسقوث ، كان الابن الاصغر لهرقل وايتيخدا التي كانت نصف امرأة ونصف افعى .

ان نصف المرأة ونصف افعى ، التي تؤدي دور بعبع احيانا ، ودور الية احيانا اخرى ، شخصية منتشرة للغاية في ميثولوجيا العديد من الشعوب . وليس من النادر ان يرى في هؤلاء «الالهات الافعوية الازل» تجسيد للارض الام التي كانت افعى رمزا لها عند شعوب كثيرة . ولكن ليست كثيرة اهدا تلك الاساطير التي تلد فيها انصاف الافاعي هذه ملوكا جبابرة ، ولا سيما اذا كانوا اجدادا لشعوب باكملها . وقد اجري غولوييف مقارنة عسبية بين الاشكال الاسقوثية-الهيلينية للاسطورة واشكالها الهندية الجنوبية والخميرية واستنتج ان العناصر المشتركة في هذه الاشكال ليست من قبيل المصادفة . ان الالهة الاسقوثية ، التي لها وجه انسان وجسد افعى والتي سماها هيرودوت بايتيخدا ، اصبحت عند الخميريين ، في رأى العالم ، الالهة الافعى ناعا ، الجدة العليا لشعب كمبوتشيا . كيف وصلت هذه الاسطورة الى الهند الصينية ؟ ابتداء من اواسط القرن الثاني قبل الميلاد تغفل الاسقوثيون صقيبا في اراض الهند (يعرفون هناك باسم الساقين او الشاقين) ، واسسوا دولة مترامية الاطراف شملت جزءا كبيرا من شبه القارة . لقد كانت ، طبعا ، بين حدودها الشرقية وازاضي كمبوتشيا الحالية ، مسافة لا يستهان بها ، ولكن يمكن تلمسها في مثل هذه الحالة وجود حلقات اتصال .

لا يمكن موافقة غولوييف على اقترافاته جميعا ، ولكن لا سمعنا الا الاعتراف بانها جذابة وجريئة .

لقد سبق القول بان هذا الحدث او ذاك ، اذ يدخل حيث الميثولوجيا ويصبح اسطورة ، يبدأ بالتحول . ولكن هذا التحول يجري وفق قوانين معينة ، ويمكن القول انه «يأخذ رهوذا» الخاصة .

اليكم ، مثلا ، كيف تحول طلائع اسطورة تاسيس الدولة الاينكية في بيرو التي ضمت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ارجاء شاسعة في اميركا الجنوبية .

خرج من كهف باكاريتاميو اربعة اشقاء واربع شقيقات وانطلقوا للبحث عن اراض مناسبة . كان احد الاشقاء ذا قوة مفرطة ، اذ كان يستطيع زحمة جبل كامل بحجر من مثله . خافه الثلاثة الآخرون ، فاجتالوا عليه واعادوه الى الكهف من جديد واغلقوا المخرج بصخرة كبيرة . وتحول اخ آخر وهو في الطريق الى صم حجرى . وبقي شقيقان : ايار اوكا وايار مانكو . وتحول ايار اوكا الى حجر ايضا ، ولكن بعد العثور على ارض صعبة . في احدي روايات الاسطورة انطلق مع الاشقاء للبحث عن اراض جيدة هنسود آخرون : بسطاه ، فانون ، ليسوا من منشأ «كهفي» . وقد قادهم ايار مانكو الذى خاض الصراع ضد القبائل الفاطنة في الاراضى الجديدة وانتصر عليها واصبح اول زعيم للاينكيين .

حول مؤرخو بيرو الاسطورة يدفة وفسروها بهارة كقصص دجاجة عن حملة اربع قبائل متحالفة على وادي كوسكو . وهكذا ، يفترض لويس فالكارسونيل ان كلا من الاخوة يرمز الى إحدى القبائل : قلند تيت ثلاث قبائل او ابتلعنها القبيلة الرابعة - الاقوى - وبناه على تفسير آخر . يرمز شقيقان الى قبيلتين غازيتين . وشقيقان الى قبيلتين مهزمتين . ولدت انظار الباحثين ان تسمية الكهف - باكاريتاميو - ربما يعنى «مكان الشروق» وان ايار اوكا لم يتحول الى مجرد حجر ، بل تحول الى عمود حجرى مثل الذى ينصبه الهنود اشارة الى التملك . ان زعيم الاينكيين ، كما تقول الاسطورة ، اسس مدينة مقسمة الى اربعة احياء ، وتعطى الاسطورة تسميات الاحياء كلها ، ولكن احداها لم تكن مأخوذة من لغة كيتشوا

في عام ١٩٣٩ نشرت حكاية ثينية عن شيخ عنده سبعة أبناء ، خمسة منهم أصبحوا وحوشا جبارة . واثنان - خارويوتشي وفانوتا - كانا ارومة الشعب الثيني الذي يعيش في التوندرا شمال الاتحاد السوفييتي .

في البداية كان الثينيون ، كما تقول الاسطورة ، عشيرتين يعود اصل كل منهما الى احد هذين الاخيرين ، ثم قسم خارويوتشي ابناءه الى عشر عشائر ، وفعل فانوتا مثله . وذكر الحكاية اسماء العشائر الجديدة . وقد اكدت الوثائق ان تسعا من العشائر العشر ، التي انقسمت اليها عشيرة خارويوتشي ، لم تظهر الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وابال اسطورة ثينية اخرى يعيشون على شاطئ البحر في مساكن مخفورة في الارض ، ويقاتلون بما يصمدادونه من البحر . وهذه ، من حيث الجوهر ، حكاية عن الازمنة التي لم يكن فيها بعد ابناء عند الثينيين . واكدت الحريات الاترية تفاصيل الحكاية ، مع العلم انه عثر في ساحل شبه جزيرة يمال على مساكن مخفورة في الارض تعود الى اواخر الالف الاول ومستهل الالف الثاني بعد الميلاد .

يمكن الركون تسييا الى الخصائص الثقافية - المعاشية للانوسات كمصادر للثقوجينيز .

من المعروف ان الرومان اخضعوا اراضي داكيا ، ورومانيا حاليا ، في القرن الثاني بعد الميلاد في عهد الامبراطور تراچان . وقد احتل جيش روماني ضخم البلاد لاند طويل ، جاعلا اللغة اللاتينية تعل بالتدريج مكان اللغات المحلية . ويوجد انوجرافير رومانيا علاوة على ذلك ملاع مشتركة في ملابس سكان شبه جزيرة الابيتين والداكين . الامر الذي يمكن الحكم عليه عن صورهم البارزة في تماثيل ازنمنة الامبراطورية الرومانية ، وهم يعتقدون ان سكان رومانيا لا يزالون حتى ايامنا هذه محافظين في بعض المناطق الريفية على التناثر والبلوزات والاحذية التقليدية وغيرها من عناصر الملابس الداكية القديمة . ونشر مؤرخا الانوجرافير دوناري

التي كانوا يتكلمون بها في دولة الالينيين ، يل من لغة شعب ايمارا الهندي الكبير المجاور . وهذا يشهد ، كما يقتضون ، على ان كوسكو سكنها منذ البداية اناس من قبائل مختلفة يتكلمون بلغات مختلفة . ووجه الانتباه ايضا الى ان اسماء الاغرة ايار في الاسطورة ذات معنى : الاسم المشترك ايار يعني ، في راي بعض الباحثين ، «الحلقة السوداء» ، ويعني احد اسمي اثنين من الاشقاء «الملح» والآخر «الثقيلة» ، واسم مانكو يعني ، على ما يبدو ، حوبا لها اعمية عند الهنود . والاسماء الاخرى في الاسطورة تعني كلها تقريبا نباتات صالحة للاكل . من الواضح ان واضعيها كانوا جامعي نباتات او مزارعين بدائيين . (بالنسبة ، ينبغي الا يغيب عن افكارنا ان واضعي الاساطير هم ، كقاعدة عامة ، مططورون اجتماعيا اكثر من الذين تحدث عنهم الاسطورة .)

ومن الهام كذلك بالنسبة اليها ان الشخص الواحد في اسطورة النسب السلافي لبس من النادر ان يجسد قبيلة كاملة .

حيثما اسس الالينيون امبراطوريتهم الجبارة ، استولوا ايضا على منطقة بحيرة تيتيكالا الشهيرة حاليا ، حيث كان يوجد يوما اتحاد قبائل جبار اقام حضارة التياولاكو الريفية والاسيية ، وكانت هذه الحضارة قد بادت في ذلك الحين ، ولكن ذكرها كانت حية وسط الهنود . وقد ربطت المينولوجيا الالينية تاريخ شعبي بتاريخ الحضارة السابقة : في شكل الاسطورة الجديد ، الذي يسمى احيانا «الرواية الامبراطورية» ، لم يخرج الاشقاء الاربعة والشقيقات الاربعة من كلف باكاريتامبو . بل من بحيرة تيتيكالا . ان نيدا كثيرة من اسطورة خروج الالينيين من بحيرة تيتيكالا تبين ، كما يفترض الباحثون الانوجرافيون ، انها نشأت في فترة متأخرة نسبيا . هنا يزرع الاشقاء اسل الشمس القرة . اما في شكل الاسطورة الاول فلا يوجد ذكر للذرة ، ولا للبطاطا التي ظهرت في منطقة كوسكو قبل ذلك الصنف من الحبوب . وهذه اسطورة نموذجية اخرى حول النسب السلافي .

من رومانها مؤلفا يستدل منه ان الاشكال الزخرقية القديمة المنتشرة عند الداكيين قد بقيت او تطورت لاحقا في التطوير الروماني . في هذه الحالة ينتظم النسق السلالي التاريخي بشكل يعول عليه بصورة كافية ويستطيع الباحث ان يشعر بالثقة .

انه لمن الجيد حينما تتبادل كل المصادر المتنوعة الدعم ، وحينما لا تتناقض المعلومات التي تستخلص منها . وللأسف ، فان المصادر ، كما سبق وراينا ، لا تتفق في حالات كثيرة . بل تتنازع .

فلتكمّل موضوعنا ، ثمة تأكيدات تقول ان الاسقوثيين اتوا الى الساحل الشمالي للبحر الاسود من الجنوب الغربي ؛ ولغتهم (المجموعة الإيرانية) تسير وكان متشابه من الجنوب الشرقي ؛ ويشهد مظهرهم الانثروبولوجي على صلة وثيقة بالسكان السابقين لسهوب منطقة البحر الاسود . فمن هم الاسقوثيون ؟ سكان اصليون او دخلاء ، واذا كانوا دخلاء ، فمن اين ؟ اية رواية ينبغي ان تفضل ، وان مصدر يستحق ثقة اكبر ؟ في صدد المسائل المعقدة والجوهرية ، كمنشأ الشعب - الانثوس ، تستمر المناقشات في مختلف الاراسط العلمية وشتى البلدان ، وهذه المناقشات تجري في الادبيات التاريخية السوفييتية ايضا .

يقول زميلنا الانثروبولوجي اليكسييف ، وقد حلل هذه الحالات المتناقضة : «الانثروبولوجي الادبيات اتجاه لناقشة الفعالية النسبية لشتى اصناف المصادر التاريخية حينما يجري الحديث عن القضايا الانثروبولوجية ، مع العلم ان النقاش يحل غالبا في مصلحة المصدر التاريخي الذي يقتض المؤلفا على ناصيته مهنية» . اي ليس من النادر ان يبالغ اللغوي في معطيات اللغة ، والانثروبولوجي في مواده ، والمختص في الفولكلور في مجالسه . ويسعى اليكسييف الى ان يضع المصادر في اماكنها ويقدّمها موضوعيا .

انه يعتقد ان معطيات علمه تعطي الكثير جدا للتغلغل في عمق الزمن ، لتوضيح هجرات الشعوب في العصر

اليورالزي ، وحتى في العصر الحجري ، مثلا ، ولكن الاتصالات التي تؤدى الى ظهور ذرية مختلفة هي وحدها ، في رأي مؤلفي هذا الكتاب ، التي تؤثر في مظهر الناس الخارجى في الزمان . اما اللغة ، مثلا ، فنشتل احيانا بدون «دم» الشعب الذي يقتبس منه شعب آخر هذه اللغة .

ولكن حتى الاحداث التاريخية التي تؤدى في نهاية المطاف ، من جملة ما تؤدى ، الى «اختلاط الدم» لا تحدث تغيرات انثروبولوجية على الفور . لا بد من الزمن لكي يتجلى هذا التأثير في المظهر الخارجى للشعب . ان الانثروبولوجيين هم انسياء السحرة الذين عمل ياسمهم بطل رواية مارك توين «يانكي في بلاط الملك ارثر» . كان يؤكد ان النبؤ بالسنتقبل البعيد اسهل على النبي الخفي من التنبؤ بالسنتقبل القريب . اما الانثروبولوجيون فيحسنون تحديد الماضى البعيد افضل من الماضى القريب نسبيا .

ان الروايات الانثروبولوجية تساعد ، في رأي اليكسييف ، عند الطرف الآخر من سلم الزمن . انها لا تحتفظ في الذاكرة الا بالقرون الاخيرة ، وبآلاف سنة الاخيرة كحد اقصى (ذاكرة البوليزييس التي تمتد لثى سمة امر نادر على اى حال) . ولكن التكون النهائي لعدد كبير من الشعوب المعاصرة يعود الى هذه الالف سنة الاخيرة بالذات : الاوكرانيون ، العرب ، الليتوانيون ، السكوتلانديون ، الاسبان ، الخميريون ، التاتيون ، البورياتيون ، الغاوسا والى آخره ، ولكن ما العمل اذا كان الفولكلور يحور بشدة الزايق التاريخي الذي يعكسه ؟ وما العمل في «جسم» عشرة امراء في شخصية فلاديمير الكييفي ؟ ويضر اليكسييف : « . . هذا الاعتراض صحيح من حيث المبدأ ، بيد ان اى مصدر تاريخي كذلك لا يعكس الواقع بكامله ويتطلب تحليلا انتقاديا . ولهذا فان الاعتراضات من هذا النوع لا تنطبق على الروايات الانثروبولوجية اكثر مما تنطبق على كل الاصناف الاخرى للمصادر التاريخية» . الا انه لا يجوز ، في رأينا ، تجاهل ان تشويه الماضى في الاساطير يمكن ان يكون قويا للغاية .

ان المعطيات اللغوية هي ، في رأى اليكسيف ، هامة بشكل خاص بالنسبة الى الازمنة التي لا تستطيع الانثروبولوجيا ان تتحدث عنها الا القليل نسبيا والتي لا تظاها الذاكرة المسجلة في روايات الانسان السلافية .
 « . . ان اية معلومات (لغوية) كاملة بدرجة من الدجات يمكن ان تجتد في الانغراض الانثروبولوجية لا توجد الا بدءا من (الالف الاول قبل الميلاد ، اى منذ العصر الحديدي المبكر) .
 ينبغي التنويه لوجه الانصاف بان أحدث الابحاث التي تستخدم ، مثلا ، طريقة الفلوقوروتولوجيا توفر امكان الاستفادة من المواد اللغوية لتحديد «القرابة» بين الشعوب في ازمئة أبعد من الالف الاول قبل الميلاد .

سبع درجات الى التاريخ

بين جمهوريات بلادنا توجد جمهورية يشكيريا الاشتراكية السوفيتية ذات الحكم الذاتي . في الشرق تقطعها جبال الادرال الجنوبي ، وفي الغرب تمتد تلال وسهول الادرال الامامى . في هذه الاراضى تكوّنت الامة الاشتراكية اليشكيرية ، فنشر على القارىّ التوجه الى ماضيها الاشتراكى .
 ان اليشكيريين شأتهم ، بالمناخية ، شأن بعض الشعوب الاخرى ، القليلة على اى حال ، قد استلغوا ان يحتفظوا على امتداد القرون وحتى الرف السنين بتسميات اجدادهم العشائرية القبلية القديمة منها والمتاخرة تسميا .
 ان الشعوب القديمة كلها كانت قبائل في يوم من الايام . نحن نعرف ان هذا ينطبق سواء على سكان روسيا القديمة ، او على سكان الاقطار العربية القدماء ، والفركيين القدماء ، او الهنود الذين كانوا يفتلون في اقصى جنوب امريكا اللاتينية . ولكن لم تكن القبائل تعيش دائما حتى الزمن الذى تستطيع معه كتابة تسمياتها . وهذا ما تسنى لليشكيريين . بل اننا بفضل الاساطير والروايات اليشكيرية الرائعة نعرف حتى عدد

القبائل والعشائر التى كانت فى يشكيريا فى عهدها الغابرة ، ونعرف اسماءها .

ان التسميات التى تعطى للقبائل والعشائر والمجموعات التى تنقسم اليها العشائر شىء واسع وتغييرها اصعب بكثير من تغيير كنية الانسان . تعيش القبيلة ويعيش عادة اسمها الذى تلقته منذ مئة او ثلاثمئة سنة او مئات عديدة من السنين .

ومن الاسم غالبا ما نستطيع ان نعرف ايضا متى ظهرت ولماذا هي على هذا النحو بالذات . لقد وضع العالم اليشكيرى كوزيف من الاسماء القبلية والعشائرية والعشائرية الداخلية «سلما» حقيقة ذا انساق غلى جيد يضى الى ماضى شعبه ، سدا من سبع درجات . كل منها يبلغ قرونا كاملة . ان كوزيف لا يتحدث ، طبعاً ، في مؤلفه العلمى عن سلم سبع درجات ، ولكن راق لنا هذا التشبيه الذى يبدو معبرا ، بل تحدث عن الطبقات اللغوية فى تسميات اليشكيريين السلافية .

اقرب هذه الدرجات اليها ، الدرجة العليا من السلم ، هي الطبقة التى اسماءها العالم بطبقة الفولغا - آسيا الوسطى . تقع فى آسيا الوسطى جمهورية اوربكيستان السوفيتية ، وتوجد ضمنها جمهورية قره قلق ذات الحكم الذاتى . ويوجد فى يشكيريا (او كان يوجد) «اوزبكيون» و«قره قلقبيون» ، ولكنهم يتكلمون باليشكيرية ، لان هاتين التسميتين ، فى الحالة التى نحن فى صددنا ، ليستا تسميتى شعبين . بل مجموعتين عشائريتين داخليتين . تقع فى مجرى الفولغا الاسفل الجمهورية الكالميكية ذات الحكم الذاتى ويوجد فى يشكيريا «الكالميكيون» . وبعيدا عن يشكيريا ، فى اقصى جنوب بلادنا ، تقع اشند الجمهوريات السوفيتية حاراة ، تركمانيا . ولكن يوجد فى يشكيريا «تركمان» يشكيريون . كل هذا يبدو مدعشا ، ولكنه ليس عجيبا الى هذه الدرجة من وجهة النظر التاريخية .

اذا كانت مجموعة من اليشكيريين تسمى بالكالميكيين ،

فهذا يعنى انه تجرى فى عروقهم نسبة من الدم الكالميكى ، ويعنى ان هؤلاء البشكيريين ليسسوا منحدرين من الاجداد المشتركين لشعبهم فقط ، ولكنهم ايضا من اناس قادمين من اراض غربية .

لقد اتى الى الاراضى البشكيرية فى الفترة من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر ممثلو الكثير من شعوب آسيا الوسطى ومنطقة الفولغا والاورال . قدموا الى هنا اسرا على حدة ومجموعات وعشائر . ولهذا اتخذت بعض اتعادات البشكيريين العشائرية اسما شعوب كاملة تعيش على بعد مئات ، واحيانا الوف الكيلومترات .

اتوا من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب ، واندمجوا فى البشكيريين وصاهروهم وانذروا بالتدريج لغتهم وثقافتهم ، الى ان اصبحوا افرادا من الشعب البشكيرى يتمتعون بكامل الحقوق .

لقد مضت خمسةة سنة على اقدم التسميات العشائرية القبلية لهذه المنطقة اقل من مئتي سنة على احدثها ، وما هذه الطبقة الا الدرجة العليا للتسميات السلاوية واللحقاتى التاربخية الكامنة خلفها ؛ وهذه التسميات تفضل لسع الآن بالنسبة الى المؤرخين بدور معالم طريق من نوع خاص تشير الى التفرعات القديمة للشعوب .

نقوم الآن بملحة اخرى فى السلم الذى بناه العالم الاثنوغرافى فى بحثه الصعب ، الدقيق وتندرج الى الطبقة الثانية من الاعلى للشعوب من اسلاف البشكيريين واقرانهم التاربخيين . هنا تصادف اسما ، مثل «الزوغا قيميتشك» و«الزوغا يورماتيين» و«القيز بل توغاي» . ليس من الصعب ان نرى فى هذه «الزوغا» اسم النوغائيين . فمن هم النوغائيون ؟

يجب البدء من العاضى السحيق . منذ مستنة سنة تقريبا ، وفى اراضى بشكيريا على وجه التحديد ، قرر الى سنوات طويلة فى معركة كبرى مصير ارجاء شاسعة من شرق اوربا ، وغرب ووسط وجنوب آسيا . هنا فى عام ١٢٩١ التقى فى

ميدان المعركة جيش الاوطلة الذهبية والجيش الرهيب لتيمور نفسه . ان الاعرج الحديدى ، الذى لم يسم غمضا يبروع الكون ، مزع خان الاوطلة الذهبية توختاميش شر هزيمة . ادت الهزيمة المروعة الى انهيار الاوطلة الذهبية . وظهروا مكانها عدة دول ، وكان من بينها اتحاد للقبائل الرحل عرف باسم الاوطلة النوغائية . واليسوم يعيش الشعب النوغائى السوفييتى فى شمال القفقاس . وحينذاك وقع جزا كبير من بشكيريا تحت سلطة الزعماء القبليليين النوغائيين ، المورزات . وقطعت عدة قبائل نوغائية فى بشكيريا ، واصبحت بشكيرية فى نهاية المطاف . وتحفظ الاسماء السلاوية بذكرى هذا الاختلاط بين الشعبين . وفى الاسم القبل للنوغاي يورماتيين ، مثلا ، اتحد اسم النوغائيين مع قسمة قبيلة اليورماتيين البشكيرية القديمة . ان الطبقة اللغوية الثانية من الاعلى هى نوغائية تماما .

والطبقة الثالثة ، الدرجة الثالثة فى عمق القرون هى ذكرى الكييتشاكين . لقد كان الكييتشاكيون فى يوم مضى اسيا كل شمالى البحر الاسود ، وكانت اراضيهم تمتد الى الشرق عبر شمال القفقاس ومنطقة الفولغا ، وغير اسيا الوسطى وكازاخستان الحالية حتى الطائى تقريبا .

ان الطبقة اللغوية الثالثة ، حسب تقسيم كوزيف ، للاسماء العشائرية القبلية البشكيرية يؤكدها علماء التاريخ بمراد اخرى ، فى زمن غزوة باتو منى الكييتشاكيون كما تقول رواية بشكيرية موثوقة - بيزيمية مروعة . وكانت المفازل المغولية تغلق واء الغنمة من جديد وجديد الى المهورب الكييتشاكياية التى كان قد تم اخضاعها . وانتقل الكييتشاكيون من سهولهم الجرداء ، حيث لا مكان للاختباء من العدو القوي ، من السهم الحاد والرمح المشدود ، الى الشمال والشمال الشرقى ، الى الغابات الكثيفة ، خلف الانهار العريضة والجبال العالية والمستنقعات الوحلة . ان كل شعوب منطقة الفولغا والاورال تقريبا قد ضمت فى بنيتها حينذاك كييتشاكين قادمين من الجنوب والجنوب الغربى . . .

ودمجهم البشكيريون أيضا . وقد جرى هذا بشكل أبسط واسهل ، لانها لم تكن المرة الاولى التي يأتى فيها الكيبتشاكيون الى الاورال . فمنذ الفترة من القرن العاشر الى القرن الثامن عشر اخذت تظهر اسما كيبتشاكى بين الاسماء العشائرية - القبلية البشكيرية . وهى تشكل مع الاسماء الموروثة فى تلك القرون نفسها من شعب تركى آخر ، الغز ، طبقة لغوية اقدم ، وهى الطبقة الرابعة .

على الدرجة الخامسة يظهر الحملة الاوائل لاسم بشكير ، وعم قبائل اتت منذ الف سنة الى الاورال من الاراضى المتاخمة لبحرى قزوين وآرال . ان عددا من القبائل القادمة حديثا تشكلت منذ ان كانت فى وطنها ذاك من الاتحاد ، وعرف الجيران وحديثها باسم «بشكورد» . ومن المفهوم ان هؤلاء «البشكورديون القدماء» قد نقلوا ايضا الى اخلافهم التسميات العشائرية - القبلية التى حملوها من آسيا الوسطى . ويساعد على معرفتها بين العديد من الاسماء الاخرى واقع انه لما كان عند «البشكورديين القدماء» اخلاف فى آسيا الوسطى ، فان هذه التسميات نفسها موجودة عند الانساب الاخرين لقبائل «البشكورد» ، عند الاوزبيك والكاراخانيين والقرغيزيين ، وحتى عند الافغانيين والتوفيين والمغول . . .

ويجد المؤرخون اسما بشكيرية قديمة فى مخطوطات القرون الوسطى ايضا : ان القبائل التى اعطت البشكيريين المعاصرين اسمهم المشترك اضطلعت بدور هام فى الكثير من الاحداث التى جرت سواء فى اوربا او آسيا .

وفى رأى الاختصاصيين ان قبائل «البشكورد» بالذات وكذلك الكيبتشاكين اضطلعوا بالدور الحاسم والاهم فى تكوين الشعب البشكيرى .

ولكن الدرجة الخامسة ليست هى الاخيرة . ان تاريخ الشعب البشكيرى فى ارضه الحالية يفور فى الماضى ابعد من الف سنة بقدر كبير ، انه اقدم بكثير من اسم هذا الانثوس . ما زالت هناك قرون عديدة للوصول الى «القبيلة السلاوى» ، اى زمن ظهور ابكر التسميات العشائرية - القبلية

البشكيرية التى وصلت اليها .

منذ القرن الثامن اخذت التسميات البولغارية والمجرية مكانها بين هذه التسميات : الطبقة السادسة من الاعلى للتسميات السلافية البشكيرية . لقد قدم البولغار الى الاورال من الدول . وكان البولغار القدماء اقربا ، اى كانوا اقربا ، باللغة سواء للبشكيريين او للتتار او للاوزبيك او الكيبتشاكين او النوغانيين ، اى لكل الشعوب تقريبا التى كونت الطبقات اللغوية الخمس العليا .

بالنسبة الى المجرين كان الامم مغايرا . ان صلات القربى فى لغتهم مختلفة تماما . لقد امتدت فى الشمال الى سكان الغابات ، الغانتيين والمائسى ، وفى الشرق الى الاوكرانيين فى السكان القدماء لبحرى نهر اوب ، وامتدت بعيدا فى الغرب الى الهنغاريين الذين يسمون بالمجريين الى الآن . ولمجرى الاورال القدماء اقربا ، ابعد ، وهم الشعوب الفنلندية : الفنلنديون انفسهم ، وكذلك الاستونيون والكاريليون والكومي والاولدهورتون والموردفا والباريون والقيسبون ، وللمجريين ايضا صلة قربة بعيدة بالنينيين والشعوب الشمالية الاخرى التى يجعلها الاثوغرافيون تحت تسمية مشتركة ، وهى الساموديون . يسمى العلماء اللغويون والاثوغرافيون انسابا المجرين القرييين واليهوديين والمجريين انفسهم بمجموعة الشعوب الفنلندية - الاوگورية ، ويدرجون هذه المجموعة مع الساموديين ضمن اسرة الشعوب الاورالية . وهكذا ، فقبل قدم البولغار والمجريين على حد سواء كان يقطن فى الاورال اسس من قبائل عديدة تتكلم بلغات المجموعتين الفنلندية - الاوگورية والسامودية . ولهذا كانت عند البشكيريين اسما عشائرية - قبلية تسمى التسميات نفسها التى تصادف عند الماريين احيانا ، وعند التتبيين احيانا اخرى . . . وهى التى تشكل الطبقة السابعة .

وهكذا فقد حينا الدراجات السبع الى الاسفل ، ووصلنا الى اقدم طبقة لغوية . وقد ظهرت اقدم التسميات السلافية المبكورة لها ، كما يكتب كوزيف ، فى تخوم عصر ما بعد

التحسب والنسب

ذلك ما تسنى اقسامه من اسلاف البشكيريين واقربائهم . ولكنهم ، اذا توخينا الدقة ، ليسوا كل الاسلاف والاقرىبا ، الحقيقيين . لقد اتفق العلماء ، على الا ياتخذوا في الحساب بناتية اسلاف للشعب الامموجوعات الناس التي دخلت قوام الشعب الذي يجري تكوته كروابط مستقلة ، وبعد ذلك فقط . بدأت تفقد بالتدريج خصائصها المميزة . بعض هذه الخصائص تبعد وبعضها لم يعد مميزا لانه اصبح صفة للشعب بأسره ، اما مجرد الدخلاء ، الفرديين او الاسر على حدة ، حتى وان كانوا كثيرين في هذه الاراضي او تلك في بعض العصور ، فبان العلماء ، لا يسفون عليهم دور الاسلاف .

ان زواج بعض الالمان او الفرنسيين بالروس لا يجعل الروس اسلاف للفرنسيين والالمان (وبالمكس) . وواقع ان بوشكين كان ابن حفيد لعنشى (اتوبى) لا يوفى ، طبعا ، المسوغات لاعتبار الاحباش اسلاف للروس عموما .

ان تيولاى نيغولايفيتش تشيبيكساروف ، احد ابرز الانثروبولوجيين السوفييت ، قد وضع شرطا آخر لاعتبار مجموعة من الناس في عداد اسلاف شعب معين : كل من هذه المجموعات يجد ذاتها يتبعي ان تكف عن الوجود في الاراضي التي يشغلها هذا الشعب على الاقل . ويتجارب مع هذا الشرط تماما القره قلقتيون والتركان الذين اعطوا اسمهم لبعض عشائر البشكيريين ، لا اذ توجد في اراضي بشكيريا مجموعات قومية من التركان والقره قلقتيين .

ولكن حتى في ظل هذا الانتقاء الصارم بين الاجداد يمكن العثور لدى كل شعب ، كسا وأينسا ، على غير قليل من الاسلاف ، وياتال الاقربا ، بالقدم . فذلك الصلات العائلية الواسعة امر لا يقتصر على البشكيريين وحدهم .

ان الروس والاوكرانيين والبييلوروس سلافيون . ويبدو تريبا لاذن الروسية كلام الصربيين والبيلغار والتشيك والسلافيين الغربيين والجنوبيين الآخرين . ويدخل معهم

الميلاد على الاقل ، والاربع انها ظهرت قبل ذلك . ان العالم تغلغل في الماضي الفى سنة وثيف بواسطة التسميات العشائرية - القبلية .

وبعد ذلك يصبح علم التسميات السلافية عاجزا ، ولكن علم التسميات السلافية ليس وحيدا بين العلوم التاريخية . اذ يذكر التاريخ والارخولوجيا والانثروبولوجيا مجموعات جديدة من اسلاف البشكيريين المعاصرين . وتعرف هذه العلوم انه سكنت جنوب الاورال في القرون الاولى قبل الميلاد قبائل سافروماتية وسارماتية . وكانت هذه القبائل تتكلم بلغات من المجموعة الايرانية .

ولكن حتى الان لم تنته هذه القائمة المستفيضة ، والموجزة من حيث الجوهر ، لاسلاف الشعب البشكيرى . وتقصّد الاجداد الذين يتسنى للعلم تتبع طرق هجراتهم وتنقلاتهم . حسب تقديرنا ، ظهرت في الاورال منذ اربعة آلاف سنة على الاقل (وربما اكثر) قبائل الهنديين الاوربيين الاوائل . في ذلك الزمن البعيد لم يكن يوجد اى شعب - اى شعب ا - من الشعوب التي تعيش اليوم في الارض .

وكانت بشكيريا الحالية احد اماكن اللقاء بين الهنديين الاوربيين الاوائل والاقرىين - الفلنديين الاوائل : كانت قبائلهم تتحارب وتتصالح وتدخل في حديثها «كلمات غريبة» . لقد اتينا على ذكر الكثير والكثير من اسلاف البشكيريين حتى اصيب القارى بالاعيا . ولكننا لم نذكر حتى كل مجموعات الناس الاساميية التي اسميت شعبا واحدا مع مرور القرون . ولعله يمكن اعتبار ان ما ذكر كانيا لرؤية غنى وتنوع اسباب الامة البشكيرية . انهم يعيشون في الجوار شان التتر والماريين والادومورتيين ، وبعيدا شان التوقيين في الشرق ، والساميين في اقصى الشمال ، والتركان في الجنوب ، والفينغاريين في وسط اوربا ، والياقوتيين في اقصى شمال شرقى آسيا تقريبا . . . ومن الهام ان نشير في هذا القسم الى ان مثل هذا النسب من حيث الاتساع امر يتسم به تاريخ كل شعوب الارض .

السلافيون الشرقيون فرعاً مستقلاً في الأسرة الكبيرة للشعوب الهندية الأوروبية التي تنقسم أيضاً الفرع الجرمانى وغيره ، ولكن للشعب ، كما للإنسان ، أقرباء من غير أسرته أيضاً . لقد كان الشعب الروسى القديم يضم يوماً ق قواعه عدداً كبيراً من القبائل الفنلندية فى الشمال ، والتركية فى الجنوب ، والبيلطية (النسبا ، اللاتفيين والليتوانيين) فى الغرب . ولكن أصل الروس والاوكرائين والبيلوروس يرجع الى الروسيتشين القدماء ، اى أنهم ورثوا نسبهم . وكل الناس اقرباء فى نهاية المطاف .

تذكروا : منذ عشرات الاف من السنين ، او مئة مئات قليلة من آلاف السنين كحد اقصى ، كانت حفنة من المخلوقات ، التي اختارها قانون الارتقاء ، الذى لا يرحم لتتحول الى «هومو سابينس» ، اى «ناسى عاقلين» ، تضم فى ذاتها اسلاف كل شعوب العالم من اقزام افريقيا الوسطى الى الاسكيو الغربانيين . كلنا اسلاف مشتركين ، وبالتالى . . . ولكن ليس كل الاقرباء ككل الاقرباء ، ولا يقتصر الامر على درجة القرى . فالقرى نفسها يمكن ان تكون متباينة .

لننظر الى التشكيريين ايعام . انهم يدخلون فى الفرع التركى من الأسرة اللغوية الاطانية (كما يدخل الروس فى الفرع السلافى من الأسرة الهندية الأوروبية) . فمن هم اشتقا التشكيريين باللغة (ننوه - باللغة بالذات) ؟

انهم التتر والتكازاخيون المجاورون والاذربيجانيون البعيدون والياقوتيون الابدع . . . يمكن الاستمرار بهذه القائمة ، كما سبق ورايتم ، ولكن ما يهتأ الآن هو القرى من الاذربيجانيين والياقوتيين بالذات . فدعوى الامر اننا لو نظرنا الى التشكيري «العادى» والياقوتى «العادى» والاذربيجانى «العادى» لما كان فى وسعنا الا ان نعجب لانعدام التشابه الخارجى بين الانساب القريين .

لا جدال فى القرى بين اللغات ، أما الناطقون بها -

وهذا واضح من النظرة الاولى ، فلا يمكن ابدا ان يكونوا انساباً قرييين بالدم .

اذا اعتبرنا القرى باللفظة ، فغالبا ما يكون الاخوة مختلفين من حيث المظهر الخارجى . واذا نظرنا ، بالعكس ، الى وجوه الناس وقاماتهم فقط ، شاملين ذوى الوجنتين البارزتين الى ذوى الوجنتين البارزتين ، والشقر الى الشقر ، ومعقوفى الانف ذوى الشعر الاسود الى معقوفى الانف ذوى الشعر الاسود والى آخره ، يتبين فجأة ان هؤلاء الاخوة لا يستطيعون التماثل ابدا لعدم وجود لغة مشتركة بينهم . وباختصار ، ليست كل قرابة ككل قرابة ، ولا يجوز خلط التشابه فى المظهر الخارجى بالتشابه فى اللغة .

ولهذا فملتزمة معينة - يرتبط زواج الولايات المتحدة الاميركية من حيث الدم بالافارقة ذوى البشرة السوداء الذين يتحدرون منهم ، ولكنهم يتكلمون بالانكليزية ، باللغة نفسها التي يتكلم بها الاميريون «البيض» ، وكذلك الانكليز والكنديون الناطقون بالانكليزية والاستراليون الناطقون بالانكليزية . . . وللزواج الاميريين ، شأن «البيض» الاميريين ، «اخوة باللغة» ، وهم الشعوب الناطقة بلغات الفرع الجرمانى من الأسرة الهندية الأوروبية ، اى الالمان والسويديون والدانماركيون وغيرهم .

والهنود البسكيون ، الذين يتكلم عدد منهم باللغة الاسبانية فقط ، يصبون على هذا النحو افرادا للفرع الرومانى من الأسرة الهندية الأوروبية نفسها ، و«اخوانا باللغة» للفرنسيين والايطاليين . وسكان جمهورية هايتى يتكونون اساساً من اخلاف الزواج الافارقة ، ولكنهم يتكلمون بالفرنسية . ويمكن ايراد حالات كثيرة كهذه - فلكيما تاريخ معتقد وغاصف ، وفى هذا التاريخ تجرلت الشعوب ولغاتهما غير مرة .

ليس من النادر ان يشير التشابه فى المظهر الخارجى الى القرى ، ولكن القرى بالدم . وليس مصادفة ان يشير الياقوتيون البورياتيين . وكما يعتبر العلماء ، فقد كان فى

وتعرف من رفات الناس التي يعثر عليها لدى الحفريات كيف كان مظهرهم . ولكن مظهرهم هذا لم يكن عرصيا ، بل يحتمل التاريخ دوما . ومن مظهر الاخلاف ، الذين يعيشون اليوم او الذين عاشوا منذ آلاف السنين ، يمكن معرفة الكثير عن مظهر اسلافهم الخارجى .

كم هو عمر الشعوب

نحن نعرف الانوسات (النيكوسات) يعود تشوؤها الى عهود الرق ، مثل الارون والجورجين والصيتيين . ونعرف اثنيكوسات ظهرت في القرن العشرين . وبالنسبة ، لا يوجد اى اثنيكوس له من العمر اكثر من اربعين قرنا . اما الانسان بمظهره الحالى ، الانسان على شكل «الهومو سيابينسيس» ، فقد ظهر منذ اربعين الف سنة ، اى اربعمئة قرن ، على الاقل ، وثمة ، على ما يظهر ، مسوغات كافية لاعتبار ان الانوسات ، او بالاحرى الاثنيكوسات ، قد ظهرت منذ عشرات الالوف من السنين . وبرى عليها ، الآثار ان الادوات وعود المعيشة ، التي عثر عليها في شتى المناطق ، تختلف عن بعضها البعض . ومن شأننا اليوم ان نسمى هذه الاختلافات باختلافات سلافية . يشير عالم الآثار المعروف فرمودوروف الى بعض المناطق السلافية الثقافية في اوروبا الشرقية في عصر الميزوليت . وقد كان سكان هذه المناطق يستطيعون تماما التكلم بلغات مختلفة .

ان منطقة توزع المخارقات البشرية وما قبل البشرية كانت منذ مئات الالف السنين اكبر من ان يمكن الملاحظة فيه على لغة واحدة ، حسب القوانين اللغوية التي نعرفها . ولعل من شأن التقسيم السلافي ان يكون اقوى بكثير مما هو عليه الآن نظرا للتشعبات الاشد بين مختلف مجموعات الناس التي كانت تمارس القنص وجمع النباتات .

ولكن لا بد من الحذر : اذ لا يجوز اعتبار المنطقة الكبيرة ذات الثقافة الآتارية المشجاجة مكانا لاقامة رابطة سلافية

عداد اسلاف الشعب الياقوتي اناس انطلقوا يوما من المناطق البيورياتية العالية عند پاكال الى الشمال ، الى حوض نهر لينا العظيم . والتشابه بين البشكيريين ووتر الفولغا ليس من قبيل المصادفة ايضا . فلدن هذين الشعبين الكثير من الاسلاف المشتركين .

من المحتمل جدا وجود نسب بالدم ، قريب او بعيد ، بين البشكيريين وكل الشعوب التي تتجلى آثارها في تسمياتهم العشائرية - القبلية . وفي راي الانثروپولوجيين ، ان البشكيريين بأغلبهم يشبهون بشكل خاص من حيث المظهر الخارجى القتلطين في صفاف النولغا والادومورتين والماورين .

ولكن الصلات اللغوية تدرج البشكيريين بثبات في عداد الشعوب التركية ، وبهذا تقريبهم الى التتر ، الاثراك ايضا ، ولكننا تفصلهم عن الادومورتين والماورين الناطقين بالفنلندية ، كما تفصلهم عن الهنغاريين والهنديين الاوربيين . يمكن احيانا تتبع قرابة الدم القديمة بين الشعوب الى عهد بعيد للغاية . و«يحدث» العلماء بها يمثل هذه الشعوب - الاحياء والاموات .

ان كلا منا ، نحن الاحياء ، مساهم في اضخم سياق للبدل يجرى فيه تناقل الارث البيولوجي الكبير من الاسلاف الى الاخلاف . ان الابوين عادة يكتسبان في الطفل بسهولة وسرعة جيبين الاب وعينى الجدة وشفتى الام وحاجبى الجدة . مع العلم انهما غالبا ما يكونان مصبيين . اذ ان كلا منا (لا «الانسان اجمالا» كئى ، مجرد فقط) هو «ذروة للنخيلة» وحلقة جديدة في سلم الارتقاء . وكل واحد من الناس الذين اصبح عددهم خمسة مليارات يزدى واجبات حفظ ما خلفته في كيانه اجيال سابقة لا عد لها .

من شكل الجمجمة وصورة الشفتين ودرجة بروز الالف ، ومن سعة الوجع وحجم الشفتين ومئات السمات الاخرى يجد الانثروپولوجيون مكان الانسان المعنى في تعاقب الاجيال الذي يسوقه احيانا بالتمط الانثروپولوجي .

واحدة قديمة . ففي تلك الظروف لا يمكن بشكل من الاشكال لسكان غنات الالوف من الكيلومترات المربعة ان يهروا انفسهم كلا واحدا . وليس بالضرورة ان يتكلم الناس الذين عاشوا في هذه الاراضي الشاسعة بلغات متعارفة .

ان القبيلة هي اول اتحاد للناس من حيث الزمن يحمل في ذاته وحدة داخلية لتتولد الحياة وينطبق عليه تعريف الاثنوس . ومسألة ظهور القبيلة وتكونها تنطوي على تاريخ طويل ، وهي تتناقض على نطاق واسع وتحفل بتباين كبير في المواقف . وقد طرحت مؤخرا فرضية تقول بان ولادة اشكال الانوجينيون الاولى قد جرت في العصر الحجري القديم الاول ، اى منذ اكثر من ٢٠٠ ألف سنة . وتأكيدا لهذا يستشهد عادة باختلاف الآثار الانثروبولوجية المتجاورة في ذلك العصر ، حيث تعتبر هذه الاختلافات اسمايا لانفراضى ان مجموعات الناس القدماء كانت تعي تفردهما الثقافي . ولكن في ضوء المعطيات الارخيرولوجية المعاصرة يبدو اكثر وجهة الراى القائل بان الاختلافات الثقافية بين قطعان الارخانثروبين المتجاورة كانت غامضة للغاية . وكما يشير بحق الباحثون من انصار وجهة النظر هذه ، فان اشكال النمسا كانت متجانسة والانتاج المادى غير متطور الى درجة يستحيل معها ظهور مجموعات كاملة من الاختلافات بين تجمعات الارخانثروبين . ومن الجوهري والمؤكد علميا بصورة كافية واقع ان الاختلافات المحلية التى كانت موجودة في الثقافة البدائية ، بما في ذلك في الاشارات التلافية للقطعان البشرية ، وفي بواكير تشابهاها اللغوى كانت اختلافات في التفاصيل ولم تكن قد تكونت بعد في مجموعات ثابتة لاختلافات واضحة الحدود . وقد ادرجت في ميدان التواصل اللغوى والثقافى . وهذا التواصل الثقافى نفسه يلقى بعد ذاته مسألة امكان التقسيم السلالى الراسخ بصورة كافية في ذلك العهد البعيد . وهذا الاستنتاج وجيه جدا ، في رأينا . وبالتالي فان اقصى ما يمكن التسليم به هو انه كانت توجد لدى الارخانثروبين نظام (نمادج اولى) غير ثابتة وغير

متبلورة بالمرة للروابط السلالية التى يمكن تسميتها بانتموسات اولية .

ان الخطوات اللاحقة في تطور البشرية مع ظهور الباليانثروبين - النياندرتالين (العصر الحجري القديم المتوسط ، منذ ٤٠٠-٤٠ ألف سنة) ترمز الى تحولات ملحوظة في ميدان الثقافة : تطور أدوات العمل ، ابتكار المسكن ، ظهور اولى التصورات الجمالية والدينية . وهذه التغيرات اقترنت باتساع هام لمنطقة سكنى الناس ، واقتربت في الوقت نفسه بزيادة تنوع الاشكال المحلية للوعى الذاتى البدائى .

انطوى ظهور النظام العشائرى وتشوء القبائل على مغزى كبير بالنسبة الى تقدم البشرية اللاحق لا من الناحية الاجتماعية فحسب ، بل من الناحية الثقافية السلالية ايضا .

تنتقل الادبيات العلمية عادة الى القبائل بالذات بمثابة وحدة سلالية اسمائية للمجتمع البدائى . بيد انه لم يعد من النادر في السدة الاخيرة التشكيك في وجهة النظر هذه . وينتشر على نطاق واسع في المراجع الاجنبية راي يقول بان القبيلة ظاهرة اجتماعية «ناووية» تظهر في المراحل المتأخرة من التطور الاجتماعى في ظروف تاريخية خاصة . وفي السنوات الاخيرة صار يصادف في ادبياتنا العلمية ايضا تصور حول ظهور القبيلة في وقت متأخر نسبيا .

تنسم الحياة الداخلية للقبيلة ببروز وظائف السلطة . وقد وجه انطس اهتمامه الى هذا الواقع الذى اقترته الانثوغرافيا على نطاق واسع . وكان من بين ما اشار اليه بشكل خاص انه يوجد عند القبائل - كطريف جوهري - قائد او زعيم اعلى واجتماع عام ومجلس للشيوخ وما شابه ذلك . رأى انطس ان القبيلة تنسم كذلك برابطة لهجة معينة ، وبمنهوجات دينية عامة (ميثولوجيا) ، وبشعائر رسمية خاصة . ولكن لا بد من التنويه بان الحديث في هذه الحالة يجرى عن قبائل المجتمع البدائى المتطور . اذ ان اسم القبيلة يطلق ايضا في الادبيات الانثوغرافية على الروابط

التي لا تتمتع بتلك الخاصية للبشر الاجتماعية ، أي السلطة .
فمن ظهرت القبائل - الأنثوسات الالوية ؟ في صدد هذا
السؤال أخذت تلمت النظر في المدة الأخيرة معطيات تشهد
على أنه كانت تستخدم منذ العصر الحجري القديم المتوسط . وهذا
مختلف أصناف الأدوات في إطار منطقة واسعة واحدة . وهذا
الطرف الأخير اعطى الأساس لاستنتاج أن سكان المجتمعات ذوى
نمط الأدوات الواحد كانوا يشكلون وحدات سلافية ثقافية من
نوع خاص ، «ما قبل القبائل» .

تمة الكثير من الثقافات الأرخيولوجية الإقليمية المحددة
يروضح كاف التي وصلت اليها من العصر الحجري القديم
المتأخر ، مثل ثقافات كريب وفيليندورف وبافلوفو في أوروبا
الوسطى ومجموعة الآثار من نمط باريايلو في اسبانيا ، الخ .
ويبدو أن هذا يستحق الاهتمام في هذا الصدد الرأي القائل
بأن كلا من هذه الثقافات ربما كان ينتمى إلى رابطة سلافية
واحدة ، هي القبيلة ، لأن أراضي مثل هذه الثقافة (التي
يبلغ قطرها ٥٠-١٥٠ كم) كبيرة جدا بالنسبة إلى المشاعية .
إن الموضوع التي يزود عنها عدد من الباحثين والقائلة
بأنه كان يوجد في تلك الفترة زواج عشائري مزدوج إلى
جانب تحريم الزواج الداخلي يمكن أن تشكل حجة عامة هامة
في مصلحة ظهور القبائل في عهد الانتقال إلى العصر الحجري
القديم المتأخر . فوجود تلكم الزواج هذا يقتضيه بظهور
القبائل .

تمة تصورات عامة وأكثر عمقا في صدد القضية موضوع
البحث ترتبط بالبرهان على واقع أنه جرى في الفترة نفسها
انتقال الناس إلى نمط حياة حضري نسبيا . وهذا الاستفزاز
الذي اقتضاه صيد الحيوانات الكبيرة وفي أماكن ظهور الزواج
العشائري المزدوج . وفي غضون ذلك يلفت النظر - نظرنا
على الأقل - الرأي القائل بأن المسافة بين الجماعات المتجاوزة
في هذه الاتحادات الثانية يمكن تقديرها مدينا بقرابة ٤٠-
٥٠ كم . هذا الاتحاد يجب أن يشمل مساحة قطرها ١٠٠ كم
تقريبا ، أي أنها قريبة بمقاييسها من المؤثرات المتوسطة

للأراضي التي امتد عليها كل من الحضارات الأرخيولوجية
للعصر الحجري القديم المتأخر . وتمة اقتراح أن ينظر إلى
التشكيلات المشار إليها بمثابة «وحدات سلافية وحيدة» لذلك
الزمن .

لدى حل مسألة الأقسام السلافية للعصور القديمة يبدو
من الجوهري مراعاة التغيرات التي طرأت على الظروف
الطبيعية لحياة الناس . ففي نهاية العصر الحجري القديم
المتأخر انقرض أو تقلص بشدة من حيث العدد المأموس
ووحيد القرن المغنطى بالصوف والإيل المعلق والحيوانات
الضخمة الأخرى . وكان هذا ناجما على الأرجح عن التغيرات
المناخية ، وربما كان ناجما جزئيا عن نشاط الإنسان نفسه ،
وفيما بعد انقرضت الجرابيات المعلقة . ونتيجة لهذه
التغيرات اضطرت القبائل الناشئة إلى الانتقال إلى الصيد
المتنقل للحيوانات الصغيرة ، وادى هذا بدوره إلى تطورات
اجتماعية جوهرية .

يذهب الفترة بالذات يرتبط ، مثلا ، ظهور الجماعات
الصغيرة من الصيادين وجامعي النباتات المتنقلين . وعلى
الرغم من أنه كان يعتبر أن كل واحدة منها كانت تضم قرابة
٢٥ شخصا عادة ، إلا أنها كانت تحتاج في ظل انسب الظروف
إلى ما لا يقل عن ٤٠٠-٥٠٠ كم مربع من أراضي الصيد ،
وكانت تحتاج في أغلب الأحوال إلى مساحة أكبر بمرتين
أو ثلاث . وكما أشار زميلنا أورتويوتوف بحق في هذا
الصدد ، فإن القبيلة المكونة من جماعات كهذه ، على الرغم
من أنها كانت تستطيع أن تضم ٥٠٠ شخص وسطيا ، إلا أنها
كانت ، خلافا للوحدات السلافية المتجاوزة في العصر الحجري
القديم المتطور «مجرد وحدة لهجة وثقافة ، لا وحدة اجتماعية -
اقتصادية» : وكانت المجموعات المحلية المنضمة إليها ذات
ارتباط ضعيف ، مما جعلها سهلة التشتت والتكون من جديد
وأكثر تقبلا للصلوات الإعلامية الخارجية .

إن القبائل - اللينيكوسات تتحول مع الزمن إلى كيانات

سلالية اجتماعية . وكان العصر الحجري الحديث فاصلا هاما في هذا الخصوص .

كانت ثقافة القبائل المتجاورة في العصر البدائي شديدة التشابه من نواح كثيرة . ولا ينطبق هذا على الوظائف التنفعية للثقافة فحسب ، بل وعلى وظائفها الجمالية . وما له دلالة في هذا الصدد التشابه المدهش لرسم العصر الحجري الحديث المتأخر التي اكتشفت على الصخور في اواض تفصل بينها الوق الكيلومترات . وعلى ما يبدو ، لم تكن توجد ، كقاعدة عامة ، اختلافات جوهرية بين القبائل المتجاورة من الناحية اللغوية ايضا . وتشكل اساسا لهذا الافتراض نظرية ما يسمى بالتواصل اللغوي ، وبناء عليها تفهم كل قبيلة من قبيلتين متجاورتين لغة الاخرى . وهذا التواصل ، كما تشير الدلائل جميعها ، اسم يظهر نتيجة صلة القربى بين اللغات فحسب ، بل ونتيجة الاتصالات الحديثة بين الناطقتين بهما وعمليات «التبادل اللغوي» .

وفي الوقت نفسه تكون لدى الانثوسات - القبائل على امتداد الوق السنين من وجود النظام المشاعى البدائي غير قليل من الملامح الخاصة للثقافة الروحية الناشئة تميز كلا منها حتى عن اقرب الجيران اليها . هذه الخاصية تتجلى بوضوح ، بين امور اخرى ، في المعتقدات الدينية : وهذا ما ينطبق سواء على انواعها المختلفة (السحر ، الخوطمية ، الارواحية ، عبادة الاجداد ، الخ .) او على اشكال تجليها ، بما في ذلك التصورات الدينية التابعة عنها والسلوك الديني .

في المجتمعات ما قبل الطبقة ، وفي عهد الاغريق والرومان كقاعدة عامة ، كان للاديان مغزى محلي في الغالب . كان الالهة الذين نشأوا على هذا النحو عند كل شعب على حدة آلهة محليين ، ولم تكن سلطتهم تتجاوز حدود المنطقة الوطنية التي يحدونها والتي كان آلهة آخرون يحكمون على جانبها الآخر بلا منازع . حسب وصف يجلس لديانات العالم القديم ما قبل المسيحية .

وكذلك كان الوعي السلاى لافراد الروابط القبلية قريدا للغاية . وكانت احدى خصائصه تتلخص في انه (كما تشهد ، مثلا ، المواد المتعلقة بسكان اميراليا الاصليين) يعتبر مجموعته كشيء ارفع من كل الروابط المتجاورة . وكان افراد القبيلة يفخرون حتى في ظل العلاقات الودية بالجيران والزواج المتبادل بتميزهم عنهم ويكسبون لهم العداوة ، ويعززون اليهم احيانا تصرفات غير اخلاقية . وبالتالي كان من المميز لهذا العنصر الحتمى للوعي السلاى ، وهو التعارض بين «نحن وهم» ، ادواج «نحن» فقط ، اى افراد القبيلة وحدهم ، في عداد الناس «الحقيقيين» . وهذا ما يفسر واقع ان التسمية الذاتية لدى الكثير من الشعوب المختلفة في تطورهما تعود من حيث اصلها الى كلمتي «الناس» او «جماعتنا» . يصعب من التودى لثلك الانثروبيكيا علم حصر مصطلح «الانسان» بالمعنى العنصرى العام ، بل بمعنى اضيق «الانسان» او «اناس» منطقة معينة ، ذوو ملامح ثقافية معينة ، الخ .) ، وفي غضون ذلك يمكن لمختلف عناصر الثقافة ، بما في ذلك الثقافة المادية ، ان تكون اساسا للانثروبيات . وليس من النادر ان تشمل هذا الدور ، مثلا ، الانماط الاقتصادية - الثقافية في الحالات التي تميز فيها انثوسا عن الانثوسات المتجاورة . وهذا هو شأن العديد من الانثروبيات التي تعنى «اناس الغاية» ، «اناس الجبال» ، «اناس السهوب» ، «اناس البحر» وما شابه ذلك .

وكان في مرحلة التكون ايضا الوعي الذاتي السلاى لافراد الروابط القبلية .

واضطلع بدور هام في التجانس السلاى كذلك التصور الموجود عند كل قبيلة (على شكل اسطورة ، عادة) لمنشئها والمبادئ المرتبطة بهذا التصور . في مثل هذه التصورات وما يرتبط بها من تحريم الزواج الداخلي او الزواج الغاوى كان يتجلى الايمان بقربا كل افراد القبيلة الذي كان يبرز كاهم عادل منظم . وادراك هذه القرابة بالذات كان ذلك النوع الخاص للعصبات الاجتماعية الذي تجسدت فيه الرابطة الجماعية

لصالح افراد القبيلة جميعا ، الرابطة التي اقتضتها خاصية علاقات الانتاج بالدوجة الاولى . وهذه الصلات كانت تنطوي - طبعاً ، على مغزى كبير يشكل خاص بالنسبة الى القبيلة - الانثوس في طور التكون ، اما بالنسبة الى القبيلة المتطورة - البنية السلافية الاجتماعية فيضللح بدور توحيدى هام ما يلازمها من علاقات بوتيسناوية ، اى تلك التي تحددها آليات الادارة والسلطة . (ان تنوع ما يطلق عليه اليوم اسم القبيلة واسع جدا . فهو يشمل سواء اتحادات سكان استراليا الاصليين او قبائل الهنود الذين يعيشون الآن في ظروف الرأسمالية رغم بقاء مخلفات القطاعية وحتى النظام العشائرى عندهم) .

اشار العلماء الى خاصية عامة للقبائل ، خاصية تميزها عن الروابط السلافية التالية تاريخيا ، الاقوام ، اى عثروا الغلط الذي يفضى بين القبيلة والقوم : ان كل قبيلة تكون من انسياء (حتى وان كانوا وهميين احيانا) قريبين وبعيدين وبعيدين جدا .

تنقسم القبيلة عادة الى عشائر لا يستطيع رجالها الزواج من نساء عشيرتهم ، ولكنهم ملزمون بان يتزوجوا لها من نساء اية عشيرة اخرى ، او من نساء عشيرة واحدة من العشائر الاخرى تحدها عادة صارمة مسبقاً . وقد كان الهنود الديلاويريون ، الذين اعجب بهم بطل كوير «عين الصقر» ، ينقسمون الى ثلاث عشائر : الذئب والسلحفاة والديك الرومى . وكانت سينيكا ، احدى القبائل الايروكزية مكونة من ثمانى عشائر - الذئب والذئب والقدس والسلحفاة والايل والشمشق والبكتشون والصقر . وحيثما تتحد العشائر داخل القبيلة فى بطون واخويات . والفرد فى احد البطون ملزم بان يتزوج حتما امرأة من البطن الآخر .

وهما كان الامر ، فان القبيلة ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، اسرة ضخمة يرتبك كل افرادها فيها بينهم باواصر من القرى على هذا النحو او ذاك . وهذا لا يخلق منافذ القبيلة فى وجه افراد القبائل الاخرى ، ولكن عليهم ان يجتازوا طقوسا تعادل

التيبنى حاليا . والاين بالتيبنى هو اليوم ايضا على مستوى واحد مع الاين بالولادة ، من حيث الحقوق والواجبات التي تربطه بالوالدين .

وهذا ما يقوله عن حالات مماثلة العالم السوفيتى ياختا فى كتابه «اوتيساروا» ، حيث يتحدث عن تاريخ الماورى ، سكان نيوزيلندا الاصليين :

« . . . فى داخل البلاد كان الهايكامورى ، اى الماورى ذوو الاصل الاجنبى ، الاوربيين الوحيدين ، اذا استثنينا عدة عشرين .

كان هؤلاء الناس اوربيين ، ولكنهم عاشوا وسط الماورى ، ومثل الماورى ، وهذا هو الاصم . لقد قرروا يختلف السبل - طوعا او قسرا - القطيعة مع الحضارة والاختيار ، فى المجاميل الوحشة للقرى الماورية . البعض لوغتهم على هذا يد القصاص للقاتلون البريطاني ، والبعض ارغفهم الخدمة القاسية فى السفن ، والبعض قادهم الى هنا الياس او ، فى حالات اغلب ، النزاع الاجتماعى الحاد مع الوسط الذى كانوا يعيشون فيه . . .

كان الغرباء يستوعبون لغة الماورى بالتدريج . . . وغطى الكثير من الهايكامورى وجوههم بالوشم ، واستعاضوا عن السترة والبنطال بقوطة ورداء من الكتان النيوزيلاندى ، وحتى انهم صاروا يساعدون فى غزوات «قبائلهم» الحربية .

وكان الرجل العرب ، حسب علمنا ، لا يضمنون فى قبائلهم افرادا من القبائل الاخرى فحسب ، بل يضمنون ايضا مجموعات وعشائر باكملها . وكان هذا شرطا لاعلان المنضمين الجدد افرادا فى القبيلة «بالدم وبالايم» . وعلى انساب القبيلة الجدد ، كما هو مفروض ، ان يتزوجوا نساء من عشائر معينة فى قبيلتهم الجديدة ويتقيدوا بعاداتها الاساسية ويحاربوا معها ويصحبوا اعداء الة اعداء قبيلتهم والى آخره .

وهكذا ، فان القبيلة عائلة كبرى من نوع خاص . ولكن القبيلة يمكن ان تضم عشرات الالوف من الناس . ليس هذا كثيرا جدا بالنسبة الى عائلة حتى وان كانت «كبيرة» ؟ نعم ،

في زمن السلم ايضا استقلالا متزايدا عن المجلس وسلطة متزايدة في القبيلة . وتبدل كل عشيرة بالتدريج تتكون لا من ارباب الاسر الكبيرة وافرادها بقدر ما تتكون من سادة وخدم ، دافنين ومدفنين ، ومن ثم من اصحاب عبيد وعبيد . وفي الوقت نفسه تجرى - الامر الهام جدا - عملية تقسيم العمل . ويندو افراد العشيرة الواحدة فلاحين وحرفيين وتجارا ، وهذا التقسيم الجديد للقبيلة يزيح التقسيم الى عشائر ويندو اكثر جوهريه بما لا يقاس . ويمكن للقبائل في هذه الظروف ان تتحول الى روابط اقليمية من نوع خاص . كان ادراك وحدة القبيلة يتحقق في السابق عن طريق احساس الفرد بمكانه في نظام القريب . والآن بالذات تبرز في المقام الاول ، على ما يبدو ، الهجة الايام واللغة ونظام العادات والخصائص الثقافية التي تشد الانسان الى هذه الرابطة .

يمكن للقبائل ذات اللغة المشتركة ان تتبادل العداء . وعلى اى حال ، فان القبائل القريبة الى بعضها البعض من حيث اللغة والثقافة اخذت ، على ما يبدو ، تدرك القرابة بينها في الطور الختامي فقط من تطور المجتمع البدائي .

ان عشرات عديدة من القبائل الجرمانية قد هاجمت في ازمة روما القديمة حدود الامبراطورية الرومانية . ولكنها ، كما يمكن الحكم على ذلك ، لم تكن تبغى مجرد تخمين انها «يتبغى» ان تشكل شعبا واحدا .

لما اسم الجرمانيين المشترك الذي بقي الى ايامنا في جملة من اللغات ، ومن بينها الروسية ، فقد نلغوه ، بناء على قول المؤرخ الروماني العظيم تاسيت ، من جيرانهم الكيلتيين ، وقبل ذلك لم تكن عندهم تسمية مشتركة : اي انهم لم يكونوا رابطة سلالية واحدة ، اذ ان هذه الرابطة تظهر حينما يبدأ الناس الذين يتكلمون بلغة واحدة ويشغلون اراضي واحدة يدركون وحدتهم . والقبائل التي تتكلم بلغة واحدة تبتلى قبل ان تدرك هذا انوسات منفصلة .

صار الصعرات يقلب المزيد والمزيد من التربة في القارات

جميعا . وفي الاماكن التي لم يزرع فيها القمح او الشعير او السغو ، اصبح مربي الماشية يجلثون مكان الصيادين وجامعي الثبات . ان السكان في اراضي ترنسا الحالية ، مثلا ، ازدادوا ، وفي بعض التقديرات ، ألف مرة نتيجة هذه الثورة المسماة بثورة العصر الحجري الجديد ، اي الانتقال الى الاقتصاد المنتج . لقد كانت قبائل الصيادين وجامعي النباتات قليلة الافراد رغم انها ، اذ كانت تمارس حياتها الاقتصادية في اراض شاسعة بحيث انه لم تكن سوى مجموعات متغاربة نسبيا تستطيع المحافظة على الصلة فيما بينها . ومع استيطان اراض جديدة لم تتم القبائل عدديا بقدر ما كانت تتجزأ من جديد وجديد . ويتطور الزراعة وقرية المواشي صارت القبائل اكثر نفرا واغنى .

بيد ان هذا جعلها اقل مناعة : لم يكن عند الصيادين وجامعي النباتات شيء تقريبا يستطيع ان يأخذه العدو ، اما المزارعون ومربي المواشي فكان عندهم ما يفقدونه . ان النزاعات بين قبائل الصيادين وجامعي النباتات كانت تجرى لاسباب مختلفة ، ولكن الحروب كانت تبدأ بسبب الاواشي من حيث الاساس ، والانتصار على الاعداء ، في المجتمع الاكثر تطورا كان يعطى غنيمة اكبر تقسم المهزومين الذين كانوا يحولون الى عبيد او دافعي اتاوات . واصبحت حتى اقوى القبائل واكثرها تماسكا عاجزة في اغلب الاحوال عن ان تقوض لوحدها حريا مجرية او تضي نفسها من الهجوم . صارت الظروف الموشروعة تدفعها نحو بعضها البعض ، فظهرت تحالفات القبائل . كتب اتجلس الذي درس ذلك العصر التاريخي خصيصا ان «كثافة السكان المتعاظمة ترغم على تراص اوتق سواء في الداخل ، او ازاء العالم الخارجى . ان تحالف القبائل ذات القربى يصبح ضرورة في كل مكان ، بل يفدو اندماجها ضروريا . . .» (كارل ماركس ، فريدريك انجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ١٦٩) .

قد تظهر تحالفات القبائل في ازمة تاريخية مختلفة ، ولكن على مستوى واحد مبدئيا من التطور الاجتماعي ، في مرحلة

تفكك نظام المشايعة البدائي ، مشكلة عنصرها هاما له .

إن الاستقويين ، الذين سكنوا في مساحة شاسعة من جنوب أوروبا الشرقية وفي جزء كبير من الأراضي المتاخمة في آسيا منذ ألف سنة تقريبا ، كانوا يشكلون تحالف قبائل بالذات تشغل فيه إحدى الفئانسل (اسم هيرودوت هذه القبيلة «الاسقويين الملكيين») وضعها مسيطرا . وكانت القدرة المشتركة لتحالف القبائل الاسقويي كبيرة الى درجة انه انتصر في الحرب على احد الحكام الانوياء في العصور القديمة ، وهو الملك الفارسي داري الذي كانت تمتد ممتلكاته من بحر ايجة الى باير .

وكذلك نجد في القرون الاولى بعد الميلاد ان السكسون ، الذين تختلف سكسونيا في ألمانيا باسمهم حتى الآن والذين يضار الى صلة الاميركيين والانكليزيين بهم حينما يقال عن هؤلاء واولئك انهم انكلو-سكسون ، لم يكونوا قبيلة ، بل تحالف قبائل . ويكتب المؤرخون عن الهون باعتبارهم شعبا مستقلا ، مدققين ان اتيلا كان رئيس تحالف قبائل الهون الذي كان يضم الاتراك القادمين من آسيا ، والالمان والسلافيين والكيلتيين والافريين .

وحيثما حارب يوليوس قيصر الغال ، كانت تلك الحرب من حيث الجوهر ضد تحالف عدة قبائل كيلتي .

في القرن السادس عشر تكون عند الهنود البرازيليين ، الذين كانوا يناضلون ضد المحتلين البرتغاليين ، تحالف ضم قبيلتي التوبينامبا والغايتاكبين وبعض القبائل الأخرى ، واطلق التحالف على نفسه اسما يطلق بالاعتزاز اسماء الارض .

وفي اميركا الشمالية تشكل قبيل قدوم المستوطنين الاوربيين مباشرة تحالف من ستة قبائل جبارة ذات قربى : الموغاوكيون والسينتيكا والكابوغيسا والاونونداغا والوتييدا والتوسكارورا . وكان المبادر اليه غايفاتا الاسطوري نفسه ، قائد الموغاوكيين الذي تظمت عنه «اغنية غايفاتا» الشهيرة . وقد اشتهر هذا التحالف باسم رابطة الاوروكيزين .

وعند يدو شمال شبه جزيرة العرب بقيت مجموعات «القبائل الشقيقة» حتى اوائل القرن العشرين .

على اساس تحالف القبائل ، وعند اندماجها ، يظهر القوم الطور التاريخي التالي للانوس . وطبيعي ان تشكل القوم يجرى بسرعة اشد بكثير حينما تكون في التحالف قبائل ذات قربى تتكلم بلغة واحدة . وهذه العملية لتحول القبائل الى قوم تجري بسرعة خاصة ، حينما تساعد على هذا دولة ظهرت . فهي تهبط لرابطة المصالح الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المصالح للقبائل المتقاربة ، ونسب على تحالفا شكلا راسخا .

ان انتاج الخيرات المادية هو في نهاية المطاف العامل الحاسم للمغريات بالنسبة الى الكيانات السلافية . كما بالنسبة الى الانواع الاخرى من التشكيلات الاجتماعية . ويشكل انتاجها جانبا هاما من التعاقب السلافي ، لانها تندرج في ثقافة الشعب الجديدة باعتبارها خصائصها السلافية الجديدة ، ويتجلى هذا على نحو خاص في المراحل المبكرة للتطور التاريخي الاجتماعي . وكلما ارتفع مستوى تطور الانتاج والمجتمع انخفضت الخاصية السلافية في الثقافة المادية .

ان إعادة انتاج الخيرات المادية يقرن عادة ، كاتجاه تاريخي ثابت ، بالتقدم العلمي ، مما يؤدي لا محالة الى تغيرات في معاللات الثقافة المادية الاخرى وفي الثقافة الروحية .

والتأثير الاساسي للقوى المنتجة ، ومن بينها وسائل الانتاج ، في الانوس ، كرابطة اجتماعية ، لا يجرى بصورة مباشرة ، بل بصورة غير مباشرة ، عبر علاقات الانتاج ، اى العلاقات بين الناس في عملية انتاج وتوزيع الخيرات المادية . وبالنسبة الى مادتنا من الهام قبل كل شيء التأثير غير الصلات الاقتصادية التي يحتم ضرورتها تعمق تقسيم العمل سواء على اساس مهني او على اساس اقليمي . وتطور هذه الصلات في اراض معينة يتطلب تكامل الثقافة (ولا سيما اللغة) ، ويساعد على هذا التكامل .

مع ظهور علاقات الانتاج الجديدة في المجتمعات الطبقية المبكرة تباثر الصلات الاقتصادية (مع انها في البداية ضعيفة التطور نسبيا) الاضطلال بدور ملحوظ . اكثر في العمليات السلافية . وهذه الصلات مهدت - الامر السبذي ينطوي على اهمية بالنسبة لنا - لتشكل كيانات سلافية اسامية مغايرة على نحو جوهري لذلك العصر ، وهي الاقوام ، مساعدة على التفریب الاقتصادي - الثقافي بين المجموعات السلافية التي تكون منها كل قوم من الاقوام ، وعلى نشوء ملامح مشتركة لديها .

ان نمو الصلات الاقتصادية مع نشوء الراسمالية يؤدي الى تعاطف دورها بشدة في العمليات السلافية . وانعكس هذا قيل كل شيء على تشكل بنى سلافية اجتماعية ، مثل الامم . وقد نوه لينين بهذا الواقع على نحو خاص ، مبينا انطلاقا من مثال تكون الامم الروسية ما ينطوي عليه من مغزى بالنسبة الى عملية التماس التومي التبادل بين المناطق الذي يتزايد في فترة جينيزيس الراسمالية والتداول البضاعي الذي ينمو بالتدریج واتدمج الاسواق المحلية الصغيرة في سوق وطنية واحدة . واذا يكشف لينين جوهر عملية نشوء الامم اشار الى انه لما كان الراسماليون قادة واسياد هذه العملية ، فان اقامة هذه الصلات التومية لم تكن غير اقامة للصلوات البرجوازية .

ان البناء التحضي الاقتصادي - الاجتماعي وعلاقات الانتاج لا تؤثر ، طبعا ، في الاثنوس منذ لحظة تفكك النظام البدائي فقط ، فمع تكون الحضارات القديمة يبدأ هذا التأثير يتحقق كذلك من خلال التقسيم الطبقي للمجتمع الملائم لاسلوب الانتاج الجديد .

لدى وصف تأثير كل من الطبقات في الظواهر السلافية ليس من النادر ان تقتصر الادبيات التاريخية - الاثنوغرافية الغربية على الاشارة الى دور الطبقات والشرائح السائدة في نشوء الاقوام والامم . اما فسي الواقع فان نشاط الجماهير الشعبية هو الحاسم في نهاية المطاف بالنسبة الى نشوء

الاثنوسات وديناميتها اللاحقة في كل مراحل التطور الاجتماعي . مع العلم ان اهميتها لا تقتصر على انها هي بالذات التي تخلق الخيرات المادية ، اذ لا ينبغي نسيان ابداع الجماهير الشعبية في مجال الثقافة الروحية : المعارف المكتسبة ، النتاج الفني ، المعايير الخلقية ، العادات الخ . وينبغي التنويه على نحو خاص بان الجماهير الشعبية بالذات هي البهدة الرئيسية لاهم سمة سلافية ، للغة .

تمارس الجماهير الشعبية تأثيرا معينا في الاثنوسات من خلال مجال السياسة ايضا . ونضال الشغيلة الطبقي على امتداد كل تاريخ التشكيلات المتناحرة كبح الى درجة معينة مجرم الطبقات السائدة الذي حدد غير مرة مجرد التجدد البسيط للاثنوس .

ولن ننسى ايضا اهمية مساهمة الجماهير الشعبية في النضال ضد شتى انواع المعتدين بالنسبة الى بقاء الكثير ، ان لم نقل الغالبية ، من الروابط السلافية الموجودة حاليا .

الدولة - حدود الدولة - الاثنوس

خطرت على بال ملك التروج هوكون ، كما جاء في مسرحية هنريك ايبسن «مهم صنع السلوك» ، فكرة ملكية عظيمة . لقد اكتشف ان على ممثلي كل الاتحادات العشائرية القبلية التروجية في كل ارجاء البلاد ان يصحبوا فروجين مجرد نورجيسون ويعطه الدوم سكوي ، منافسه وحومه : «يجب ان تعمل القبيلة ضد القبيلة ، والمطاعم ضد المطاعم ، والمدينة ضد المدينة ، والعشيرة ضد العشيرة ، عندئذ يغدو الملك قوة . ان كل قرية وكل عشيرة يجب ان تحتاج الى العرش او تهايه» . ولكن هوكون يجب : «كانت التروج دولة ، وستصبح شعبا . كان قوم ترويندر يعمل ضد فيكفيرينغ ، وغاغفريينغ ضد خوراليتدينغ ، وخوراليتدينغ ضد سوغنديول ، ومن الآن يجب ان يتحد الجميع ويدركوا انهم يشكلون كلا واحدا» . اليوم قد يبدو هذا شيئا مفرغا منه . ولكن في اوائل

القرن الوسطى ، العصر الذى كانت لا تزال فيه وفرة من مخلفات المجتمع العشارى ، كان يمكن اعتبار هذه الفكرة عظمى بالفعل .

أشار انجلس بإحكام شديد إلى أنه فى عهد تشمو ، الإقطاعية صارت ترتبط بكل الشعوب الكبيرة تقريباً دول استعبدت الفئة المسيطرة لدى هذه الشعوب . وهذا ما ينطبق على شعوب أفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا ، أى حيثما يبلوغ التطور الاجتماعى للمجتمع واستتغابه الطبقة المزدحمة المظلومة . وطالما أن الدول قد ظهرت ، فإنها تمارس تأثيراً كبيراً للغاية فى تطور الشعوب اللاحق .

ينبغي التنويه قبل كل شئ ، بأنه لما كانت الدولة تظهر حيثما يكون تطور المجتمع قد قطع شوطاً بعيداً ، فليس من النادر ألا تستطيع القبائل المجاورة لها والتي لا تملك مثل هذا الجواز الجيار للاضطراد والحرب الصود أمام ضعفها . فبعد الحروب أو نتيجة التهديد بها أو عن طريق الانتشار السلمى نسبياً للتنفوذ الاقتصادى والثقافى يندرج الجيران الضعفاء فى بنية الدولة الناشئة ، إذا لم تحل دون ذلك بشكل حازم الظروف التاريخية والجغرافية المدبوسة . وتتحول الدول فى امد تاريخى قصير إلى دولة متعددة القوميات (إذا لم تنشأ بهذه الصفة فوراً) .

يمكن إيراد العديد من الأمثلة على ذلك . ففى أراضي فرنسا فى القرن الخامس عشر كان يوجد ، كما يفترض المؤرخون ، اثنتوسان كبيراً على الأقل : الألتوس الفرنسى الشمالى والألتوس الفرنسى الجنوبى . كان سكان بروفانس فى الجنوب يتكلمون بلغة تختلف اختلافاً شديداً عن لغة الباريسيين أو سكان بورغوندى فى شمال شرقى البلاد . وعلاوة على ذلك ، كان يعيش فى قرب فرنسا البريتانيون الذين يستخدمون لغتهم المائسة إلى الفرع الكلتى ، لا اللاتينى ، من الأسرة الهندية الأوروبية . وفى الجنوب كان يعيش الباسكيون أيضاً ... وقد "اخضعت" الدولة الإقطاعية كل هذه الروابط السليالية .

فى الأراضي التى يسكنها الألمان لم توجد طويلاً دولة واحدة للشعب بأمره . أن الامبراطورية الرومانية المقدسة قد فرقتهما ، رغم تنسيتها المهيبة ، الاصطدامات الإقطاعية سواء بين ملوكها ، الكبار والصغار ، أو بينهم وبين الملوك المجاورين ، وقسمت إلى أجزاء أكثر استقلالاً عن السلسلة المركزية من الكونتيات والدوقيات الفرنسية إلى حد بعيد . ومع ذلك كانت تضم فى بنيتها كذلك أراضى سلافية وإيطالية وهنغارية وهولندية وفلامندية وغيرها .

وكانت يولندا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر تضم الأراضي الليتوانية واللاتفية فى الشمال ، والأراضى البيلوروسية والاوكرانية فى الشرق .

ولم تكن روسيا كبرى فى الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر تقتصر على الأراضي التى كان يعيش فيها السلافيون الشرقيون ، أن التتود والغيس والقبائل الفنلندية الأخرى فى شمال أوروبا الشرقية وشمال شرقها ، وعدداً من الليتوانيين واللاتينيين والإستونييين فى الشمال الغربى وما لا يحصى من قبائل الرحل التركية "المسالمة" فى جنوب روسيا كبرى كانتوا يعرفون بسلسلة أمراء آل ديريوكفيتش ، وكان المجاورون من هذه القبائل يتقاتلون تحت قيادة الأمراء الروس سواء ضد أعداء روسيا المشتركين أو فى الحروب الداخلية زمن الشقاق الإقطاعية .

ويمكن القول أن تحول كل دولة قوية تقريباً بسرعة أو بالتدريج إلى دولة متعددة القوميات هو قاعدة لا شذوذ ، وقد جرت هذه العملية بقوة كبيرة فى كل أرجاء الدنيا ، حيثما ظهرت الدولة .

فى الدولة التى شملها نظام واحد للسيادة بدأت أيضاً عمليات ادت إلى اندماج شعوب مختلفة فى شعب واحد . تعالوا تبيين ، مثلاً ، لماذا أصبح شعب كيتشوا ، الذى كان منذ ستة قرون أكيد شعب هندي فى العالم الجديد قليل العدد للغاية . إن تاريخه مميز ، ولا سيما أن الدولة الواحدة

الكبيرة ، التي سادوا فيها ، لم تبق الا فترة قصيرة جدا وانقرضت منذ اكثر من اربعة قرون .

لقد ارسى قبائل كيتشوا في مستهل القرن الخامس عشر الاساس لتشكيل الدولة الاينكية ، وقد كان الاينكيون المشهورون مجرد قبيلة من القبائل التي تتكلم بلغة الكيتشوا . (وبالمقارنة ، اهل الاينكيين الاوائل انفسهم كانوا يتكلمون بلغة اخرى ، ولكن ما يهمنا هنا بالدرجة الاولى انهم نشروا مع ذلك لغة الكيتشوا ، كحافز جبار على الوحدة السلالية) .

ان دولة الاينكيين هي من اغرب الكيانات السياسية المعروفة للمؤرخين ، وربما كانت لهذا السبب تثير اكثر التقديرات تضاربا عند علماء القرن العشرين . احكموا بانفسكم ، من جهة ، افترض بعض الباحثين انه لم يكن يوجد جبار في الدولة ، اذ كان المواطنون جميعا ملزمون بالعمل ، واذا حدث عمل تقسم لهم احتياطات الدولة القذا . وكل مواطن يبلغ الخمسين من العمر يوقع له ما يشبه الضمان التقاعدي . ولم يكن يوجد عبده تقريبا : لم يكن سكان المناطق المفتوحة ، كقاعدة عامة ، يحولون الى عبيد ، بل كانوا يتناولون على الفور كل حقوق مواطني الامبراطورية «القدماء» . وفي غضون ذلك كانوا يحاولون اقامة اقل ما يمكن من الدماء في الحروب ، معتبرين الاعداء الحاليين لقائد الاينكي بمثابة رعايا مقبلين .

افترض علماء كمبرون الانتباه الى ان كل مشاعية ديفية هي من حيث الجوهر «عبد جماعي» للحكام ، وان القوانين القاسية كانت تجرد من الحرية الشخصية كل السكان عمليا ، باستثناء حفنة من قمة الوجاه . وان الدولة كانت تخوض حروب غزو لا تنتهي الخ .

تطلق على الامبراطورية الاينكية احيانا لغوت على غرار تلك التي تصفها بانها «امبراطورية «فانسية» . اشار المؤرخ السوفييتي المختص في الحضارات المبكرة بيروزيكين الى انه ربما كان ثمة ما يستحق طرح سؤال حول ما اذا كان تشكيل هذه الدولة قد حصل طابعا قديما من حيث المبدأ . هكذا

التصريح يحدث انطباعا قويا بشكل خاص اذا تذكرنا الضحايا البشرية الغفيرة التي يفتقر بها اجمالا ظهور الدول العليقة المبكرة الاولى التي يبدو وكأنها لا احد يشك في تقديمية نموها .

بيد ان اغلب الاختصاصيين متفقون على انه كانت تفتقر في الدولة الاينكية على نحو عجيب السمات المميزة للمجتمع العشائري ، غير الطبقي ، وللدولة الرق مع عناصر النظام الاجتماعي .

ان التوسع الجامع للدولة ساعد على جمع ما لا يمكن جمعه . واذا كان تحول روما الى امبراطورية اقتضى اربعة او خمسة قرون على الاقل من الحروب المتواصلة ، فان الدولة الاينكية شغلت اراضيها الشاسعة في اقل من قرن .

هذا في حين ان الظروف الجغرافية لهذه الاراضي ، التي شملت بيرو واكوادور وبوليفيا الحالية ، وشملت جزئيا تشيلي والارجنتين والبرازيل ، قد عرقلت نمو الدولة اكثر مما ساعدت عليه . ولا يسعنا الا الاعتراف بان هذا النجاح لسياسة الاينكيين كان مدعشا . اذ كان عليهم ان يخوضوا الصراع ضد قبائل تحميها ، علاوة على شعاعتها ، جبال يستحيل اجتيازها تقريبا ، ويعميها في حالات ليست بالنادرة مناخ غير مألوف للغزاة .

هذا النجاح يمكن تفسيره ، بين امور اخرى ، بسياسة الحكام الاينكيين المدروسة جيدا . كانوا يسمعون الى ان يدمجوا المهزومين باسرع وقت ممكن ويجعلوهم جزءا من شعبهم ، والا يبيدوا . بل يقتضوا ويذبوا في الاينكيين - الكيتشوا الشعوب الكبيرة والصغيرة في التوخم التي كانت تبعد عن المركز مع نجاحات الدولة .

كانت ترسل الى المناطق غيب الاستيلاء عليها مباشرة وحدات عسكرية خاصة تنظم نمو الانتاج والعيشة الواحد بالنسبة الى الامبراطورية في الاراضي التي تم اخضاعها . يقول اول القوانين الاينكية ، كما تشير الكتابات التي

دوت في اواخر القرن السادس عشر : «يجب على كل رعايا امبراطورية الاينكيين ان يتكلموا بلغة واحدة» .

ولتحقيق هذا طبق نظامان (سبعيان ، بالماناسية ، الى اهداف اخرى ايضا) . وقد رمز الى الاول بمصطلح «روتا - ميميم» ، ويعنى حرفيا «شفتا الانسان» . اما من حيث المعنى فممن الاصح ترجمته بعبارة «اللغة الحقيقية» (البشرية ، العامة) . وهو ينص على تنظيم تعليم لغة الكيتشوا .

والنظام الآخر ، وهو ميتماك (او «ميتمازان») ، كان اكثر جذرية بطابعه . كانت مجموعات كبيرة ممن «الرعايا الجدد» تنقل بصورة دائمة او مؤقتة الى اراض اخرى حيث كان عليهم شأوا لم ابرأ ان يستوعبوا بسرعة التمدد الجديد للاقتصاد او الثقافة الجديدة عليهم ، بما في ذلك اللغة . وفي غضون ذلك كان على مجمل الفئات المتميزة ، اذا ارادوا الاحتفاظ بمكانتهم الرقيعية السابقة ، ان ينصهروا بسرعة خاصة . وعلى اشد الزعماء القبلين السابقين ان يعضوا كل سنة عدة اشهر في كوسكو ، عاصمة الدولة . كان الى البلاط وجيروت امبراطورية رهيبة اللغة السائدة والثقافة المتطورة نسبيا تعمل في صالح الحكام الاينكيين .

في اقلية اجرامات الاينكيين الملموسة لا يوجد ، ولحق يقال ، شيء لم تشاهده على هذا النحو او ذاك في تاريخ الدول المتعددة القوميات في العالم القديم . ان الامبراطورية الرومانية في فترة ازدهارها كانت تضع بين الشروط الازامية التي تسمح الجنسية في حال تنفيذها لا اثنان اللغة اللاتينية فحسب ، بل وتحويلها الى لغة تخاطب يومية .

وكان ملوك اشور وبابل وقارس القديمة والحكام الصينيون ينقلون عنوة في حالات ليست بالنادرة سكان مناطق التفرغ الكبرى الى مركز ممتلكاتهم ، وفي حالات اعم الى تخوم اخرى ، حيث كان المستردون القليون والمحتملون السابقون يضطرون الى الدفاع عن مصالح السلطة المركزية لانها اصبحت ، وهم في ارض غريبة ، سندهم الوحيد .

بيد ان «حالة الاينكيين - الكيتشوا» تتسم هنا بالتنظيم

الرفيع ، وتسم ، علاوة على ذلك ، بالتفكير المتمعن وبإدارك هذه السياسة .

كان قادة الاينكيين يعتقدون بعد انهم ينعمون على «المتوحشين» . اما في الواقع ، فان فتوحات الامبراطورية جلبت ، بالطبع ، مصائب لا تحصى الى الميزومين - وليس عينا ان تنهار الامبراطورية العظيمة بسبل هذه السهولة تحت ضربة الغزاة الاسبان الذين استغلوا ضعفها الداخلي (دفع ان الدور الرئيسي اضطلع به ، طبعاً ، واقع ان الغزاة كانوا ممثلي مجتمع يشغل درجة اعلى في تطوره) .

ولكن مهما كان الامر ، فان شعب كيتشوا تمكن حتى لحظة زوال الدولة الاينكية من ان ينمو من الناحية العددية عشرات الاضعاف على الاقل .

واستمرت عملية دمجة للقبائل ، وحتى للاتنومسات الضخمة المجاورة حتى بعد انهيار الامبراطورية . لقد اصبحت اراضيها ملكا لامبراطورية اخرى ، وهي الامبراطورية الاسبانية . ولكن الاسبان ، الذين كانوا يجلبون فرانسين الاقطاعية ، والذين حملوها الى الاراضي الجديدة ، اعتبروا الاينكيين ارسقراطية من نوع خاص في مستعمراتهم الجديدة ، فاخذوا يعززون هيبتهم ، وبالتالي هبة لغتهم وثقافتهم ، وصار اقرباء واعقاب الحكام الاخيرين ينالون حقوقا خاصة وحتى معانجات . وقد ادار الاسبان ممتلكاتهم الجديدة ، مستخدمين الفئات المميزة السابقة التي كان الكيتشوا قد دمجهم الى درجة كبيرة حتى في التفرغ ، كما سبق القول . وحمل الميشرون الاسبان المسيحية الى بيرو من خلال لغة الكيتشوا في اغلب الاحوال .

ولكن الاينكيين - الكيتشوا قادوا ايضا قتال الهنود التحرري ضد السيطرة الاسبانية امداد طويلا . وقد عاشت ٤٠ سنة دولة توباك - امارو ، القائد الاينكي البارز الذي حاول ان يعيد الى الهنود استقلالهم .

تشير عام الى طرف جدا بالنسبة الى موضوعنا كله يتسم به تاريخ الشعوب المنقسمة الى شرائع وطبقات ، وهو

إن اصحاب السمة السلالية الواحدة يسعون الى أهداف سياسية متعارضة على طرقى نقضى .

فى مثالنا الملبوس هذا كانت معركة لغة الكيتشوا ضرورية سواء لمن خضع للاسبان وقرر التعاون معهم . او لمن ناضل ضد الغزاة .

وهكذا تجد امامنا اليوم هذه اللوحة المدممة : فى عدة بلدان ممتدة على طول جبال الاند ، فى اراضى تقطعها وهضاد وحدود دولية ، يعيش اكبر شعب من الشعوب الهندية . ولا يوجد سوى جزء صغير نسبيا فى الاند يشغله شعب هندي كبير آخر ، الایمارا ، الذى يقل عمن الكيتشوا (حوالى ١٥ مليوناً) قرابة ٦ مرات عن حيث العدد . ويعيش الكيتشوا كتلة واحدة عمليا على اراض تمتد من جنوب كولومبيا الى شمال تشيلي والارجنتين . وهكذا فان سياسة (الايנקيسى) احرزت انتصارا تقوياً من نوع خاص على اى حال ...

لقد سعت الامبراطورية الرومانية ، ولا سيما فى القرون الاخيرة من وجودها ، الى تحقيق النتيجة نفسها . اى تحويل السكان جميعاً فى مناطقها كلها الى شعب واحد . وقد وفر لها التاريخ لتنفيذ هذه المحاولة زمناً اكبر بكثير مما وفره للدولة الاينكية .

كتب الجلس : «فى كل بلدان حوض البحر الابيض المتوسط مر على اتمتداف قرون مسحاغ الامبراطورية الرومانية المهد . وفى الاماكن التى لم تيد فيها اللغة اليونانية مقاومة ، كان على اللغات القومية جميعاً ان تنتج عن مكانها للاتينية الركيزة ، فزالت الفوارق القومية كلها ، ولم يعد ثمة وجود للغال والايبيريين والبيغوريين والنوريين ، واصبحوا كلهم روماناً» (ك . ماركس وفى . انجلى . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ١٤٦) .

ولكن أخذ اللغة وحده - ولعل هذا ما ينبغى التنويه به مرة اخرى هنا - لا يكفى ليصبح المتحدث بها جزءاً من الانثوس المعنى . ينبغى اخذ الثقافة ونمط الحياة ، وهذا كان الامر اعقد بكثير رغم كل نجاحات «المسحاغ الرومانى» .

وذلك لان الرومان ، بين امور اخرى ، لم يحاولوا ابداً ، خلافاً للاينكيين ، ان يجعلوا رعايا الامبراطورية سواء ، ففى المتربول او فى الولايات فى وضع متساو نسبياً . واضطلع سكان روما نفسها فى القرون الاخيرة من وجود الامبراطورية بدور طفيلى جماعى ينتهب الولايات .

لقد نهج اسكندر المقدونى ، كما يبدو ، سياسة على «النمط الاينكى» ، فعقد بصورة جماعية زواج جنود الجيش اليونانى - المقدونى على الفارسيات والبالبيات والباكريات ، وامر ببناء المدن التى حشد فيها عسداً سكاناً من مختلف القبائل ، وغدول لتزحيل رعاياه بشكل جماعى من مناطق فى الامبراطورية الى اخرى . لعل اسكندر كان يفسهم (او ان المؤرخين القدماء المتأخرين اسبقوا عليه هذا الفهم) ان سياسة تحويل هذا الغليل من الشعوب والجماعات الفاتكة النوع الى مجتمع واحد من الناجين السلالية والاجتماعية هو وحده الذى كان فى وسعه ان يعد يفرص للمحافظة على الدولة حتى بعد وفاة مؤسسها . ولكن التاريخ لم يخصص لدولته حتى عشر سنوات . ومع انهيار سلطتها وحدودها زال تأثيرها ايضاً .

فى ظروف الاقطاعية النامية صارت حدود الدولة (غالباً ما كانت الحدود الجغرافية فى تلك الفترة تؤثر فى رسمها) تضطلع بدور متزايد بالنسبة الى تشكل الانثوسات الجديدة .

واحيانا كانت الحدود التى تمر بين جزئى شعب واحد تحول الى شعبيين مختلفين ، فى شبه جزيرة البيرينه فى القرن الثالث عشر مرت الحدود بحكم ظروف تاريخية مدونة بشكل جعل سكان منطقة غاليسيا ، الذين كانوا يتكلمون حينذاك باللغة البرتغالية القديمة ، خارج نطاق المملكة البرتغالية . مرت قرون واصبح اختلافهم الآن ، الغاليسيون الحاليون ، شعباً خاصاً .

وفى الوقت نفسه عازست الجوانب السلالية نفسها تأثيراً معيناً فى عملية تكوين اراضى الدول . وهذا ما لفت

نظر المجلس الذي تولى يانه في اوائل القرون الوسطى فسي
لوربا الغربية «ما ان ارتسمت المجموعات اللغوية . . . حتى
اصبح من الطبيعي ان تقود هذه المجموعات اساسا معيشا
لتشكيل الدول . . .» (ك . ماركس وف . انجلز .
المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٤٦٠) .

تغير مع الزمن مفهومي حدود دول القرون الوسطى
والاقطاعات الكبيرة بالنسبة الى تكوين الشعب . فقد قسمت
الاراضي السابعة الى عشرات ، واماينا الى مئات من كيانات
الدول المستقلة وشبه المستقلة . وفي غضون ذلك كانت
الكبيرة منها ولو بعض الشيء متعددة القوميات ، كقاعدة
عامة ، وكانست تتكون احيانا من اراض تفضلها مئات
الكيلومترات . من المعروف ان بابا روما كان يملك في القرن
الرابع عشر روما ومطقتها في ايطاليا ، واغنيون في فرنسا .
وكان الملك الانكليزي يشارد قلب الاسد يملك ، شأن
خلفائه على امتداد عدة اجيال ، دوقية فاسكون في فرنسا .
وكانت اراض غير قليلة في فرنسا تخضع للتاج الاسباني
وللامبراطور الجرمانى للامبراطورية الرومانية المقدسة .
وكانت هولندا تقع وفق قوانين الوراثة او الارغام تحت سلطة
دوقات بورغوندى احيانا ، والملوك الاسبان احيانا اخرى ،

ولكن في اغلبية الحالات لم تكن هذه الحدود العديدة
ذات اهمية للاقطاعي الصرف قادرة على ان تساعده او تعوق
يحد تشكل الشعوب الجديدة (او تفكك القديمة) . نحن لا
نفرع شعبا اخيوتينا ، ولا يعيش اسبان في هولندا .

ولم تكن حدود الكيانات الاقطاعية تمنع عادة الصلات
الدينية ولا الصلات السياسية . الكاثوليك الانكليز يتوجهون
الى اسبانيا لطلب المساعدة ، ويفعل الشيء نفسه كاثوليك
فرنسا زمن الحروب الدينية . وقاتل البروتستانت الالمان الى
جانف الفرنسيين في الجيش البروتستانتى لهنرى الرابع
المقبل . ونعت شعار حماية البروتستانتية زمن حرب السنوات
الثلاثين في القرن السابع عشر استمدى الاقطاعيون اللوثريون
الالمان الملك السويدى للصراع ضد الامبراطور الكاثوليكي .

ان الفارس القومى يخدم الملك الانكليزى بلا تردد اذا
كان يعيش في ممتلكاته الفرنسية . وينهى القول ان
البروتستانتين في ذلك الزمن لم يكونوا يميلون اجمالا الى
اسباخ «مسيحية خاصة على اهتمامهم الى هذا الشعب او ذاك . ان
الاقطاعي الصغير ، سواء في اوربا او آسيا ، يتدو تابعا
للعامل الذى «يمسك» اقطاعه .

اشار انجلز يحق الى ان سلطة الملك في عهد الاقطاعية
المتأخرة اضطلمت بدور اساسى في التغلب على التجزئة
الاقطاعية : انها «اذا اعتمدت على سكان المدن ، حطمت قدرة
النبلاء الاقطاعيين واتسعت ممالك كبيرة ، قائمة على القومية
من حيث الجوهر . . .» (ك . ماركس وف . انجلز .
المؤلفات ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٤٥) .

من الواضح ان جوامع المدن يتلخص في ان الحدود
الاقطاعية لم تكن تعيدها لبعض الوقت حدود اقتصادية ،
فلم تكن الصلات بين المدن والقرى داخل الممتلكات الاقطاعية
اخرى بكثير من الصلات الممتدة عبر الحدود .

يغدو الوضع مغايرا مع تطور اسس النظام الراسمالي
داخل المجتمع الاقطاعى . كانت البرجوازية في البلد الراسمالي
الناتج معنية بان تستقل «شخصيتها» بقوامها الخاصة ،
«لوحدتها» ، اما السخيلة فكانوا معنيين بان لا يتعرضوا ،
علاوة على الاستغلال ، لاضطهاد قومى .

يؤدى قيام الراسمالية عموما الى تحول القوم الى امة .
ان اندماج تطور الدولة السياسى وعملية تشكيل الامم امر
اشار اليه مرارا لينين الذى عكف طويلا وبشكل خاص على
المسألة القومية وفعل ، كما هو معروف ، الكثير لحدوثها
الواضح ، وقد تولى عام ١٩١٤ فى «موضوعات لتقرير حول
المسألة القومية» بان «الدولة القومية لقاعدة عالمية» فى العالم
الرسمالى (لينين - المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص
٣٨٥) .

فى عصر تطور الراسمالية المبكر يجد تراكيب الاتنوس
ونظام الدولة لنفسه سندا مباشرا وميتنا فى الاقتصاد .

كتب لينين : « في العالم كله كان عهد انتصار الرأسمالية
 انتم على الاقطاعية مقترنا بالحركات القومية ، ان اساس تلك
 الحركات الاقتصادية يكون في ان تفوق الانتاج الصناعي تفوقا
 تاما يتطلب استيلاء البرجوازية على السوق الداخلية وتوحيد
 الاراضي التي يتكلم سكانها لغة واحدة في دولة واحدة ،
 وإزالة كل حاجز من شأنه ان يعيق تطور تلك اللغة ورسوخها
 في الادب . . . ان وحدة اللغة وحرية التطور هما من اهم
 الشروط لقيام مبادلات تجارية حرة شاملة حقا تتوافق مع
 الرأسمالية الحديثة ولتكتل الناس كتكتلا حرا واسعا داخل كل
 طبقة من الطبقات ، وانخراط لاقامة علاقة وثيقة بين السوق
 وبين كل رب عمل كبير او صغير ، بين السوق وبين كل يافع
 وعشقر » (لينين . المختارات قس ١٠ مجلدات ، المجلد ١ ،
 ص ١٤٥ - ١٤٦) ، وكما نرى ، فان لينين يعطي هنا تحليلا
 دقيقا وعميقا للوضع ، ولا يربط بين الاقتصاد والسياسة
 فحسب ، بل يربط أيضا بين الاقتصاد واللغة ، الاقتصاد
 والادب .

ان تأثير الدولة البرجوازية في العمليات السلافية لا
 يقتصر على دورها في تكوين الامم ، الامر الذي تحدثنا عنه
 منذ قليل . ان تبرز الدولة البرجوازية منذ لحظة ظهورها
 عاملا هاما للعمليات السلافية كلها .

بيد ان هذا الاتجاه يكتسب في ظروف الرأسمالية ، ولا
 سيما في مرحلتها المتأخرة ، الامبريالية ، طابعا متناقضا ،
 تنافريا ، حيث تقترن بإقامة وضع متضاد ، وبسيطرة مباشرة
 في نهاية المطاف لامة على امة . وفي غضون ذلك تستخدم
 البرجوازية وعلى التشغيل الوطني الذي تكون في خلال التضال
 في تمهيد قيام دولتهم من اجل تمهيد النزعة القومية الضيقة
 التي توضع في خدمة ملامعها الامبريالية .

ان الطبقة العاملة وطيبتها الثورية ، الاحزاب الماركسية
 اللينينية ، ترفض الايديولوجيا الرجعية للغلم القومي وتدعم
 حركات التحرر الوطني للشعوب المضطهدة بقدر ما تحتويها
 من مشمول ديمقراطي عام ضد الاضطهاد . وتنظر الماركسية

الى حركة التحرر الوطني كعامل لتطورها عمقا ، نحو توسيع
 فضال الشعوب المضطهدة من اجل الطريق غير الرأسمالي
 للتطور ، والى جانب ذلك ، من الواضح تماما للماركسيين
 انه لا يمكن حل المسألة القومية تماما الا بتصفية الطبقيات
 المتناحرة التي تعتبر مقدمة جذرية للقضاء على كل اشكال
 الاضطهاد والظلم ، بما في ذلك في مجال العلاقات القومية .
 نوه لينين قائلا : « في ظل الرأسمالية يستحيل القضاء على
 الاضطهاد القومي (والاضطهاد السياسي عموما) ، ولهذا كان من
 الضروري القضاء على الطبقات ، اي اقامة الاشتراكية » (لينين .
 المختارات في ١٠ مجلدات ، المجلد ٦ ، ص ٩٤) .

امثلة على النشوء

ننتقل الآن الى الخصائص المدبوسة . من وجهة النظر الانثوغرافية ، لظهور الشعوب وذلك ، كما سيبرى القارى ، لاحقاً ، على شكل اندماج للانثوسات السالفة اول الامر ، ومن ثم على شكل تفككها ، الامر الذى يجرى ، فى الحالتين ، تحت تأثير العوامل المبكوة للانثوسات .

فى اواسط الالف الاول قبل الميلاد اصبح الغال لتوعم اسياد الجزء الاكبر من فرنسا المعاصرة . وهناك إختلطوا بالايبيريين ، اقرباء الياسكيين الجاليين والايبيريين الاسيان القدماء الذين يطلق اسمهم الى الآن على شبه جزيرة البيرنية ، التى تسمى احيانا شبة جزيرة ايبريا . واختلفوا ايضا بالقبائل الاثرى التى كانت قاطنة فى تلك الاماكن .

ولكن مضت ثلاثة قرون او اربعة ، وفى نهاية القرن الاخير قبل الميلاد ، وكان الغال قد انحلوا فى نفل لغتهم الى العدد الاكبر من الايبيريين الذين اخضعوهم ، خضعوا هم انفسهم للرومان واخذوا لغتهم .

وبعد ثلاثة او اربعة قرون اخرى ، قذفت الهجرة الكبيرة للشعوب قبائل جرمانية غفيرة الى اراضى فرنسا . كانت تاتى الى البلاد واحدة اثر اخرى وتحتل منطقة من مناطقها ، ثم جاءت موجة جديدة من الجرمانيين طردت الموجة السابقة او انضمتها . جاء الفيسنغوليون والالمان والبورغونتيون وقبائل لا عد لها ولا حصر . وكان اقواما - وبالنال آخرها - الفرثيون . ومنهم انت التسمية الجديدة للبلاد .

يكفى النظر الى الخلطة لرؤية ان كل اراضى فرنسا تقريباً منفصلة عن البلدان المجاورة بحدود جغرافية واضحة . فى الجنوب البيرنية ، فى الجنوب الشرقى الالب ، فى الشمال الاردين ، فى الغرب المحيط والغاس . . . فى هذا المربع غير المنتظم الاضلاع جرى التاريخ المتعدد القرون للشعب الانثوس الفرنسى . هناك وجهات نظر متعددة متباينة للغاية (لعل هذا الوضع النموذجى بالنسبة الى الانثوغرافيا المعقدة اصبح مألوفاً لدى قارئنا) فى صمد مسألة الزمن الذى تكون فيه او حتى . . . ما اذا كان قد تكون كوحدة متكاملة اصلاً .

ثمة علماء ، يفترضون ان هذا انثوس واحد يتكلم (او كان يتكلم حتى امد قريب) بلغات مختلفة ، لا بالفرنسية وحدها ، بل كذلك بالبروفانسية فى الجنوب ، والباسكية فى الجنوب الغربى ، وبالبريتانية فسى الغرب ويعتبر آخرون ان البريتانيين ، مثلاً ، يشكلون انثوسا الى الآن . وهذا ما يشير اليه الكثير من خصائص ثقافتهم الشعبية .

ولكن يعترف على اى حال بان عملية التوحيد السلافية قد بدأت فى فرنسا منذ زمن بعيد .

وما يؤكد هذا على افضل نحو وبوضوح خاص حركة تحرير فرنسا من الانكليين بقيادة جان دارك الاسطورية . هذه الفتاة البالغة من العمر ١٩ عاماً ، ذات الانقاد الوطنى والولعب العسكرية البارزة ، ولدت فى لوتارنغيا . بيد ان جان دارك لم تكن تعتبر نفسها لوتارنغية ، بل فرنسية ، اما الذين اتحدوا تحت رايتها من بسطاء وفلا ، فكانوا يشيرون بهذا الى انهم يعتبرون انفسهم فرنسيين بالدرجة الاولى ، لا بروفانسيين او غسكونيين او بيكارديين .

هذا فى حين انه لسو توجهنا الى المصطلح العلمى للانثوس ، اراينا ولا شك انه كان يوجد فى اراضى فرنسا فى ذلك الحين (القرن الخامس عشر) انثوسان كبيران على الاقل ، وذلك دون الحديث عن عدة انثوسات اصغر نسبياً : الانثوس الفرنسى الجنوبي والانثوس الفرنسى الشمالى . وهكذا ، فان المسألة موضع جدال عن وجهة النظر العلمية

الصرف . بيد ان الفوارق كانت موجودة وبوضوح كاف من وجهة النظر السلالية . ولعله لا ينبغي التفرّد هنا بإمكان التوجه الى شهادات الروائيين الفرنسيين ، العائدين طبعاً مواطنهم بذقة . وعلاوة على ذلك تمة علمية ، يفترضون انه كان يوجد في القرون الوسطى في فرنسا المقسمة الى ممتلكات اقطاعية عدد من الانثوسات او الاقوام المنفصلة يصل الى العشرين . وعلى اي حال كان عدد كبير من اناس كل هذه الاقوام يشعرون بانهم ليسوا مجرد اوفيريين او غسكونيين . بل فرنسيون ايضاً .

ان اليكساندر دوماس في «الفرسان الثلاثة» - لعل الكثير من القراء قد قرأوا هذا الكتاب منذ حداثةهم - كان ينوه دائماً بان دارتانيان غسكوني حقيقي : متدقق وحذر في الوقت نفسه ، مقدام وحاد الذكاء ، لتتذكر كيف يقول دارتانيان عن نفسه : «ايه ! انا غسكوني شيطان ، سوف اسهر حتى وانا في جهنم في المظلمة» .

ان حامي دارتانيان تقيب الفرسان الملكيين دي تريفل «بداً حليقة . . . مثل دارتانيان ، اي بدون اي سمو في جيبه ، ولكن باحتياطي من الجراءة والذكاء والدهاء ، الذي كان يتمكن بفضلته حتى افقر النبلاء الغسكونيين من ان يحقق غالباً اجراً احلام ابيه . . .» .

ولا ينس دوماس ان يغيرنسا بان «بلاشميه الفانسق الجدار» ، خادم دارتانيان ، ببيكاردى وينوه لاحقاً بخصائصه وامانته كخصالتي لبيكاردى بالذات . وخادم بورتوس ، النورماندي - موشكيثون ، يجب الطعام الجيد واللبس الفاخر ، وخادم اراميس يبرى الخ .

اما تماذج البروفانسيين ، مثلاً ، فقد اردد الفونس دوديه العديد منها في مؤلفاته . ويمكن ان نتذكر نموذجاً قد يكون اكثر هذه النماذج شهرة ، وهو الخيال اللبيب النية تارتارين من تاراسكون ، واصداؤه وجيرانه .

واخيراً ، ان احد ابدل فيكتور هيفو ، وهو بطل سلبى ، والحق يقال ، ونمضى به زعيم المتمردين الملكيين القاسى ،

يلقى هذه الكلمة الحماسية : «ان عبقورية فرنسا تطلو على الغصال العبقورية للقارة الاوربية بأسرها ، وكل اقليم فرنسي يمثل احدى هذه الفضائل الاوربية . لقد ازدهرت الاستقامة الالمانية في بيكاردى ، وتجلت طبيعة السويديين السمحاء في شمبانيا ، والقدره الهولندية في العمل موجودة فسي بورغوندى ، والداقة العمليّة لبولندا في لانغيدوك ، والايا ، الاسباني في غسكون ، والذكاء الايطالي الحاد في بروفانس ، والدهاء اليوناني في النورماندى ، والنزاعة السويسرية في دوفينية» .

اننا ، طبعاً ، ان نخالفه ولن نوافقه ، بهما امر آخر ، وهو ان الاختلافات بين سكان كل من مناطق فرنسا واضحة بالنسبة الى الروائي نفسه ، وهذا ، كما نعتقد ، يبين بوضوح كاف ان الكثير من الاقوام الاقليمية (او «ما قبل الاقوام») في فرنسا قد تمكنت قبل اندماجها من اجتياز طريق من التماس ان لم يكن يكفى لكى تتمايز بالفعل الى هذا القدر ، فيكفى على الاقل لكى تكون مثل هذا الراى الشائع فيها .

حول هذا الموضوع يكتب الجغرافى والمؤرخ المعروف في القرن التاسع عشر ريكلو : «في باريس ، العاصمة المشتركة للجميع ، يلتقى ويتبادل التأثير مثل فرنسا بأسرها : سكان بروفانس او غسكون ذوو النشاط والثروة والحركة الدائمة ؛ الثناس القادمون من الهضاب العالية المؤوبون في العمل والبعيدون عن الاختلاط ؛ سكان ضفاف لوار ذوو النظرة الجريئة والفكر الناقب والطبع المتنز ؛ البريتانيون ذوو الطبع السوداوى ، العالمون واصحاب الارادة القوية في الوقت نفسه ؛ النورمانديون ذوو الحديث البهل ، والنظرة الفاحصة والعقل الراجح والحذرون ؛ سكان لوتارنشيا وفوقيز وفراانسي-كونتية المتقدمون عند الغضب وذوو المراس ذروح المبادرة» .

لقد أصبحت فرنسا مثلاً نموذجياً لبلد تجمع سلطنة مركزية . وهذا ما فعله بنقطة ملوكها في الفترة من القرن الثانى عشر الى القرن الرابع عشر . ثم حلت الفوضى وتشتت البلاد

من جديد تشتتت يبدو اشد من السابق ، وذلك في فترة حرب
المئة سنة مع انكلترا . ولكن نشأت في البلاد سوق داخلية
واحدة رغم كل الخلافات والمقاتلات الاقتصادية الكبيرة
والصغيرة . وتدهمت الصلات الاقتصادية بين اجزائها .
وصارت باريس تجذب التجار والبرجوازيين الصغار بقوة .

ان دور باريس في تكوين الشعب الفرنسي - وهذا ما
يشيخ التنويه به - اكبر من الدور الذي تضطلع به العاصمة
عادة في احوال كهذه . وقد اتخذ سكان البلاد بأسرها لهجة
باريس نموذجاً الذي وضع اللغة الوحيدة ، في حين ان لهجة
برلين لم تصبح مثلاً لالمانيا ، ولا لهجة روما مثلاً لاطاليا .
في انكلترا الصغيرة نسبياً والمجزأة الى عدد من المناطق
السلالية اقل بكثير جرى صراع يبين اللغتين الفرنسية
والانكليزية استمر ٣٠٠ سنة وانتهى بانتصار اللغة
الانكليزية في اواخر القرن الرابع عشر . وما يعث على
الدخلة الآن ان اللغة الفرنسية كانت تنتعج في فرنسا في
القرن الثالث عشر ، مثلاً ، بنجاح اقل مما في انكلترا . في
الارض الغربية كان يفق خلفها وجهاء من احفاد النورمانيين
المتفرنسيين الذين استولوا على انكلترا . اما في فرنسا فان
لغة مقاطعة باريس كانت لا تزال تتجاهل بمعارضة اللاتينية
في المعاملات الرسمية ، وبالللهجات المحلية قسراً كل مكان .
وكانت اللغة البروفانسية في ذلك الحين بعيدة عن الفرنسية
بعدها عن الاسبانية .

واستمر الحال هكذا الى ان اعلن الملك بروسوم خاص
في عام ١٥٣٩ اللغة الفرنسية لغة رسمية وحيدة تستخدم في
المحاكم والنشاط الاداري ، واصبحت السلطة المركزية تقف
بحزم الى جانب هذه اللغة ، وانصرت اللغة ضمن الحدود
التي ترسخت فيها هذه السلطة .

الآن يتكلم في فرنسا بالبروفانسية نسبة صغيرة جداً من
الجويين ، وباللغة الالمانية اقلية الاثراسيين وسكان
مقاطعاتها الشرقية ، وبالبريتانية عدد من سكان شبه جزيرة
بريتاني في الشمال الغربي .

وبالمانسية ليس من قبيل المصادفة ان تبعث تسميته
في الذاكرة كلمة «بريطانيا» .

في قديم الزمان ، حينما استولت قبائل الانكليين
والسكسون على الجزر الاكبر من انكلترا ، رأت بعض قبائل
البريتيين القدماء انها لا تستطيع الصمود في وجه الغزاة ،
فاختلقت عبر البحر واحتلت شبيبه الجزيرة الذي اعطته
اسمها . لكم عرف التاريخ حالات كهذه : المهزومون يغرون
لينتصروا في آخرين ، المهالون يهبطون الآخرين ، من يتعرض
للغزو يصبح غازياً .

حافظت بريتاني على لغتها الى القرن العشرين . من جهة ،
يتكلم الآن اقلية سكانها باللغة الفرنسية ، وكل الآخرين
يتكلمون سواء بالفرنسية او بالبريتانية . ولكن ، من الجهة
الاشرى ، تحدث الصحف من حين الى آخر عن مظاهرات
للقرعيين البريتانيين الذين يرفعون شعارات الحكم الذاتي
لبريتاني ، او حتى انفصالها عن فرنسا .

منذ مئة وثمانين سنة ، حينما كان اغلب البريتانيين
يحبسون لغة اسلافهم ، مع العلم انها كانت اللغة الوحيدة
بالنسبة الى الكيريين ، انتفضت بريتاني ضد الحكومة
الفرنسية . كان الناس الذين قاتلوا حينذاك الجيش الحكومي
يرتدون الملابس البريتانية ويتحدوون باللغة البريتانية فيما
بينهم . لقد قاتلوا الجمهورية الفرنسية ، ولكن من اجل ملك
فرنسي . يبدو ، انه لم تغر على بال احده من المتفتنين
فكرة اقامة دولة مستقلة باية درجة من الدرجات .

اما الآن فان الشباب الذين يرتدون الازياء
الباريسية ويتكلمون الفرنسية بلفظ جامعي يتاليون بانفصال
بريتاني التي تشكل لغتها بالنسبة اليهم مجرد مادة للتمتع ،
لا وسيلة للتخاطب فيما بينهم .

مفارقة ! ولكن هذه المفارقة امر كثير الوقوع جداً في
الحياة المعاصرة للبلدان الغربية .

يرى عدد من العلماء حتى نسي انتفاضة بريتاني ضد

الجمهورية عند قرابة سنة مائتين للجزء القومية لهذا الجزء من فرنسا .

كتب فكتور هيجو في رواية «العام ثلاثة وتسعون» التي يجري جزء كبير من حوادثها في بريتانى :

«بريتانى مشردة قديمة . وقد كانت مصيبة في كسل انتفاضة لها في غضون ألفى سنة . ولكنها قس العرة الأخيرة لم تكن على صواب . بيد انها سواء اخاضت الصراع ضد الثورة ام ضد الملكية ، ضد الثواب المفوضين ام ضد الدوقات والتبلاء . . . فان ذلك عسى اى حال حرب بريتانى - حرب الروح المحلية ضد الروح المركزية» .

ولعله يمكن ان نقسم ان الاضطهاد القومى ايضا جعل بريتانى متشردة قديمة بدرجة من الدرجات . ولكن البريتانيين يتحولون الآن ، كما يعتبر انثوغرافيون كثيرون . من شعب منفرد الى مجموعة سكانية فرعية داخل الشعب الفرنسى .

على مقربة من فرنسا تقع دوقية لوكمسبورغ العظمى ، وكانها عمدا لتؤكد أهمية الاستقرار الكبير للاتروس الراسخ والعوامل السياسية الخارجية والحدود السياسية بالنسبة الى عملية تشكل الشعوب .

تبلغ مساحة الدوقية العظمى قرابة ثلاثة آلاف كيلومتر مربع ويمسكتها جزالى اربعمئة الف نسمة . وفى لوكمسبورغ الحالية ، ينتج مقابل كل واحد من هؤلاء الاربعمئة الف انسان - «مقابل كل فرد من السكان» ، حسب تعبير المختصين فى الاحصاء - من الفولاذ وحديد الزهر والمنتجات أكثر من أى بلد آخر فى العالم . وليس أكثر فحسب ، بل أكثر بنسبة تتراوح ما بين خمس عشرة وعشرين مرة ! و«جيرة» ذلك تقع على مكانين خازات الحديد الجيدة والكوادر العمالية الرفيعة التأهيل .

يمكن اعتبار سكان لوكمسبورغ اصحاب رقم قياسي فى ناحية أخرى ايضا : تنعاش فى الدوقية ثلاث لغات عمليا . وليس فى هذا ، بالبنامية ، ما يدعو الى الدهشة لو ان كل واحد من سكان البلاد عمليا لم يتكلم هذه اللغات الثلاث

بدرجة واحدة من الجودة تقريبا ، انها دولة متبحرين فى اللغات حقا .

يتكلم سكان لوكمسبورغ بالالمانية ، لانسه فى هذه الاماكن بالذات قدن فى وقت مضى الفريكيون ، اولئك الذين استوطنوا الجزء الاكبر من اراضى فرنسا واعطوها اسمهم دون لغتهم . ولكن الفريكيين اقاموا فى لوكمسبورغ أكثر نسبيا واعطوا الكيلبيين المحليين لغتهم . ويتكلم سكان لوكمسبورغ بالفرنسية ايضا لان تأثير فرنسا الثقافى كان اقوى دائما من التأثير الثقافى الالمانى . وكان فى حياة البلدين المتجاورين - الكبير والصغير - الكثير من الامور المشتركة .

الآن تكتب بالفرنسية الاعلانات فى الشوارع - سواء فى المدن او القرى - ويبدأ تجرى المرافعات فى المحاكم ، وفى البرلمان يتكلمون بالفرنسية والالمانية على حد سواء ، ويجرى تدريس كلتا اللغتين فى المدارس الابتدائية . وفى الحياة اليومية يلجأ اغلب سكان لوكمسبورغ الى لغة ثانية ، وهى اللهجة للوكمسبورغية . ويمكن اعتبارها من اللهجات الالمانية ، ولكن الالمان لا يفهمون هذه اللهجة تقريبا ، وتصدر الصحف فى لوكمسبورغ بهذه اللغات الثلاث جميعا .

منذ ألفى سنة احتل الرومان اراضى لوكمسبورغ . كما احتلوا اراضى غاليا .

وبعد اربعة قرون قدم الفريكيون الى هناك . وحينئذ خرجت المملكة الفرنسية من انتفاض الامبراطورية الفريكية . ظهرت قريبا فى اطراف جبال اودين كونتية ، ومن ثم دوقية لوكمسبورغ . واستطاعت ان تبقى أكثر من خمسة قرون مستقلة عمليا ، بل ان سلالة دوقات لوكمسبورغ قدمت مرارا باطارة لالمانيا وملوكا لالراضى التشيكية وغيرها .

ثم انقرضت السلالة ، فاصبحت لوكمسبورغ ، وفقى قوانين الوارثة فى تلك الأزمنة ، وكذلك بسبب النجاحات والاختناقات العسكرية للدول العظمى ، ملكا لاسبانيا مدة مئة

وثمانين سنة تقريبا ، ثم لفرنسا مدة تقرب من مئة سنة ، ثم لاسبانيا مجددا مدة سبع عشرة سنة ، ثم لفرنسا مدة ثمانين سنة ، ثم لفرنسا من جديد مدة عشرين سنة في عهد نابليون ، وبعد هزيمته نالت لوكسمبورغ استقلالها لان العالميين قسسى هذه الارض كانوا كثيرين جدا . انه ، باختصار ، تاريخ عاصف . ولكن الشعب الصغير بقى مخلصا لتقليده .

في القرن العشرين ابدى سكان لوكسمبورغ زمن الحرب العالمية الثانية مقاومة لثلاثة لمحاولات اصفاء النسخة الالمانية والفاشية على بلادهم . والى الآن تصاعد على واجهات الكثير من البيوت كتابات بمثابة رد اى على النازيين : « نريد ان نبقى كما نحن ! »

يشتهر سكان لوكسمبورغ بانهم مزارعو كرملة وموسيقيون . والنكتة المفضلة هناك لها هذا المحتوى تقريبا : « لوكسمبورغى واحد يستانى ، اثنان مناقشة فى المقهى ، ثلاثة اوركسترا » . عندهم فقط - ربما على نطاق العالم بأسره - اتسعت الى هذه الدرجة المسيرات الموسيقية الراقصة زمن الاعياد المحلية .

وعكذا فان هذا الشعب الصغير الواقع بين دولتين عظميين (وفى جوار بلجيكا ومولندا ايضا) استطاع ان يحافظ على اصوله الثقافية .

* * *

نشأ الغرم الايطالى ، شأن الكثير من شعوب العالم الاخرى ، نتيجة اختلاط الفاتحين (ولا سيما القبائل الجرمانية) والسكان المحليين الذين يعود اصلهم الى الرومان والانوسات الخاضعة لهم . ولكن الشعب الذى تعرض للغزو وكان يتنعم بثقافة ازرق بكتين من ثقافة الغزاة استطاع ان يدمج الآخرين ، ولا سيما من الناحية اللغوية ، اذ ان دمج الثقافة الارض للثقافة الادنى نسبيا قانون عام شائع للعصية

السلالية التاريخية - وفى خلال الاصطدامات والاختلاطات السلالية العديدة فى الفترة من القرن السادس الى القرن العاشر جرت عملية تكون القوم الايطالى التى اقترنت بتكون اللغة العامية الايطالية . وقد اصطلح على اعتبار ان اواسط القرن الثانى عشر - عصر حروب المدن الايطالية ضد فريديريك الثانى بربروس - كانت زمن نشوء الوعى الذاتى الايطالى العام . وكان نشوء اللغة الادبية الايطالية (ابتداء من القرن الثالث عشر) خطوة هامة فى التراص السلالى للقوم الايطالى . ولكن نظرا لانشئت الاتحادى بقيت عملية تراسه غير مكتملة زمنا طويلا .

يشبه تشكل القوم الايطالى على ان توحيد الدولة لم يكن مقدمة للتلاحم السلالى لسكان مختلف المناطق ، فقد كان معذوما اصلا فى هذه الحالة ، اذ من المعروف ان ايطاليا لم تحتد ابدا فى القرون الوسطى فى دولة واحدة . ولا يوجد فى رأى الاختصاصيين - اسس للاختراض ان الوحدة الايطالية قامت على الصلات الاقتصادية ، لان الصلات الاقتصادية بين كل من المناطق وجمهوريات المدن كانت ضعيفة للغاية ، وكان التنافس والتشتت اكثر بروزا هنا .

ان الدور الحاسم فى تلاحم شعب ايطاليا بأسره يعود ، كما تشير الدلائل كلها ، الى عامل سياسى ، هو النضال ضد الغزاة الغاريجيين ، وهنا تكمن الخاصية الرئيسية لتشكّل هذا الانوس .

* * *

نقرأ فى قصيدة روبيرت ستيفنسون «عسل الخلدنج» :
 ائى ملك سكوتلاندا
 الشديدي على الاعداء ،
 فطرد البيكتيين المساكين
 الى الشواطىء الصماء . . .
 البيكتيون هم اقدم من تعريفهم من سكان سكوتلاندا .
 وكانوا يتكلمون ، على ما يبدو ، باحدى اللغات الكلتية .

في الألف الأول قبل الميلاد كانت الشعوب الناطقة
باللغات الكلتية تعيش في أرجاء شاسعة من أوروبا وآسيا
الصغرى . ولم يكن الكيلتيون في سكوتلندا ، كما في
كل الأراضي التي شغلوها ، أول القاطنين ، فقد قدموا إلى
هناك في الأزمنة القديمة واختلطوا مع السكان الأصليين
لن تلك المناطق .

وعلى امتداد عدة قرون صد البيكتيون بنجاح كل محاولات
الرومان ، الذين كانوا قد احتلوا بريطانيا ، إن يستولوا على
بلادهم أيضا . وقد انقلبوا هم أنفسهم إلى الهجوم مرارا ،
وشتموا حملات مدمرة على الممتلكات الرومانية ، وللاحتياط ،
منهم بالذات بنى الامبراطور ادريانوس سورا للدفاع على
الحدود الحالية تقريبا بين سكوتلندا وانكلترا .

وهكذا فإن البيكتيين لم يكونوا اقزاما عاجزين ، كما
يصورهم ستيبلتون في قصيدته . تقوى الاسطورة انه في
القرن الخامس الميلادي دعا البريتون قبائل الانكليبيين
والسكسون الجرمانية إلى جزيرتهم لمساعدتهم ضد البيكتيين
بالذات ، ان الانكليبيين والسكسون لم يحطوا البيكتيين
نهائيا ، ولكنهم حللوا واضعروا البريتون الذين دعواهم . . .
ولكن وجدت قوة انتصرت على البيكتيين . فقد بدأ
السكوتيون ، القبيلة الايرلندية القوية ، باقتحام الأراضي
البيكتية منذ القرن الرابع . واستمر الصراع الدامي ، الذي
انتهى بانتصار السكوتيين ، أكثر من أربعة قرون :

في حق الخلق ،

في المعركة التسعوا ،

استلقى الاحياء على الاموات

والاموات على الاحياء .

وعلى الرغم من الاساطير ، لم يقض على البيكتيين تماما
ولم يقنوا بلا اثر ، بل اندمجوا في السكوتيين . والشعب
السكوتلندي عبارة عن اتحاد بين المنتصرين السكوتيين
المتحججين والمهزومين البيكتيين الذي لا يقلون عنهم شجاعة .

وهذا الاتحاد بين القبائل المتخاصمة سابقا دام قرونا
عديدة .

ان الحدود بين انكلترا وسكوتلندا زمن وجود كل
منهما على حدة قد تحركت مرارا إلى الشمال ، وإلى الجنوب .
وتسكن الانكليز غير مرة في القرون الوسطى من التسلسل على
جيرانهم الشماليين . ولكن ذلك لم يكن يستمر عادة سوى
عدة سنوات ليبردوا بعدها في حرب جديدة .

في عام ١٦٠٣ ، بعد موت الملكة الانكليزية اليزابيث ،
خلفها على العرش الملك السكوتلندي جيمس الرابع الوريث
الاقرب . وبعد بعض الوقت فقدت سكوتلندا برلمانها .
وفقدت لغاتها ، مستبضة عنها بالانكليزية .

ومع ذلك لا يشك احد في الوجود الفعلي لشعب
سكوتلندي خاص ذي ثقافة خاصة وطابع فني خاص وشديد
البرازن جدا .

* * *

مرت شعوب كثيرة عبر آسيا الصغرى التي تشكل
جسرا بين قارتين وتقع على مقربة من قارة ثالثة . كانت تقع
على الطريق القديم للهنود الاوربيين من أي مكان اتوا وإلى
أي مكان ذهبوا : سواء من آسيا إلى أوروبا ، أو من أوروبا إلى
آسيا . هنا كانت تقع دولة الصين العظمى ، منافسة مصر
القديمة والتي طارتها من أجل السيطرة على سورية . وهنا
كان ازدهار وسقوط طروادة ، وربما أيضا العشرات من
المدن - الدول الأخرى . وصادف ان اتى إلى هنا الكيلتيون
عن وسط أوروبا ، والفرس من شمال إيران . وعلى امتداد
الثلاثة آلاف سنة الأخيرة تقريبا عاش اليونان والارمن على
الاطراف الغربية والشرقية من آسيا الصغرى .

هنا من اسكندر المقدوني . وهنا التي سنة قدم إلى هنا
الرومان فوجدوا العديد من الممالك والشعوب ، واصبحت
الممالك على الفور أقل عددا بكتيسر . ولم ينقص عدد

الشعوب . كانت هناك بيزنطة ، وكان يهددها الفرس
الأوربيون من الغرب ، والعرب من الجنوب ، وينقض عليها
الغزو والإيرانيون والأتراك من الشرق . ثم كان الغزو
التركي ، وانزل الصليبي من على كنيسة القديسة صوفيا في
القسطنطينية ، أكبر معبد مسيحي في العالم في ذلك الحين .
ولم يعد الناس في آسيا الصغرى يتكلمون باليونانية ، ولا
بالأرامية أو بالفارسية ، بل باللغة التركية .

ولكن المظهر الخارجي للناس المقيمين في آسيا الصغرى
كان تغيره قليلا إلى درجة مذهشة في خلال عشرات القرون .
لقد بقيت في البلاد وجوه سكانها القدماء التي نحتت تماذجها
في الحجر منذ آلاف السنين . والأتراك المعاصرون يشبهون
هذه الصور كما يشبه الأولاد صور الآباء . كانوا لم يفتحهم
اند وديان وجبال آسيا الصغرى ، وكانوا ليسهم تسرا أبدا
الكتائب المقدونية في طرقاتها ولم يرمح عليها الفرسان
المرعيون بسيوفهم الحديدية . . .

ولكن كل هذا حدث . كل هذا من وقائع التاريخ أيضا ،
شأن تلك الوجوه المنحوتة في الصخور .

في القرن الحادي عشر ظهرت فصائل الأتراك السلاجقة
في ما وراء القفلقاس وشرق آسيا الصغرى ، وفي غضون قرن
وصلت إلى أفريقيا في الجنوب ، وانضمت ما بين النهرين
في طريقها . وانتزع قادشيا مصر والأراضي المجاورة من
الغلاخا ، وحاربت الصليبيين بقسوة من أجل أراضي سورية
وقلسمطين . بدأ الأتراك صراعا ضد بيزنطة استمر قرونا
عديدة وانتهى في القرن الخامس عشر بتحويل القسطنطينية
إلى استنبول ، وكنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد إياصوفيا ،
وقلصوا ممتلكاتها في آسيا الصغرى خطوة بعد خطوة .
وكلومترا اثنا كيلومتر . وفي غضون ذلك اقترح على فلاحي
الأراضي المستنق في عليها هذا الخيار : الانحياز للمسيحية
يجر وراءه الاضهاد ، اعتناق الإسلام يعني الحرية مع تخفيف
الضرائب إلى درجة كبيرة .

وجد شهداء . ووجد مناضلون . ووجد أتلس أرادوا

التريث والانتظار . ووجد الزمن الذي عمل لصالح الأتراك .
لم يكن سكان الإمبراطورية البيزنطية متجانسين . ولم يتكون
شعب بيزنطي واحد حتى في الجزء الآسيوي من أراضيها .
وحينما استولى الأتراك ، بعد أن أصبحوا أتراكا ، على
القسطنطينية ، كان على أبنائهم الذي ولدوا فيها أن يعرفوا ،
حسب تأكيد المؤرخين ، أربع أو خمس لغات دفعة واحدة .
كان الشباب يتكلم مع أبيه بالتركية ، ومع أمه باليونانية أو
الصربية ، وكانت اللغة الأرمنية شائعة في السوق ، وكان
الأدب الفارسي يتمتع باحترام كبير لدى الأتراك ، وكان
القرآن العربي كتابهم المقدس .

كانت اللغة اليونانية ، طبعاً ، العدو الرئيسي للغة
الدخلاء التركية ، ولكن اللغة التركية انتصرت .

لعل كون عملية الامتلاء التركي على آسيا الصغرى
امتدت قروناً ، مما وفر للأتراك إمكان اخضاع بيزنطة «قطعة
بقعة» ، أدى بالدولة العثمانية الدور الحاسم في تقبل
سكان آسيا الصغرى للغة التركية .

ينبغي القول ، بالمناسبة ، أنه حتى في حالة تغيير
اللغة كانت اللغة المهزومة تغلف طابعها الذي لا يمحى على
اللغة المنتصرة .

إن اللغويين ، الذين يدرسون اللغة التركية المعاصرة ،
يجدون فيها الآن خصائص متزايدة لا تعود إلى اللغة اليونانية
فحسب ، بل وإلى لغات الشعوب التي قطنت في آسيا الصغرى
منذ الفين وثلاثة آلاف من السنين . لقد حافظت اللغة التركية
على آثار التأثير القديم سواء للأرمن أو الأكراد أو الجورجيين ،
وحملت عبر الزمن ذكرى لغتي الجنيين والفرجيين .

تتركت القرية قبل المدينة ، وكان اخلاف الغزاة والذين
تعرضوا للغزو أنفسهم يعتبرون ، على ما يبدو ، النفاضة
البيزنطية القديمة لرفع من الثقافة التركية الدخيلة . وانعكس
هذا على نحو طريف في معيشة البلاد . ففي الإمبراطورية
التركية الراهية ، الممتدة من غرب أفريقيا إلى إيران ، ومن
أنبولى إلى الداتوب ، بقيت كلمة «تركي» نفسها أمدا طويلا

مرادفة لكلمة «الخلاص» أو «الدهماوى»، وكان لها وقع هيبى، وفى القرن الثامن عشر كان سكان استنبول يرد على سؤال الأوربى عما إذا كان تركيا بأنه مسلم . وحتى فى القرن التاسع عشر لم يكن سكان المسند الاتراك يرقبون فى اتخاذ هذا الاسم .

يمكن أن نضيف أنه ساهم فى تكوين الشعب التركى ، علاوة على الاتراك والسكان غير الاتراك فى آسيا الصغرى ، سكان اليونان والسلافيين . إذ أن الكثير من الأوزاء البارزين وقادة الجيش والاسطول المشهورين فى تركيا قد تحدثوا من المستعمرات التركية ، ومن بينهم ، مثلاً ، الاميرال اليونانى بيرى ريس الذى ذاع صيته منذ عهد غير بعيد بسبب الخرافات المحيرة التى يقال أنه عثر عليها قساً ارثوذكس . وثمة حالات أيضاً أصبح فيها ، مثلاً ، فرنسى اعتنق الإسلام أحد اوائل قضاة القسطنطينية - استنبول المستولى عليها .

ولكن حينما كان فى اواخر القرن السادس عشر فى عهد سلفطانين على التوالى ثمانية من اصل تسعة أشخاص تعاقبوا على منصب الوزير الاكبر سلافيين متتكرين ، فإن هذا لا يمكن اعتباره امراً نادراً أو محض مصادفة . انه مظهر لسياسة معينة .

كان السلافيين يختارون نخبة جيشهم ، الانكشارية المشهورين ، من المناطق الخاضعة ، حيث كانوا ينتزعون الصبى من ابويه ، ثم يلقونه الإسلام ويربونه بروح الاخلاص للسلاطين . فى البداية لم يكن يسمح لانكشارية بالزواج ، ولكن ما لبثوا ان صاروا يتفاوضون عن زواجهم ثم رفع الحظر اجمالاً ، ودخلت فى عروق الشعب التركى «وجة جديدة من الدم السلافى واليونانى والالبانى وغيره» .

ينبغى التنبه ايضا بأنه يدخل فى قوام اسلاف الشعب التركى الكثير من القبائل التركية التى توغلت فى البلقان فى عهد الانتصارات التركية من الشمال الشرقى ، لا من الجنوب الشرقى . وفى القرن التاسع عشر ، خسى فترة انتصارات

السلافيين البلقانيين والرومانيين واليونان فى الشمال من اجل التحرر الوطنى ، غادر الكثير من اخلاف الاتراك المسلمين البلقان الى تركيا الشرقية وآسيا الصغرى ، ولعله كان بين هؤلاء المهاجرين ، وبالنسبة ، اخلاف السكان المحليين القدماء الذين اعتنقوا الإسلام وكانوا يعتبرون انفسهم اتراكاً .

وفى القرن التاسع عشر ايضا رحل الى ممتلكات السلطات مئات الالوف من الجيلىين اللغزاسيين ، ويعتبر الكثير من اخلافهم اليوم انفسهم اتراكاً .

يتحدث الباحث السوفييتى ييريميف ، مؤلف كتاب «الأنوجينيز الاتراك» عن اخلاف اليونان فى آسيا الصغرى الذين جعلوا التركية لغتهم رغم بقائهم مسيحيين .

« . . . » . «هنا كان الشعب الذى اردنا التعمق فى تاريخه ، فلا يد وان تصادف فى كل مكان ما يمكن تسميته بـ«لقية» القبائل والشعوب واتحادها واختلاطها» .

اليكم ما يقولسه العالم التمسواوى بريستير فى كتاب «عوج تاريخ النسا» :

«كانت بنية سكان المناطق ، التى شكلت النسا فيما بعد ، تتسم بتفرق وتتنوع فاقين . وبالنسبة ، فقد لاحظ الكتاب الرومان مراراً مدى سرعة اختلاط كل هذه القبائل ومدى صعوبة تمييز الدخلاء عن سكان البلاد الاصليين بعد انقضاء امد قصير . تصعب معرفة الشعوب التى تكون منها سكان النسا المعاصرة من حيث الاساس . لقد التقى هنا الشرق والغرب ، الجنوب والشمال ، ومن هذا الاختلاط للكليتين والاتروسكيين والابيريين والسلافيين والجرمانيين ظهور شى جديد تماماً» .

* * *

نبين لنا اتيوبيا طريقاً آخر لتشكيل الاندوس ، وذلك «من الشريعة الى الاندوس» . ان اكبر اندوس فيها عسكو الامهرة . واللغة الامهرية هي اللغة الرسمية فى هذا البلد ،

أقدم الدول المستقلة في أفريقيا وهي لغة التقاهم بين القبائل والانتوسات في اراض شاسعة هناك .

ولكن الامهرة ، كما بين التاريخ ، لم يكونوا منذ امد قريب نسبيا انتوسا ، بل كانوا محاربين يشكلون شريحة عسكرية في الامبراطورية الاثيوبية . وقد تلقى الامهرة قطعاً من الارض لقاء خدماتهم . وكان الملوك الاثيوبيون احياناً يقومون بعمليات خصيصاً للاستيلاء على الاراضى من اجل توزيعها على محاربهم .

لقد كانت للشرية العسكرية في اثيوبيا بالهبة نفسها التي نفذها عند الانكيين - الذين سبق وتحدثنا عنهم - مغازر خاصة ، وهي جعل المناطق التي ضمت تندرج في الدولة فعلاً ، تندرج اجتماعياً وثقافياً ، سياسياً ادارياً فحسب واذا انتشر اعلى نطاق واسع في الاراضى القديمة والجديدة ، جعلوا معهم لغتهم (وحسب من الفرع الجنوبي للغات الاثيوبية) وخصائص معيشتهم ودينتهم (المسيحية وايدولوجيا خدمة العاقل والدولة ككل) .

ان الكثير من مجموع هذه الملامح الثقافية قد اخذها سراء اناس القبائل التي اصبح جزء من اراضيها ملكاً جماعياً للامهرة او الجيران الذين خاضوا هؤلاء المحاربين .

ومن الجهة الاخرى ، فان تقسيم المجتمع الاثيوبي الى شرائح قد شاخ ولا شك في مستهل القرن العشرين ونسفته تطور البلاد الاقتصادى والاجتماعى . ويشير المؤرخون والاثنوغرافيون بحق الى ان العالم حول الامهرة تغير ، وتغير ايضا مضمون مفهوم «الامهرة» . وحدثت ظاهرة خارقة ولكنها حتمية على الأرجح ، حيث ان اتساع واتطامس الاطر الشرحية وانتشار الصفات والسمات التي كانت شريحة صرفاً في السابق (مثل الثقافة والايديولوجيا واللغة وغيرها) الى الجزء الاكبر من المجتمع قد تطابقت زمناً مع انهيار هذه الشريحة ، واكتسبت السمات الاجتماعية طابعاً سلالياً بالتدرج ، ولكنها اكتسبته من خلال قنأ وزوال الشريحة التي اتت منها .

هل يتبقى النظر الى هذه الحالة لتحول الشريعة الى اثنوس كواقع تاريخي تادر ؟ كلا ، يمكن التذكير بان الشعب ، الذى شكل النواة السلافية لدولة بولندا الافريقية ، قد ظهر على نحو سائل ، ويمكن تذكر تاريخ ظهور قوم الراجستانيين في الهند ، وليس من التادر ان يسمى الراجستانيون الى اليوم بالراجبوتيين ، على اسم شريحة اقطاعية ذابت منذ امد بعيد بين فئات السكان الاخرى ، مع العلم ان الراجستانيين جميعاً اخذوا جملة من الصفات المميزة لثقافة الراجبوتيين ومعيتهم .

* * *

انه لطريف انعكاس الاصل المختلط للانتوسات قس الاساطير . وانها لزيجات غريبة تلك التى يعقدها مؤسسو القبائل والشعوب في الاساطير والخرافات . لقد جعل التيبتيون ارومتهم قرداً ذكراً وروح الغاية امراً . واعتقد المنغوليون ان اصلهم من الذئب والاييل . واعتبر الاثراك القدماء ، الذين اسسوا في اوائل القرون الوسطى امبراطورية كبرى من البحر الاصفر الى البحر الاسود ، ان جدتهم ذئبة تزوجت انساناً . و«اتي» الاسقوثيون من اقتران هرقل والغناة الاقى ايندينا (وفق الاسطورة اليونانية) ومن زئسى وابنة نهر بوريسيفن ، الدنيبر (وفق الاسطورة الاسقوثية) . وما الالهة والايبال ، الحيوانات والناس الا ذكرى مجورة عن التكون القديم للانتوس الاولى - القبيلة كوحدة داخلية .

تتوقف الآن عند حالة خاصة في التاريخ ، وهي تكون الانتوس من «حطام كارثة» بشرى ، من المطرودين والهاربين والمبعدين ، لا من قبائل وجدت سابقاً وانتظمت داخلياً . والمثال المميز هنا هو ما يمكن تسميته «النموذج الرومانى» . كان الرومان شعباً ابياً يؤمن ايماناً راسخاً بما جاء في الاساطير حول التمتسا الالهى لتسليف رومولوس وريموس . ولكن الرواية الاسطورية لتاريخ الشعب الرومانى اوصلت

الينا ، ولما ، معلومات واقعية تماما عن اصل الرومان .
نقول الاسطورة : كما نعرف ، ان رومولوس وريموس
توامان ولدتهما كاهنة من اله الحرب . ان عم هذه الكاهنة
ايوليس جرد اخاه ، فوميتور ، من سلطنته الملكية الشرعية في
مدينة اليا . حينما ، اصبح رومولوس وريموس شابين جعبا جعسا
واحتلا على رأسه اليا ، واعادوا السلطة الى فوميتور ، اما
هما فغادرا المدينة التي استوليا عليها . لماذا ؟ هنا تعدى
الاسطورة فجأة ، عوضا عن التفسيرات الجغرافية ، تفسيرات
تاريخية صحيحة تماما . يتضح ان الجيش الذي احرق النضر
كان مكونا من عبيد قارين من شتى القبائل .

يكتب بلوتارك : «كان الشقيقتان امام هذا الخيار : اما
تسريح العبيد الفارين الذين اجتمعوا حولهما بكثرة ، وبهذا
يفقدان ملكهما كله ، واما تأسيس مستوطنة جديدة معهم .
في حين ان . . . سكان اليا لم يرغبوا في الاختلاط بالعبيد
الفارين ولا في منحهم حقوق الجنسية . . .» فاضطر قائدا
الرعاع الى الذهاب مع جيشهما الذي جمعهما «كيفما اتفق»
وتأسيس مدينة جديدة ، وهي روما . ثم «انتقل» سكان
المدينة واقاموا بنية اجتماعية على غرار المدن التي يعرفونها .
وفي غضون ذلك ، كما يقول بلوتارك نفسه ، اعتبر
في عداد الشريحة «النبيلة» للمدينة الجديدة سكانها القلائل
الذين استطاع كل منهم ان يسمى والديه وكان يعرف
اباه . هكذا صارت تقسم احيانا التسمية التي اغلقت لؤلؤة
«الارستقراطيين» ، وهي «باتريسيس» (من «باتير» - أب) ،
وتكفي هذه التفاصيل المميزة لتصور من هم الرومان الاوائل
عموما .

ما ان تأسست المدينة حتى اغلقت انها مدينة ملجأ :
العبد الذي يحتوى فيها لا يسلم الى سيده ، والمدين لا
يسلم الى الدائن ، والهارب المخل بالنظام لا يسلم الى من
يتعقبه . وعلان المدينة الجديدة ملجأ لا يشكل شيئا غارقا
في التاريخ الروماني واليوناني ، بل وفي التاريخ القديم
عموما : لقد كان تيزه . كما تقول الاسطورة ايضا ، يضع

تحت حمايته في اثينا كل من يلجأ اليه . (ودعا تيزه
مباشرة : «تعالى الى هنا ، اينما الشعوب جميعا» .)
وعكذا ، فان لسان الشعب يمكن ان يرسيه احيانا
اناس يتمولون ، من وجهة نظري «الرأي العام» . خليطا واضحا
لاناس بلا حسب ولا نسب .

ان «حادثة روما» قد تكررت في التاريخ كثيرا ، لن
نتحدث الآن عن حالات مماثلة اخرى في اليونان وايطاليا ،
اذ يكفينا هنا مثال اثينا وروما . مفتوحة الى احداث ابعد
واقرب عهدا في مختلف الاراضي .

في الالف الثاني قبل الميلاد طاور في مناطق السهوب
والصحارى الواقعة عند الحدود المشتركة للدول الكبرى
حينذاك ، مصر والدولة الحثية وبابل-اشور ، كيان سلائي
جديد اطلق عليه جيرانه اسم خابرو . وقد تكون عدا
الشعب من الفارين والمهاجرين من تخوم الدول المجاورة
ان الحروب المستمرة بين الدول الكبرى اثرت اكثر مما
يكون ، وهذا امر طبيعي ، في الاراضي القريبة من الحدود .
فذهب عدد من سكان سورية وفلسطين وما بين النهرين الى
البلاد والصحارى واتحدوا في قبائل ، وهؤلاء «اللاجئون»
لم يكتروا «اقرباء» ، وبالتدريج قوى الخابرو الى درجة
انهم صاروا يشكلون تهديدا للدول التي حرب اجدادهم
منها .

ظهرت في اواسط آسيا في القرن الخامس الميلادي
دولة كبرى يسمى المؤرخون شعبها بالجوچانيين احيانا
وبالجوان جوانيين احيانا اخرى .

يصف المؤرخ والجغرافي ليف غوميلف ظههور هذا
الشعب على النحو التالي : «لم يكن عند الجوجانيين ، كشعب ،
اصل سلائي واحد . . . في الازمنة المضطربة كان يوجد
دائما اناس حث بهم الفقر وتعرضوا للبيوت . . . الى
الشعب . . . كان يهرب الارقاء من جور الاسياد ، والفارون
من الجيوش ، والفلاحون المهددون من القرى النائية ، لم
يكن يجمعهم الاصل ولا اللغة ولا المعتقد ، بل الفقر الذي

حكم عليهم بالوجود المعدم والذي كان يرغبهم بقوة على تنظيم انفسهم .

في خمسينات القرن الرابع حكم بالاعدام على المدعو يوغريوي ، العبد السابق ، الذي كان يخدم في خيالة السيانبي ، وقد تسنى له الفرار الى الجبال ، فجمع حوله قرابة مئة فار مثله . وتوكرت للفرارين فرصة الاتفاق مع الرجل المجاورين فعاتبوا معهم .

اضطلع بدور جبار في تكون الشعب الاوكراني قوزاق زابوروجيه ذرو الشهيرة في تاريخنا الوطني . لقد كانت زابوروجيه (في المجرى الاسفل للدنيبر ، قرب ما يسمى بشلالات الدنيبر) احد اهم الحواجز الدفاعية لروسيا وبولندا ، بل يمكن القول اوروبا بأسرها ضد الامبراطورية التركية وخانية القرم التتارية الجبارتين في ذلك الحين . واصبحت زابوروجيه في ذلك الوقت ملجأ لكل من قرر التضامن واستطاع الوصول الى شلالات الدنيبر . ولم يأت الى هناك الاوكرانيون والروس وحدهم الذين هربوا من الملاك الروس والبولنديين ومن المحاكم والمخدم القيصريين والمكسين . بل كان «الزابوروجيون» يقبلون الناس مهما كان اصلهم شريطة ان يكونوا مستعدين لخدمة الوطن الجديد .

وظهر بين القوزاق قادمون من جنوب اوربا ووسطها . وبعثت الجمهورية القوزاقية الاهتمام والامل لدى الكثير من المحرومين من مختلف الشعوب والاديان . وقد كتب السفير البولندي في عام ١٦٠١ انه يوجد بين سكان زابوروجيه «الناس من كل لغة» .

ما الذي جذب الناس الذين فروا من موطنهم ، الى المشاعيات القوزاقية ؟ في الحقيقة ، لم يكن في الجزء الاعظم من اوربا الشرقية حينذاك مخرج آخر لانسان يرغب في التحرر من الاضطهاد الاقطاعي .

اضطلع قوزاق زابوروجيه بدور هام جدا في تضال الشعب الاوكراني ضد البيانات البولنديين الذين كانوا يهددونه ربما بدرجة اكبر من الاتراك والتتار الذين كانت

تتهمهم الاتاوة والعييد قبل كل شيء . لقد اوصيل البيانات البولنديون اضطهادا القن في اوكرانيا الى اوجيه (اشار المهندس الفرنسي بولان الذي ينس قلاعا في اراضي المملكة يطلب من الحكومة البولندية الى ان الاقتان يعيشون في اوكرانيا حياة «اسوا من المحكومين بالاضطهاد الشاقة في سجن التعذيب» .) . بالاضافة الى ان البيانات كانوا يريدون تجريد الشعب الاوكراني من ثقافته .

لم يصبح القوزاق شعبا منفصلا ، بل حافظوا على الصلة بوطنهم ، لانهم كانوا ينهلون منه الجزء الاعظم من راحدهم . ولكنهم اضطلعوا بهذا الدور الهام في التاريخ الاوكراني . اذ اصبحت زابوروجيه احد المراكز الايدولوجية لتطور وتراص الشعب الاوكراني وكان وجود زابوروجيه نفسه بالنسبة الى المواطنين الاوكرانيين رمزا يشير الى ان الشعب الاوكراني يسير نحو التحرر والوحدة .

يتبقى القول ان كلمة «قوزاقي» نفسها كانت مقرونة بالنسبة الى الغرباء ، ولا سيما الروس والناس القادمين من الشرق التركي . في حين انها لم تكن قبل ذلك يقبل مدعاة للتعجب والاطراء ، اذ كانت تعني مجرد انسان يلا بيت ولا عشيرة .

اتت كلمة «قوزاقي» الى اللغتين الاوكرانية والروسية من اللغات التركية ، فمن المعروف انه كان لروسيا منذ القديم الكثير من العبيات الاتراك : الخزر والبشنيغيين والبولوقيين ، بالاضافة الى التتر . . . والقوزاقي هو انسان يلا بيت ، شارد ، فقير ، طريد ، هو الذي «لا يملك شئ» ، وكلمة «قوزاقي» تطابق من حيث معناها الاصلي الكلمة الروسية القديمة «ازغوي» («طريد») ، اي الانسان الذي فقد مكانه في المجتمع .

... . كلنا يعرف الآن ان الشعب الاميريكي ، شعب الولايات المتحدة الاميركية ، يضم العديد من المجموعات السلافية المختلفة المنشأ . فهناك سويديون وإيطاليون

وزنوج ومكسيكيون وصينيون ، او بالاحرى : اميركيون من اصل سويدي وابتالي وصيني .

ان الشعب الاميركى من وجهة النظر الانثروغرافية العلمية شعب «نوذجي» سلاليا بلا استثناء . وهذا ما تمكن رؤيته بوضوح كافى من خلال ذلك العدد المميز نسبيا من الاميركيين الذى يرمز اليه بالاحرف الاربعة : WASP - وهى الاحرف الاولى من الكلمات الانكليزية : «بيض» - «انكلوسكسون» - «بروتستانت» . حتى الرئيس الراحل جون كيندى ، مثلا ، لا يمكن ان يعزى اليهم بصفتهم كاثوليكا .

ان التحليل التاريخي : الانثروبولوجي ، السلالى ، الاجتماعى يبين بوضوح الاصل المختلط لهذه المجموعة ايضا ، مختلط من الناحية الدينية والترواح الاخرى . تبدأ بالتدريج من النهاية ، بأسلوب علمى صرف ، فى ايماننا ينتقل سنويا ما بين ٣٠ و ٥٠ الفا (حسب مختلف التقديرات) من الغلاسيين ذوي البشرة البيضاء الى الولايات الشمالية ، حيث يبقى اصلهم مجهولا ، ولذا يعتبرون «بيضا» . هذه العملية تفسر ، بين امور اخرى تناقضا غير مفهوم للوهلة الاولى بين حقيقتين احصائيتين صادقتين بالدرجة نفسها . فمن جهة ، نجد ان ممثلى الاقلية الزنجية (التي يعزى اليها «حسب التقليد» - فئة «تقليد» كهذا فى الولايات المتحدة - حتى الناس الذين فيهم واحد على ١٦ او على ٢٢ «من الدم الافريقى») يملكون ، وسطيا ، اولادا اكثر ممسا لدى الاميركيين «البيض» ، ونجد ، من الجهة الاخرى ، ان نسبة هذه الاقلية بين سكان الولايات المتحدة ان تزد فى العقود الاخيرة بالدرجة التى يفترقها الطرح الاحصائى الاول . والتناقض فى الاحصاء يزول الى درجة كبيرة باننتقال الغلاسيين المولودين الى فئة سلالية اخرى ، اى بالتحرك السلالى الداخلى وبتنوع الاصل السلالى . وقد نضى على هذه العملية اكثر من مئة وخمسين مئتين سنة بكثير . ويمكن ان نذكر كشرح سافر لهذا الموضوع احدى روايات سبنكلس

لويس ، احد الاميركيين الناجحين الفاضلين من فئة WASP المزعومة اياها وتعمق فى تسببه ليستوضح ما اذا كانت كنيته النشيلة الى اقصى حدود مشتبه الى ان اصل أسرته من الملوك . ولكن عوضا عن ان يمتد جذر شجرة تسببه الى ملك بريطانيا ، او الى اميرة ان اسوا الاحوال ، اتضح انه يمتد الى زنجى ليس وجيها بالمرءة .

اذا اخذنا فى الاعتبار انه فى خلال فترة تقرب من مئتي سنة يمكن لآب ثلاثة اولاد يغدو اخلافه جميعا آباء لثلاثة اولاد وسطيا ، ان يصبح سلفا لستة آلاف شخص ونيف ، وفى غضون ثلاثمئة سنة يغدو سلفا لثمئة وخمسين الفا ، يسعمل ادراك ان زواجا مختلطا واحدا يؤدى ، من وجهة نظر العصريين ، الى آثار مروعة تماما .

ولكن ليس التزوج وحدهم من اميركا هم الخارج WASP . ان الزواج بالاييرلنديين والاطاليين واليهود والفرنسيين والسلافيين والالمان كان اقل صعوبة مما لا يقارن «من الزواج بالزنوج (او انه لم يكن صعبا على الاطلاق) . لنتوجه الآن الى المسألة من وجهة نظر «ثقافة الدين» .

ان اولاد هذه الزيجات كانوا يعتنقون بغالبيتهم دين واحد الابوين الاكثر امتياز ، فكانوا ينتقلون الى فئته على نحو تلقائى تقريبا . وكان يعزى الى الانكلوسكسون البروتستانت منذ البداية البروتستانت السكوتلانديون والبروتستانت الايرلنديون . مع ان هؤلاء ، وارثك ليسوا انكلوسكسونا . واتخيرا ، فحتى الانكليز «الاصلاء» الذين قدموا الى اميركا مع اخلاف شعوب كثيرة اضلعت بدورها فى التاريخ السلالى لجزيرة بريطانيا .

ان اولى المستوطنات فى شمال الولايات المتحدة الحالية اسمها البريتانيون - اتباع احد المذاهب البروتستانتية التى كانت تتعرض للملاحقة فى انكلترا ، واستيطان الانكليز فى ولاية بنسلفانيا دشمنه المهزوز الذين كانوا يلاحقون بقسوة فى انكلترا وخارجها .

ان فلاحى ايرلندا المحرومين من الارض والحرفيين

والعمال والفلاحين المعدمين من ألمانيا والسويد والنمسا -
المجر كأدوا ان يشكلوا في القرن التاسع عشر نصف السكان
الجدد في الولايات المتحدة . وآمال هؤلاء الناس جميعا في
الحرية والحياة الجديرة بالانسان غالبا ما كانت هنا ايضا
سرايا خاداة . ويعرف القرن التاسع عشر في اميركا مذايح
للايرلنديين والصيبيين واليابانيين وغيرهم .

لقد تحدثنا اعلاه عن نموذج تشكل الشعوب من سكان
يختلفون سلاليا اشد الاختلاف ارغمتهم على الاتحاد الظروف
الاجتماعية الناشئة . بيد ان التاريخ قلما يصادف تجسدا
لنموذج نظري معتدل يشكله الصرف . يتكون اساس سكان
البرازيل من المستعمرين البرتغاليين والزنوج الذين جلبوا
الى البلاد كعبيد والهنود - السكان الاصليين . بيد ان
موضع امتياز البرازيليين الوطني هو ان بلادهم كانت منذ
القدم تستقبل في اراضيها الشرايين والمعروفين من كل
ارحاء الدنيا . ينبغي هنا ان نفي البرازيل حقها من التقدير
كبلد خلصت فيه التلاحنات القومية ، ولا سيما اذا قورن
بالولايات المتحدة الامريكية ، الى الحد الادنى . هناك لا
يشكل التعليم المختلط بين «البيض» و«السود» معضلة ،
ولا توجد هناك القاب ازدراء للمجموعات السلالية من هذا
النمط او ذاك .

وصف الكاتب الكوي اليخو كارينيتير في روايته
«تقلبات الطريق» بلدا اميركيا لاتينيا نموذجيا . حتى حكامه
المولغون في الرعية يتقون شأورا ام ابوا ضد العنصرية ،
ولو لهذا السبب البسيط ، وهو ان مظهرهم الخارجى يشم ،
كقاعدة عامة ، عن اصل مختلط .

اما كيف تتحدد القبائل فامر تمكن رؤيته انطلاقا من
مثال تاريخ الرومان المتواصل . ان العبيد النازين ، الذين
منحوا رومولوس وريموس القوة ، اصبحوا بلا نساء .
ووجدوا المخرج في غزو قبيلة السابيتين المجاورة وسبي
الفتيات السابيتيات . وردا على ذلك يبدأ السابيتيون
الغاضبون المهاون حربا على الرومان ، وقد مالت كليتهم في

المعركة وكان يبدو ان الرومان مقضى عليهم بالهزيمة . . .
في هذه اللحظة تندفع السابيتيات بين المتقاتلين . لقد
احبين ازواجهن واردت ان يصلحن بينهم وبين ابائهن
واشقائهن . في ميدان المعركة عقد اتفاق ودى على ترحيلهم
اللائن والسابيين في شعب واحد يجب ان يتكلم اللاتينية ،
ولكن عليه ان يتخذ احدى تسميات السابيين اسما له .
واصبح اللاتين كويريتين .

هذه الواقعة «الرومانية» تشبه الى درجة مذهمة
الحوادث التي جرت في مستهل القرن التاسع عشر في
افريقيا ، في كينيا . هنا تعيش في جبال مارسايت قبيلة
دينديل . انها تعرف اصلها تماما . منذ خمسة اجيال قدمت
الى هنا عبر ارض يسكنها المزارعون «المبرو» ومجموعة
مجايرين من الصومال ابندما عن الوطن جيران اقوياء . وقد
سمى الهاربون بالقوة زوجات لهم ممن غير (سابيتيات !)
واستوطنوا على حدة ، فظهرت قبيلة جديدة .

ان هؤلاء «المنشقين» ، وقد اصبحوا في ارض غريبة ،
يمكن لهم ، طبعاً ، ان يتصوروا في سكانها . ولكن ثمة
احتمالات اخرى ايضا . من المميز جدا مصير التروجيين في
القرون الوسطى ، اخلاف الذين قادروا يوما وطنهم الى الابد .
في وقت مضى كان الفيكينج التروجيون يبتون الرعب في
اوربا وافريقيا الشمالية وآسيا الغربية ، ثمة اقصيص
مدهشة عن جرأة وقوة وقسوة قراصنة البحر هؤلاء ، الذين
كانوا يحسبون القتال في البر ايضا . كان طاقم سفينة واحدة
ينطلق احيانا الى القتال ضد جيش بأكمله .

ولكن لا تخمنا الآن بسالة التروجيين القدماء ، بعد ذاتها ،
بل كونها قادتهم الى انكثرا وشمال غرب فرنسا وصقلية
وارض كثيرة اخرى . من ايرلندا الى بينزلة ، حيث لم يكن
من النادر ان يستوطن الفيكينج فيها الى الابد . لقد اسسوا
ممالك وامارات ودوقيات . . . ولكن اينما استوطن
الترومانديون وسط الشعوب الاخرى ، كانوا في نهاية
المطاف يتدمجون مع هذه الشعوب في كل واحد . نورماندي

اليوم مجرد منطلة في فرنسا ، ولا شيء ، في صقلية او ايرلندا يذكر بان النورمانديين حكموا جزءا كبيرا منها . ان القبائل والشعوب التي اغضعوها في الازمنة الغابرة كانت قسي «بيتها» على اي حال ، وحتى الجحرا كانت تساعدها . لقد احرز المهزومون النصر ايضا على المنتصرين حينما اصبحت اللغة والثقافة سلاحا وميدان معركة . ولكن في الجزيرة الشمالية ايسلندا لم يقابل النورمانديون شعبا يستطيعون اغضاعه ، ليصبحوا جزءا منه فيما بعد .

* * *

تسمح لنفسينا هنا باستيراد مسن نوع خاص للحديث عن حالة نادرة للغاية : يعرف المؤرخون بدقة انسانا محددا اصبح «ابا مؤسسا» لشعب كامل ، هذا المحظوظ يدعونه انغولفور ارنارسن (اي ابن ارنار) . لقد انتقل مع اولاده واسرته - كملاح تروجي حقيقي - في اواخر القرن التاسع الى بلد بعيد ، الى ايسلندا . وحسب عادة النرويجيين حينذاك اخذ معه في جولاته البحرية عمودين مقدسين كانا ينتصيان في بيته عند مقعد الشرف ، ولدى الاقتراب من ساحل الارض الجديدة قذفوا بالعمودين الى البحر وقرروا الاستقرار في الشاطئ الذي تقذف اليه الامواج العمودين . بعد ثلاث سنوات وجد مرافقو انغولفور هذين العمودين بعيدا عن مكان الاستيطان الاول . ولكن انغولفور انتقل الى المكان الذي وجدوا فيه العمودين : وهما لا يزالان باقيتين الى اليوم في شعار العاصمة ايسلندية ريكيافيك الذي ينتصب مكان استيطان انغولفور ارنارسن .

ان «كتاب استيطان البلاد» ايسلندي يذكر ايضا اربعة عشر من المستوطنين الاولين اللاحقين ويتحدث عن حياتهم . وتضم الملحة ايسلندية ذات الشعبية «ساعات عن الايسلنديين» وتقصص عن الايسلنديين» اثني عشر مجلدا .

وفيها ذكر لقراءة سبعة آلاف شخص عاشوا بين عامي ٩٣٠ و٩٣٠ .

يكتب الاختصاصي السوفييتي في الشؤون السكندنافية ستيلين - كامينسكي : «ان «ساعات عن الايسلنديين» تشكل معا ما يشبه «كوميديا انسانية» يكاد ان يكون فيها دور او ذكر لكل «المواطنين النشيط» في ايسلندا في القرن الاول من «السلطة الشعبية» ، او ، بتعبير آخر ، كل ايسلندي في ذلك العصر ، باستثناء العبيد والخدم والحشم» . وهكذا يشكل الايسلنديون حالة فريدة من ناحية اخرى ايضا . ولعلهم الشعب الوحيد الذي تستطيع ان تعرف املاحه بالاسم على امتداد احد عشر قرنا يشمل هذا العدد . لا نستطيع ، طبعاً ، ان نعرف الاسلاف كلهم ، ولكننا نعرف نسبة عالية منهم بحيث يشكل التاريخ ايسلندي مستودعا دائما بالنسبة الى الانثروبولوجيين والارخولوجيين والاختصاصيين في الادب . ويعتبر انه يعيش الآن في ايسلندا الجيل الثاني والعشرون او التاسع والعشرون للشعب .

لقد اوردنا امثلة على نموذج تشكل الشعوب والانثوسات الذي سمعنا لنفسينا بتسميته بالنموذج «الروماني» ، نموذج تشكل الانثوس في الغالب من ادبي المجموعات والفئات المختلفة سلايا واجتماعيا التي تضطرها الى الاتحاد عوامل تاريخية ملموسة ، اقتصادية في اساسها .

قواعد الانقسام

ان كل النصول التي قراتوها كانت تنظر من حيث الاساس في «امثلة تكون» الانثوسات . ولكن ثمة دور لا يقل عن ذلك اهمية في العمليات السلاية تضطلع به عوامل التمايز السلاي ، انقسام الانثوسات وتفككها الى عدة انثوسات اخرى ، وكذلك انفصال مجموعات من الناس عن الانثوسات ليشكل اختلافات انثوسا جديدة فيما بعد . (بالنسبة ، لن تنس ، طبعاً ، سواء في عرضنا هذا او فيما بعد ان العمليات

السلالية ذات الطابع الانقسامى تقتزن عادة بعملية توحيده) .

ان اغلب سكان الارجننتين هم احفاد للاسبان ، ويمكن اعتبار الشعب الارجننتينى متفرعاً من الشعب الاسبانى . ويرتبط الياقوتيون من حيث المنشأ بقبائل غدت الاساس للشعب البورى المعاصر . ان جزءاً من هذه القبائل تحرك منذ سنوات عديدة الى الشمال ، مخلقاً وطنه الاصلى «ووا» الجبال والغابات» . والاسترايون هم اخلاف الانكليز اللغ . الترحال والتجول . . . لكم كانا كثيرين فى التاريخ . . . عاش ثلاثة ائمة : ليخ وتشيج وروس . تكاثرت ذريتهم وضاق بهم المكان ، فقرروا التفرق الى اراض جديدة وقطعوا على انفسهم عهداً بتدكى القربى . وكانوا جرى حينذاك انقسام الشعب السلافى الواحد ، هذه الاسطورة الفت بعد الحدث نفسه بمئات السنين ، ولكن هذا التفسير ، المألوف والبسيط للوحدة الاولى ، لا يزال مع ذلك يشرح شيئاً للسلافيين وغيرهم .

هذه الاسطورة تشبه اسطورة اخرى من الكتاب المقدس عن افتراق ابي المؤمنين ابراهيم وابن اخيه لوط . عند مربى الماشية هذين تكاثرت المواشى ، فاخذ رعاتهما يختلفون على المراعى . وفى نهاية المطاف قال ابراهيم للوط : «لا تكن مخاصمة بينى وبينك وبين رعايتى ورعاك ، لاننا نحن اخوان . اليس لك الارض امامك ؟ » ان ذهب شمالاً ، فانا يمينا ، وان يمينا ، فانا شمالاً» .

نعم ، حينما تكون الارض الغالية او الغالية نسبياً ضامة تنقسم العشائر والقبائل وتفتقر الى مختلف الجهات كما تريد وبدون تعقيدات خاصة : «اليس لك الارض امامك ؟» ولكن هذه الامثلة كلها على ظهور شعوب جديدة نتيجة تفرق الانوسات الاقدم ، ومن بينها مثل الكتاب المقدس ، تبدو قريبة العهد اذا تذكرنا ان هذا الانقسام كان فى المجتمع البدائى منذ اقدم الازمنة الطريقة الرئيسية لتشكيل الانوسات الجديدة .

كانت المجتمعات البشرية الاولى تنقسم الى اجزاء تفرق الى مختلف الجهات لكي تسكن الكوكب فى نهاية المطاف . وكل جزء من الوحدة السابقة كان يزداد اختلافاً عن الآخر بالتدرج ، سواء من حيث اللغة او الثقافة ، ولا يعود الناس المنتسبون الى كل جزء يعتبرون اقرباءهم البعيدين منهم . . . هذه العملية تجرى منذ زمن بعيد جداً ، وهى لم تنته فى العصور اللاحقة .

لعل من الامثلة الكلاسيكية على التمايز السلاى تاريخ ظهور الشعوب السلافية الشرقية الكبيرة الثلاثة ، الروسى والاوكرانى والبيلوروسى ، على اساس الشعب الروسى القديم ، ومن ناحية اوسع : تشكل الشعوب السلافية كلها .

وكما يقتضى علماء اللغة ، كانت القبائل التى ينمى ان ينشأ منها فيها بعد الجرمانيون والسلافيون والبيلطيون تعيش معاً منذ ثلاثة آلاف سنة وتب أو اربعة آلاف او خمسة آلاف سنة فى اراض صغيرة نسبياً وتتكلم بلهجات لغة واحدة . وفيما بعد «تفرقت» اللهجات واصبحت لغات منفصلة ، وظهر الجرمانيون والسلافيون والبيلطيون لأول مرة ، اى اننا هنا امام حالة انشطار تاريخية نموذجية للشعوب - الانوسات جميعاً ، وهى تشكل القبائل - الانوسات الاولى فى اقدم الازمنة .

كتب المؤرخ الروسى البارز كلوتشفسكى يقول : «ان الانثوغرافيا التاريخية التى درست اصل كل هذه الشعوب (القديمة - ي . ب ، ز . ب) قد حاولت استيفاح اى منها كان ينتمى الى قبيلة «كلينه» وايها الى قبيلة جرمانية او سلافية . يبدو ان ثمة شيئاً من الخطأ من الناحية المنولوجية فى مثل هذا الطرح للمسألة . هذه المجموعات القبلية التى تنقسم اليها السكان الاوربيين الآن ليست تقسماً ازلياً بدائياً للبشرية . بل ان كلانها تكون واستقر تاريخها فى حينه» . لم يكن فى وسع احد فى «زمنة البعيد» ذلك ان يشير فى الغارطة ، التى لم يكن يوجد من يضعها ، الى المكان الذى يعيش فيه السلافيون او الجرمانيون او الكلتيون ، مثلاً . .

بعد متى الوف السنين أصبحت مسألة وطن السلافيين الأول واحدة من عقد المسائل .

يعيش السلافيون الآن من بحر الادرياتيک في الجنوب الغربي الى بحر البلطيق والمحيط المتجمد في الشمال ، ومن الاودير في الغرب الى المحيط الهادي في الشرق . ويشكل السلافيون قرابة ثلاثة ارباع سكان الاتحاد السوفييتي . وكذلك فان الجمهوريات الاشتراكية بولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا وبلغاريا يسكنها السلافيون من حيث الاساس . وعند برلين مباشرة ، على نهر شيريبه ، استطلاع شعب الملوچينشابين السلافي الصغير ان يحافظ على اصلته . يتنقى القول على الفور ان مسألة اصل السلافيين كانت على امتداد مئات السنين معقدة جدا ولا تزال . ولعله يبدو من الصفحات السابقة في هذا الكتاب مدى صعوبة حل الغامض الماضي بالنسبة الى المؤرخين . وليس ثمة ما يدعو الى العجب ان للرد على هذا السؤال اشكالا متعددة .

... بين الذين تفرقوا عن برج بابل الذي لم يكتمل بناؤه تجسد في الشكل الروسي القديم لهذه الاسطورة الايليريين - السلافيين عوضا عن الايليريين . وقد جاء فيها ان الايليريين - السلافيين تنقلوا اول الامر في ما بين النهرين ، ثم وصلوا عبر بلاد الكلدانيين واسميا الصغرى الى بحر مرمرة وعبروه الى البلقان واستقروا هناك على الدائوب . ومن الدائوب تفرقت بعض الفروع السلافية الى اراضيها .

لم تكن الشعوب السلافية تذكر «البليدة البائدة» الا نادرا ، ولكنها بقيت هويلا تعتبر اراضي الدائوب ووطنها للسلافيين . وتربط الاساطير المتأخرة بمختلف النقاط في وادي الدائوب وكذلك ، بالنسبة ، بمختلف النقاط على شاطئ الادرياتيک ، وفي قاترا والكربات حكاية الانشاء الذين تفرقوا الى مختلف الجهات ؛ تشيخ وليخ وروس الذين سبق وتحدثنا عنهم ، والذين يتحدر منهم التشيخ والبولنديون والروس .

كل هذا متبع جدا وهام جدا لفهم عسائر السلافيين . . .

ومع ذلك فان اغلب المؤرخين مجمعون الآن على ان وادي الدائوب لم يكن وطن السلافيين الاول . ومن الحجج الدامغة كون الرومان لم يعرفوا شيئا عن السلافيين على الدائوب . هذا في حين ان الرومان استولوا في مستهل القرن الاول الميلادي على الجزء الاعظم من منطقة الدائوب .

احيانا يعتبر الكرات وطن السلافيين الاول . وهناك ايضا يشاققون الاساطير عن اقتراف الاخوة ، مؤسس القبايل ، والامر الرئيسي هو ان الكرات يبدو مغريا جدا على خارطة اوروبا كمركز جغرافي للاراضي السلافية . الى الشرق منه يعيش السلافيون الشرقيون ، والى الغرب السلافيون الغربيون ، والى الجنوب السلافيون الجنوبيون .

يميل زملازنا اللغويون الى نفى فكرة ان الكرات كان وطن السلافيين الاول ، فلكثير من النباتات المميزة للكرات تسميات غير سلافية .

لقد بحث عن اسلاف السلافيين ايضا على شاطئ بحر البلطيق ، بين عصبي ليبان ودفيئا الغربي . وبذلت محاولات لاجراء بحث مستقيم يصل السلافيين باسكوثيين منطقة البحر الاسود الفلاحيين ، الذين كانوا يزودون اثينا القديمة بقمحهم ، وهذه الزوايا لم تحظ ايضا بدعم واسع .

لقد وجه علم اللغة ضربة ساحقة الى الكثير من الفرضيات . لم تكن توجد في اللغة السلافية القديمة ، كما يبدو ، كلمات تعني اغشاب السهوب او الشعاب الجبلية او الكتلان الساحلية او امواج البحر . ولكن لماذا ؟ من الواضح ، لعدم الحاجة اليها . اي ان اقدم السلافيين لم يعيشوا في السهوب والجبال ، ولم يكن وطنهم الاول واقعا على البحر . ولكن لغتهم كانت حافلة بورفة من الكلمات التي ترمز الى الغابات والسهوب ذات الاحراج ، الى اغشايها واشجارها وحيواناتها وحشراتا . ولا بد ان الارض السلافية القديمة كانت غنية بالانهار والبحيرات والمستنقعات .

يكتب المؤرخ والارخولوجي السوفييتي سيدوف : «يتبقى الانراض ان السكان السلافيين الاوائل قد استخدموا في

الفترة الاولى من تاريخهم التسميات السابقة (الهندية الاوربية والاوربية القديمة) للمياه . ولا شك في ان نشوء لغة السلافيين اقترن بايجاد تسميات جديدة للمياه . وبالتالي ينبغي البحث عن الوطن السلافي الاول لاقدم المهد في ميدان التسميات الاوربية القديمة للمياه . ففي عملية استيطان الاراضي الجديدة فقد اخذ السلافيون يلقون تسميات سلافية خاصة على الانهار والبحيرات .

ثمة في اللغة السلافية القديمة كلمات ذات اصل ايراني (استوثي - سارماتي) وبعلقي . اي ان الايرانيين والبلطيين كانوا جيرانا للسلافيين . ولكن لا توجد كلمات ايرانية في اللغات البلطية . فمن فصيل البلطيين عن الاستوثيين والسارماتيين ؟ الجواب يفرض نفسه : السلافيون .

وهذه سلسلة اخرى من الحجج اللغوية .

يبدو للوهلة الاولى ان في الوطن الاول لهذا الشعب او ذلك ، عند منابعه ، كما يقال ، يجب ان نقيس الخصائص القديمة نسبيا للتركيب اللغوية ، ويجب ان يضادف ههنا المزيد من التسميات التي تملأ على النعوت المرتبطة باسم هذا الشعب .

ولكن الوضع عكس ذلك في الواقع . في ياقوتيا كانوا حتى امد قريب يتكلمون في الحياة اليومية مستخدمين تراكيب القرن السابع عشر وبعض الكلمات المنسية منذ زمن بعيد في موسكو او في منطقة الفولغا . وهذه القاعدة الغربية تنطبق على كل اللغات . اذا ان اللغات ، لدى امتثال عدد من الناطقين بها ، تصبح في المكان الجديسد كشيء محتجب . ففي جزيرة بيكتير في المحيط الهادي ، الجزيرة التي استوطنتها في القرن الثامن عشر بحارة بريطانيون فارون ونساء بولينيزيات ، يتكلم السكان الآن بلهجة مهجورة من لهجات اللغة الانكليزية . وينطبق هذا على الكلمات ومفردات اللغة ، اما الخصائص

القديمة للفظ (نظام اللغة الفونيتيكي حسب المصطلح العلمي) فتبقى على نحو افضل ، كقاعدة عامة ، في اقدم الاراضي :

في مناطق الاستيطان الجديدة يتجلى تأثير لغة سكانها الاوائل بقوة في اللفظ .

وهكذا ، فحسب معطيات اللغوي هارتينوف ، تلاحظ ملامح اللفظ السلافية الاولى بشكل خاص في وسط بولندا ، وتنجلي الى الشرق على نحو اضعف ، وتزول اطلاقاً عند الشعوب السلافية الجنوبية على الدانوب وفي البلقان . ولكن بقيت في اللغات السلافية الشرقية والجنوبية عناصر اقدم للمفردات . وينجم عن هذا ان وطن السلافيين الاول يقع في منطقة فيسلا . ان تحليل الوسط الجغرافي لسكني السلافيين جعل جملة من الباحثين يستنتجون ان اقدم ارض سلافية هي الواقعة بين نهر فيسلا وادريه .

ولكن لا يوجد اجماع على هذا الاستنتاج . ومع ذلك فان الاستنتاجات العامة للغة حول منشأ السلافيين يمكن صياغتها على النحو التالي .

منذ الالف الاول ، وربما منذ نهاية الالف الثاني قبل الميلاد (ثمة خلاف على تحديد المواعيد) بدأ تمايز اللغة السلافية الاولى عن اللغة الاوربية القديمة المرتبطة بانفصال السلافيين الاوائل عن الكلتيين الاوائل والجرمانيين الاوائل والايطاليكيين الاوائل . ويفترض بعض الباحثين انه انقرضت اول الامر لغة بلطية - سلافية انقسمت بدورها منذ الفين وخمسمئة سنة تقريبا الى اللغتين السلافية الاولى والبلطية الاولى .

بقيت الوحدة اللغوية السلافية الاولى حتى بداية هجرة السلافيين الواسعة في الفترة من القرن الخامس الى القرن السابع بعد الميلاد . ويفترض لغويون مرموقون آخرون ان تفكك الوحدة اللغوية السلافية جرى في فترة اقرب الى زمننا ، فيعتبرون انه لم يبدأ قبل القرن التاسع الميلادي .

ومهما كان الامر ، فان الوحدة السلافية قد تفككت بعد ان تقدم السلافيون في الغرب الى نهر الالب ، بل حتى بعد ان عبروه ووصلوا الى المجرى الاعلى للدانوب في الشمال

والشرق ، وشغلوا الجزء الأكبر من سويل أوروبا الشرقية الكبير ، واستوطنوا في الجنوب كل شبه جزيرة البلقان تقريبا . مع العلم ان المستوطنات السلافية في اوائل القرون الوسطى ظهرت سواء في آسيا الصغرى او القفقاس او إيطاليا ، او حتى في اسبانيا .

والاختصاصيون مجمعون نسبيا في صدد الثقافات القديمة التي ينبغي اعتبارها سلافية ، ولا سيما في فترة الالف والخمسة سنة الأخيرة . وعلى أي حال ، فإن جملة من المعطيات الاثنيولوجية تؤكد الفرضية اللغوية القائلة بأن وطن السلافيين الاول يقع بين نهري فيسلا واوردير . ولكن النتائج الأخرى للحفريات تشير الى جنوب وجنوب شرق هذه الأراضي .

أدى الأثنيولوجيون قسما كبيرا في معالجة هذه القضية . وهذا القسط قيم بشكل خاص لانه مرتبط باقدم فترة لتطور السلافيين ، ولانه كان من عادة الكثير من ثقافات أوروبا الشرقية والوسطى حرق جثث الموتى ، ولذا لا يوجد تحت تصرف العلماء الا مواد قليلة للغاية .

في عام ١٧٧٣ صدر مؤلف اليكسييفسكا «أثنوجيتيز السلافيين الشرقيين حسب معطيات الأثنيولوجيا» . ولكن الكتاب اوسع من تسميته . تبذل هنا محاولة لاستيضاح منشأ السلافيين عموما ، وتسعى الأثنيولوجية الى تعيين وطنهم الاول بطرائق علمية ، «بيئت نتائج تحليل المادة الكرايولوجية العائدة الى مختلف المجموعات السلافية في أوروبا تشايبا كبيرا للبنية الأثنيولوجية للمجموعات السلافية واختلافها عن الجرمانيين وتشابهها من بعض النواحي مع الشعوب الناطقة بالغات البلطيقية والفنلندية . عندئذ يسا كل المجموعات لاستنتاج وجود رابطة أثنيولوجية محيطة للسلافيين تكونت في منطقة ذات ارتباط بالأراضي التي كانت تسكنها الشعوب الناطقة بالغات البلطيقية والفنلندية» . ينبغي القول ان هذه الاستنتاجات ليست هامة فحسب ، بل هي ايضا عاقبة الى درجة كبيرة . ففي كل انوس تقريبا

توجد ، كما سبق القول ، نماذج أثنيولوجية مختلفة ، ولا بد من تحليل دقيق جدا لكي يمكن إيجاد سمات مميزة فسي المظهر الخارجي لاثنوسين قريبين جغرافيا وأثنيولوجيا . في القرن السادس الميلادي (وربما قريبا من ذلك) بدأ السلافيون بهجرات على الامبراطورية البيزنطية الهيبية . وقد أرسل الامبراطور يوستينيان فسي مستهل القرن السادس جيشا ليحمي منهم المعابر على الدانوب ، اذ يبدو ان السلافيين في ذلك الوقت كانوا قد شغلوا شتات الاراضي الواقعة شماله . ثم شغعت قسوى الامبراطورية ، فصار السلافيون يشنون المزيد والمزيد من الغارات على أراضي الامبراطورية ، ثم بدأوا بالاستقرار في البلقان ، واقامت بيزنطة لحماية عاصمتها اسوارا طويلة ، او «منطقة محصنة قوية» ، حسب التعبير المعاصر . بقيت التسلسلية آمنة ، اما السلافيون الباقون هنا فتحركوا الى الجنوب ، وإلى الغرب ، وإلى الشمال على طول الشاطئ الغربي للبحر الاسود الذي لم يكونوا قد «قبضوا على ناصيته» بعد . وفي الغرب وصل السلافيون الى بحر الادرياتيک . وفي الجنوب احتل السلافيون جزءا كبيرا من اليونان .

في القرن السابع ظهرت في البلقان اول دولسة للسلافيين ، على ما يبدو ، وهي سلافيا . لقد كانت امارة ذات اراض قليلة تسميا ، وحافظت على استقلالها امدا قصيرا نسبيا . ولكن الدولة السلافية – البلغارية التي ظهرت في اواخر القرن السابع تعيش الى الآن (مع بعض الاقطاعات والحق يقال) على الرغم من الغزاة الذين لا عد لهم ولا حصر . ان خضاع السلافيين للبلغان لم يرض ، بلعا ، السكان المحليين في هذه المناطق . يبدو ان البيزنطيين لم يكونوا يشيرون عادة الى قسوة السلافيين ، بل ، على العكس ، الى حبهم للسلام مقارنة بالهراجرة الآخرين . وكان السلافيون في الغالب «مستقرون» قسي الارض فورا في المناطق التي يحتلوها ، ولم يكونوا يسعون الى مجرّد الغزوات لنيل الغنائم . وفي ذلك الوقت كانت مناطق كثيرة من البلقان قد

أصبحت خالية من الناس بعد حملات الغولبين والهن .
وفي الفترة نفسها كانت تجرى في أوروبا الشرقية عملية
تكون الشعب الروسي القديم التي استمرت قرونا . وهنا
أيضا لم يؤد تنقل السلافيين الا الى اصطدامات مسلحة قليلة
نسبيا مع الذين كانوا يسكنون هذه المناطق في السابق -
إولا ، تغلب السلافيون ، ولا سيما في الشمال والشمال
الشرقي ، في اماكن قليلة السكان نسبيا . والسلافيون
انقسموا لتغلبا بمجموعات صغيرة - وعلاوة على ذلك ، كانوا
فلاحين بالدرجة الاولى ، وحاجة الفلاحين الى الارض اقل بكثير
من حاجة الصيادين او من بي المشاة الرجل .

ان الالف الاول الميلادي هو زمن التطور العاصف
للتكنيك والثقافة عند التكنيس من الشعوب ، لقد جلب
القادمون السلافيون معهم منجزات التكنيك والثقافة : من
الطراز الجديد لعدة الخشب الى الحرف الجديدة التي كان
يجعلها بعض الجيران . واضطلع بدور هام ايضا كون
الحبوب الجديدة ، الجودار ، صارت مع قدم السلافيين
تزرع بنجاح في مناطق شاسعة من سيبيريا الشرقية .

لقد ظهر السلافيون في اراض غائت الكثير تقع شمالي
البحر الاسود ، وكانت على اعتداد الف سنة طريق الرجل
المهد من آسيا الى أوروبا ، فقرر من الناس تقريبا الكثير من
اراضي أوروبا الشرقية . ولعل كل هذا يفسر كذلك استيطان
السلافيين لهذه الاراضي بدون اراقة دماء تقريبا ، واخذت
عشرات عديدة من القبائل غير السلافية النافذة السلافية
ومعها اللغة السلافية . وليس من النادر ان يجد
الاخويولوجيون في قبور أوروبا الشرقية العائدة الى اواسط
ونهاية الالف الاول الميلادي أدوات تشبه بوضوح على درجة
رفيعة من الاتصالات بين الثقافات ، وعلى تكاملها التدريجي .
هكذا تقريبا جرى - كما يفترض الكثير من الباحثين - تكون
الشعوب - الانوسات السلافية .

اذ ننهي هنا عرض موضوعاتنا عن ظهور السلافيين
وتمايزهم وتوزعهم ، ينبغي الإشارة بشكل خاص الى ان

التحرك السلافي بدأ حينما كانت هجرة الشعوب الكبرى في
أوجها . ولعل هذا التحرك كان اضطراريا ، فمن الصعب
والصعب جدا المحافظة على الارض حينما تأتي من المعورة
كلها قبائل وشعوب مجهولة جديدة وجديدة . فبقى القرن
الرابع وصلت قبائل الغولبين الجرمانية ، مثلها ، الى منطقة
البحر الاسود والقرم . وما كان لغزوة الهون الرعيية الا ان
تمس الاراضي السلافية .

وفيما بعد نشأ الانوس الروسي القديم من القبائل
السلافية في السهل الروسي الكبير ، ويوفر تاريخه لنا مثلا
لاحقا لمدى عرض موضوعة مغزى التمايز في العمليات
السلافية .

انطوى على مغزى فائت الالهية بالنسبة الى تشكيل
الانوس الروسي القديم وجود دولة كيف الموحدة في الفترة
من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر ، وهي دولة كبرى
كانت تضم العديد من الاتحادات القبلية .

حينما تفككت روسيا كيف في عصر التجزئة الاقتصادية
التي بدأت قبل الغزو المغولي بامد طويل الى امارات منفصلة
ومستقلة الى درجة كبيرة ، كان ذلك امرا حتميا وما كان له ،
على الأرجح ، ان يؤدي بهذ ذاته الى تيزنة «الانوس
الاول» . ولكن غزوة المغول وضعت الأراضي الروسية
الشرقية تحت سيطرة الاملة الذهبية . اما المناطق القريبة من
روسيا بقيت قرونا ضمن الدولة البولندية - الليتوانية .

قادت موسكو مقاومة المغول ، ونشأ انوس روسي جديد
في الدولة الكبيرة الجديدة . واصبحت لهجة موسكو نموذجيا
لغة هذه الاراضي بأسرها .

لم يكن ثمة مركز موحد كهذا لدى المناطق السلافية
الشرقية التي دخلت بنية المملكة البولندية - الليتوانية في
القرن الخامس عشر .

كانت اراضي بيلوروسيا الحالية ثملك منذ زمن روسيا
القديمة شأنها مع المعاشية واللغوية الدوروة من نواح
كثيرة عن قبائل النيريقوفيتيين والكريفيتيين

مصادر مختلفة

والبلو تشمانيين والراديماتيين التي غابت هناك منذ ما قبل توحيد البلاد حول كييف . ولكن أدى دورا هاما بشكل خاص في تكون الشعب البولوروسى فضاله ضد ارغامه على ان يصبح بولنديا وكاتوليكيًا . وحرص الشعب النصر فى هذا النضال ، عسلى الرغم من الاضطهاد السياسى والقومى . وساعدت عزلة بيلوروسيا سياسيا عمن الاراضى الروسية القديمة الاخرى على تحول الهجات المحلية الى لغة مستقلة . وبالنسبة الى اوكرانيا كانت زاپوروجييه مركزا هاما ، بل يمكن القول مركزا ايدولوجيا ، حيث جسدت — كما سبق وتحدثنا حلم الشعب فى الحرية والاستقلال .

ان جسد الشعب الاوكرانى قد مزقته الحدود مرارا . فقد وصل الاتراك الى فولين — واحتل الهنغارون ما وراء الكريات مئات السنين ، وبقي جزء من الاراضى الاوكرانية امدا طويلا ضمن مولدافيا . وكسان الامراء الترانسيلفانيون والملوك التشيك وغابات القرم يفضعون حسن حين الى آخر هذه المناطق (و تلك من مناطق استيطان الاوكرانيين . ولكن الشعب حافظ رغم الحدود المتغيرة سواء على وحدته نفسها او على تصوروه لوحده — اى على غيبه الذاتى الشعبى المشترك .

لا يد من القول ان الارثوذكسية اضطلعت بدور هام فى تاريخ تكون الشعب الاوكرانى ، حيث ان اسلاف الاوكرانيين المعاصرين عاشوا فى دول كان يمدوها دين آخر . لنفسه فصلت الارثوذكسية الاوكرانيين عن البولنديين والهنغارين الذين كانوا كاتوليكيين ومنعت الزيجات المختلطة وساعدت على صيانة اللغة والثقافة . بيد انه لا يجوز المبالغة فى دور الارثوذكسية ، فليس عينا ان البيلوروسيين الدجاوريسين للاوكرانيين فى اطار الدولة البولندية — اللتيوانية ذاتها اصبحوا شعبا متفصلا ، مع انهم كانوا ارثوذكسيين ايضا . لقد كانت اللغة اهم من الدين لدى تشكل الشعبين .

فى وعن البشرية . ظهرت فى وادى النيل دولة ، ربما كانت اقدم دولة فى كوكبتنا ، وفى مصر . وبالمناخية ، فقد نشأ هناك ، كما نعرف ، الكثير من هذه الدول ، العشرات منها ، ومرت قرون كثيرة الى ان تقلص عددها الى اثنتين ، ومن ثم الى واحدة .

فى ذلك الحين كان يعيش فى مصر ملايين الناس ، ربما اكثر مما فى بقية القارة كلها . نعم ، اكثر ، مع كل خصيب وادى مصر فان الطعام فيه ما كان ليكفى الا لبضعة آلاف ، ربما لعشرات الآلاف من الصيادين وجامعى النباتات . ولكن درجة تطور الزراعة وفرت الامكان لنسبل طعام من الاراضى نفسها اكثر بمئات والرق المرات .

بقيت مصر فترة قصيرة تاريخيا الدولة الوحيدة فى افريقيا . وظهرت فى جنوبها مملكة النوبة . ونشأت دولة ايضا فى الشرق لافريقيا ، غسى اتجاها شبه جزيرة العرب . وفيما بعد ظهرت دول قوية فى قرب القارة . بعضها لم يصد فى وجه ضربات القوات العربية . ونفى الغزو على بعضها الآخر فى ازمة اقرب الينا .

... افريقيا الجنوبية . بداية القرن التاسع عشر ، فى عام ١٨١٥ انتهت بمعركة واترلو ملحمة امبراطور فرنسا . وفى عام ١٨١٦ أصبح «تالبيون الاسود» ، اولو تشامكا ، زعيما لقبيلته بالوراثة (وملكا من حيث السلطة) . لقد ووت

عن ابيه ارضا تقرب مساحتها من ٢٥٠-٣٠٠ كيلومتر مربع . ونتيجة لحلات رافعة ازدادت ممتلكات تشاكا اكثر من الف ضعف ، ويسط نفوذه في افريقيا على اراض اكبر بعشرة اضعاف تقريبا .

بدأ بتوحيد القبائل الزولوسية زعيم (ملك) قبيلة اخرى من هذه القبائل ، حامى تشاكا ، رجىل الدولة البارز دينغيساغاوي ، وبالمناصفة ، كان دينغيساغاوي ، خالقا لتشاكا الصارم ، القاسى ، ليسن المريكة وطبيب القلب . موت دينغيساغاوي جعل تشاكا يشغل المرتبة الاولى فى البلاد . وفيما بعد انفصل عن تشاكا محبوبه مزيليكايزى ، وانطلق مع جيشه الى الشمال الغربى .

فى الطريق بدأ فى البداية كل المستوطنات التسي صادافى ، لكن دمج ارض المعرفة حاجزا يقبه من انتقام تشاكا . ثم صار "يقصر" على اخضاع الشعوب التى يقابلها ، فيدرج محاربيها فى قوام جيشه . وبالمناصفة كان تعدادة لحظة الحرب لا يتجاوز ثلاثمئة شخص .

وفى نهاية الطريق اصبح مزيليكايزى حاكما لارض تربو مساحتها على مليون ونصف مليون كيلومتر مربع تضم ملايين عديدة من السكان . وعلاوة على ذلك بدأ يتكون فى هذه الاراضى من القبائل المحلية والزولوس الذين استوطنوا فيها مع مزيليكايزى والذين انضموا اليه فيما بعد شعب جديد كامل لا يزال موجودا الى اليوم ، وهو شعب الماتابيل . . .

فى تاريخ توحيد القبائل الافريقية من القسوة ما لا يقل عما فى تاريخ توحيد اية قبائل اخرى . ولكن ذلك كان يجب ان يسفر عن ظهور دول قومية ، وقد بدأت بالظهور ، ولكن اتى المستعمرون الى اراضى الزولو والماتابيل والباسوتو والشعوب الاخرى . اتوا الى اراضى كل شعوب افريقيا .

وقد جرروا قدمهم بقسوة الزعماء ايضا . ولكن تاريخ فرنسا كان يعرف حتى ذلك الحين ليلة "الخنجر" التى ديرها كارل التاسع ، وكان تاريخ اسبانيا يعرف الفظائع الرهيبة لحاكم القشتيش ، وتاريخ اوربا الوسطى يعرف احوال حرب

الثلاثين سنة فى القرن السابع عشر التى تقضى بعدها عدد سكان البانيا الى النصف . وليس المستعمرون الاوربيون ممن يحق لهم ان يظهروا امام اى كان بمظهر المدافع عن العدالة .

لقد اعاد الاستعمار تفصيل الخارطة السياسية لافريقيا بالحديد والنار . ولا يزال اثره المشين قسوى الجنوب الى الآن .

.. استمر تقارب القبائل فى افريقيا الجنوبية حتى تحت النبر الهولندى - البورى والانكليزى . وظهرت هناك شعوب جديدة ايضا . ان مئات الالوف من سكان جمهورية جنوب افريقيا الحالية هم اخلاف زيجات مختلطة بين البيض والزنج . وفى الوقت الذى كانت فيه افريقيا الجنوبية ضمن الامبراطورية البريطانية قدم اليها (او جلب قسرا) جنود من العمال والعرقين والتجار . ويعيش هناك ايضا ملايين البيض ، اخلاف الهولنديين والانكليز من حيث الاساس .

لقد فصلت سلطات جنسوب افريقيا بالقوة الناس من مختلف الالوان عن بعضهم البعض ، واقامست فى الارض الواحدة مدنا منفردة وقرى منفردة وبلدات منفردة ، ومن ثم مناطق متعزلة كبيرة ، الزنوج يعيشون وسط الزنج ، والبيض بين البيض ، والهتود بين الهتود ، والغالاسيون بين الغالاسيين . ومن المفهوم يداعة ان افضل الاراضى والمدن والقرى هى للبيض . ولكن البلاد تحولت الى برعيل بلرود . ولا يزال يشئ احياا تعرض الزنج على الهتود ، والارة الغالاسيين على الزنج . ولكن الضطوفيين سيتحدون عاجلا او آجلا . وقد بدأ هذا الاتحاد - وستتفك الدولة العنصرية ، وليس ثمة سبيل آخر .

.. تقع فى شمال افريقيا دول مستقلة . مثل المغرب ، موريتانيا ، الجزائر ، تونس ، ليبيا ، مصر (جمهورية مصر العربية) ، السودان .

لمصر ، كما سبق ونوهنا ، اقدم تاريخ بين هذه الدول ، وقد تناوله علماءها والعلماء الاجانب بالدراسة

الجيدة أكثر من غيره . قبل قدوم العرب عاشت مصر القديمة في تاريخها العواويل البعيد متى سنة تحسنت حكم اليكسوس القادمين من آسيا الغربية ، ثم تحررت فعاشت عدة قرون تحت سلطة فراعنتها احيانا والقادمين من ليبيا والنوبة احيانا اخرى ، واستولى عليها الآشوريون ، تحررت مصر وبعد بعض الوقت تم احتلالها من جديد ، من قبل الفرس هذه المرة . ثم اتى الهيا اليونانيون بقيادة اسكندر المقدوني . وصار يحكم مصر اخلاف بطليموس ، احد قادة اسكندر . وبعد الزنانيين اتى الرومان . وبعد ذلك ، زمن الهجرة الكبرى للشعوب . ظهرت في شمال افريقيا القبائل الجرمانية التي اتت اليها عبر شبة جزيرة البيرينه . ولكن لم يصل الى مصر الا القليل من الجرمانيين . بعد ستين سنة من قدوم العرب استولى على السلطة فسى مصر المصاليك - البولوقيون الذين كانوا يتملكون حرس الحكام المصريين . وقد الحق المصاليك التهمية بالمغول حينما حاولوا الاستيلاء على مصر . وبعد المصاليك - البولوقيين استولى على السلطة المصاليك - القنقلسيون . ثم استولى على مصر الاتراك ، وبعدهم الانكليز .

• • • ومع ذلك يرى الانثروبولوجيون الى اليوم الكثير من ملامح المصريين القدماء في مظهر فلاحي وادى النيل . يتنبى القول ان الشعوب الافريقية هي اجمالا - كمنسا يعتبر العلماء - «الانكر اصالة» ، ان صبح التعبير ، بين كل شعوب كركينا .

اولا ، كانت افريقيا ضمن المنطقة التي وقف الفرد فيها على رجلبيه وتعلم تصب قامته ورأسه والنظر الى السماء ، المنطقة التي اصبح فيها يشهد المجارة ثم يربطها الى العصى ، فلم يعد فردا ، والتي عاش فيها انسان جساوه وتيانديرتال واصبح ، اخيرا ، يشبه الناس المعاصرين - (حتى ان بعض العلماء يعتبرون ان افريقيا وحدها هي الوطن الاول للانسان ، المكان الذي «نهم» فيه عن انسان نيانديرتال انسان عاقل) . ثانيا ، تتبع الانثروبولوجيون التعاقب بين الناس الذين

عاشوا هناك منذ عشرة آلاف سنة والذين يعيشون الآن ، فوجدوا التعاقب واضحا رغم كل الغزوات من قارات العالم الاخرى .

يبدو ان الافارقة توغلوا بعيدا الى الشمال منذ اقدم الازمنة . فانارجم موجودة في ايطاليا وفرنسا وايرلندا . . . كان الافارقة البرشمينيون اول من اكتشف واستوطن مدقشقر - الجزيرة الكبيرة عند ساحل افريقيا الشرقى . ولكن فيما بعد قدم الى هناك على سفن تبحر الى مسافات بعيدة الملايويون وسكان اندونيسيا ، وهم اناس من العرق المغولي . كانت تلك رحلة عظيمة ، او على الاصح رحلات عظيمة كثيرة ، لان قاهري البحار اتوا الى هناك من الشرق البعيد عدة موجات على امتداد بضعة قرون (ربما ساعدتهم على اجتياز هذا الطريق والاستراحة في خلال السفر جزر في المحيط اختلفت حاليا من بقايا ليوموريا شمبه الاسطورية) .

جلب الملايويون الى الجزيرة لغسة تغلدها الى الآن كلمات من السنسكريتية (اللغة المقدسة لههند القديمة) . وقد شكل البوشمينيون ، وهم اناس من قبيلة البونشو (انساب الزولو) والملايويون تلك السبيكة التي يتكون منها اليوم المالفاشيون ، سكان مدقشقر الاساسيون . ويشكل الملايويون اكبر نسبة في هذه السبيكة .

عرفت كل القارات والكثير من العصور هجرة الانثوسات . جرى في افريقيا على امتداد الالفى سنة الاخيرة على الاقل توزع واسع للشعوب الناطقة بلغة البانتو . في وقت مضى كان اسلاف هذه الشعوب يعيشون في مناطق صغيرة تسمى تشع في اراضي نيجيريا الحالية ، كما يرى بعض العلماء ، وفي اراضى زائير الحالية . كما يرى غيرهم ، وتعتبر مجموعة ثالثة من الباحثين ان وطن البانتو الاول يقع بعيدا في شمالي الشمال ، في الصحراء الكبرى . منذ الفى الى خمسمئة سنة جرى هناك بسبب التضلع من انتاج محاصيل زراعية جديدة ، اكثر مردودا افعلاو ديموغرافسى ، ان ازداد عدد

سكان البانتو الأوائل ، فاصبحوا في غضون ذلك أكثر تطوراً من جيرانهم من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية . وتحرك قسم من الأتوسس واحتل في خلال فترات جديده وجديده ، مختلطاً بالأتوسسات الأخرى ومختلفاً لهجاته للأعقاب المستتركن .

إن تاريخ الأتوسسات الأفريقية ليس أبداً أقل امتعاضاً من تاريخ شعوب أوروبا وآسيا . ولكن معرفتنا لهذه الشعوب أقل بكثير . سنتحدث بالتفصيل عن واحد منها على الأقل ، وهو ليس أكبرها (مع أنه ليس صغيراً أبداً) ، ولكنه ربما كان أكثرها غموضاً .

شعب الفولبي ، ليس ثمة من لم يسمح بالزوجين مع أنهم في حدود الأربعة ملايين لا أكثر ، وبالإسلاطيين الذين لا يتجاوزون بضع مئات من الأولوف . . . ليس من النادر أن يعرف غير الاختصاصيين تاريخ حتى الشعوب الأوربية الصغيرة أكثر مما يعرفون تاريخ شعوب إفريقية أو آسيوية أكبر .

إن شعب الفولبي الإفريقي هو ، مثلاً ، أكبر من التشيك أو الهنغارين أو الصربيين أو السويديين . وهم يعيشون في ستة عشر بلداً إفريقية على الأقل ، ويشكلون في غينيا خسي السكان ، أي أنهم أكبر شعب في الجمهورية ، كلمة فولبي تعني ، في رأي بعض الاختصاصيين ، «المشترون» ، «المعتورن» وتذكر بواقع أنهم مشتتون في أراض شاسعة ، وثمة تفسير آخر يترجم هذه التسمية الذاتية بمثابة تعريف للون البشرة ، بني فاتح ، أحمر ، خلافاً لتسمية أتوسس إفريقي آخر ، الفولوف ، ومعناها «الأسود» .

في أواخر الألف الأول الميلادي كان الفولبي ينتقلون في أراض صغيرة نسبياً تقع غرب مناطق الصحرا الكبرى والأراضي المتاخمة . ولكن العرب والبربر في شمال إفريقيا ، وقد اتقنوا تربية الأبل ، تحركوا في ذلك الحين إلى الجنوب ، فازيح الفولبي بالتدريج من أراضيهم السابقة . وفي غضون عدة

قرون انتشر الفولبي في جزء شاسع من إفريقيا الاستوائية ، مؤسسين في خلال ذلك دولا لهم في مختلف الأراضي .

يمكن القول إن ثقافات الشعوب في إفريقيا في الألف سنة الأخيرة امر عادي . وإذا كان الفولبي يتميزون بشيء هنا ، فيكونهم بقوا بدرجة من النجرات منفردين بين الشعوب الأفريقية . هذا مع العلم أن عدداً كبيراً من الفولبي ، إجمالاً ، لا يختلفون الآن كثيراً عن أناس الشعوب الأفريقية الأخرى التي يعيش الفولبي بينها . ولغتهم قريبة من لغتي جيرانهم السيريرو والفولوفيين . ولكن ثمة بين الفولبي غير قليل من الناس ذوي البشرة الصفراء مسح شيء من الأحمرار والوجه الأقرب إلى النمط الهندي الأوربي : بيضوي ، رقيق الشفتين ، بأنف دقيق ، مستقيم أو معقوف قليلاً . وشعر مزلأ ، الناس متشوج قليل (وليس أجعد) . ويمكن النظر إلى هذا النمط كنموذج أولي لم يسه الاختلاط .

درست العاملة الفرنسية ليسكي في الخمسينات بطريفة بيز - أنتروبولوجية ، إن صح القول ، ما تحويه أجسام أناس اجناس مختلفة من بعض العناصر الكيميائية ، وتبين أنه يوجد لدى الأفارقة كالمسيوم ونحاس أكثر مما لدى الهنديين الأوربيين ، وككروم وصوديوم أقل . وبين تحليلها البيوكيماوي أن الفولبي عن هذه الناحية قريبون إلى الهنديين الأوربيين لا إلى الأفارقة ، لقد قدموا إلى إفريقيا الوسطى ولكنهم يتكلمون بلغة قريبة من اللغات التي يتكلم بها السكان الأصليون في المناطق إماما - فول غيروا لغتهم ؟ مثل هذا يمكن أن يحدث في غضون قرون عديدة ، والتاريخ يعرف مئات الأمثلة على هذا . فهل أخذ الفولبي لغة السيريرو ؟ بيد أن الانتقال إلى لغة جديدة له ، كقاعدة عامة ، تفسيرات ملموسة : اقتصادية ، اجتماعية ، سياسية . هنا لا يستطيع المؤرخون العثور على تفسيرات كهذه ، جدية بما يكفي على الأقل . يبدو وكأنما يمكن العثور في لغة الفولبي على كلمات قديمة من اللغات السامية لها نظائر في اللغة البابلية القديمة ولهجات جنوب شبه جزيرة العرب .

إن لغز القولبي أثار أجرا الفرضيات حول أصلهم ، بما فيها فرضيات خيالية تماما . لقد اوجعوا أصل القولبي إلى مصر والهند وحتى الهند الصينية ، وجعلواهم اقرباء للبريتانيين القدماء والفجر والإشوريين وعشرات الشعوب الأخرى القديمة إلى هذه الدرجة أو تلك . وكانت هناك فرضيات جدية أيضا ، ولكن لكل منها نقطة ضعفها .

كرس المؤرخ والانتوغرافي السوفييتي كوزلوف مؤلفا كبيرا للشعب القولبي ، ولا سيما لجذته الذي يعيش في جمهورية غينيا . أنه ، من غير أن يدعى حل معضلة القولبي ، يرى مفتاحها في معشلة فارسيكية - جغرافية أخرى . من المعروف أن الصحراء الكبرى لم تكن دائما (أو على أي حال ، لم تكن دائما في كل أراضيها الحالية) أراضي خاوية مقفرة . إن مجارى الأنهار الجافة تشهد على أن المياه هنا كانت كافية في وقت مضى . وقد عثر في الصحراء على آثار غنية للمتناسلات القديمة ، بينها فريسات تأسس الرامة . وقد عاش هنا أيضا ، كما تشهد الحفريات ، أناس من النمط الأوربي اختلطت دماؤهم بدماء الأفارقة في أحيان كثيرة . وهنا أيضا ، في الصحراء ، أوسيت أسس ثقافة الكثير من الشعوب الأفريقية التي انتقلت فيما بعد إلى الجنوب والشرق . وأمل الصحراء الكبرى كانت أحد المراكز التي تشكلت فيها ، من جهة ، الرابطة اللغوية الأفريقية الآسيوية (السامية - النامية) ، ومن الجهة الأخرى رابطة البانتو اللغوية . وربما أسر لغوية أخرى . وقد غادر الصحراء الكبرى عدد لا يستهان به من القبائل ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد ، حيثما بدأت دورة جديدة لتدري المناخ في شمال إفريقيا ، ولكن غرب الصحراء ، بقى لمدة طويلة شعبا نسبيا . وإلى هناك تراجعت قبائل القولبي الأوائل التي احتفظت لغتهم يذكرى الاتصالات القديمة بين الاسر اللغوية .

وترى باحة سوفييتية أخرى ، بيرزينا ، وطن القولبي في أراض أخرى تماما ، في إفريقيا الشرقية ، على مقربة من حدود إثيوبيا المعاصرة . وفي رأيها أن القولبي كانوا غرباء

في الصحراء ، أيضا ، مع العلم أنهم لم يأتوا إلى هناك إلا في القرن السابع الميلادي . ومن الحجج الرئيسية التي تيسر إلى ظهورهم في الصحراء الكبرى في القرن السابع فقط اجناس الماشية التي يربئها القولبي . أنها يعيش من البقر الهندي والثيران الأفريقية ذات القرون الطويلة . وهذا الجنس ما كان يمكن أن يظهر ، في رأي بيرزينا ، إلا في شرق إفريقيا ، وليس قبل القرن السابع الميلادي نتيجة اشتداد الصلات بالهند . وهناك ، حيث يعيش القولبي الآن ، لا ترى الثيران ذات القرون الطويلة .

وإذا يعترض كوزلوف على بيرزينا ، يذكر بأن هذه الثيران كانت ثوران داخلة في الصحراء الكبرى منذ القدم ، وكان في وسع القولبي تهجينها مع البقر الهندي وهم في أراضيهم الحالية .

وقد ، أخيرا ، رأى مفاده أن منشأ القولبي قديم «شأن منشأ الكون ، ويبقى مجهولا . . .» .

من الاورال إلى الاطلسي . منذ ثلاثين أو أربعين ألف سنة وصل الإنسان العاقل الذي كان قد ظهر قبل ذلك بقليل إلى انكلترا قبل أن تصبح جزيرة على ما يبدو . وفي الوقت نفسه وصل الانسان في أوروبا الغربية والشرقية على حد سواء إلى التجم الجنوبي للمنطقة المتجمدة ، ولم يكن عند اسلافنا ، طبعاً ، ما يفعلونه في المنطقة المتجمدة نفسها ، ولكن تجمد أوروبا الكبرى ثلاثة وأربعين ألف سنة . فسار الإنسان «على أعقابه» مباشرة . منذ ثلثة وعشرين ألف سنة كانت حافة المندفئة المتجمدة الكبيرة تقع في مكان ما وسط السهل الروسي ، عند فلاديمير . وقد عثر هنا ، عند نهر سمونغير ، على بقايا أناس ماثوا منذ أكثر من مئتين وثلاثين قرناً . كانوا يرتدون ملابس شبيهة جدا بالملابس القومية لشعوب الإركتيكا المعاصرة - إلا أنها موشاة كلياً بخرز من عظم الماموث .

منذ عشرة آلاف سنة ابتعد الجليد عن الدانمارك العالية ، وأتى مكانه الدانماركيون الأرائل . تباطأ الجليد ،

فكان ابتعاده مسافة مئة كيلومتر يستغرق مئة سنة كاملة . ومنذ تسعة آلاف سنة سكنت فنلندا ، وبعد ألف سنة أصبحت السويد والنرويج مملكتين (الأرقام تقريبية ، طبعا) . ولا يستبعد انه حتى الجزيرة الشمالية شيبينسيرغ قد سكنت حينذاك ، أو بعد ذلك بقليل . ولكنها فيما بعد قُطعت من السكان مجدداً ، ولم يكتشفها ثانية الروس - اليومويون ، سكان شاطئ البحر الأبيض ، الا منذ ثمانية قرون - وفي الوقت نفسه تقريباً اكتشفوا زيبليا الجديدة .

... لا يستطيع العلماء بشكل من الأشكال ان يتفقوا نهائياً على تعيين مظهر أقدم سكان أوروبا - ويترض الكثير من الاختصاصيين ان أقل تغيير في ألوان السنوات المنصرمة طرا على شعب السامي الصغير الذي يعيش غنماً في جزيرة كولا وفي فنلندا - يشبه السامي المغول والأوروبيين دفعة واحدة . لعلمهم احتفظوا بصفوة الجنس المشترك لاسلاف المغول والأوروبيين في ذلك الزمن ، حينما كان هذا الجنس الواحد موجوداً (ثمة علماء يصرون على ان هذا الجنس الأوراسي المشترك كان موجوداً) . أو لعل السامي إحداهن شعبين مغول وأوروبي التقي يوماً .

أما لدى الإنسان السوتغري ، فتسود الملامح الأوروبية بوضوح . وبالنسبة ، فقد عثر في أماكن غير بعيدة عن سوتغري على جماجم تشبه جداً الجماجم الأفريقية . أما ان اسلاف اللزج شديدي المراس بشكل خاص قدموا الى هنا ، وأما ان هذا اثر لذلك الزمن حينما لم تكن الاجناس قد انفصلت بعد نهائياً .

ان تاريخ أوروبا قبل السنوات الثلاثة أو الاربعة آلاف الأخيرة غامض بالنسبة اليها . نحن نعرف ، والحق يقال ، ان الكثير من سكانها كانوا يتكلمون منذ قرابة ثمانية آلاف سنة بلغة أوروبية قديمة مشتركة (أو بلغات أوروبية قديمة مختلفة ، ولكن متشابهة) ولم يبق في اللغات الأوروبية المعاصرة الا حطام من تراث الاسلاف القديم هذا . ولا يوجد الآن في أوروبا الحالية الا لغة واحدة وبها

تكون قد اتت من اللغة الأوروبية القديمة مباشرة . ويتكلم بها الياسكيون جيران الفرنسيين والاسبان ، والذين يعيشون في جبال شبه جزيرة البيرية . وكثيراً ما يشكو الفرنسيون والاسبان مدى صعوبة استيعاب لغة هذا الشعب . يقول الغاللون الفرنسيون ان الشيطان ذات مرة عكف على دراسة اللغة الياسكية . وقد تعلم في غضون سبع سنوات كلمتين وبشكل غير صحيح .

يمرؤ اللغويون اللغات الالمانية والايطالية والانكليزية وغيرها من لغات أوروبا مع الكثير من اللغات الهندية الى المجموعة الهندية الأوروبية . فاما كانت هناك لغة هندية أوروبية اولى ، وأما تكونت دفعة واحدة مجموعة كاملة قديمة من هذه اللغات منذ خمسة أو ستة أو سبعة آلاف سنة . اين ؟ غير معروف على وجه الدقة . ربما ضفاف الدانوب أو الكريات أو المجري الاوسن لفيسلا أو سهوب شمال البحر الاسود أو الشاطئ الجنوبي لبحر البلطيق أو آسيا الوسطى أو الزاوية الشرقية لشبه جزيرة آسيا الصغرى الخ ، الخ . اينما حصل ذلك ، فان سكان تلك الاماكن كانوا ، على ما يبدو ، كثيرى التنقل .

منذ اربعة أو خمسة آلاف سنة ظهرت في جزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط اولى حضارة اوروبية نعرفها . وقد عثر الارخبولوجيون هناك على اطلال قصر فيه الكثير من الخزف والممرات والعطائف والاقنعة والمستودعات . وهذا القصر أصبح متاحة في الحكايات . وتقول الاساطير اليونانية بان المتاعه بناتها المهندس العظيم ديدالس باهر من مينوس ملك كريت . وصنع ديدالس بارادته اجنحة له ولابنه ايكار . . . وقد وضعت الاساطير اليونانية في وسط المتاعه انساناً مريعا برأس نور . وكانت اثينا اليونانية ، الناضجة لكريت ، ترسل لطعامه اناوة حية مروعة ، سبعة شهاب وسبع شابات كل تسعة اعوام الى ان قتله الامير الاثيني المقدام تيسوس .

لم يكن ثمة وجود لديدالس وايكار ، ولكن كان هناك

البحارة الكريتيون الذين اخضعوا البحر الابيض المتوسط،
باسره . كانت هناك مملكة فرضت ايرادتها على الكثير من
الارض الواقعة على شواطئ هذا البحر .

عذه المملكة سقطت بعد انفجار بركان في جزيرة قبرا
الصغيرة ، قرب كريت ، فغمر الغبار مدنها . وخلف الكريتيين
في اوربا اليونانيون القدماء ، وهم متوحشون اقتحموا شبه
جزيرة الملقان من الشمال منذ اقل من اربعة آلاف سنة
بقليل .

يبدو ان الحبشيين قدموا من اوربا الى آسيا ، الى سواحل
تركيا الحالية . وكانت الشعوب الاسيوية ، يدورها ، تتغلغل
في اوربا باستمرار . وكانت عدة طرق تاريخية قديمة تغدم
عذا الغرض . ومن بينها بوابة قديمة بين قزوين وسلسلة
الاورال الجبلية ، وهي طريق ازل للرحل . وقد اجتازها منذ
قراية ثلاثين قرنا الاسوثيون ، وبعد مئسم بعدة قرون
السرماثيون ، وبعدهم بقليل الهون ، ثم - على التوالي -
البولغار والافاريون والبيشتمينيون والبولوفيون والترك
المغول . . .

الأكبر . آسيا اكبر قارات المعمورة . وكان فيها دوما
مكان لممثل كل الاجناس الكبيرة الثلاثة للبشرية ولا مجال
لحديث عنها جميعا .

... اذا كان المغول قد ظهروا في اوربا بمثابة ضيوف
اجمالا ، فان الارببيين ظهروا في آسيا منذ اقدم الازمنة ،
وفي اواسط آسيا كان يعيش الى جانب الصينيين منذ الرق
السنيون الذين - لينيسون ذور البشرة البيضاء الذين كان
مظهرهم ، حسب قول مدوني الاسفار الصينيين ، يشير اشد
الاشتمزاز ، بحيث ان مدوني الاسفار لم يتعدتوا عن شعورهم
فحسب ، بل وصفوا ايضا هذا «المظهر المريع» ، فاننا نعرف
معرفة راسخة ان الذين - لينيين كانوا مجرد ارببيين .

في خلال الحفريات في مدينة موهينجو - دارو في الهند
عثر على رفات اناس من الاجناس الثلاثة جميعا . ويعيش حتى

الآن في آسيا عشرات الملايين من الدرافيديين الزوج ومئات
الملايين من الجنس الارببي .

ولكن العدد الاكبر من سكان آسيا هم من الجنس
المغول . فيها نسا هذا الجنس ، فتغلل اول الامر جزءا كبيرا
من الصين ومنغوليا والتبت . وفي عشرات الالف السنين
الاخيرة سكن المغول سيبيريا . وفي آلاف السنين الاخيرة
استوطنوا الاركتيكا في اقصى الشمال واكتشفوا «اقصى شمال
اميركا» ، غرونلانده مع الجزر المجاورة . وقدم المغول الى
بعض الاراضي الاخرى التي كانت مأهولة باناس من الاجناس
الاخرى . ان سكان جنوب الصين الحالية اكثر سمرة بكثير
من جيرانهم الشماليين ، ووجوههم اقل تفليحا ، وشفاهم
سمكة . وهذه السمات هي مخلفات الشعوب القريبة من
الجنس الارببي التي عاشت هناك . وكانت انطلاقا من
الى الجنوب ازيد ، وهم يشكلون الآن الجمهور الاساسي لسكان
الهند الصينية واندونيسيا .

... منذ الفي سنة واهل فقط اجتاز المغول من كوريا
المضيق الضيق ووطنت اقدامهم ارض اليابان . وقبل ذلك
وصل الى هناك الاينيون القدماء ، ومن ثم قبائل من اندونيسيا .
واليابانيون الحاليون هم اخلاف المجموعات الثلاث معا . ومنذ
ذلك الحين لم تجر هجرات الى اليابان . هذا مع العلم ان
امبرطور الصين المغولي منذ حوالي سبعمئة سنة انتابته رغبة
عازمة في ان يضم هذه الجزر الى مستلكانه ، بحيث حاول
مرتين ان يقوم بانزال فيها . وفي المرة الاخيرة قرر ان يغطي
المضيق بين كوريا واليابان بجسر من سفن منسطة السطح
متصلة فيما بينها . وكان على الخيالة المغول الارببيين الا
يقوموا بمجرد العبور ، بل ان يرمعوا على هذه السطوح من
شاطئ الى آخر . ولو حدث هذا لكتبتنا الآن عن عبارة الشعوب
الرابعة الى اليابان . . . ولكن عاصفة انقضت البلاد من الغزو .
وقد اسمى الشعب الياباني العاصفة الهيبيسة التي اودعت
اسطول الغزاة الى الدمار بالريح الالهية (كاميكازي) . وبقي
الخيالة في الصين .

... . يبقى بعض العلماء امدا طويلا يعتقدون ان اليابان كانت منذ عدة الوف من السنين المتلفة التى تكون فيها شعب الاسكيو الشمالى . وفى اليابان يعثرون منذ القدم لدى الحفريات على تماثيل فخاريسه ، دوفو ، صنعت هناك منذ ٤-٥ آلاف سنة . كانت للدوفو فى عيودها المتاخرة عيون جاحظة كبيرة فى وسطها شق . هذه العيون ذكرت العالمس اليابانى تسوبوتشى على الفور بالنظارات الواقية من الثلج لدى الشعوب الشمالية . وهى تصنع من الجلد او لحاء الشجر مع شق فى وسط «الزجاجة» .

كان تسوبوتشى مصيبا ومخطئا فى الوقت نفسه . مصيبا لان الاسكيو عاشوا فى اليابان ، ومخطئا لان الدوفو لا تمت بضلة للنظارات الواقية من الثلج وللأسكيو . كل ما فى الامر ان التجويين فى الفخار اللذين يرمان الى العين فى الدوفو المبكرة تحولوا الى خلال مئات السنين ، بناء على قوانين الفن والميتولوجيا ، الى تنوتين كبيرين نسبيا لعقنين نصف مثلقتين بينهما شق .

وتسوبوتشى على اى حال مخطئ اكثر مما هو مصيب ، لان الاسكيو ظهروا فى اليابان فى زمن متأخر بعد تكونهم . وبعد ذلك رحل بعض الاسكيو واختلط البعض الآخر بالايبيين ، كانت اماكن اخرى وطننا للاسكيو : اماكن اخرى ومناطق اخرى ومناخ آخر .

اية مناطق ؟ الاراضى الواقعة حول خليج بهرتسج ، ان اسلاف الاسكيو لم يختاروا لانفسهم افضل الاراضى . يبدو ان قبائل اخرى ازاحتهم الى هناك ، حيث الليل القلبي الذى يستمر شهورا عديدة والصقيع القارس والتوندرة والجليد الازل .

لقد استطاع الاسكيو ان يحولوا التوندرة والجليد والبحر الى مصدر دائم للغذاء . واصبحت الحيتان والديبة البيضاء والمورس والقنم والايايل الشمالية والتعالب البيضاء والطيور طريدة دائمة لهذا الشعب الذى يقطن فى اقصى الشمال . ولكن الاسكيو لم يعيشوا فى «نومل» . فقد ابدعوا ثقافة غنية .

ابتكر الاسكيو زورقا رائعا . ان كاياكاتهم ، وهى قوارب لشخص او شخصين ، كانت تصنع من جلد يشد على هيكل القارب . يجلس المحفف (وهو صياد ايضا) كما لو كان فى زورق خفيف - الا ان حواف الثغرة الوحيدة فى الجلد المشدود بقوة موصولة وصلا محكما بحزام الصياد . يمكن للكايك ان يتقلب بقمل هوجة قوية او حركة شديدة من الشخص نفسه ، ولكن ليس فى هذا ما يدعوا الى القلق ، اذ ان جسم الصياد يمنع باحكام دخول الماء فى القارب ، ومن السهل اعادة الكايك الى وضعه الطبيعى بحركة دقيقة متقنة .

فى الصيف كانوا يعيشون فى اخصاص مغلاة بلحاء او يجلد . وفى الشتاء كانوا يأتون فى مساكن مخفورة فى الارض . وكانوا ينامون فى هذه البيوت على ارضية خشبية . وحينما وصل الاسكيو الى تحركهم الى اماكن من الاركتيكا يستحيل فيها ان يحفروا الى الارض شتاء ، وحينما افاموا فى غرونلانده حيث يغطى الارض درج جليدى سمكه عدة امتار ، جعلوا من الثلج اداة تقويم من البرد . ان ايفلو (كونغ) الاسكيو عبارة عن نصف كرة ، او قبة تبشى عقودها من قوارب الثلج . ان بناء كهذا ليس بالامر السهل . لا بد ، مثلا ، من معرفة اختيار تلج مناسب ، مراص بما فيه الكفاية ومضغوط ، ولكن غير متجلد تماما . ومن الداخل يفرش الجلد ويلصق فى الايفلو ، وكان يدفا ويضاء بسرج يشعل فيها شحم القنمة . لقد كانت ملابس الاسكيو تاجحة الى درجة اقتبس منها ، فى راي بعض العلماء ، الطقم الرجالي الفائع الصينى فى العالم كله تقريبا . والمكون من ثلاث قطسج : البنتال ، الصدرية ، الجاكيت .

ان الملامح الاولى لثقافة الاسكيو المعقدة قد ظهرت ، على ما يبدو ، منذ قرابة ثمانية آلاف سنة . وتكونت نهائيا منذ ثلاثة آلاف سنة . ولكن قبل ذلك بآلف سنة استوطن الاسكيو كل جزر الاركتيكا الاميركية تقريبا . ومنذ اكار من ثلاثة آلاف سنة اتجهت من اميركا بضع مجموعات من الاسكيو الى الغرب واكتشفت جزر اليوسيان واستوطنتها .

وبعد ألف سنة أو القرن انتقل الاسكيو من جزر اليوسيان
او من الاسكا الى اليابان . . .

في اميركا قابل الاسكيو الهنود واختلطوا بهم جزئيا .
اما في آسيا فتمعرض الاسكيو لهجوم اسلاف التشوكتشييين
والكورياكيين . ان التشوكتشييين والكورياكيين القدماء ، وقد
احتلوا شبه جزيرة تشوكوتكا ، ادجوا في قبائلهم الكثير
من عشائر الاسكيو واسمهم المشتتة . وفي غضون ذلك
استخدم التشوكتشييون الكثير من اكتشافات الاسكيو
واختراعاتهم وعاداتهم .

يتبعي القول ان انتشار التشوكتشييين في سيبيريا لم
ينته الا في القرن الماضي . وكذلك لم يصل الايفينكيون الى
حدود ممتلكاتهم الحالية الا في القرن الماضي . ان تاريخ
انتشار الايفينكيين يذكر بما قام به البولينيون من «مسيرات
بحسب عن وطن» . لقد فتح البولينيون جزرا وسط
الاقيانوس العظيم ، اما الايفينكيون فاستولوا على اراض
في الارجا ، العنابية لسيبيريا كانت تستثمرها الشعوب
ال اخرى استثمارا ضعيفا . كان «بحر التايغا الاخضر» الذي
تتقل فيه الايفينكيون يمتد (مع التوندرة) مساحة تقرب عشرة
ملايين كيلومتر مربع . ونصف اراضي الاتحاد السوفييتي
تقريبا اصبح مأهولا بهذا الشعب الصغير . رغم انهم ،
طبعاً ، لم يكونوا وحدهم . لقد انطلق الايفينكيون من شتاف
امور ليقوموا بمسيرتهم في ارجاء سيبيريا ، وعلى الطريق
الطويل ادجوا في قوامهم العديد من الفتيال التي عاشت قبلهم
هناك .

يعتبر اليوكاغيرون الآن اقدم شعب في سيبيريا . وهم
يعيشون حاليا بين كولما واينديتيركا . ويبلغ مجموع
اليوكاغيين قرابة اربعة مئة شخص . ولكن هذا الشعب ، الذي
هو احد اصغر شعوب سيبيريا ، كان يوما قويا وكبيرا . الى
الآن يقول البانوتيون ، اذ ينظرون الى ماسا يسمى «التي
الشمال» : هذا يهيض موافد اليوكاغيين . واليوكاغيرون
ايضا يتذكرون الازمنة التي كانوا فيها كثيرين ، ويقولون

لاولادهم : «كان عددنا كعدد نجوم السماء في ليلة دهماء» .
قما الذي اباد الجزء الاكبر من هذا الشعب ؟ هل قتله
الاعداء ؟ او حصده الوبئة المروعة التي كانت تنشب من
حين الى آخر حتى وسط السكان القلائل في التايغا والتوندرة ؟
يبدو ان الامراض ومجاعات الاعداء وتردى ظروف المناخ
المحلية قد اضطلعت بدورها هنا على حد سواء . ولكن لا
يجوز اعتبار ان هذا الشعب قد فنى وانقرض . وليس ذلك
لمجرد انه بقي اتاس يسمون انفسهم يوكاغيين ، بل لان
اليوكاغيين اصبحوا جزءا من شعوب اخرى - من
التشوكتشييين في اقصى شمال شرق آسيا الى اليورياتيين في
وسط آسيا ، وربما ايضا النشيين في شمال شرق اوربا .

يرى الاثروبولوجيون ان ايفينكي بايكال يشبهون
اليوكاغيين جدا . وفي ثقافة الايفينكيين المعاصر الكثير
ايضا مما هو موروث من اليوكاغيين ، ولكن اللغة مغايرة .
فهم عن حيث اللغة بالذات ايفينكيون .

يتجم تناقص طريق جدا بين معلومات علمين يعملان يدا
بيد عادة - الاثروبولوجيا والاثنوغرافيا .

يتحدث الاثروبولوجي ريتشكوف على اساس معلومات علمه
عن ان ايفينكي بايكال يعودون الى اقدم الازمنة . فقد لاحظ
العلماء منذ زمن بعيد انه في كل جيل يتناقص في الشعوب
الصغيرة عدد الناس ذوي قسمة الدم التي كانت قليلة منذ
البداية . وحتى انه حسب بذلة مدى السرعة التي تزول فيها
قسمة الدم المتأخرة هذه ، وهذا يتوقف قبل كل شيء على عدد
الشعب . وهكذا ، نجم عن الحسابات ان مجموعة الايفينكيين
تعيش على مقربة من بايكال منذ ستة عشر الف سنة تقريبا !
وفي خلال كل هذه القرون المئة والسنتين والاقبال المستمعة
والاربعين لم تختلط تقريبا بالشعوب الاخرى ، والا لادخلت
هذه الشعوب في دم السكان المحليين كمية جديدة من العامل
الدوى القابل للزوال .

سنة عشر الف سنة امد هورسل جدا . في ذلك الزمن
السحيق في القدم لم تكن قد وضعت الاقال ، ولا حتى

الكلاي ؛ ذلك العصر يطلق عليه كلمة «الباليوليت» التي تعنى عصر اسلاف القرد الشبيه بالانسان (على الرغم من انه يوجد ، طبعاً ، فرق شاسع جداً بين الباليوليت المتأخر والباليوليت المبكر) .

ولكن الانثروپوافيين يعلنون بصورة قاطعة ان الايفينكيين يعيشون في سيبيريا منذ الفين او ثلاثة آلاف سنة كحسب قصى . وبالتفعل ، يتكلم الايفينكيين بأحدى اللغات التي ظهرت في سيبيريا في وقت متأخر نسبياً - وثقافتهم مرتبطة فسي الكثير من ملامحها بتلك التي ظهرت على ضفاف امور بعد الميلاد ، ونعطي اقتصادهم ليس ايذا قديماً ان هذه الدرجة . اى من المحليين هو المصيب ؟ كلاًهما . ان تاريخ مجموعة الايفينكيين الذين بحث فيه ريتشكوف مثال رائع على ان الشعب يستلعب ان يغير نمط حياته ولغته بدون ان يغير مظهره الخارجى وبدون ان يتلقى تقريباً دماً «غريباً» . للناس ، الذين يجرى الحديث عنهم ، المظهر والدم الذي كان لدى اقدم مستوطنى سيبيريا ، اما اللغة والنمط الاقتصادى فهما كما لدى القادمين الحديث العهد .

اقام انسياء الايفينكيين القرييون - من حيث اللغة ومن حيث الدم - منذ قرابة الف سنة دولة الشورتشينيين الجبارة على ضفاف امور التي انتصرت على الصين بعد صراع طويل واضطحت جملة من مناطقها وقرضت الاقواتة على مناطق اخرى ، ثم انهارت تحت ضربات مغول جنكيز خان .

منذ عهد قريب ظهر في سيبيريا شعبان كبيران ، وهما البورياتيون والياقوتيون . البورياتيون اسلاف السكان القدماء لما وراء بايكسال والمغول الذين قدموا الى هذه الاماكن زمن حملاتهم الكبيرة . ان عدداً من القبائل التي استقرت عند بايكال انطلق لاحقا بعيداً الى الشمال واختلط ايضاً وايضاً بالسكان المحليين القدماء ، مما شكل بداية نشوء الشعب الياقوتى .

... ان اى سرد للقبائل والشعوب التي ساعدت فسي تشكيل اغلبيية الشعوب على الأرجح قد يبدو قصيراً اذا قورن

بأنساب شعوب آسيا الوسطى . لقد كانت غنية بحيث كانت تجذب دائماً الضيوف والفتاحين على حد سواء .

تقع آسيا الوسطى على الطريق الألى من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . ولم يعرض عنها الملوك الفرس ، ولا اسكندر المقدونى ، ولا العرب ، ولا الصينيون ، ولا الهون ، ولا الاسقوثيون . وكان هناك ايضاً الغزو السلجوقى وغزوات اخرى . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر كان طريق الكالميكين يمر عبر آسيا الوسطى . والى الآن تسمى هنا بأصرار القبور القديمة ، التي مضى عليها احياناً آلاف السنين بالقبور الكالميكية . (كما تسمى القبور القديمة في ضواحي موسكو وغربها بالقبور الفرنسية) .

وطبعاً ان هذه (الشعوب جميعاً لم ترحل بقضها وقضيضها . فقد بقى بعضها لا فى الأرض فحسب ، بل على الأرض ايضاً ، ان سيمالكو ، الكاتب من الهما - انا الذى خط قلمه قصصاً رائعة ، يصف بأسلوب لا يخلو من الفكاهة المدينة النموذجية في آسيا الوسطى على النحو التالى :

«لقد وجد اسكندر المقدونى هناك حضارة ارفع وأعرق من تلك التي خلقها في اليونان . انه ، وقد استولى على خانايا بعد حصار طويل وعشيد ، بقى فيها قلمته وترك فيها حامية وتاج مسيرته . وكما كانت دهشة اسكندر المقدونى كبيرة حينما رأى في طريق العودة ان جنوده اصبحوا خانايايين حيرتة ! وكانوا جميعاً يرتدون سراويل ضيقة وقمصاناً مبرقشة على الطريقة الخاناياية ، واللغة التي كانوا يتكلمون بها لم تعد اللغة الكلاسيكية الصافية التي تعلموها في المدرسة . ولكن الاسم ، هو انهم تخلقوا بالانسلق الخاناياية التقليدية . . . وفيما بعد تطور تاريخ خانايايد على هذا الشكل الفائق البساطة . ان اياً من الفاتحين العظام في الجنوب والشمال والغرب والشرق لم يعف عن خانايايد بسبب موقعها الجغرافى المواتى ، في وسط الأرض . . . » .

من آسيا الى اوربا

حاول اوميني فامبيرى ان يجد في جولته في آسيا الوسطى ، وفي اواسط آسيا ، في اماكن تكتنفها الاسرار ، ومعشورة على الاوربيين غالبا ، ان يجد اولئك «المجريين القدماء» من آسيا» التي كانت ذكرهم حية في قلب الرأى الينتادى المسن .
تحدث الاساطير الهندغارية القديمة عن المجريين كاقرباء للهنون وتؤكد ان انفساء آخرين للمجريين يعيشون في فارس .

من المفهوم ان كلمة «فارس» يمكن لها الا تعنى بالنسبة الى راوى اخبار قديم مجرد البلد الذي نعرفه بهذا الاسم . بل قد تعنى ايضا جزءا كبيرا من آسيا .

ان الاخوين الاسطوريين خوفور وعجر خلفا في خصال جولتهما ابنتى ملك قبيلة الالانيين ، احدى القبائل الساماتية التي عاشت في الفترة من القرن السادس الى القرن الرابع قبل الميلاد في الاراضي الممتدة من الاورال الى الفولغا ، ومن ثم شمال البحر الاسود . ومن هاتين المراتين نشأ - كما نقول - الحكاية - الهون ككلم ، وهم الهندغاريون انفسهم .

في هندغاريا بقى العلماء ، وكذلك الناس البسيلا ، وحتى الحكام في حالات ليست بالنادرة ، مئات عديدة من السنين يتذكرون قدوم اسلافهم الى عنا من بعيد ، من الشرق ، من آسيا ، ولم يكونوا يتذكرون فحسب . بل كانوا ايضا يربطون آفامهم الخاصة بالوطن البعيد والاقرباء المجهولين . لعل ذلك لان المجريين - الهندغاريين هم الشعب الوحيد في وسط اوربا التي ينتمى الى الاسرة اللغوية الاوغرية - الفنلندية . والجزيرة المجرية يتكثفها «البحر الهندى الاوربي» من كل الجهات . من جهة يعيش السلافيون ، ومن جهة اخرى الالمان والمانساويون ، ومن الجهة الثالثة الرومانيون . . .

كان الانثروبولوجيون واللغويون والارثولوجيون الهندغاريون يذهبون المرة تلو المرة الى الفولغا والاورال ومنطقة القطب وسيبيريا الغربية وآسيا الوسطى ، راغبين في ان يعثروا على آثار اسلافهم ويندسروا على نحو افضل

في عام ١٨٤٨ ، عام النهوض الثوري العاصف في كل بلدان اوربا تقريبا ، انتفض الهندغاريون (الذين يسمون انفسهم بالمجريين ، كما هو معروف) ضد الملكية النمساوية المتحكمة في اراضيهم ، وقد دعت الثورة الهندغارية رغم المقاومة البولوية للندافعين عنها . ومن مدينة احتلها الجنود النمساويون هرب حدث عسرج وينعت مؤلا ، اللقاتلين بالجلادين بكل اللغات التي يعرفها . وكان يعرف الكثير من اللغات ، لانه درسها منذ طفولته . هذا الضبي الاعرج المشرد اسمه ارميني فامبيرى . وهو اسم احد دوايا ، وذلك على الاقل بالنسبة الى الجغرافيين والمؤرخين والمستشرقين والمفكرين في العالم بأسره . لقد قام ارميني فامبيرى ، اللغوى الرائع والباحث المتقد ، برحلات مدشدة ، متكسرا بزي درويش عربى احيانا ، وبزي تركى او فارسى احيانا اخرى ، وادعش بمعارفه الوؤراء الغربيين والادراء الشرقيين . . .

اما حينذاك . . . فقد «قابل في حقل عند الدانوب عدة جنود نجوا من الاسر .

كانوا غيبرا ، وقد ارتسمت الهزيمة على وجوههم -

قالوا :

« انتهى كل شىء » ، سوف نستلقى ونموت . ضاعت حريتنا !
عندئذ نهض راع مسن وقال لهم بصوت ابع ومتهدج من الشيوخة :

« على مهلكم ، يا شباب ! في كل مرة تقع في مصيبة يأتى الى نهدتنا المجريون القدماء من آسيا : فنحن اشوان ، اطمئنا ، ان ينسونا الان ايضا » .

مكذبا وصف الشاعر والنائر السوقييتى تيقولاى تيقولاى هذا المشهد في قصته الرائعة المؤثرة ، بالنسبة الى الانثوغرافيين - المؤرخين على الاقل ، «فامبيرى» .

اقرباهم الاكيديين والمحتلمين . ولعل رحلة السراهب الدومينيكانى يولييان الى الشرق كانت اعجب بعثات «البحث عن الاجداد» هذه . كانت ماثرة ومفامرة دفعة واحدة . فقد كان يولييان يتسم بالفصول والعناد على حد سواء . سار مجتازا اراضى اشتملت بعروب مدبرة جديدة وقاطعا سهوبا تبيع بقطاع الطرق ، او ، بتعبير ادق ، برجل لا يفوتون فرصة للاغتناء . فقد فى الطريق مراقبيه وجرده من نقوده ، ولكنه ، وقد اصبح ضعيفا وحيدا ومعدما ودون حماية ، بقى يسير ويسير الى الشرق . ولكي يجد يولييان ولو شبيها من الحماية والطعام ، كان ينضم الى القوافل ويقدم اسبابها ، مرغما نفسه على العمل وقائما بالذل ليتول القوة من اجل متابعة المسير .

وعلى الفولغا ، عند البولغار قابل يولييان مجرية آسيوية متزوجة ببولغارى . وبمساعدة منها ومن اقربائها اكتشف فى الاورال «منغارايا الكبرى» ، الوطن الاصلى لشعبه وسمع اللغة المجرية وحدث هؤلاء الاقرباء الجدد بالدولة الهنغارية الجبارة على مجرى الدانوب الاوسط وعظهم . . .

ولكن هذا الاكتشاف الرائع ، الذى تحقق منذ سبعين سنة ونيف ، كان مثاقرا تقريبا . لقد نشر المجرىون الغربيون على «منغارايا الكبرى» الشرقية ، وكانوا ليعرفوا قريبا انه لم يعد لها وجود ، اذ ان ضربة التتر - المغول وغزوة باتو الرمية انتهالت ايضا على ارض المجرىين الاوراليين .

ينبغى التنويه بان التتر بعد الغزو مباشرة ادرجوا المماريين المجرىين ، حسب تقليدهم القديم ، فى عداد جيشهم . وبقيت لبعض الوقت فى الازمة الهضبة التترية وحدة مجرية بين غيرها من الوحدات «القومية» ، ان شئنا استخدام تعبير عصرى .

ان المجرىين المهزومين والمستثنين اختلطوا فى نهاية المطاف ، على ما يبدو ، بالشعوب المجاورة ، ولا سيما باليشكيريين . (ونشير الى ان بعض الرحالة العرب فى القرن الثانى عشر ، اى قبل حملة باتو بقرن ، كانوا يعتبرون

ان هؤلاء اليشكيريين بالذات هم المجرىون الآسيويون) . تؤكد التسميات الجغرافية مرة اخرى صلة المجرىين بالاورال ، يوجد فى يشكيريا ، مثلا ، نهر ساكامارا رافد الاورال . وهذه الكلمة نفسها ، التى تستخدم اسما للنهر اليشكيرى ، تكرر مرارا على خاوطه منغارايا المعاصرة . وغلاوة على ذلك ، فان ثلاثة من اصل اثنتى عشرة عشيرة يشكيرية اساسية يعرفها التاريخ كانت تحمل الاسماء نفسها لثلاث قبائل مجرية من اصل سمع قدمت الى الدانوب .

ولكن المجرىين اتوا الى الاورال من مكان ما ايضا . ان آثار المجرىين الاوائل هؤلاء يبعث عنها فى سيبيريا الغربية ، وفى كازاخستان ، وفى اوزبكستان .

اكتشفت مؤخرا مقبرة مجرية قديمة على ضفة كاما اليسرى ، فى مجراه الاسفل . وفى راي عالية الآثار خاليكوف ان اراضى منغارايا الكبرى كانت تشغل الضفة اليسرى لكاما الاسفل وجنوب الاورال الامامى ، وكذلك متحدرات الاورال الشرقية جزئيا . وتعتبر خاليكوف ان الهنغارىين الاوائل ظهروا فى جنوب الاورال الامامى فى اواخر القرن السادس ، ربما بعد ان انتفض بعض القبائل الاوغرية فى الخاقانية التركية ومنياو بهزيمة ساحقة . وقد شملت هذه الانتفاضة منطقتى آسيا الوسطى وكازاخستان .

وقيلها كان اسلاف الهنغارىين القدماء ، كما تفترض خاليكوف ، «فى النصف الثانى من القرن السادس . . . جزءا من الخاقانية التركية الغربية وادوا بالاشتراك مع التركيبين دورا كبيرا فى الحياة السياسية لآسيا الوسطى وايبران الساسانية . وقد خلف هذا العصر اثرا قويا على الثقافة اللاحقة للهنغارىين القدماء : اذ ان المواضيع والبيكسات الايرانية سائدة فى مختلف عناصر الميتولوجيا والفن التشكيلى فيها» .

وصل اسلاف الهنغارىين القدماء الى آسيا الوسطى وكازاخستان ، قسى راي خاليكوف ، منذ القرن الرابع

الميلادي ، حينما سلبهم ميل الرجل الذي اجتاحت سيبيريا الجنوبية عن اقربائهم ، اوغريي اوب .

وتسمير خاليكوف بشكل خاص الى ان عنغاريا الكبرى الاورالية عقدت من اواخر القرن السادس الى بداية القرن التاسع . صلات بالسهب ذات الغابات في غرب سيبيريا وشمال كازاخستان ، حيث بقيت القبائل الاوغرية وثيقة القربى بالهنغاريين القدماء . وهذا ما تشهد عليه باقنات مواد حفريات في الاورال تؤكد تبادل الحاجيات بين هاتين المنطقتين المتباعدتين .

اننا نعرف عن المجرين الذين رحلوا من الاورال الى الغرب اكثر بكثير ، وان كانت معرفتنا ايضا قليلة نسبيا . يبدو ان عددا من القبائل المجرية الاورالية شادرت مناطقها الام في اواسط الالف الاول . ربما دفعت الدجرجين الى هذا موجة جديدة من الهجرات الكبرى للسهب .

في اواسط الالف الاول الميلادي صار المجريون يعيشون في حوض الفولغا ايضا . وهذا البلد المجرى الجديد الواقع على ضفة الفولغا اليمى يحمل اسما جميلا ، كما يبدو لنا ، وهو ليفيديا ايثيلكوزا . وما لبثت قبائلهم البعلية ان اعترفت بسلطة الخاقان الغزوي الذي كان حينذاك حاكم دولة كبرى تشمل شمال القفقاس وجزءا من منطقة الفولغا والاراضي المجاورة . في ذلك الحين انضمت الى الاتحاد المجرى واتخذت اللغة المجرية لغة قبائل خزرية كانت تنتقل في الجوار .

يبدو انه في ذلك العهد اخضع الى تسمية «المجريين» الذاتية القديمة اسم سلال جديد ، وهو الهنغارون المأخوذ من اسم شعب الانونغوريين التركي الذي عاش المجريسون قراية قرن في اراضيه .

انتقل مركز اقامة المجرين الى الغرب بالندريج . وصارت ليفيديا الجديدة تقع على جانبي الدون . وعاش المجرين بين القبائل السلافية ، بل ربما بشكل متداخل معهم . واقام اتحاد القبائل المجرى علاقات ودية ببيزنطة ، وكانت هذه الدولة

تجر الرحل الى حروبها ، فغيرت بشدة في نهاية المطاف حياة سكان السهب الطلقاء .

واذ نفذ المجرين اتفاقية مع بيزنطة ، وجهوا في القرن التاسع ضربة قوية الى المملكة البلغارية في مجرى الدانوب الاسفل . ان البلغار الذين منوا بيزمة نكروا ودوا بعد عدة سنوات بحملة لا هودة فيها على ليفيديا . وهذه الحملة نفلتها بصورة رئيسية قوى البيشنيغيين الذين ظفروا قبل ذلك بامد قصير في السهب المتاخمة للبحر الاسود ، حيث كان يعيش المجرين . وقد اختار البلغار والبشنيغيون لحظة مناسبة جدا للهجوم . اذ كان الجيش المجرى وكل الرجال القادرين على حمل السلاح في حملة بعيدة حينذاك . وراكب ليفيديا بلا حماية . وحينما عاد الجيش الى الوطن ، رأى انه بقي . . . بلا شعب .

غامر المجرين هذه الارض . وتقول الحكايات ان الهجرة لم تكن عفوية . ويبدو ان «العنوان» حدد مسبقا : البسلاد الواقعة في المجرى الاسفل للدانوب ، مكان الاقليم الروماني بانونيا .

وبعما بدا الامر غريبا . فان اسطورة على وجه التحديد فادت المجرين الى بانونيا ، وهذه الاسطورة تقول بان اسلافهم يعود . . . الى اتيلا . ولا يزال يعيش الى الآن وسط الشعب الهنغاري تقليد يفاده ان اصل المجرين يعود الى الهون . وهذا على ذلك يهزم المؤرخون عادة اكتشافهم ويقولون ان عددا من القبائل الاوغرية قد انجر طيعا الى الهجرة الكبرى للسهب ، وان جيوش اتيلا كانت تضم مجريين على الأرجح ، ولكن الهون رقادهم لم يكونوا مجريين ، بالتأكيد .

ينبغي القول انه بعد موت اتيلا وعزيمة جبرشة ذهبت قلوب الهون تحت قيادة واحد من سلمو من ابناء الملك الرعيب الى شمالي البحر الاسود . وعاشوا هناك كقوم منفصل قراية قرنين الى ان ذابوا هائيا في سكان هذه المناطق حينذاك . وكان في رجع الهون ، الامر الذي لم يبرهن عليه ، والحق يقال ، ان يقابلوا المجرين في منطقة البحر الاسود

ويختلطوا هناك بهم بالذات . ولا يستبعد ان يكون هذا اساس اسطورة القربى بين الهون والمجريين .

ونضيف ان بعض العلماء الهنغاريين يفترضون الآن ان المجريين الاوائل ظهروا في الكريات وغربه منذ القرن السابع . واذا كان الامر كذلك ، فان جمهور المجرين الاساسي قد انطلق فعلا في اواخر القرن التاسع الى الغرب على الطريق الذي مهده اقرباؤهم .

ويقترض الارخبولوجي الهنغاري لاسلو ان الاتسراك الانوغوريين هم الذين اتوا الى الدانوب في حوالي سنة ٦٧٠ ميلادية مع الاتراك البولغار . وقد اخذ هؤلاء الانوغوريون اللغة الهنغارية فيما بعد .

ان الاسفار المجرية في القرون الوسطى تقول مباشرة ان المجريين ذهبوا الى الدانوب ليشملكو ارب اول زعيم لعشيرة الموش (الموس) اتيلا . وفي غضون ذلك يعلن ان الموش من اخلاف «الملك ماجوج» ، غالبا ما كان اسما الجبارين ماجوج وماجوج يطلقان في القرون الوسطى على القبائل الرحل التي كانت تبعث الهلع في الاوربيين المتحضرين . وقد ربطت الاسطورة ماجوج بالهون ، وعكس مدون التاريخ ، الذي يفخر باصله الهوني ، التقليد الهنغاري المتبع في زمانه الذي كان يعتبر ماجوج موضع اعتزاز ، لا مصدر رعب .

ان رحيل المجريين عن الدون حصل في عام ٨٩٥ تقريبا . لقد اجتاز الرحل النهرات الجبلية في الكريات ووصلوا الى رجاب يانونيا . وكانت قوتهم الرئيسية مكونة من القبائل السبع التي اتينا على ذكرها ، وبينها القبائل ذات التسميات «البشكيرية» : البورماتيون ، الكبيس ، اليينيه . و ربط الزعماء السبعة لهذه القبائل انفسهم وقيادتهم بمعاهدة تحالف ابدية دعوها بالدم .

تقول اسطورة هنغارية ان المجريين اشترى يانونيا من الامير السلافي مورافيا بجواد ابيض وسرج ولجام ، ولكن الامير اخذ بالمعاهدة فيما بعد ، فاضل الهنغاريسون الى الاستيلاء عليها .

في الارض الخصبة عند الدانوب وجد مكان للقبائل الجديدة التي استقرت في الارض بسرعة ، واختلط المجريون بالسكان المحليين ، ولا سيما بالسلافيين ، ولم يكن عند القادمين من الدون خيار آخر في الزايف ، حيث ان المجريين بقوا بلا نساء ، تقريبا بعد الفرية التي تلقوها من البلغار والبيشينيغيين . ويمنح القول ان الكلمات التي تخص نسي اللغة الهنغارية المسكن والتعليم والزراعة وبناء الدولة هي برمتها تقريبا من اصل سلافي .

ولا يد عن التنويه بان حفريات القبور الهنغارية العائدة الى القرن العاشر في الدانوب الاوسط ، بينت ان المجريين القدماء كانوا في ذلك الزمن يشبهون جدا من الناحية الانثروبولوجية السرماتيين الذين عاشوا في مستهل القرن الاول الميلادي في منطقة مجري الفولغا الاسفل واوكرانيا وعند التسواطي الجنوبية لبحر ارال . اي ان المجريين وصلوا الى الدانوب كاوربيين نموذجيين . هذا في حين ان الاوغريين ، الذين اقلقوا من سيبيريا الجنوبية ، كان عندهم الكثير من الملامح المغولية . وبالتدريج فقد الانوس المجري اغلبها ، حيث اختلط في طريقه الى الغرب بقبائل اوربية بظهورها . وهكذا اصبحت يانونيا - الى الابد هذه المرة - وطننا الجديد للمجريين .

ان ارباد بن الموش ، قائد قبيلة المجر ، اقوى القبائل السبع ، اسس سلالة الارباديين ، وتسمى الشعب باسمه باسم قبيلته .

ولكن تأسيس المملكة الهنغارية لم يضع حدا لهجرة قبائل جديدة وجديدة الى ارض يانونيا .

في القرن الحادي عشر استقبل الهنغاريون في ارضهم الاتراك - البيشينيغيين الذين طردهم من شمال البحر الاسود اقرباؤهم البورغاريون ، وهم اتراك ايضا من حيث اللغة . وبعد سنتي سنة استقبل وادي الدانوب الضيفاء موجه جديدة من البولونيين الذين هربوا من الغزو المغولي

الى الغرب ، والى الآن تبرؤ بين الشعب الهنداوى مجموعة
اعراقهم المباشرين عن البارتوسيين .

لعل الرجل كان يجدهم السبب الهنداوى السهير ، اما
السلوك الهنداوى فكانوا بحاجة الى معارفين لبقاومة الضغط
الالمانى من الشمال والغرب ، وللصراع ضد اتباعهم . ومن
قرن الى قرن كانت هذه الاراضى الغضبية على الدناوب الاوسط
تحافظ على جاذبيتها بالنسبة الى المزيد والمزيد من الشعوب ،
فكم من الدروب الشاقة كانت تنتهى هنا ، فى وسط اوربا
فى مستهل القرن السادس عشر وقع جزء من هنغاريا
تحت سيطرة الامبراطورية التركية ، وقيما بعد دخلت بأسرها
فى بنية الدولة الهابسبورغية مع النمسا والاراضى التشيكية
وسلوفاكيا وكرواتيسا وجزء من اوكرانيا وجزء من الصرب
الخ . . ولم يكن للجرمانيين وطن بمثابة دولة . . .

سلطنة العادات ، مستحدث هنا بيزيد من التفصيل عن
شعب اسبوى الاصل ، ولكنه الآن مبعثر فى ارجاء شاسعة من
الارض - ونعنى الفجر (مع انه ينبغي القول ان الكثير من
العلماء متفقون ان الفجر قد انقسموا الى عدة اتوسات
- وفق المناطق الكبيرة التى يعيشون فيها) ، ان عدد الفجر
فى كوكنا لا يتجاوز بضعة ملايين ، ولكن ينبغي التحدث
بمزيد من التفصيل عن اصل هذا الشعب الذى يشكل منذ
قرون عديدة لغزا محيرا سواء بالنسبة الى الناس الذين عاشوا
بينهم ، او بالنسبة الى العلماء . ومن الهام ايضا التحدث عن
هذا لان الفجر هم الشعب الوحيد الذى قدمته الهند الى اوربا
(فى السنوات الثلاثة آلاف الاخيرة على اى حال) مقابل الكثير
من الشعوب التى اتت من اوربا الى الهند . وبالنسبة ،
يعيش الكثير من الفجر فى الهند الى الآن ، كما يعيشون فى
كل بلدان العالم تقريباً .

حدث الفجر انطباعا شديدا فى اوربا فى القرن الخامس
عشر ، لقد قابلهم بطر والتر سكوت ، الباحث الشاب عن
المغامرات كوينتين دوروارد . انهم يبدوون للشباب اقرب الى

ابناء جهم ، رغم انه يشير بشكل عملى الى انهم «سود الرجوء
كالافارقة ، وللكثير من الرجال لحي متجمعة سوداء» . وكان
على كوينتين بشيئة الملك ان يتجول مع الفجر طويلا .

يسال كوينتين دوروارد عجريا : «ما هى موارد عيشك ؟»
«اكل حينما اجوع ، واشرب حينما اشعر بالعطش ،
وليست عندى اية موارد للعيش الا ما يمنعه القدر مصادفة» ،
ولكن «عندى حريى . . . انا لا احنى عاتى امام احد ، ولا
اعترف باحد . اذهب الى حيث اريد واعيش كما استطيع واموت
حينما تحل ساعتى» .

يتبقى الاعتراف يانه هما كانت حياة الفجر رومنتيكية ،
فان والتر سكوت يبالغ فى هذه الرومنتيكية . كان رئيس
العشيرة ، الشيخ ، يتمتع عند الفجر بسلطة كبيرة ، وكانت
سلطات البلدان ، التى يظهر فيها الفجر ، تجعلهم بسرعة
ان حرية الرجل ليست سوى شئ نسبي .

قدم الفجر الى اوربا (كما قدموا الى آسيا الغربية
والوسطى ، والى افريقيا الشمالية) فى القرون الوسطى ، فى
وقت غير مناسب بالجرة لظهور هؤلاء الغرباء المشبهين .
كانت بشرتهم السوداء تشير بوضوح الى صلتهم بابليس ،
اما معتقداتهم الغريبة ، التى لم يكن الفجر يفلحون دوما
فى اخفاها ، فكانت تثبت عليهم نهائيا خدمة كل السباطين .
وكان مبل العجريات الى قرابة الكف مجرد ذريعة لفسادية
للملاحظات .

كان الكثير من الرجال الفجر حداثين ممتازين . ونفى
ذلك الجين كانوا يعتقدون بجد انه يصعب على الحداث العمل
بدون ان يتفق مع الشيطان ، وحتى انهم كانوا تحفظا لكل
طارى يطلبون من الحداث فى البروش الاوربية فى القرون
الوسطى ان يقسم الا يعتقد اتفاقا كهذا .

وخلاصة القول ، كان الفجر مقننيا عليهم بالملاحظات .
وقد بدأت هذه الملاحظات ، لم يبد مشاة الفجر غامضا للغاية
آنذاك . فقد تحدث الناس الذين يؤمنون بالغرافات على نحو
خاص عن جهم ، واحببت كل الآخرين علما باحاديت الفجر

منع المفكر الاسياني والاباطرة النمساويون الفجر تحت طائلة الطرد ، واحيانا الاعدام ، من العيش على التمدد القديم وامروهم بالإقامة في المدن . وحول البريار والاديرة فسي رومانيا الفجر الى عبيد - لهم او للدولة . ولكن اشنع الانتظار لم تات على اى حال الا في القرن العشرين ، بعد ظهور الفاشية . كانت هناك حاجة ماسة الى الفجر : انهم حدادون وسكايون ممتازون ، وكانوا يزودون الجيش بالسلاح ويدفعون ضرائب كبيرة الى الخزينة . (تمة اماكن كثيرة يتحدثون فيها عن الحداد باحترام كبير : «التقن المهنة على نمط غجري» . وحتى ان عالم آثار غلبته الحماسة المفرطة اكد ان الفجر ظهر في اوروبا منذ قرابة اربعة او خمسة آلاف سنة ، وانهم نشروا صناعة الحدادة في كل ارجاء العالم) .

ان كون الفجر رحلوا من الهند امر ليس فيه ما يدعو الى العجب . وليس تمة ايضا ما يدعو الى العجب في انتشارهم في ارجاء العالم كله . يبقى شيء واحد يدعو الى العجب : لماذا لم يذب الفجر في الشعوب الأخرى ؟ فقد حدث هذا مرارا مرورا ، لشعوب أكثر عددا أو لشعوب أكثر تطورا من الناحية الثقافية .

في بلغاريا ، والحق يقال ، صار الفجر يعيشون حياة حضرية منذ زمن بعيد ، وحتى انهم نسوا لغتهم . ولكن الكثيرين جدا - في كل اوروبا وافريقيا الشمالية وآسيا الغربية - تسكوا سورا بلغتهم . او يعادتهم . لم يستطع الدين ان يمتلح هنا بحدود خاص . فسي البلدان الاسلاميين اعتنق الفجر الاسلام فوراً ، وانتصروا في البلدان المسيحية . وهذا لم يمنهم ايذاً من البقاء متمسكين بخرافاتهم على الطريقة الهندية في الزون الوسطى .

ان لعق الفجر بنمط الحياة المتنقلة المتجولة ايجابهم متمسكين . فويل انتقل هذا النمط باثرائة ؟ كلا ، طبعاً . التريبة هي التي فرت هذا . ان اللبائل الغجرية ، التي خرجت من الهند ، كانت لا تزال من نواح كثيرة في المرحلة العشائرية من تطور المجتمع . كانت سلطنة الكبار في الاسرة

على الصغار ، والاباء على الاولاد ، والزعماء والشيوخ على الأفراد السطاء . جواره عند هؤلاء الناس الاحرار ظاهرياً . وهي سلطة لا تعتمد على القوة بل على الهيبة والوقار ! والشئ السدئ استطاع هذا المجتمع البدائي ان يفعله على نحو باهر هو تربية الاجيال الجديدة على نمط الكبار وشاكلتهم ، على الاخلاص للعادات وقواعد الحياة المتعارف عليها . ولعل هذه القدرة على التربية كانت الشيء الرئيسي في حفظ الذات لدى الفجر على امتداد مئات عديدة من السنين .

عصير مكشفي اميركا الاوائل . منذ ثلاثين الف سنة تقريباً وصل اناس قبيلة مجهولة الى مضيق بهرنغ . وبالمناسبة ، ربما لم يكن لهذا المضيق وجوداً اصلاً في ذلك الحين . وكان مكشفي اميركا الاوائل قلائل . كان على الناس البدائيين ان يعيشوا مجموعات صغيرة جدا ويمارسوا الصيد وجمع النباتات ليقتاتوا بشكل من الاشكال . عشرة رجال متجهين ، جانبين يحملون فؤوساً حجرية وخرافات ومزاويق ، وعشر نساء يتنقلن على اكتافهن المؤونة السمحية والاطفال الرضع . لقد وصل الاميريكيون الاوائل الى ارضهم على الجليد شتاءً اذا كان المضيق موجوداً ، وفي اى فصل من فصول السنة على اليابسة اذا لم يكن موجوداً . وكانت ارضاً مقفرة .

كان في انتظار القادمين هدير عظيم . ففي خلال ثلاثين الف سنة استوطن اخلافهم قرابة اربعين مليون كيلومتر مربع ، اى اميركا كلها باستثناء المناطق الغطية في أقصى الشمال .

لقد حدث الكثير في غضون ثلاثة قرون ، على امتداد الف ومئتي جيل . ومن قبيلة صغيرة واحدة برغت مئات ومئات من القبائل . وانقسمت اللغة التي كانت تتكلم بها القبيلة الى عشرات اللغات ومئات اللهجات . والى الآن يتناقص العلماء : هل وصل هؤلاء الناس الاوائل وحدهم الى اميركا ؟ ألم تكن هناك موجات عارمة أخرى من القادمين الى القارة الاميركية ؟ ان الامر يستحق النقاش .

ان اهم حقيقة تدعم فكرة الاصل الواحد ، المشترك للهنود هي التشابه الشديد بين مختلف القبائل من حيث توزيع فئات الدم .

... لقد حاول الأطباء منذ مئات والوف السنين شفاه المرضى بحقن دم جديد مأخوذ من الناس في عروقهم . ولكن هذا غالبا ما كان يقتل عرضا عن ان يشفى . لماذا ؟ لانه يمكن ان توجد في الدم « الغريب » مواد تقتل كريات الدم الحمراء في المريض . وقد اكتشفت هذه المواد . وسميت بحرقين لانتيبين : العامل A والعامل B .

من الواضح ان الدم ذا العامل A او العامل B لا يمكن نقله الا الى من يوجد عنده هذا العامل ، وكان عامله المألو . ووفق العاملين B,A يمكن بسهولة تقسيم الناس جميعا الى اربع فئات رئيسية . في دم الفئة الاولى يتعدم العاملان كلاهما . في دم الفئة الثانية لا يوجد الا العامل A ، وفي دم الفئة الثالثة لا يوجد الا العامل B ، وفي دم الفئة الرابعة يوجد B,A على حد سواء .

... لا يوجد بين هنود اميركا من عنده دم في العامل B . ومن رأس الاسكا الى يروخ بنسا لا يعيش الا الناس من ذوى فئتي الدم الاولى والثانية . وحتى انه قسى جنوبى هذا البرزخ - سوا ، في ادغال اميركا او في الصحراء الباردة لارض النار - لا يوجد الا اناس من ذوى فئة الدم الاولى . ليس لمة اناس هنا من ذوى العامل B ، ولا من ذوى العامل A .

ما معنى هذا ؟ معناه انه لم يكن بين اسلاف الهنود ايضا اناس من ذوى العامل B ، ويمكن لهذا ان يحدث اذا كان المستوطنون الارائي قلة ، ولم تات بعدهم موجات جديدة من المستوطنين .

ان غياب العامل A في اميركا الجنوبية كانما يدعم ايضا الفرضية الثالثة بقدم موجة واحدة من آسيا . لتسد احتياجات هذه الموجة الى الوف مؤلفة من السمينين لتجتاح

اميركا الشمالية بأسرها ، من الاسكا الى المكسيك ، وتصل الى « الغمر » النحيل للفترة الاميركية ، الى يروخ بنسا ، ولعله تكررت حتى القصة القديمة : لم تعبره الا مجموعة صغيرة من الناس الذين اصبحوا اسلاف كل هنود اميركا الجنوبية . ولم يكن بين هؤلاء الناس - بعضى المصادفة ، طبعاً - من يحمل العامل A .

ان العامل B (وحده او مع العامل A) موجود قسى دم اثني عشر في المئة من الانكليز وخمسة مجوع الالمان . وفي شرقي آسيا ، مثلا ، يشكل الناس من ذوى فئتي الدم الثالثة والرابعة معا قرابة نصف السكان .

ومن شأن اى مهاجرين ان يغيروا نسبة فئات الدم في اميركا . ولكنها بقيت . وهذا معناه . . . نعم ، يبدو وكأن الامر هكذا . ولكن العلماء انفسهم الذين يدرسون توارث فئات الدم ، يتحدثون ايضا عما يلى . اذا كانت نسبة الناس الذين يحملون عاملا معيناً من الدم قليلة ضمن مجموعة متعزلة ، فحتمة فرص كثيرة جدا ليزول عامل الدم هذا مع الزمن اجسالا . اى انه ربما كان بين القادمين الاولائي اندى من فئة الدم الثانية ، ولكنهم كانوا قلائل . وربما اى قيسا بعد مهاجرون من فئة الدم نفسها . ولكن لا بد وانهم كانوا قلائل جدا . بحيث ان القادمين الجدد ذابوا في الهنود الذين كانوا قد تكاثروا قبل قدومهم .

اما انه اتي على اى حال قادمون جدد قيسا بعد ، فامر يمكن التاكيد منه . وهذا مثال ربما لم يكن اهم الامثلة ، ولكنه اكثرها مدعاة للثقة . في اراضى الاكوادور الحالية كانوا يصنعون منذ بضعة آلاف من السنين سيراميكاً رائعاً ، وغالبا ما كانوا يزيتونه ، حيث يصفلون جبلا مجدولا على الغضار وهو لا يزال رطباً . ولكن هذه « الزخرفة بالعيال » والكثير من التفاصيل الاخرى للقدور الاكوادورية راحها العلماء في مكان آخر تماما ، في اليابان .

فن علم من صنع القدور : الهنود علموا اليابانيين ،

أو بالعكس ؟ لا مجال هنا للخلاف . أن السيراميك الياباني العريق أقدم من السيراميك الاكوادوري بكثير . فهل كانت هناك صلات قديمة بين اليابان وأميركا الجنوبية ؟ كلا ، هذا مستحيل . ان المحيط الكبير او الهادى كبير فعلا ، ولكنه ليس عادئا بالكرة ، وتطوى التيارات والرياح على اعمدة نافذة بالنسبة الى من يهجر عبابه . ان التيارات الرئيسية والرياح الدائمة هنا تتجه من الشرق الى الغرب . وليس عنها ان تور هيبيردال قد علم من الشرق الى الغرب - من يبرو الى پورتينيزيا - على شوقه الشميسر . وليس عبثا ، على الأرجح ، ان الرحلات الاولى حول العالم ، بدءا من اجلان ، قد اقلعت من اوربا ، ثم من اميركا الى الغرب . قاطعة المحيط الهادى ، في انسب اتجاه . وان كان ذلك من غير معرفة . اما محاولات اجتياز اكبر المحيطات من الغرب الى الشرق فبقي الاغلقاق مصيرها امدا طويلا .

لهذا يمكن افتراض ان فرارب الصينيين الهنود قد انجرفت مرارا الى الفلبينيين او اليابان . ولكن هذا لم يسفر ، كما يبدو ، عن آثار تاريخية . ولكن حينما انساق قارب ياباني ببعض المصادفة الى اكوادور ، اقتبس الهنود من أصعابه الفن الجميل لصنع القدور شبيهة . ولكن هذا «الاستيطان الياباني» حدث منذ عهد قريب نسبيا ، حينما بلغ عدد سكان اميركا الملايين ، ولم يكن في وسع اثنين او ثلاثة او حتى عشرين من اليابانيين (رغم يمكن ان يكون عددهم في قارب ؟) ان يغيروا في بنيتهم .

يؤكدون انه عثر في اميركا الوسطى على عملة رومانية قديمة . ويتحدثون عن آثار للثقافات المصرية القديمة والفينيقية ، ولليهودية القديمة احيانا عند بعض الفينانسل الهندية سواء منها المنقرضة او الحية الى الآن . لا توجد براصين دامغة على هذا ، ولكن من الممكن جدا ان سكان شواطئ البحر الابيض المتوسط ، كانوا يصلون الى

الشمالى ، الغربى لاطلس من حين الى آخر . بيد انهم لا يعثرون هنا على آثار انثروبولوجية - في مظهر الهنود - للجنس الاوروبى .

اقام في اميركا الشمالية بعد الميلاد البحارة الايرلنديون القدماء (وهذا ما يرمض عليه تقريبا) ، ومن ثم النورمانيون (الامر الذى يرمض عليه نهائيا) . ويسأل بعض الانثروبولوجيين الاميركيين العتور على علامات للتأثير النورمانى في مظهر جنود السيور .

ولكن ربما كانت ملحوظة اكار لدى بعض قبائل اميركا الجنوبية سمات قريبا من الافارقة ، وحيانا من الاستراليين : البشرة القاتمة نسبيا والشفاة الغليظة .

كيف استطاع الافارقة او الاستراليون الوصول الى اميركا ؟

يمكن ، طبعا ، تذكر المحاولة الشهيرة للملاحة الكبرى التى قام بها في القرون الوسطى حاكم احدى دول افريقيا الغربية . لقد اقلع الى المحيط مع جيش جرار في بضعة آلاف من السفن الكبيرة . . . وفى وسعنا ان نلهم بناء على تقسيم السفن ان اغلبها على الأرجح لم يتحمل الرحلة . وربما ينطبق هذا على السفن جميعها بلا استثناء . ولكن عددها كان كبيرا جدا . . . ولا يستبعد ان البعض قد وصل على اى حال سالما الى الشواطئ الاميركية . وثمة استنتاج طبيعى آخر : الملك الذى كان يجب الرحلات قد علم من مسد ما يوجد ارض في الغرب البعيد . وكان يمكن للزئوج ايضا ان يصلوا الى اميركا مع المصريين القدماء اذا كان هؤلاء قد ابحروا الى هناك ، طبعا ، ولكن هذا لا يزال موضع نقاش .

فى القرن الخامس عشر اكتشفت اميركا تماما . وعلى الرغم من انه ابحر او وصل الى هناك قبل كولومبوس الاسبوريون القدماء ، والبولينيزيون والنورمانيون والاسكيو . وربما الفينيقيون والرومان والافارقة والمصريون . وحتى الاستراليون ، فان هذا كان مع ذلك اكتشافا على وجهه

التحديد . ولأول مرة بعد اقدم انتقال عبر مضيق يورنغ تعرض سكان القارة لتأثير اجنبي جدى .

استمر الانكليز والفرنسيون اميركا الشمالية . واستمر الاسبان والبرتغاليون اميركا الوسطى والجنوبية . فى اميركا الشمالية سلم بعد الحروب مسح الدلاء والابادة المتعمدة ما لا يتجاوز بضئع مئات الآلاف من الهنود . اما فى اميركا الوسطى والجنوبية فيبلغ عدد الهنود الملايين ، رغم اقل بكثير مما يفترض ان يكونوا . كانت عهود الاستعمار مروعة بالنسبة الى سكان اميركا الاصليين .

... يشكل اغتلاب الزواج المختلط اغلبية السكان فى كل بلدان اميركا اللاتينية تقريبا . لقد اختلط دم الهنود بدم الاوروبيين ، وفى احيان كثيرة بدم الافارقة الذين بقوا امدا طويلا يعيشون الى هناك كعبيد .

لكل جمهورية هناك تاريخها وقوام سكانها . وإذا كان الارجنطينيون ، مثلا ، اخلافا للاوروبيين قبل كل شئ ، فان المكسيكيين يعتبرون انفسهم بحق ورثة الاستيكيين والمايا القدماء بالدرجة الاولى . واغلب سكان باراغواى هنود اقحاح ، اما فى البرازيل فلم يبق من وجود للقبائل الهندية الا نسي الاصقاع الثانية .

ولكن سكان البرازيل والمكسيك وكولومبيا وفنزويلا على حد سواء يعتبرون انفسهم ، بغض النظر عن الاصل ، اخلافا للهنود . ان تاريخ اميركا الوسطى والجنوبية مستمر ، ولم يبدأ من جديد .

الابعد . يستحيل ، للاسف ، تكرار القول عن التاريخ المستمر حيثما يعبر الحديث عن استراليا . ان تاريخ امسغ قارات الارض منقسم الى جزئين ، اولهما دشته ظهور الانسان فى استراليا ، وثانيهما استيطان الاوربيين فى استراليا .

ان اقدم بقايا للانسان عثر عليها فى استراليا عبارة عن جمجمة يعود عهدها الى ثمانية عشر او تسعة عشر الف

سنة . وهكذا يعيش هناك على امتداد ثمانمئة جيل تقريبا اناس ملتحمون بسر طوال القامة ذوي شعر مشهور وانف مغلنخ . ولعلمهم عاشوا امرا اطول ، فقد عثر منذ عدة سنوات فى ساحل استراليا الشمالى الشرقى على اثر غريب - وقديم جدا ، كما تسمى التاكيد من ذلك - فى ارض تصليت منذ ذلك الحين . لقد بين هذا الاثر بوضوح ان احدا جلس هنا - ولكن من ؟ انسان او كنغر ؟ هذا ما لم تتسنى معرفته .

لذا كان هذا الاثر لاحد المستوطنين الاوائل ، وقصد جلس عادا رجلية المنوكتين بعد رحلة طويلة ، فيجب ان يضاف الى جملة الاجيال البشرية التى عاشت فى استراليا مئة فى آخر او اكثر .

لقد اتى الناس الاوائل الى استراليا - وثمة مصوغات كثيرة لهذا الافتراض - من جنوب شرقى آسيا . . . ربما عن الهند الصينية الحالية عبر اندونيسيا . ثمة بين الشعوب القاطنة فى فيثنام وكامبوديا شعوب تتجلى فيها بوضوح سمات القريب بينها وبين الاستراليين . وتوجد ، فى رأى الكثير من الانثروبولوجيين ، ملامح تشابه بين الاستراليين واقدم سكان الهند ، الدرافيديين ذوي البشرة القانصة ، وكذلك شعوب مجذوعة المونداكول . لقد استوطن الدرافيديون فى وقت من الاوقات الهند بأسرها . وعلاوة على ذلك ، توجد آثارهم فى ايران وما بين النهرين وشبه جزيرة العرب ، وحتى فى مصر . ولكن ليس واضحا متى ومن اين بالذات ظهر اسلاف الدرافيديين فى هذه الاماكن . فى فترة من الفترات كانت تتمتع بنجاح كبير فرضية تقول بأنه كانت توجد فى المحيط الهندي قارة قديمة اطلق عليها اسم ليوموريا ، وفيها اصبح الانسان عاقلا لأول مرة ومليا انطلق ليستوطن الاراضى المجاورة . كتب الشاعر الروسى فاليرى بربوسوف :

انار شائعة ليوموريا العايسون
عسعل كلمات قديمة

تألفت به السنون ،
 قلع في الناس التفكير
 كنور تومج في الأثير .

إن أساطير التأمليين ، الشعب النواقيدي الكيبس ،
 وضعت الأسلاف الأوائل للتأمليين حيث تتلاطم الآن أمواج
 السجيل الهندي . وقد تحدث الجيولوجيون كذلك عن قارة
 قديمة في هذه الأماكن . ولكنهم يؤكدون تأكيداً قاطعاً أنها
 غرقت قبل ظهور الإنسان بملايين عديدة من السنين . وفي
 العقود الأخيرة انبعت فكرة ليموريا بظهي جديد . إن
 اعتراض الجيولوجيين على وجود القارة لا ينطبق على الجزر
 الصغيرة مقارنة بها . ومن الممكن أن ليموريا كانت أرخبيل .

ويبدو أن الجميع متفقون الآن على أن مستوى الأوقيانوس
 العالمي قد ارتفع في فترة العشرة آلاف أو الخمسة عشر ألف
 سنة الأخيرة . ومن المعروف ، مثلاً ، أن سكان استراليا
 القاطن في البصرة لم يكونوا في الألوف الأولى من سنوات
 حياتهم فيها منقطعين تماماً عن العالم الآخر ، وذلك بفضل
 «جسر من الجزر» بين استراليا وأندونيسيا . ولولا هذا
 الجسر لما استطاع الاستراليون أن يصبحوا استراليين
 ويصلوا إلى القارة الخامسة في العالم : فبعد ٧٠ ألف سنة
 لم يكن الإنسان سيد البحار أبداً ، وبعد ذلك - منذ ١٢ -
 ١٣ ألف سنة - ارتفع مستوى الأوقيانوس العالمي ولما
 البصر .

بعد زوال جسر الجزر الموصل إلى اندونيسيا انقطع
 سكان القارة الخامسة في العمورة عن العالم بأسره ، إلى أن
 اخترع «الملاحون» الترييون والبعيدون سفناً بحرية . وظهر
 بولينيزيون في استراليا . ومن المؤكد أنه زارها بحارة من
 اندونيسيا . وبعد عهد قريب نسبياً اكتشفت على ساحل
 استراليا رسوم تشبه الرسوم المصرية القديمة إلى حد
 بعيد ! لمن العقول أن رسل الزراعة الهيبين وصلوا إلى

هنا ؟ هذه الرسوم لا تزال تشير بشكوكا كبيرة . والمؤرخون
 لا يؤمنون بحقيقتها . وليس ذلك لأن استراليا بعيدة جدا
 عن شمال أفريقيا فحسب . فقد جرت فعلاً بتكليف من
 الزراعة وحالات بحرية جبارة على غرار أول إبحار في التاريخ
 حول أفريقيا . ولكن لم يكن المصريون انفسهم ينفذون هذه
 المهمات ، بل الفينيقيون الذين كانوا خاضعين لهم في ذلك
 العهد ، والذين كانوا ملاحين مشهورين في الزمن القديم .
 فلماذا تحمل الرسوم طابعاً مصرياً قديماً بوضوح . طبعاً ،
 كان يمكن أن يبحر المصريون ، مثل الفراعنة ، مع
 الفينيقيين . وعلى أي حال ، فليس المصريون وحدهم على
 ما يبدو قد خلفوا في هذه الحالة أثرهم في الأرض الغربية .
 في القرن السابع عشر ظهر عند سواحل استراليا أوائل
 الأوروبيين من أسبان وهولنديين وانكليز . وبعد قرن أقرت
 الحكومة الانكليزية الغرض الذي تصالح له الأرض الجديدة :
 يمكن أن يرسل إليها المخلسون بالفنون - بهذا بدأ
 الاستيطان ، ثم اندرج فيه أفقر الناس ، وأتى المشرون ،
 وأنت السلطة الغربية أيضاً .

في روايات دانييل ديفو والكثير من الكتاب الانكليز
 الآخرين وصولاً إلى ديكنز ، تستخدم كلمة «استراليا» على
 الأغلب ، شأن قسميات بعض الخلدان والمستوطنات هناك ،
 مرادفة لتعبيري «الشفى» و«الاستغاث للشفاء» .

أرسلت أوروبا مجرميها إلى شعب ديسا كان من أنواع
 كثيرة أبيل من في الأرض . وهل يمكن للمشهد التثالي أن
 يحدث في أي مكان آخر ؟ رأت مجموعة من السكان الأصليين
 فصيلة كبيرة من البيض فقررت مهاجرتها : كانت لهمؤلاء
 السكان الأصليين حساباتهم مع الأوروبيين . ولكن . . .
 البيض كانوا بلا أسلحة . واعتبر الاستراليون من راجبين
 أن يسلموا العدو قبل المعركة . حتى روايات الفروسية
 لاستطلاع أن تتابعي بضائع مشرفة كهذه .

هنا ، كما في كل مكان من العالم ، أباد المستعمرون
 مئات الألوف من الناس بهذه الوسيلة أو تلك . ولم يبق

في استراليا الآن من السكان الاصليين سوى بقع عشرات من الآلاف . والمئات منهم فقط حافظوا بدرجة من الدرجات على نمط الحياة والثقافة السابقين . واصبح الآخرون فسي وضع افقر الفئات واكثرها تعرضا للاضطهاد والازدراء بين السكان الذين يشكلون بينهم اقل من واحد في المئة بكثير .

اغلب الاستراليين من اصل اوروبي ، وعلم من حيث الاساس اخلاف لانكليس والسكوتلانديين والاييرلنديين . وهناك ايضا اخلاف للفرنسيين والسويديين والبلجيتيين والروس . وكان هناك مستوطنون قلائل من آسيا وافريقيا . وقد وضعت القوانين المنصرية العراقل في وجه انتقال غير الاوروبيين الى هناك ، وحتى انها حددت من قدم ممثلي بعض الشعوب الاوروبية كالإيطاليين ، مثلا .

ولكن ثمة من اتى الى هناك من آسيا على اى حال ، كالافغان ، مثلا ، الذين «جلبوا» الى استراليا بمثابة جمالين : ففي استراليا صحارى كثيرة ، واتضح ان الابل ضرورية هناك .

يمثل هذا الحرص يتقى الاختلاط باناس القوميات الاخرى الاختلاف المباشرون للصوص والنهايين والقتلة ، فمنهم بالذات يتعدو الكثير من الاستراليين البيض .

وعلى اى حال يمكن ان نستخلص من تاريخ استراليا هذا الاستنتاج الهام : رغم تأكيدات يعنى «الانحصاصيين» ، لا يغدو الناس مجرمين بالوراثة - التفاحة تسقط بعيدا عن شجرة التفاح ، واين السارق وحفيده لايسرقان اذا عاشا في ظروف اخرى . ونسبة ارتكاب الجريمة في استراليا ليست ابدا اقل عما في انكلترا ، التي كانت يوما تطهر نفسها بنشاط من «العناصر الضارة» بابعادها الى استراليا نفسها .

بلاد السود . كلا ، لن يكون الحديث عن افريقيا ، على الرغم من انه يصعب حتى على الانتروبولوجى ان يميز سكان هذه البلاد عن الزواج الاغترقة . لهذه البلاد اسم جميل ،

ملاينزيا . ومعناها جميل ايضا : الجزر السوداء . واكبر هذه الجزر غينيا الجديدة .

هنا - وفي عدة جزر اصغر - يعيش البابوازيون الذين اتى اسلافهم الى هنا منذ قرابة ثلاثين الف سنة ، اى في ذلك الوقت تقريبا حينما قام اسلاف الهنود في الطرف الآخر من المعمورة بالتوغل في اميركا .

مضى مئتا قرن او مئتان وخمسون واتى الى غينيا الجديدة من اندونيسيا اقرب اقرباء البابواسيين ، اسلاف الملاينزيين . يبدو ان لقاء الاقرباء اسفر عن حرب ضروس . وانتصر الدخلاء ، واختلط عدد من البابواسيين بهم ، وتراجع الآخرون الى عشق غينيا الجديدة والجزر الاخرى . وتحرك اسلاف الملاينزيين قداما . كانوا ملاين جيدين ، قاستولوا على المئات من الجزر التي لم تكن ماهرة قبل ذلك .

وكانت تلك ماهرة : فهم لم يكتشفوا الجزر فحسب ، بل بقوا ليعيشوا فيها . هذا في حين ان مناخ ملاينزيا وظروف العيش فيها لم تكن سهلة . ترك الحديث لجاك لندن :

« . . الى الآن تحتاج السكان هناك الحصى الاستوائية والدوسطورا ومختلف الامراض الجلدية . والهبوط هناك مشبع بسم يتسرب في خدوش وتسلسلات الجلد فيحولها الى قروح متقيحة بحيث ينذر ان يستطيع احد الخروج من هناك حيا سليما ، وحتى اكثر الناس قوة وعافية غالبا ما يعودون الى الوطن حطاما بشريا بانسا » .

«هناك» ، اى جزر سالومون . احدى اجزاء ملاينزيا ، التي عاد منها جاك لندن نفسه حاملا مرض عضالا فمضيا .

ان البابواسيين والملاينزيين ، خلافا للاستراليين ، كانوا قد اصبحوا حين قدموا الاوربيين مزاولين ومربي ماشية . كانوا يربون الخنازير والدجاج والكلاب ، وكلها للحصول على اللحم . وكانوا لامر ما يقتدرون في الخنازير اتيانها بشكل خاص . كانوا يستطيعون ان يجعلوا الانياب تنمو بحيث تكون طويلة على نحو خاص ومعقوفة . وكلما كان الناب اطول كان

اغلي . وكانت الخنازير شيئا بمثابة العملة ! كانوا يتحدرون
من البيت بالخنازير ويدفعون مهر العروس بالخنازير او
انيابها .

لقد اتى الياپواسيون والملاييزيون الى غينيا الجديدة من
اندونيسيا .

ولم ينتسج الى الآن ما اذا كانت اندونيسيا وطنهم او انها
مجرد محطة عابرة على طريقهم الطويل . ان الملاييزيين اشبه ما
يكونون بالانارقة ، يشبهونهم بحيث يوجد من وقت الى
آخر علماء يبدؤون من جديد بالبحث عن طرق لوصول افريقيا
بملاييزيا . وهنا يمكن ، طبعاً ، ان تهب جزيرة ليوموريسا
للمساعدة . فهي ان لم تكن موطننا للشعوب ذوي البشرة
القاتمة ، فيسر بين افريقيا واندونيسيا التي تقع على مرمى حجر
من ملاييزيا .

وبالمناخية ، حتى يدون ليوموريسا الاسطورية ، ويدون
افريقيا الواقعة ، ولكن البعيدة جداً يوجد للملاييزيين
اناس اشد قرابة في جزر اندامان عند سواحل الهند ، وفي
شبه جزيرة ملقة ، وفي جنوب الهند .

يبدو ان الياپواسيين هم الاشقاء الكبار للاستراليين .
وفجوى الامر ان غينيا الجديدة كانت ، في الغالب ، تقع على
طريق المهاجرين الى استراليا .

ينبغي القول الآن ان ملاييزيا كانت محفوظة من ناحية
واحدة : ان مناخها حار وارطب . ومزيج جدا من وجهة النظر
الاوربية . وبسبب المناخ بالذات بقيت ملاييزيا طويلا من
غير ان تحظى باعجاب الاوربيين . وفي القرن التاسع عشر
فقط احتلت انكلترا وفرنسا وهولندا والمانيا الجزر السوداء ،

الجزر الكثيرة . الجزر الكثيرة هي ترجمة كلمة

« بولييزيا » . بين اقصى جنوب اراضي بولييزيا ، نيوزيلاندا ،
واقصى شمالها ، جزر هاواي ، يمتد طريق في المحيط طوله
٧٥٠٠ كيلومتر . وتفصل مسافة ٥٨٠٠ كيلومتر من المحيط
بين جزيرة الفصح في اقصى شرق بولييزيا وجزر تونغا في

اقصى الغرب . واذا قسمنا المساحة العامة التي تشغلها في
المحيط بلاد الجزر هذه ، يتضح ان بولييزيا احد اكبر
البلدان في العالم . ومع كل هذا ، ففي تلك الارجاء الشاسعة
التي تبلغ ملايين الكيلومترات المربعة لا يتجاوز مجموع
مساحة الجزر المبعثرة فيها ٢٧٠٠٠ كيلومتر مربع (اذا لم
نحسب نيوزيلاندا التي تبلغ مساحتها وحدها عشرة اضعاف
كل الجزر الاخرى في بولييزيا معا) .

وكل هذه الجزر الكثيرة يستفاد ، على الرغم من المسافات
الهائلة ، شعب واحد من حيث الجوهر . او بتعبير ادق ،
اثنوسات شكلت اثنوسا واحدا منذ عهد قريب جدا . وعلى
اي حال ، يعتبر اغلب الباحثين ان سكان هاواي في الشمال
والمائوري في الجنوب وسكان جزيرة الفصح في الشرق
والتونغاويين في الغرب يتكلمون ب لهجات لغة بولييزية
واحدة .

وهكذا ، فان تفرق البولييزيين عن بعضهم البعض مثلات
والف الكيلومترات قد جرى منذ اجيال ليست كثيرة جدا ،
ثم انهم استطلعوا ، رغم المسافات الشاسعة ، اقامة الصلة
نفسا بينهم .

من الواضح ان اسلاف البولييزيين كانوا حتى قبل قدومهم
الى هذه الجزر جوالين كبارا و«معلمين بتغيير الامكنة» . فقد
انقلوا في اجنيز اراض كثيرة ومقابلة شعوب كثيرة . شغاف
البولييزيين غليظة بعض الشيء . كما لدى الزوج وشعرهم
اسود ومستقيم الى حد بعيد مثل شعر الغنول وبشرتهم
سواء ، واذوفهم قريبة من اذوف الاستراليين ، ولكن فيها
ما يشبه اذوف الاوربيين . ومن الطريق ان سكان كل القارات
يعترفون بجمال البولييزيين بسهولة .

كان جنوب شرقي آسيا السكان الذي تكون فيه القوم
البولييزي الاول قبل الانطلاق الى المحيط . ولكن الهنود
الاميركيين اقاموا ايضا في بولييزيا على ما يبدو . ان العالم
كذلك ضج بشعر ايعار ستة باحثين يترأسهم تور هيردال على
طوف من اميركا الى بولييزيا . لقد قام الرحالة النرويجي

يجولته هذه ليرى من انه جرى استيطان جزر المحيط الهادى
هذه من الشرق .

رحلة رائعة ! ماثرة ! ولكنها وحدها لا تكفى للبرهان على
هذا . اليكم هذا المثال البسيط . ثمة الآن فى كل سنة
رياضيون يفتعلون سباحة المضيق بين انكلترا وفرنسا (تلاتون
كيلومترا) ونيف) .

أظهر تور هيردال انه ليس اهلا للمأثرة فحسب . بل
وللعمل العلمى الدؤوب . لقد استطاع ان ينتزع الكثير من
العلماء (وان لم يكن كلهم) ان دما عنديا يجرى فى عروق
البولينيزيين . ولكن ليس الدم الهندى وحده . اذ ان تور
هيردال نفسه وجد براهين جديدة على ان هذه الجزر سكنها
قادمون من اسيا ايضا .

«عالم مفقود» . لعل الجميع يعرفون خوزيه المقدام
والتراجيدى عاشق وقائل العجربة كارمن الجميلة فى قصة
يوسيمير ميريه . احداث القصة تجري فى اسبانيا . ولكن
خوزيه ليس اسبانيسا . اسمع الكامل دون خوسيه ليسارا
بينفوا . وهو باسكى .

لخوسيه ناكارو (كما يسميه الاسبان) شعر اشقر وعينان
زرقاوان ووجه اسمر واسم باسكى لا يستطيع لفظه بشكل
من الاشكال . كما قال ليروسيمير ميريه واهب من معارفه
وللعلماء ايضا رأى مسائل حول صعوبة اللغة الباسكية .

وليس مصادفة ان يكون الامر صعبا بالنسبة الى
اللغويين . والى الفرنسيين والاسبان عموما . فالباسكيون
يتكلمون بلغة لاتسمية اللغات الاخرى فى اوربا . لا تشبهها
الى درجة ان اللغويين اخذوا يتحركون من جهة الى اخرى بحثا
عن لغات قريبة . تحركوا بعيدا : نحو الغرب الى القيانسل
الهندية فى اميركا . نحو الشرق الى جبال القفقاس . وحتى ان
البعض انتهى الفرصة لينكر باتلاتيدا الاسطورية . ومن حسن
الحظ ان يلاذ الباسكيين ليست بعيدة ابدا عن الامكنة التى
يجتول فيها عن الجزيرة التى وصفها افلاطون . وليس من

النادر ان ينسبوا هذه اللغة الى سكان اوربا القدماء التى
ازاحت لغات الهنديين الاوربيين الدخلاء لهجاتهم فى كل مكان
باستثناء هذه البقعة .

استطاع الباسكيون مجابهة الرومان القدماء . اى اغضم
خضعا لسلطتهم . ولكن التأثير الرومانى لم يمس الا قليلا
لغة وثقافة اسلاف الباسكيين (خلافا لاسلاف الفرنسيين) . ان
الهجرة الكبرى للشعوب - الغوطيون . الفاندال وغيرهم ممن
اجتاحوا اوربا . ومن بينها البيرينه - لم تستطع ازالة الشعب
الصغير الصامد . وهذا ما لم يتسن ايضا للمقاتلين بعدهم .
ومما يثير المزيد من الاعجاب ان الدول الباسكية المستقلة
نادرا ما كانت تعيش طويلا . وكانت دولتهم قبل الاخيرة هى
المملكة النافاروة زمن اليركونيكستا التى ادرجت فى الدولة
الاسبانية فى نهاية المطاف . زالت المملكة وبقي الشعب .
للباسكيين اهمية خاصة بالنسبة اليها باعتبارهم سكان
اقليم منعزل عن المناطق المجاورة بحدود جغرافية بارزة .
. . . لا يستطيع حيوان ولا انسان ارتقاء الجوانب
الشاقولية لهضبة ميبيل - وابت التى وصفها ارثر كونان دويل
فى قصته الخيالية «العالم المفقود» . فى هذه الهضبة . كما
يقول كونان دويل . لندمر «عالم مفقود» مختلف بحيوانات
وطيور الازمنة القارية . ابتداء بمفطاة العصر الوسيط . ومن
بينها المفطاة الثلاثة .

لم تكتشف بعد زواحف معجنة فى المعمورة . اما «العالم
المفقود» المنعزلة عن باقى الكوكب بقصور عمودية وتيارات
جارية وكثلى جديدة قارسة الضخيم وصخارى حارة وغابات
كثيفة فقد وجدت فى افريقيا واميركا الجنوبية . فى الهند
والصين . فى سمبيريا والقفقاس . وفى جبال تيان شان
ديامير . هناك . يمكن لاناس شعب واحد قطنوا فى شعبيين
مجاورين الا يملقها ولو مرة واحدة مدى الحياة . هناك يتطلب
الانتقال من عشيرة صيادين الى اقرب عشيرة اخرى رحلة على
النهر تستغرق اسابيع كاملة .

وان الاراضى الباسكية كانت بمعنى من المعانى «بلد ميبيل

وايت» ايضا ، فلتكن جبال نافارا غير مرتفعة ، ولكن بقى الشعب دون ان يختلط بالجيران تقريبا . هذه المناطق المتفرقة يسميها العلماء الانثروبولوجيون بالمنعزلات . وقد وصف جاك لندن ، الذى سبق واستشهدنا به ، منعزلة كلانيسكية فى روايته «القلوب الثلاثة» . يا لفظاعة «وادي النفوس الميتة» الذى لم يستلح فى غضون ثلاثى سنة ان يقتحمه اى باحث عن المغامرات !

لقد ادى هذا فى رواية جاك لندن الى نتيجة فاجعة . ان وجوه افراد قبيلة «النفوس الميتة» كانت ، باستثناء قلة زهيدة ، وجوها بليدة تحمل طابع الانحطاط والانقراض . (فى ذلك المين يرهمن العلم على ضرر الزواج بين الاقرباء ، ولعله فعل هذا بحمية مفرطة .)

ان شيئا من هذا لم يحدث فى المنعزلات الحقيقية . وما جزيرة بيتكيرن فى المحيط الهادى الا شاهدة على قير فكرة انحطاط الشعب فى المنعزلة .

لقد مر تاريخ الجزيرة فى القرون الاخيرة على اراى من البشرية . واسلاف كل سكانها هم المستوطنون البولنيزيون وبحارة سفينة «باوتنى» الانكليزية المتردة . وسبقت هذا حرب ضروس ودامية بين المستوطنين الاوائل . وبقى بعد هذه المعركة عشرة اشخاص وثيف ، اغلبهم من النساء ، وهم الاسلاف المشتركون للبيتكيرنيين الحاليين . وماذا كانت النتيجة ؟ اليكم ما كتبه مارك توين فى القصص «تورة عظمى فى جزيرة بيتكيرن» :

«يقول غريب ، مثلا ، لاجد سكان الجزيرة :

— انتم تقتلون عن هذه الصبية انها ابنة عمتكم ، وقد قلتم مؤخرًا انها عمتكم .

— نعم ، انها عمتى وابنة عمتى فى الوقت نفسه . وهى ايضا اختى من ابنى وابنة اختى وابنة ابن عم خالتي ونسيبتى من النخذ الثالث والثلاثين واختى من الدرجة الثانية والاربين واخت جدتى وابنة عمى الاملمة ، وستصبح فى الاسبوع القادم زوجتى» .

ثم يحدث اى شىء مربع لهذا الشعب ، ولكن الفضل فى هذا للظروف التى لم تجعل بين المستوطنين الاوائل احدا يحمل مرضا وراثيا .

ويتبنى القول ان مثل البيتكيرن يدهض الفكرة القائلة بان الاولاد الذين ينجبهم ازواج من مختلف الاجناس ينشطون اذا لم يتلقوا رافدا جديدا من «دم قس» .

وبيتكيرن توجه ضربة الى «نظرية» توارث الميول الاجرامية . لقد كان عند اسلاف البيتكيريين من الاسلاف والجرافيم ما يفوق «المعدلات» جميعا . اما البيتكيريون الحاليون فيهم من اكثر الشعوب تمسكا بالجانب الخلقى .

ولكن فلنعد الآن الى منعزلات اقدم الا تقع فى ركن ناء من المحيط الهادى ، بل فى الاتحاد السوفيتى . ان كل منعزلة تشكل مادة جذب شديد للانثروبولوجيين . فهم مثلا امام تجربة انثروبولوجية «صفر» اجراها التاريخ والجغرافيا .

تتحرك الشعوب حول المنعزلات ، ويمر قربها ، مثلا ، الهون فى طريقهم من منغوليا الشرقية الى اوروبا الغربية . الوف القبائل تغير امكانها واقامتها واسماها ، تختلط وتنفرد ، تهجم وتراجع . طبيعى ان الاعداء يخترقون احيانا شعاب بامير الضيقة ، وطبيعى ان الافينكيين يدفعون من وقت الى وقت الاثارة الى الامبراطور الضيق احيانا ، والى القيصر الروسى احيانا اخرى . ولكن اذا كان الدم «الغريب» يتسرب فى هذه «العالم المفقودة» ، فان نسبته اقل من ان يؤخذ اعتبار لها . وينظر الانثروبولوجيون باهتمام بالغ الى هؤلاء الناس الذين لم يعتقدوا زواجا مختلطا على امتداد الوف السنين ، الناس الذين تمكن مراقبة اية تغيرات تطرا عليهم بدون شروط مسبقة وتحفظات من المحتمل ان يقرضا تأثير الدخلاء . ما الذى يجرى للناس فى ظروف كهذه ؟ ان كل منعزلة كانت تشغلها يوما مجموعة صغيرة من الناس ، وحيثما يكون الاسلاف قلائل ، فان اية مصادفة فى ثوام المجموعة تنطوى على اهمية بالنسبة الى الاخلاف .

مثلا ، كانت للامر الثلاث او الارب الاولى ، التى سكنت

من جهة الأب والام ذوى عيون زرق (او بشرة قاتمة او انفا معقوف) ، وفي هذه الحالات غالبا ماتسبغ قوانين الوراثة هذه الخاصص نفسها على الاولاد .

فى المنعزلة لا يغير التاريخ ، طبعها ، حركته الصاعدة ، اذ تجرى اكتشافات واختراعات جديدة (وان كانت القديمة تنسى احيانا) ، وتتغير القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . ولكن عملية التقدم تنطبق بشدة على اى حال . ان قوة البشرية فى قوة كل انسان على حده ، فى كون مايتكشلف الفرد يصبح فى تناول الآخرين . اما فى المنعزلة فيضطر الشعب الى الاتكال على افرادة وحدهم تقريبا . (تقريبا . لان منجزات الشعوب الاخرى تنسسل فى حالات نادرة الى «الموالسم المفقودة» . فقد اطلع الافيقكيون على تربية الايالى) .

تتال الشعوب الاخرى بفضل تطور التكنولوجيا ووسائل النقل فرصة التغفل فى المنعزلة (السفن) ، مثلا ، وفرت لكولوموس هذه الفرصة) .

سنتحل عاجلا او اجلا اللعطة التى يخرج فيها الشعب المنعزل موقتا من «قوقعته» . والاسباب التى تؤدى الى هذا متنوعة اشيد التنوع . مثلا ، يزداد عدد الناس بحيث لا يستطيعون تأمين قوتهم فى نطاق المنعزلة . او تصف المستنقعات التى كانت تغفل احد المنافذ الممكنة ، او تصبح المضائق الجبلية سهلة الاجتياز بفضل بعض التقدم العلمى - التكنيكي ، او يتوغل شعب ما فى المنعزلة قياخذ بالتضييق على سكان «العالم المفقود» الاصليين .

وهما كان الامر ، يخرج الناس منها الى رحاب كوكبنا الواسعة وينطلقون (بعضهم) ، طبعها ، لا كلهم) الى البحث عن اراض جديدة لاستيطانها . ويصب دمهم فى دم الشعوب الاخرى ، وهم انفسهم يتدخلون فى قوامهم اناسا من الاجناس «الاجناس القرعية» الاخرى . وهكذا ينتهى تاريخ المنعزلة . لقد غادر خوسيه ليساس¹ بينفوا وطنه ، كما يحدثنا ميريميه ، ويعيش الآن مئات الوف الباسكيين فى الاراجنتين وغيرها من بلدان اميركا . والباسكيون فى وطنهم يتعاسرون مع الجيران

الشعب ، فلة دم واحدة . وبالنساسة ، ليس هذا الامر مصادفة تماما . غالبا ما تكون هذه الاسر مرتبطة ، على الارجح ، باواصر القريبى «صمبقا» . وليس عبثا انها تهجرت معا . والتباين فى فئات الدم عند الاقرباء هو ، طبعها ، اقل مما فى مجموعة من الناس الغرباء عن بعضهم البعض . وبالتنتيجة ، غالبا ما يعيش فى شعاب امير او داقستان اناس متشابهون جدا . ولكن فى الشعب الشرقى ، مثلا ، تغلب فئة الدم الثانية ، وفى الشعب الغربى فئة الدم الاولى .

يرى علماء كثيرون انه تؤثر ايضا فى «نماتل» الدم فى المنعزلة عملية جينية خاصة ، اى مرتبطة بالوراثة ، وهى «الترحال الجينى» . ويتلخص معنى هذا «الترحال» فى ان فئات الدم الموجودة لدى اقل عدد من الناس تزول بالتدريج ، تاركة مكانها للمجموعات الاكثر «شعبية» .

تسمى (وهذا ما فعله الاميركى وايت) وضع صيغة رياضية دقيقة لتسرى زوال هذه الفئات من الدم الملازمة لاناس قلائل فى طيات الماضى . كلما كان عدد سكان المنعزلة اصغر ازداد عدد حالات الزواج بين الاقارب ، وبالتالي اصبحت هذه السرعة اعلى .

يسهل عكس هذه الصيغة . وعندئذ يصبح من الممكن ان نعرف بواسطتها مدة سريان عملية «الترحال الجينى» ، وبالتالي مدة وجود المنعزلة والزمن الذى مضى على سكانها دون ان تدخل فى دماهم دماء من شعوب اخرى .

المنعزلات بالنسبة الى الانثروبولوجيين المعاصرين تجربة اجراما التاريخ . ولكن المنعزلات القديمة بالنسبة الى التاريخ مراكز لولادة الاجناس الكبيرة منها والصغيرة . فحيثما تتقابل الشعوب غالبا مايجرى بينها زواج مختلط . «وتبادل الدم» ، وحتى افراد القبيلة الواحدة لانتشابهون كثيرا . اما المناطق التى يصعب الوصول اليها فامر آخر .

يأتى الى المنعزلة مصادفة اناس اغلبيهم من ذوى البشرة الناقسة او الانف المعقوف او العيون الزرق . فيظهر الى الوجود على نحو متزايد اطفال كان اجدادهم وآباء اجدادهم

يرغبة واتساع أكثر من السابق ، ويتزوجون زواجا مختلطا بسهولة أكثر .

أخذت المهنزلات في القرون الأخيرة تزول بصورة أكثر من السابق ، وليس ذلك نتيجة لاسياب داخلية ، بقدر ما هو ناجم عن اسباب خارجية . في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لم تعد اميركا هنزلة ، وفي القرن الثامن عشر تبعها استراليا ، وفي القرن العشرين غينيا الجديدة - وعلى مرأى العين يفقد صفة «العوالم المفقودة» بعض شعاب صيمالاييا والفنقاس وپامير وثيان - شان ، وقامبا سيبيريا الشرقية ، وتوتدره الاركتيكا ، وهذه عملية طبيعية وحتمية .

الاسلاف يعيشون في الاخلاق . نحن نتحدث عن ولادة وحياة الشعوب - الانوسات . ولابد في غضون ذلك من تذكر الشعوب المنقرضة ايضا . فاين البيكتيون الذين كانوا يوما احد عناصر الشعب السكوتلاندى ؟ لا وجود في الارض للبابليين ، كما لا وجود للايطاليكيين وبولغار الفولغا . . . ولكن البشرية سلسلة حلقاتها الشعوب ، ولا يمكن لهذه الحلقة ان تتقطع . والتاريخ ايضا سلسلة لا تستطيع اية حلقة فيها ، وان كانت متسببة ان تختفي . لاننا جميعا ، نحن الممتثلين الى الشعوب الحية - ورثة لاولئك الذين عاشوا قبلنا .

ان الشعوب المنقرضة - الشعوب بالذات ، لا صفرتها المحاربة - تبقى في الارض على اى حال : تبقى في تقاطيع الوجوه التي تنتقل الى الشعوب الاخرى ، في اصوات وكلمات اللغات الغريبة ، في الاكتشافات والاختراعات التي تصبغ جزءا من التروية المشتركة للبشرية .

انها باقية رغم انقراضها . ومما يبرهن هذه الحقيقة مصير شعب فني تماما ، بحيث ان هذا الفناء اصبح مثلا منذ ألف سنة ونيف .

في القرن السادس الميلادي اقتحم اوربا الافاريون الذين ترأسهم زعماء ذو نزعة عدوانية . وقد استطاع الافاريون ،

حتى بعد الهون والفاندال ، ان يبدؤا مرعبين بشكل لم يعهد له مثيل . وبعد عدة قرون وصف مدون اسفار روسي يطلع كيف كان الافاريون (وعو يسميهم بالايوربين) يقرنون بعرباتهم نساء قبيلة **الدوليين** السلافية .

في الوقت الذي كتب فيه مدون الاسفار هذه الملاحظة كان الروس قد راءا الفولرسة البيزنطية ، فكانوا من حين الى آخر يحذون من غلواتها بسيفوفهم المستقيمة . وكانوا يعرفون ايضا عجرة الكونونيين السكندنافيين الذين كانوا يجاربون روسيا احيانا ، ويخدمونها احيانا اخرى .

ولكن فولرسة الوجيه الافاريين كانت اشد واقوى . لان مدون الاسفار الروسي اياه وجد ان عمه الكبرياء بالذات جلبت على الافاريين قسمة القدر فلم يبق منهم اسم ولا خلف . طبعيا ان الافاريين - الايوربين لم يزولوا من على وجه الارض من تلقاء ذاتهم . ان دولتهم التي شملت جنوب شرق ووسط اوربا قد اعدت لنفسها الهلاك ، حيث ساعدت رغبا عنها على تكاثف القبائل السلافية الغاضبة لها ، والتي كانت قبل ذلك مشتتة ، فاضطرت الى الاتحاد .

ان اول انفجار للسلط - انتفاضة السلافيين الشرقيين - تسنى لاسياد الدولة قسمة . وقد اعدم ثلاثون زعيما اتنيا وقعا في الاسر ، وحطم اتحاد القبائل الانثى .

ولكن اخلاق المفضضين الاوائل لسم ينيط . عزم رعايا الافاريين ونقلت الدولة ضربة جديدة من السلافيين الغربيين . فقد انتفض التشيخ وشكلوا دولتهم الاولى التي ترأسها تاجر متجول اسمه سامو .

وكذلك كانت القبائل السلافية المتحدة في شرق البلقان توجه الضربة تلو الضربة الى الاعداء المقيتين . وكانت الدولة الجديدة التي ظهرت هناك - بلغاريا - تزدد قوة وتهجم نجر الشمال بحزم متعاطف ، مضيقه الخناق على الايوربين . واخيرا ، ظهرت بعيدا الى الغرب من البلقان دولة الفرنكيين الموحدة التي اصبحت امبرطورية في عهد كارل الاكبر . وبين منجزات كارل العسكرية الهجوم الحاسم على الخاقانية الافاوية

التي انتهت بهزيمة الأفاريتين الساحقة ، وقد اندمجوا بكتلة الشعوب الأخرى قبل أن يشرف القرن التاسع على الانتهاء .
لم يرغب وجهاء الخاقانية الأفارية الجبارة مصافرة سكان البلدان المفتوحة . وكانوا يبرزون سلطتهم بكل السبل ، والحديث المر الذي أورده مدون الإسفار عن أن الأوربيين إذا كانوا ، وهم في أراضي الدوليين ، يتوون الذهاب إلى مكان ما ، لم يكونوا يقرنون إلى العربية جودا أو نورا ، وإنما النساء الدوليين ، هو تذكير بالقسوة ، والقسوة من وجهة نظر زعماء الفاتحين ليست أبدا بلا معنى . يبدو أن هذا كان إحدى وسائل التنويه بالمسافة بين الفاهرين والمقهورين ، أحد مظاهر الكبرياء المقيمة للوجهاء الأفاريين التي أثارت سخط القبائل البعيدة والقريبة . وكان من أسباب انهيار الدولة الأفارية .

لم يصبح الأفاريون أساسا لاي شعب كان أو حتى لاية فئة اجتماعية فيه . لقد تيدد الأفاريون الذين كان يفودهم الزعماء ذوو النزعة الحربية في أوروبا المتعددة القبائل ، كما يتبدد النهر في الرمال .

ومع ذلك فأننا لم نتحدث عيشا عنهم ، عنهم كشعب . لقد استطلاع الأنتروبولوجيون في إيامنا أيضا أن يلاحظوا المجري الجاف لهذا النهر . يرى العلماء الهنغاريون بعض السمات الموروثة عن الأفاريين في مظهر عدد من سكان بلادهم ، وكذلك لدى الهنغاريين الترانسيلفانيين القيمين بين الرومانيين . وهذا شيء طبيعي ، ففي تلك الأماكن بالذات كان مركز الدولة الأفارية في وقت من الاوقات .

أي أنه بقى في الأرض أناس يسرى في عروقهم الدم الأفاري ، وإن لم يكن أفاريا صرفا . بقى أعقاب وورثة نسوا تماما ، للأست ، هذا الجذر شجرة تسميم ، وبالمقاسبة ، لاينبغي لوهمهم كثيرا على هذا ، إذ أن لشجرات النسب في الغالب جذورا أكثر بكثير مما لدى الشجر العادي . وكل جذر تاريخي كذا تقريبا يبدو نفسه في انظار الباحثين شجرة لها جذورها الخاصة .

من هم الأفاريون ؟ من أين أتوا إلى أوروبا ، وكيف كان مظهر هؤلاء الناس الذين هبوا عاصفة هوجاء على شعوبيا لمدة قرن أو قرن ونصف ؟ أن مسألة أصلهم لم تحل نهائيا .

لعله اتحدت في الشعب الأفاري ، كما يعتبر قوميليف ، قبيلتان في منطقة الفولغا حطيمهما الإعداء . وأحدى هاتين القبيلتين تنحدر عن السرماتيين ، السكان القدماء للسهب المتاخمة للبحر الأسود . وكانت الأخرى أوغرية من حيث اللغة ، أي قريبة للهنغاريين الحاليين بالدرجة الأولى .

ويرى عدد من المؤرخين الآخرين أن الأفاريين هم فلول شعب الجوجانيين . لقد أقام الجوجانيون في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد دولة كبرى في أواسط آسيا ، وكان الجوجانيون يتلقون الاتاوات من الإمبراطرة الصينية وشعوب الهلال وجزء من آسيا الوسطى . ولكن دولتهم تحطمت في القرن السادس الميلادي . وأذهب الجوجانيون ليتخلصوا من المنتصرين ، احتجازوا - بناء على هذه الرواية - ألوف الكيلومترات من وسط آسيا إلى الفولغا وغيرها وهم يحملون اسم الأفاريين .

ومهما كان الأمر فإن الأفاريين ، كانوا من كانوا ، قد ضموا في طريقتهم ممثلي الكثير من الشعوب . وفي هنغاريا الآن يعثرون في القبور القديمة عند الحفريات على عظام تشير إلى أنه كان بين الأفاريين أناس لمظهرهم الخارجي ملامح أوربية وآخرون ذوو ملامح مغولية . ولكن هناك أمر حتى : كلما كان القبر أغنى ازدادت فرص أن يكون صاحبه ذا ملامح مغولية . أي أن الوجهاء الأفاريين لم يختلطوا صليا بالغرباء وحملوا إلى وسط أوروبا مظهرهم الأسبيري الأولى .

وهكذا ، فإن أخلاف الأفاريين بقوا في الأرض على أي حال . ولكن تصعب الآن معرفة ما خلفوه للبشرية علاوة على ذلك . ماهي ملامح الثقافة الأفارية التي أخذها السلافيون أو الجرمانيون ؟ وما هي الكلمات التي أخذها من لغتهم الهنغاريون أو الشعوب الأخرى التي قابليها الأفاريون في طريقتهم ؟ لا أحد يعرف . ولكن لا بد وأن يكون شيء أفاري قد دخل معيشة

الشعوب المعقورة . ولو بضع كلمات ، ولو عادة من العادات المحلية .

ان اسم الافاريين كسمية لشعب لا يشاهد الآن الا في الاسفار والمؤلفات التاريخية . ولكن يشبهه جدا اسم الافارتسيين الذى يطلقه على الشعب الداغستانى جيرانه القريبون والبعيدون ، اما هو فيطلق على نفسه اسما آخر تماما ، المآرولال .

وعلى اى حال ، ففي القرن الثانى الميلادى ، قبل قدوم الافاريين - الاويريين الى اوربا بامد طويل ، كتب العالم الميوانى القديم بليثيوس عن السافيريين الفلقاسيين الذين عاشوا فى المكان نفسه تقريبا الذى يعيش فيه الافارتسيون الحاليون . وفيما بعد تحول السافيريون - وفق قوانين اللغة على ما يبدو - الى سافاريين ، ومن ثم الى افاريين . وبالسبب ، يفترض احتمالات اخرى لاصل هذا الاسم . ويأتى احدها على ذكر الافاريين - الاويريين ، وهذا الاحتمال يعطيه سفر جورجى يقول ان افارتسيى شمال شرق الفلكاس هم الافاريون الذين حملهم الملك الجورجى غورام واسرهم واسكنهم فى داغستان . بيد ان العلماء يعتبرون هذا الخبر اسطورة .

ولكن لماذا يبق هذا الاسم ، مع انه لا ينفق مع تسمية الشعب الذاتية ، كل هذه القرون فى الفلكاس ؟ ان التوائين التى تحتفظ الشعوب بناء عليها بالاسماء القديمة وتكتسب اسما جديدة ليست باليسيرة . لعله اضطلع بدور فى تثبيت تسمية الافارتسيين فى الفلكاس الشهرة الكبرى التى كانت عند «سيميهم» .

يزداد اليوم باستمرار حاملو هذا الاسم ، لا لان الافارتسيين يحبون انجاب الكثير من الاولاد فحسب ، بل ولان اربعة عشر اثنوسا آخر من الاثنوسات الداغستانية الصغيرة جدا صارت تعتبر نفسها افارتسية فى العقود الاخيرة . وقد اصبحت الثقافة الافارتسية جزءا مكونا هاما لثقافة الشعب السوفييتى بامره . ان اشعار الافارتسى وسول جز توف

الترجمة الى اللغة الروسية اصبحت حدثا يارزا فى الادب الروسى ، واشتاعوا مترجمة الى الكثير من اللغات الاخرى بالاضافة الى لغات شعوب الاتحاد السوفييتى .

وهكذا ، يبق فى الارض اسم الافاريين - الاويريين ، رغم ان هذا الاسم لا يحمله اخلافهم ، ويبق اخلافهم رغم انهم يحلون اسما آخر . قيل يدعوا الى الجزن او الى السرور واقع ان البطل الذى يعود عهده الى الف سنة خلت لم يكن صحيحا تماما ؟ من جهة ، كان يبدو لمدون الاسفار ان مصير الافاريين شابه على وجود العدالة فى الارض . ومن الجهة الاخرى ، لا يحدث ان يستحق شعب كامل القناء والتسيان تماما بسبب النزعة الحربية لزعمائه .

فى زمن اقرب اليانا حل بالهنود الانثيلييين مصير آخر ، ولكنه تراجيدى ايضا .

جزر الانتيل . . . كوبا ، هايتى ، بورتو ريكو ، جامايكا ، باهاما . انها مكتظة بالسكان فى ايماننا ايضا . ولكنهم ليسوا هنودا .

لقد حل مصير قاس بالسكان الاصليين لهذه الاراضى . اذ فتى الشعب او بالاحرى الشعوب التى كانت تقطن قسى الانتيل . ثم بعد ثمة وجود فى الارض للقبائل الهندية التى كانت اول من قابل الاسبان : لقد ابادها الاستعمار .

ولكن فى كوبا وهايتى . وباهاما وبورتوريكو تعيش فى اللغة تسميات للحيووات والنباتات مورثة عن السكان الاصليين . يطلق على الكثير من الجزر تسمياتها القديمة ، وتحمل مئات القرى التسميات التى اطلقتها عليها الاثنوسات الهندية المنقرضة .

ليست جزر الانتيل الكبرى هى وحدها التى تحتفظ بذكرى من لم يعد لهم وجود ، ففي هذه الاماكن بالذات شاهد الاويريون الذرة لاول مرة ، ومن كوبا اتت الى العالم الكلمة الهندية «مايس» «الذرة» . وانكم ، اذ تستلقون فى الارجومة الشبكية (اليامل) ، تستمعون بارت خلقه الهنود

الانتيليون ، ارت حافظ على نسبه السابقة ، والنبح . بالمناسية ، كلمة انتيلية ايضا ،

ثمة خلاف حول عدد الهنود الذين كانوا يعيشون في هذه الجزر ، وتذكر ارقام متباينة لعدد التباين : من بض مئات من الاولف الى عدة ملايين . وقد خلفوا ارقا لمبارات الناس . ومن مفارقات التاريخ ، وعلى مفارقة ليست بالنادرة ، ان الشعوب الحالية لجزر الانتيل ، وهي بالدرجة الاولى من اخلاف الغزاة الارببيين والعبيد الذين جلبوا من افريقيا ، وكذلك المهاجرين الذين اتوا بعد ذلك ، تجل ذكرى الهنود وتمتد بنضالهم من اجل الحرية ، وتدرجهم عن وعى في عدد اسلافها ، وذلك في الغالب خلفا للعقائس المزمنة . ولكن يمكن ان نرى في هذا انقصار العدالة التاريخية .

... ينبغي القول لكي تكتمل اللوحة ان تلك اللغة الكاريبية (الهنديية) التي كانوا يتكلمون بها في جزر الانتيل الصغرى لم تختف نهائيا . ففي القرن الثامن عشر نقل من إحدى هذه الجزر الى امريكا الوسطى اخلاف الهنود والعبيد الافارقة الفارين . وهؤلاء «الكاريبيون السود» مختلفون باخلافهم للغة اسلافهم الهنود . . .

ان اتوسات الباقي نتاج العيش في الشعوب الحالية ، كما يتابع الوالدان العيش في اولادهم .

وإذا كان الافاريون - الاربيريون والانتيليون قد خلفوا آثارا يصعب تمييزها ، ثمة مثال على اتوس في ايضا ، ولكنه ترك لعاقله اكثر ارقا فائق الغنى ونقل اليعم غنى لغته وثقافته الثقافية الكثيرة ، وأحيانا اسمه .

الحديث يجري عن اسماء مدنهم الاسفار الروس بالبولوفيين . ويعرف هذا الشعب كذلك باسم الكيبتشماكيين والكومانين .

لقد ظهرت في القرنين العاشر والحادي عشر في آسيا الوسطى وأوروبا وشغلوا ارجاء شاسعة من بحيرة بلخش الى الدانوب . وكان يسمي الكيبتشماكيون على جزء كبير لحزام

واسع من السهوب والبادي والصحاري يمتد عبر اوراسيا بأسرها تقريبا . وبقي الشرق كله تقريبا على مدى قرون عديدة يطلق احد اسمائهم على السهوب الممتدة من جنوب اوكرانيا الحالية الى الطائ تقريبا ، فيدورها الارض الكيبتشماكية ، ديشمت - اي - كيبتشاك .

كان اليولوفيون - الكيبتشماكيون - الكومانيون جزءا من موجة جديدة للآراك الرحل الذين تحركوا الى الغرب من اواسط آسيا وآسيا الوسطى . واقرأهم البعيديون الجنوبيون - الغز - اسسوا في الوقت نفسه تقريبا الدولة السلجوقية الكبرى في اراضي آسيا الصغرى وايران وجنوب آسيا الوسطى وجزء من ما وراء النخاس .

حارب الروس البولوفيين وعقدوا معهم احنافا ، واضعوم بالتدرج للفهم الثقافي . طبعم ان تتسرب الى الثقافة الروسية بعض عناصر الثقافة البولوفية ، ولا تزال بعض الكلمات من لغة البولوفيين مستعملة في اللغة الروسية الى الآن . بيد ان تأثير الروس كان ، كما تشمير الدلائل كلها ، اقوى بكثير .

في لحظة قدوم الجحافل المغولية الى روسيا كان الامراء الروس والغانات البولوفيون حلفاء اجمالا . وفي المعركة الدروعة على تهر كاتكا قاتل الروس كنفسا لكف مع الاعداء القريبين العهد ضد الاعداء الجسد ، المشتركين ، الارب . وقد مزموا وكانت حملة باقر مأساة مشتركة للروس والبولوفيين .

بقيت السهوب البولوفية سنوات طويلة حصى للغانات والنادة المغول يأخذون منه في فترات «الضائقات المالية» العبيد للبيع . كان البولوفيون بضاعة رابحة . كانوا يعتبرونهم وسميى الطلبة ويقدرون قوتهم . واصبح اقتناء عبيد بولوفي شيئا على الموضة في الكثير من بلدان اوربا وآسيا وافريقيا ، ان البولوفيين الذين جلبوا كعبيد كانوا يذوبون بالتدرج وسط سكان الكثير من بلدان العالم .

ولكن ما هو مصير الذين استسلموا الافلات من السيف

وتعود إليها لغات البشكيريين وتسر الفولغا والنوغاينيين
والقره تشاييفيين - البلقاريين والكوميكيين في القفقاس ،
والقره ايسيين في القرم ، والكازاخيين والقره قلوبينيين في
آسيا الوسطى . ولكن ثمة عناصر موروثة عن لغة
الكيتسناكيين ايضا في اللغات التركمانية والاوزبكية
والقيرغيزية .
الاسلاف يعيشون في الاخلاف .

* * *

في بداية فصلا ، في قسم «علم الشعوب» ، وضعتنا
كمهمة للأنثوغرافيا من الدرجة الأولى دراسة ما هو خاص
وفريد في الشعب - الأنثوس ، مع العلم ان القصد بذلك
الفريد هو قسم الشعب في الثقافة البشرية العامة .
وفي القسم الذي عرضناه اعلاه سمعنا الى شرح هذه
الموضوعة بأمثلة من مختلف الشعوب في مختلف القارات
ومختلف الأوضاع التاريخية .

والحق المغوليون ؟ لقد استطاع عشرات الألوف من الرحل
مغادرة الوطن الى الغرب عبر الطريق القديم ، ووصلوا الى
الداغوب ، حيث قبلهم الشعب الهنغاري واصبحوا جزءا منه
في نهاية المطاف . والكثير من الكيتسناكيين ذهبوا بعد نزاع
دام مع الوجهاء المجريين ووصلوا الى بلغاريا التي كان
البروتونيون مرتبطين بها مدة امسدة بعيد بالاحلاف احيانا ،
وبالعداوة احيانا اخرى ، وحتى ان سلالة تيرنوفيتش
البولونية الاصل حكمت بلغاريا روحا من الزمن .

واضطلع بدور لا يقل أهمية عن ذلك في تاريخ اوراسيا
السلالي كيتسناكيو منطقة البحر الاسود الذين انسحبوا من
سهولهم المكتشفة على العدو الى غابات منطقة الفولغا
والاورال في الشمال والشمال الشرقي ، والذين ابتعدوا الى
القفقاس في الجنوب والجنوب الشرقي ، والذين بقوا يعيشون
في سهول آسيا الوسطى .

ان التتر - الدغول انفسهم في جزء كبير من الاراضى
الكيتسناكية تبددوا وذابوا ضمن اسباب السهول الاقدم ،
واصبحت الكيتسناكية اللغة الرسمية لارطة الذعبية .

لقد دخلت كلمة «كيتسناك» بثبات في الكثير من
التسميات العشائرية - القبلية في اراضى البشكيريين
والكازاخيين والقيرغيزيين والكوميكيين والتركمان
والالطانيين . . . ويمرر دم الكيتسناكيين ، وان لم يكن
وحده ، في عروق كل شعوب منطقة الفولغا تقريبا :
التشرفاشيين والبشكيريين والتتر والماريين . . . وفي
جنوب غربى الفولغا ، في القفقاس ، اعطوا لغتهم للكوميكيين
وسكان داغستان . ان الكازاخيين هم الورثة الشرعيون
للكيتسناكيين ، وكذلك التركمان وان كان ذلك بدرجة اقل .
وهرب عدد من الكيتسناكيين الى منطقة ايليروس
واختلطوا بالالانيين المقيمين هناك وبعض القبائل الاخرى .
وكان ذلك ، في رأى العلماء ، اعم خطوة على طريق ظهور
النومين القره تشاييفى والبلغارى الحاليين . . .
ثمة ضمن اللغات التركية مجموعة كيتسناكية خاصة .

الانثوسات اليوم

بالمنات ، واجيانا بعشرات الناس فقط ، قى حين ان الانثوسات - الامم الاخرى تضم ملايين عديدة . ان ١١ شعبا فقط تشكل قرابة نصف عدد البشرية ، فى حين ان عددا كبيرا من الشعوب الصغيرة التى لا يتجاوز تعداد كل منها ١٠٠ الف نسمة تشكل اقل من ١٪ من سكان الارض .

ان عدم اتساق التطور التاريخى لشعوب العالم تجلى على نحو خاص فى البنية السلافية السياسية للبشرية المعاصرة ، فكل الشعوب الناطقة فى كوكبنا تدخل قوام اكثر من ٢٠٠ بلد بقليل (من الدول والاراضى التابعة) ، واغلبية الدول المعاصرة متعددة الانثوسات . ومن المعروف جيدا انه توجد دول كهذه سواء بين البلدان الاشتراكية (مسلما ، الاتحاد السوفييتى ، يوغسلافيا ، فيتنام) ، او بين البلدان الرأسمالية المتطورة (بريطانيا ، كندا ، بلجيكا) . والدول المتعددة الانثوسات امر مميز يشكل خاص للبلدان النامية . ففى افريقيا ، مثلا ، يتكلم السكان الاصليون ، حسب المعطيات التى فى حوزتنا ، بلغات يبلغ عددها ٧٢٠ لغة .

بيد انه من التيسيق ، طبعاً ، تصور البلدان الوحيدة الانثوسات بمثابة كيانات متجانسة على نحو مطلق من الناحية السلافية (تمثل هذه الدول لا وجود لها فى الواقع) . ولهذا نقترح فى عرضنا اللاحق اطلاق صفة الدول الوحيدة الانثوسات على تلك التى تنتسب اغلبية سكانها للساحنة (٩٥٪ على الاقل) الى رابطة سلافية واحدة اساسية ، كما هو شأن اكثر الاقطار العربية وبنغلاديش والبرازيل والاردن وايطاليا ومدغشقر والنرويج وبنلندا والبرتغال والمانيا الاتحادية واليابان الخ . ان عمليات التكتل السلافى الى الانثوسات عادة فى الدول الوحيدة الانثوسات ، وان مقاييس العمليات وشدها ومطابقتها بشكل خاص تتوقف كثيراً وقبل كل شىء ، على مستوى التطور الاقتصادى - الاجتماعى للبلد المعنى ، وكذلك البنية السلافية المتكونة تاريخياً .

والتكتل يبين الانثوسات امر نموذجى بشكل خاص للبلدان النامية التى تحررت من التبعية الاستعمارية مؤخرًا .

ان عدم اتساق التطور الاقتصادى - الاجتماعى لشعوب العالم فى عصر الرأسمالية اوجد تنوعاً كبيراً للعمليات السلافية وتوازرها وانماطها وانواعها .

لفهم جوهر هذه العمليات ينطرى على مغزى من الدرجة الاولى ، حسب تقاطعتنا العميقة ، المفهوم الذى وضعه لينين حول وجود اتجاهين فى المسألة القومية فى ظروف الرأسمالية ، وقد نوه فى هذه الصدد بان «الرأسمالية تعرف فى تطورها اتجاهين تاريخيين فى المسألة القومية : الاول هو استيفاط الحياة القومية والحركات القومية ، والنضال ضد كل اضطهاد قومى ، وانشاء دول قومية . والثانى ، تطور شتى العلاقات بين الامم وتكاثرها المتزايد وضمم الحواجز القومية ، وانشاء وحدة الرأسمالية العالمية ووحدة الحياة الاقتصادية بصورة عامة ووحدة السياسة والعلم ، الخ .» (لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٥ ، ص ٦٧) .

ان تفاعل هذين الاتجاهين يشمل كل مجالات وجود الامم الاجتماعى ، ومن بينها النواحي السلافية بالذات .

فى ظروف الرأسمالية كان الاتجاه الترحيضى فى العمليات السلافية يتجلى فى قيام ومن ثم تعزيز مقاييس الانقسام السلافية الاساسية . وهكذا ، فان بعض الروابط السلافية نتيجة لاسلوب التطور الرأسمالى فى الغالب تعد الآن

وهكذا ، فإن القبائل العديدة في جنوب شرق نيجيريا (الاباجا ، الاكنا ، الايفنسا ، الايكا وغيرهم) التي تتكلم بلهجات لغة الايبو تندمج بسرعة فـسـى قوم يحمل الاسم نفسه . والانتوسات ذات القربى في كينيا التي تعيش على الضفتين الشمالية والشرقية لبحيرة فيكتوريا بدأت منذ اواسط القرن العشرين تتكلم في قوم اللوخيا الواحد . وفي تنزانيا يتحد النيامفيزي والنيانثورو والميرونغ المتقاربون في اثنوس واحد اطلق عليه اسم النيامفيزي ، احد العناصر السلافية المساهمة في هذه العملية . وفي بتسوانا تتحد قبائل المانغافانو والكفينا والايغفاكيشي والنانانا والكغافلا والماليتي والورولونغ والتلوكفا والكالاغادي في شعب تسفانا الواحد . وعمليات التكتل بين الانتوسات امر نهوذي ايضا بالنسبة الى البلدان الاخرى في افريقيا الاستوائية .

ان العمليات المماثلة تشغل حيزا كبيرا كذلك في مناطق اخرى من العالم النامي . فـسـى كاليمانتان في اندونيسيا ، مثلا ، يبدى ما يسمى بالانتوسات الداياك (انجاسا مينغا نجر الاندماج في شعب واحد . وفي جنوب ملائيزيا ، في كاليدونيا الجديدة ، يلاحظ طور ميكرو للتكتل السلافى بين ثلاثين اثنوسا ملائيزيا في قوم ملائي كاليدوني جديد واحد . وفي بولينيزيا الشرقية ، في جزر كوك ، يلاحظ طور اعلى لامتلاص السلافى بين كل السكان الاصليين فـسـى الجزر (اوروتونا ، مانغايا ، ماتيكيكى - واكاخانا ، تونغاريفا وغيرها) .

تندرج عمليات التلاحم بين الانتوسات احيانا على طابع متدرج ، وكأنها تجري على مستويين - ويمكن ان نورد مثلا على هذا رابطة الاكان السلافية اللغوية المتعددة الملايين التي تضم من حيث اللغة والثقافة مجموعة اثنوسات في جنوب ووسط غانا ومناطق كوت ديفوار المجاورة (ساحل العاج) ، ان تشابه لغات الاكان يساعد على التقارب السلافى اللغافى سواء في اطار الرابطة العملاقة اللغوية الواسعة كلها ، او على مستوى الاقسام السلافية (مثل الاشانتي والمانتي والاكيم الخ) .

ان عمليات الترواص الداخلى مميزة ، وان كانت يشكلى آخر ، لانتوسات البلدان المتطورة من الناحية الاقتصادية . ويستمر حتى الوقت الحاضر ترواص شعوب اوربية كبرى ، مثل الفرنسيين والاسبان والايطاليين . وتنتج هذه العملية في الزوال السريع للفوارق بين المجموعات المحلية للانتوسات المعنية . وهكذا ، مثلا ، يتقارب على نحو متزايد البيرمونتيون واللومبارديون والليجوريون والتروسكانيون والتكاليريون والصقلليون والمجموعات الاقليمية الاخرى في ايطاليا التي كانت منذ امد قريب مختلفة كل الاختلاف من الناحية السلافية الثقافية .

اما في خصوص عمليات الاندماج ، فانها فـسـى البلدان المتعددة الانتوسات تنطوي ، كقاعدة عامة ، على مقاييس اوسع مما في البلدان ذات الاثنوس الواحد . وشدة هذه العمليات تتوقف كثيرا على البنية السلافية المتكونة تاريخيا في هذه البلدان . ويساعد عليها ولا تشكك وجود وراثة سلافية كبيرة وصغيرة ولا سيما اذا كانت عشيرة ، في اطار الدولة الواحدة . ويلاحظ كذلك ان الاندماج يجري بغالبية خاصة ايضا حينما تتجاوز شعوب مختلفة بشكل ملحوظ من حيث مستوى التطور الاقتصادى الاجتماعى ، وكذلك للغة والنسب التاريخي . وعنده الاتصالات كثيرة ، مثلا ، فـسـى افريقيا الاستوائية : غينيا ، نيجيريا ، توغو ، كينيا ، رواندا ، بتسوانا . وفي هذا الصدد يمكن الاستشهاد كذلك بعمليات الاندماج الجارية في الهند المعاصرة . ان بعض مجموعات الشعوب الصغيرة هناك (البيرهرريين ، اليبهيين ، الكولي ، الغونديين ، اللويسلا وغيرهم) تفقد في خلال هذه العمليات لغتها وتتحول في بنية الشعوب الهندية الكبرى الى اقسام او مجموعات اثنوغرافية لها . وهذه الاخيرة ، وقد استوعبت لغة الشعب الكبير المحيط بها ، تتابع في الوقت ذاته المحافظة على عناصر متميزة للثقافة . وعلى بعض ملامح الاقتصاد الخاصة .

في تلك الحالات ، حينما يكون الاثنوس الصغير فـسـى

مجال تأثير عدة روابط سلافية كبرى ، يندمج في وقتئذ واحد في كل من هذه الروابط (ولا سيما إذا كانت بنسب سلافية اجتماعية واسعة) - ان عدداً من الساميين ، مثلاً ، يقرب في الانتوسات الاسمية للخروج والسويد وفنلندا ، يتعرض المهاجرون كذلك للاندماج الى جانب ممثلي الروابط السلافية الاصيلة . وقد ازداد عددهم كثيراً في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في الكثير من البلدان المتطورة صناعياً في أوروبا الغربية ، وكذلك في الولايات المتحدة وكندا . وفي الوقت الحاضر يبلغ عددهم في ألمانيا الاتحادية ، مثلاً ، قرابة ٣ ملايين شخص ، وفي فرنسا قرابة ٣ ملايين ، وفي بريطانيا قرابة ٥٠٠ مليون ، وفي سويسرا قرابة ٨٠٠ الف . والكثيرون منهم متحدرون من بلدان اوروبية ذات تطور اقل نسبياً من الناحية الاقتصادية تنقسم بنسب طيعي مرتفع نسبياً للسكان (إيطاليا ، إسبانيا ، البرتغال ، اليونان ، وكذلك في بلدان افرقيا الشمالية ، ويزداد عدد من يسمون «المهاجرين الملونين» - ومن بين بلدان أوروبا الغربية تبرز بريطانيا بشكل خاص من هذه الناحية ، حيث انتقلت اليها بعد الحرب العالمية الثانية جماعات كبيرة من زنج وبيست انديا ، وكذلك من الهند والباكستانيين من المستعمرات البريطانية السابقة في شرق افريقيا وجنوب آسيا . ويعيش مستوطنون كثيرون من الهند وباكستان كذلك في مختلف بلدان آسيا نفسها . ويشكل المتحدرون من الصين - الهواتسيو مجموعة خاصة من المهاجرين . ويربو عددهم على ٢٠ مليون نسبة . ويعيش البهور الاساسي من الهواتسيو في بلدان جنوب شرقي آسيا ، ومن بين مناطق العالم الاخرى تبرز في هذا الخصوص اميركا الشمالية ، ولا سيما الولايات المتحدة . وانتقل الى الفلورا الاميركية مهاجرون كثيرون من اليابان وتايلاند وبلدان اخرى في آسيا . وفي سنوات ما بعد الحرب صار القادمون من بورتوريكو يشكلون في الولايات المتحدة مجموعة سلافية كبيرة جديدة من المهاجرين .

عملية اندماج المهاجرين جوانب مختلفة . اصعب اندراج المهاجرين في البنية الاقتصادية والاجتماعية للبلد الذي استقبلهم . ومن المميز وجود تخصص مهني معين لدى المجموعات السلافية المختلفة . ففي الولايات المتحدة يرجع بين القادمين من بورتوريكو الكثيرون جداً ممن يمارسون اعمالاً لا تتطلب مهارة خاصة ، وثمة بين الالمان الكثير من الزارعين الصغار ، وبين القادمين من بريطانيا الكثير من عمال التعدين ، وبين الايطاليين الكثير من البنائين ، وبين اليونانيين الكثير من صانعي الحلويات ، وبين البولنديين الكثير من عمال صناعة السيارات . ورغم ان هذا واضح بما فيه الكفاية ، الا اننا نلفت الانتباه الى ان المهاجرين بجموعهم الاساسي هم دوماً ممن فُتحت السكان الكادحة المستقبلة .

يمارس التمييز العنصري والتعامل السلاف التقليدي تأثيراً كبيراً وسلبياً بشدة في عمليات اندماج المهاجرين السلاف ، ومن المميز في هذا الخصوص مصير الاوروبيين انفسهم ، شأن الايرلنديين في انكلترا ، مثلاً . يبدو ان على الايرلنديين ، بسبب لغتهم الانكليزية وقرىم الثقافى من الانكليز ، ان يتكيفوا بسهولة مع حياة الاخرين . ولكن على الرغم من ان الايرلنديين كانوا من اوائل مجموعات المهاجرين الى انكلترا ، فاقهم لا يزالون بمسودهم الاعظم متفوقين يقولون في اسفل السلم الاجتماعي الى الآن .

ولا ضرورة في هذه الحالة للحديث عن ظروف المعيشة الناقصة بشكل خاص للقادمين من البلدان النامية ، فهذا الواقع معروف جيداً .

من الآثار السلافية للهجرة ازدياد التنوع السلافى للكثير من البلدان .

ان ألمانيا الاتحادية ، مثلاً ، تحولت في العقود الاخيرة نتيجة جلب القوة العاملة الرخيصة الى المهاجرين باعداد غفيرة من دولة ذات قومية واحدة عملياً (قبل عام ١٩٦٠ كان الالمان يشكلون ما يزيد على ٩٩٪ من مجموع السكان) الى بلد ذي

بنية سلافية معقدة وتزاغات سلافية حادة ، إذ يوجد فيها حالياً تسع مجموعات قومية يربو تعداد كل منها على ١٠٠ ألف شخص .

وتجرى عمليات سلافية توحيدية على أساس المهاجرين في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً التي كانت تدعى على امتداد تاريخها بأمره دور «أرض الميعاد» . لقد كانت الولايات المتحدة بوقت صير كان القادمون من مختلف بلدان العالم «يذويون» فيها ويصيحون جزءاً من النورس واحد . ولكن في القرن العشرين أصبح وضعها بشكل خاص اتسم صارت «تستقل وواسع» بصورة متزايدة في عهد «البوتقة» . والتناقضات الطبقيّة المتناحرة لا تكمن من تخفيف التناقضات السلافية والعنصرية ، بل على العكس تؤدي الى اعتدائها الشديداً .

لم يشأ المجتمع الأمريكي ، ولم يستطع من حيث الجور ، ان يدرج في ذاته على قدم المساواة الزوج والمكسيكيين واليوتوريكيين وغيرهم . ويتعرض لتمييز قاسي اخلاف القادمين الى الولايات المتحدة من الايطاليين والعرب واليابانيين ومعنى الكثير من الشعوب الأخرى . كل هذا يجعل الأمة الأمريكية ميداناً ليس فقط للقوى الجاذبة ، بل لقوى نابذة أيضاً .

ان الاندماج السلافي يتجلى عادة ، كما سبق ونوهنا ، في ذوبان الانثوس الأصغر في الأكبر ، أي انه يتطوى على طابع وحيد الجانب . ويلاحظ هذا لدى الذويان السلافي سواء للمهاجرين او للاتوسات الصغيرة ، وهذا الطابع الوحيد الجانب لاندماج السلافي ليس اعراساً حقيقياً ، بالطبع ، أحياناً يحدث العكس ، إذ يمكن لرابطة سلافية صغيرة ان تدفع بعض ممثلي رابطة أكبر ، ولدى قفاعة رابطين سلافيين كبيرتين على حد سواء يجري عادة اندماج ثنائي : ان جزءاً من كل من الاتوسيين المتفاعلين يندمج في الآخر في الوقت نفسه .

حينئذ يكون للاندماج طابع ثنائي يبرز الزواج المختلط من

النتيجة السلافية ، كما قسى العمليات الاندماجية الأخرى ، كثافة من أهم الألفية . وليس من النادر ان يجري الاندماج السلافي الثنائي كذلك قسسى مجال التفاعل اللغوي الثقافي «الصرى» . وهذا ما تساعد عليه بشكل جوهري أحياناً المعايير القانونية السارية في ميدان اللغة . وهكذا ، فبناء على المعايير القانونية البرغية في سويسرا ينبغي لكل مواطن ينقل من عتلة ذات لغة أجنبية ان يعرف اللغة المحلية . وهذا ما بحث اندماج السويسريين الناطقين بلغة مغاورة ويصون اللغة والثقافة المحليتين .

نمة في العالم المعاصر عمليات اندماجية من نوع آخر في ميدان الثقافة . إذ تزداد نسبة عناصر الثقافة التي تنتشر في أرجاء العالم كافة بهذه الدرجة أو تلك ، فقد كانت المدن الأماكن الأساسية لتشكيل عناصر الثقافة هذه ، وكان التطور الصناعي الأساس التكنيكي الاقتصادى لظهورها . وتجل هذا قبل كل شئ في ميدان الثقافة المادية ، وفي الانتشار الواسع سواء في مجال الانتاج او في مجال المعيشة لمختلف السلع الصناعية ذات المواصفات الموحدة : مكنس السيارات الى الكسورات المعانتية اليومية (المالاس ، الاثاث ، الطعام وما شابه ذلك) . وتكتسب بعض قوالب السلوك اليومية أيضاً طابعاً آمياً متزايداً (مثلاً ، قواعد حركة المرور وغيرها) . واثرت الاتجاات التكنمكية في مجال الثقافة الرخبة أيضاً . ويتطوى على مفسزى خاص في هذا الصدد التطور العاصف في ظروف الثورة العلمية التكنيكية لوسائل الاتصال العامة : السينما ، الاذاعة ، التلفزيون . وهذا ما جعل من الممكن انتشار العناصر المتشابهة المتولية للثقافة الرخبة بتقاييس شاملة : من مؤلفات الفنون والأدب الى العروض الجامعية والسياسة .

ينبغي القول ان «الاستيليسمنت الأمريكي» وهو ، «فئة الألة العليا» المتميزة ، التي مكن الميديا ان تقوم جيداً بالتابع الموضوعى ، «التكنيكي» الحتمى لنمو «الثقافة الجامعية» المعاصرة ، رفعت عملياً الى عصف سياسة للدولة

استخدام هذه «الثقافة الجياهيرية» فسي اهدافها المغرضة . وهي تجري تحت ستارها «دمجاً ثقافياً» مكثفا وقسريا من حيث الجوهر للسكان ، ولا سيما في تلك البلدان التي يتبع زعمائها نهجا مواليا لاميركا . وهكذا - كما يعتبر الكثير من الساسة والعلماء ، وبينهم مؤلفا هذا الكتاب - يخلق بعضه شاملة جدية اخرى ناجمة عن الهجوم المتزايد للدعاية الى نسط الحياة البرجوازي الاميري على الثقافة الريفية لتعريب العالم .

ان العمليات التجارية في ايماننا للتكامل والاندماج السلايين والثقافيتين تنقسم بالتنوع الشديد لاشكالها ووتأثيرها ، ولطابعها نفسه ، كما سبق ونوهنا . وطبيعي ان يطرح على مغزى حاسم في هذا الخصوص ، حسب قناعتنا ، التقسيم المبدئي للاندماج الذي وجه لثنتين اقتبامه اليه في مؤلفاته حول المسألة القومية ، التقسيم الى اندماج طبيعي وآخر قسري في ظروف الرأسمالية .

في افريقيا نجد ان التكامل بين الانثوسات في شكله «الكلاسيكي» يجري قبل كل شيء ، حسب تصورا . في منطقة غرب افريقيا ، حيث تعيش انثوسات تختلف اختلافا شديدا من حيث اللغة . وتتضمن روابط سلافية انتقالية في كسل بلدان غرب افريقيا تقريبا : السنغال ، غينيا ، مالي ، غانا . وسكان كل من هذه البلدان لم يعودوا يسمون أنفسهم بمنطلق اقوام وقبائل معينة فحسب . بل يسمون انفسهم ايضا سنغاليين وغينييين وماليين الخ .

وفي آسيا نتيجة للعمليات الاقتصادية الاجتماعية التكاملية وما يرافقها من عمليات تكامل بين الانثوسات تتشكل روابط سلافية انتقالية عملاقة تمتد بعشرات او حتى مئات الملايين من الناس . وهذا ينطبق فبشكل كسل شيء على الهندود والباكستانيين والاندونيسيين والفيليبينيين .

وتبدأ بالانتشار عمليات التكامل بين الانثوسات في بعض بلدان اوقيانوسيا المتعددة الانثوسات اثني حازت استقلالها مؤخرا .

ان تفاعل الانثوسات سواء في الماضي او في الحاضر المعاصرة لا يقتصر على تشكيل الروابط السلافية الانتقالية او الانثوسات الفرعية . ففي طاق ظروف معينة يزدى هذا التفاعل - الامم الجوهري يشكل خاص - الى ظهور انسام سلافية جديدة من «المستوى الاساسي» ، اي التعريب بكل ابعادها الاجتماعية السلافية . وثمة امثلة كثيرة على هذا تعطيها العمليات السلافية في اميركا اللاتينية ، وهي امثلة واضحة للغاية ، اذ يساهم مشوار مجموعات عرقية مختلفة ، كقاعدة عامة ، في عمليات ظهور الانثوسات الجديدة ، الامم الاميركية اللاتينية المعاصرة . وهكذا ، ففسي اميركا الوسطى ، كالسلفادور ، مثلا ، حيث عمليات الاختلاط السلاي ييسن الانخاص ذوي الاصل الاوربي والهنود قلعت شوطا كبيرا بشكل خاص ، كان الهجاء «اللادينو» في مستهل القرن التاسع عشر يشكلون ٥٤٪ من مجموع سكان البلاد ، وصاروا في ثلاثينات القرن العشرين يشكلون اكثر من ٧٥٪ ، ومع الان ٩٠٪ . وتلاحظ لوحة مقابلة في هندوراس ، حيث كان اللادينو يشكلون في الخمسينات والستينات ٩١٪ والهنود ٦٪ ، والزنج ٢٪ ، والبيض ١٪ . وإلى جانب ذلك فسان عملية «التجهين» في جملة من بلدان اميركا اللاتينية لا تزال بعيدة عن الانجاز . ويسكن لغواتمالا ان تكون متصلا على ذلك . حيث كان الهجاء والكريوليون يشكلون الاقلية في اواميل القرن العشرين (٤٦:٤٤ في عام ١٩٥٠) . ومع ذلك كانوا هم بالذات يمثلون الرابطة السلافية الايلة الى التكون والنامية ، اي الامة الغواتيمالية .

تقرر العمليات السلافية المعاصرة ، ولا سيما في القارة الافريقية ، بجملة من الهمات الاجتماعية الجديدة التي تعطلل الحل .

حتى عام ١٩٥٧ لم يكن يوجد في افريقيا الاستوائية سوى بلدين (اثيوبيا وليبيريا) كان فيما «الزنج» فاضعين وحاكمين على حد سواء . والان يوجد العشرات من هذه البلدان . لقد ذهبت ازمة الاستعمار بلا عودة بالنسبة الى

الجزء الأعظم من «أفريقيا السوداء». وفلول الامبراطوريات الاستعمارية لا تشمل سوى نسبة هزيلة من القارة. ولكن الاستعمار خلف للبلدان المتحررة بعد مغادرته العديد من المضلات -

وتشغل المضلات السلافية حيزا لا يستهان به بين هذه المضلات. ان كل دولة عليا من الدول الافريقية الجديدة. بغض النظر عن حجمها، تمثل غالبا اتحادا لعدة اثنيات على شكل قبائل واخوام، وتمثل احيانا روابط سلافية في مرحلة التكون في ايم. واذا كان في زائير (الكونغو البلجيكي سابقا) بسكانها الذين يربو عددهم على ٢٠ مليونا يوجد من عتده الاثنيات اكثر من مئة بكتير، ففي جمهورية الكونغو الشعبية المجاورة (قارة مليون نسمة) لا يوجد «سوى» بضع عشرات. وفي كينيا توجد ستة شعوب على الاقل يضم كل منها اكثر من نصف مليون شخص، بالإضافة الى عشرات الاقوام ومئات القبائل.

لقد ورثت الدول المستقلة حدودها عن الممتلكات الاستعمارية للدول الأوروبية، وكان الامبراليون الانكليز والفرنسيون وغيرهم يهتمون اقل ما يهتمون بتنظيم مستعمراتهم وفق المبدأ السلافي.

حينما كانت عملية تصفية الاستعمار في افريقيا قد بدأت لتوها، توقع الكثير من العلماء والمؤرخين والانتروپالوجيين، شأن الكثير من الشخصيات السياسية، قيام دور جديدة هناك وفق المبدأ السلافي، واخترشوا انه ستهدم في غضون ذلك وتفصل من جديد شبكة الحدود التي نشأت في خلال استيلاء الدول الامبريالية على افريقيا، بين ان هذا لم يحدث. في غضون مئة سنة (تزيد او تنقص) أصبحت كل مستعمرة سابقة، بحكم التطور الطبيعي، تشكل الى حد بعيد كسلا اقتصاديا وغير اقتصادي.

يتبقى الافتراض ان منظمة الوحدة الافريقية لم تعلن عن قبول المصادقة مبدأ الاقفا، على الحدود بين البلدان، اذ ان خرقها في الظروف المدعومة لافريقيا المعاصرة يسؤدى الى

الثنى، في رأى قادة منظمة الوحدة الافريقية. وثمة امة واحدة على هذا، وذلك مثلا ايان النزاع الصوماني - الاتيوي، وقبله النزاع الصوماني الكيني وغيرهما.

وفي الحدود الحالية لكل بلد تجري عمليات سلافية على نحو عاصف وبسرعة لا يكا التاريخ يعرف لها نظيرا. واذا كانت البنى العشائرية التقليدية في اوروبا قد تحولت الى اقوام على مدى قرون، فان هذه العملية لتتطور بالتدافع في افريقيا. على امتداد العقود الاخيرة.

ان اكبر شعب في كينيا - كيكويو - يجمع حوله شعوب الاديرو والهيرو والسيري والمواكا وشعوب اخرى صغيرة جدا. وتسمى حكومة كينيا، شأن سلطات عدة من البلدان الافريقية الاخرى، الى حد العمليات السلافية اكثر واكثر. واضمة هذا لها لتشكل امة كينية واحدة. وفي عام ١٩٦٣، بعد نيل الاستقلال مباشرة، طرحت مهمة التوحيد هذه ووقع شعار «خارامبي» - «سنعمل معا»، وفي عام ١٩٦٨ اضيف شعار جديد: «لا توجد قبائل، بل كينيون». ولكن لفعل الصرع الشديد جدا هو بالذات الذي ادى في عام ١٩٦٩ الى سلسلة من النزاعات بين بعض اقوام كينيا، نزاعات وصلت احيانا الى صدامات مسلحة. ومع ذلك استطاعت الدولة الخروج من هذه النزاعات.

منذ عدة سنوات اعلن جوليوس نيريري، رئيس تنزانيا، ان الحزب الحاكم الذي يترأسه وضع امامه مهمة تشكيل امة من اكثر من ١٢٠ قبيلة. من اناس يهتمون في مجموعات دينية واجتماعية مختلفة. كتب نيريري: «نريد ان تعيش الامة اجمالا كاسرة واحدة. هذا هو اساس الاشتراكية». لا يشكل سكان تنزانيا امة واحدة بعد. ولكن تنزانيا ذات وضع مؤات نسبيا عن الناحية اللغوية، اذ ان ٩٧ بالامانة من سكانها يتكلمون بلغات البانتو. وهي لغات ذات بناء، احدى واحد وخمسة مفردات واحدة عن حيث الأساس، وهذا ما يساعد على تقارب المجموعات السلافية. ونفسى رأى الاختصاصية السوفييتية في الشؤون الافريقية اسماعيلوف.

المهام السلالية الاجتماعية المتشابهة المشتركة ، سواء
اكانت هذه الدول في افريقيا ام اميركا اللاتينية ام آسيا .
لدى وضع الحدود بين الدولتين الجديدتين ، الهند
وباكستان ، اخذ في الاعتبار قبل كل شيء الانتماء الديني
للاممية سكان هذه المنطقة اي تلك . هذا في حين ان
المسلمين وغير المسلمين كانوا يعيشون بصورة متداخلة .
ان الكثير من المسلمين الذين اصبحوا داخل حدود جمهورية
الهند ، شأن الكثير من البوذيين والسيخ والهندوس الذين
كانوا يعيشون في الاراضي التي اصبحت جزءا من باكستان ،
قد فضلوا الانتقال الى اراضي ابناء ملتوم . وكل من سيول
المهاجرين هذه كان يصل حتى بداية الستينات الى ١٠ ملايين
شخص كحد أدنى .

ينبغي التنويه بان اقوال اللغة التي يتكلم بها اكثـر
الشعوب عددا بمثابة لغة للدولة ليس من النادر ان يفسر
اعتراض مثل اللغويات الاخرى وبعبارة بالمقاومة .
في مستهل الستينات بذلت في الهند محاولة لجعل اللغة
الهندية الزامية في الدراسة ومؤسسات الدولة . وجسبت
هذه المحاولة باحتجاج شديد ولا سيما في المناطق الجنوبية
من البلاد التي يتكلم سكانها باللغات الدرافيدية . ان
الانكليزية ، التي اضطلعت قبل ذلك الوقت بدور لغة
للدولة ، كانت غريبة عن كل شعوب الهند «على حد سواء .
ولو صارت الهندية اللغة الرسمية في الهند ، لنال الناس
الذين كانت لغتهم الام ، على ما يبدو ، الافضلية لدى الالتحاق
بمدرسة في الدولة . مثلا ، ووصل الامر الى اشتباكات مسلحة
دبرتها القوى الرجعية . ولكن الرجعية استطاعت هنا الاستفادة
من صعوبات قائمة فعلا . ووجد الحل ياعطاء اللغات الانثى
عشرة الاكثر انتشارا صفة لغات رسمية .

يسير بمزيد من السرعة عادة انتشار قانين اللغة
المحايدة ، ان صح القول . ان البنجابيين هم اكثر الشعوب
نمدا في باكستان ، حيث يشكلون قرابة ٦٠ في المئة من

وهو رأى لا يسعنا الا الموافقة عليه ، انه «من غير المستبعد
امكان نشوء امة تنزانية واحدة في مستقبل قريب على قاعدة
مختلف العناصر السلالية» . اما الآن فيجري هناك بالدرجة
الاولى ، كما في كينيا ، التوافق القبايل الصغيرة ، الامر الذي
سبق وانشرنا اليه ، حول عدة اقوام كبيرة .

ان دور الدولة في تطوير العمليات السلالية كبير جدا
في افريقيا . فحينما يسعون هناك ، مثلا ، الى جعل الاعياد
الدينية - للمسيحيين والمسلمين والديانات المحلية -
اعيادا على نطاق الدولة بأسرها يحتفل بها المواطنون جميعا
معها كان دينهم ، فان هذا مثال على عدل غير مرجح من اجل
«بناء الامة» .

في افريقيا بأسرها تقريبا تؤدي المسند دور «مغايير»
تجرى فيها العمليات السلالية بصورة متسارعة . وفي رأينا
ان اسماطينا كليات على صواب اذ نوهت في كتابها «التضاي
السلالية لافريقيا الاستوائية المعاصرة» بانه «تتكون في الحياة
اليومية ، ولدى الاختلاط الدائم خصال جديدة لدى الافارقة
المنتمين الى مجموعات سلالية مختلفة . وطبيعي ان الناس
من مختلف المجموعات السلالية ، اذ يعيشون في مؤسسة
واحدة وتكتنفهم ظروف متشابهة ، يتقاربون ويتفقون عن
قبيلتهم شيئا فشيئا وتوسع مداركهم وتتمحى الاختلافات
القبلية بينهم» .

وهذه العملية سارت بعيدا بحيث انه لا يتسنى غالبا لدى
اجراء الاحصاء في مدن تنزانيا تحديد الانتماء القليل لعدد
كبير من السكان ، وفقدان الصلة بالقبيلة يبلغ حده الاقصى .
اعلنت الحكومة الحالية في زائير «القومية الزائيرية» مفاد
سياسة لها ، والصحافة الزائيرية ، التي تصدر بلغات
مختلفة ، لا تذكر على اى حال ان شعوبا مختلفة تعيش في
زائير ، بل تؤكد انه توجد امة زائيرية . ولكن من الواضح
انه لا تزال معضلات كثيرة جدا تعترض هذا الطريق ، اذ
يستحيل حل المسألة القومية بالاعلان ان لاوجود لها وكفى .
للدول التي نشأت مكان المستعمرات السابقة الكثير من

سكان البلاد ، في حين ان الاردو أصبحت لغة الدولة ولغة التفاهم بين الاثنيات .

اثبت الاختصاصيون في اواسط السبعينات ان اكثر من ٣ ملايين شخص في باكستان اعتبروا الاردو لغتهم الام ، ولكنهم لا ينتمون بعد الى اية رابطة سلافية معينة . لا يوجد شعب ناطق بالاردو ، ولكن يوجد اشخاص فقط يعتبرون الاردو لغتهم الام ، ولهم من البنجابيين والقادمين من الهند ، والناس الناطقون بالاردو متركزون قبل كل شيء في كراشي ولاهور ، اعم مركزين اقتصاديين في البلاد . ويصدر بالاردو العدد الاكبر من الجرائد والمجلات ، وتشغل المكانة الاولى في طبعات الكتب والوثائق الاداعي والافلام السينمائية . ان اللغة التي لا يفلح خلفها شعب ظاهرة جديدة بالاعتبار ، وبالنمائية ، ينبغي الاقتراض الى هذه اللغة مستعارة شعبيا ، ان صحت التعبير ، وثمة صوغ للاقتراض ان السياسة الحكومية الهادفة الى تدعيم مواقع لغة الاردو مستزدي الى ظهور رابطة لغوية يترأسها البنجابيون . ولا شك في ان لغة الاردو مستعانة على تقارب شعوب باكستان . في كل بلد افريقي يوجد عدد كبير من القبائل داخل الحدود العامة للدولة ، ولهذا فان قضية اللغة المشتركة أصبحت إحدى اهم القضايا في كل مكان من افريقيا تقريبا . وفي حالات كثيرة يبقى لغة الاسياد المستعمرين القريبى العهد ، اى الانكليز والفرنسيين بالدرجة الاولى ، هذه اللغة المشتركة . ولكن لا يعرفها غير الموظفين والمثقفين الذين لا يزالون قلائل . ومن الواضح ان هذا ليس حلا نهائيا للمسألة .

في افريقيا الشرقية يرى عدد من البلاد المخرج نفسه في نشر اللغة السواحلية . وقد برزت منذ امد بعيد الى حد ما في بعض مناطق القارة كوسيلة للتفاهم بين القبائل ، ومن افضليتها ان الانتقال الى هذه اللغة لا يمكن له ان يعثر امرا يوفر امتيازات لشعب كبير ما : فمذد امد غير بعيد كانت السواحلية اللغة الام لضع عشرات الاف من الناس فقط .

في عام ١٩٧٠ قرر الحزب الحاكم في كينيا ان السواحلية يجب ان تصبح لغة الدولة ، واقتضى انها ستزيع حتى عام ١٩٧٤ اللغة الانكليزية من الحياة الادارية والاجتماعية . ولم تستطع السواحلية احراز هذا الانتصار . بيد ان ٨٠ ٪ من سكان المدن يتقنون السواحلية . وتعتبر في الكثير من مناطق البلاد لغة التخاطب بين القبائل . ويبدو انها ستحرز النصر في نهاية المطاف .

وجدت اندونيسيا - بعد التحرر من التبعية الاستعمارية مباشرة - حلا ناجحا للمسألة اللغوية .

في العالم المعاصر بلدان قليلة يربو عدد سكانها على مئة مليون . ومن بينها اندونيسيا ، بلد لها الاثرف من الجزر التي يعيش فيها عشرات الشعوب الكبيرة والصغيرة التي تشكل في الحياة العادية تعقيدات اللغات . ويشكل الجاويون اكبر النوس هناك . كان يبدو ان اللغة الجاوية بالذات يجب ان تصبح لغة التفاهم بين القوميات على نطاق اندونيسيا بأسرها . ولكن هذا لم يحدث . وشغل مكانها بهذه الصفة وبصفة اللغة الرسمية الوحيدة ما يسمى «بانغسا اندونيسيا» التي كانت اساسها لغة ملايو وسط وجنوب سومطرة .

ان اللغة الملايوية تستخدم منذ مئات السنين في جزر اندونيسيا بمثابة لغة بسيطة . وفي القرون الوسطى نشرت الدول الملايوية نفوذها الى جزء كبير من البلاد ، واضطلع التجار الملايويون بدور هام في الصلات الاقتصادية بين الجزر ، واستقر المستوطنون الملايويون في جاوا وبورنيو وسولاوي وجزر أخرى ، وجلبوا معهم لغتهم لتسيطر على الاراضي الجديدة .

لقد «عملت» ظروف كثيرة في تقدم اللغة الملايوية في الجزر الاندونيسية ، فيها بالذات جرت ، مثلا ، الدعوة الى الاسلام في جملة من المناطق . وكان اعتناق الاسلام في تلك الفترة يعنى بالنسبة للكثير من الوثنيين ان يصبحوا ملايوين . وكذلك قام المبشرون المسيحيون بدعوتهم باللغة الملايوية بالدرجة الاولى .

لدى الصراع في هذا البلد أو ذاك بين لغتين تضطلمح الخصائص النحوية البحث لكل منهما بدور من الدرجة الثالثة عموماً . ولكن هذه القاعدة العامة لم تكن ذات شأن لدى النقاء اللغتين الملايوية والجاوية . فاللغة الجاوية في غاية التعقيد ، وقد خلف فيها ماضي الجزيرة الأقطاعي أثراً قوياً جداً . وعلى الجاويين لدى الحديث أن ينتبهوا بعناية لكل عبارة في اللغة ، لأنها تراسى حسب التقليد الوضع الاجتماعي لمستخدميها وللمخاطبين وللمستمعين . ويفترضون أنه لا توجد لغة أخرى يمكن أن تسمى بمثل هذه السهولة للمجئس لمجرد عدم استخدام كلمة ما بدقة . وعلاوة على ذلك ، فإن السؤال البسيط «كيف الأحوال ؟» يصاغ على نحو متباين لدى التوجه إلى من هو «أعلى مقاماً» أو «أدنى مرتبة» . وحتى مفاهيم مثل «المسكن» و«البيت» يفترض أن تسمى بكلمات مختلفة لدى الحديث مع الند ، ومع من هو أدنى من حيث الوضع الاجتماعي ، ومن هو أعلى . وهذا ما ينطبق على الكثير من المفاهيم الشائعة الاستعمال . ان اللغة الجاوية مشبعة بمثل هذه «الدقائق» بحيث ان السلطات الهولندية في عهد الاستعمار اضطرت لهذا السبب ، بين أسباب أخرى ، إلى أن تأمر الموظفين القادمين بالا يتحدوا مع الاستقراطينيين الجاويين باللغة الجاوية ، بل باللغة الملايوية . والابدان نزاعاتهم «في غنى عنها» .

والجاويون أنفسهم يفضلون ان يتكلموا بالملايوية في الاجتماعات وفي خلال كل الفعاليات الاجتماعية تقريباً ، وهذه اللغة شائعة جداً في المعامل والمؤسسات ، وهي تقدم اللغة الوحيدة المقبولة من الجميع في أندونيسيا .

أما في ماليزيا المجاورة ، حيث يتن الملايوية ٩٠٪ من السكان الاصليين ، فإن هذه اللغة ، على العكس ، تزاح بسرعة من مجال التعليم والإعلام . تزعم اللغة الانكليزية ، ربما لأنها أيضاً واسعة الانتشار بين المهاجرين الصينيين والهنود الذين يشغلون مواقع اقتصادية هامة في البلاد . ان إيجاد لغة وطنية عامة وإرساء أسس الثقافة الوطنية

العامة باعتبارها أهم عناصر الوحدة السلافية هما بالنسبة إلى البلدان النامية مهمة واقعية ، ولكنها معقدة .

علاوة على القضايا السلافية التي ذكرناها توجد في العالم قضايا ملحة أخرى في غاية الحدة . ولعل الشرق الأوسط وأفريقيا الجنوبية هما «أحصى منطقتين» في العالم .

ان القضية الفلسطينية مقلقة للغاية . فبعد أربعين سنة تقريباً اقتضت منظمة الأمم المتحدة قراراً ينبغي بناء عليه ان تظهر في هذه الأرض العريقة دولتان مستقلتان : عربية ويهودية . وقد ظهرت الثانية . أما الأولى فلم تظهر إلى الآن . والفلسطينيون ، بلا أدنى شك ، انتمسوا له من الحقوق ما لكل الأتوسات الأخرى . ويملك الشعب الفلسطيني حقاً عادلاً ليس دون حق أي شعب آخر في تقرير المصير ، ونفى إراضيه . هذا في حين ان السيادة الامبريالية للولايات المتحدة الاميركية والأعمال العدوانية المرتكبة في مجرى هذه السياسة والتي تنهبها الاوساط الحاكمة في اسرائيل أدت إلى ان يعيش جزء من الفلسطينيين في جو من الارهاب تحت الاحتلال الاسرائيلي ، وان ينشئت جزء من العالم العربي بأسره . وان يعيش جزء في مخيمات اللاجئين .

والوضع السلافي في جمهورية جنوب أفريقيا متوتر إلى الحد الأقصى . هناك تقبض الاقلية «البيضاء» على زمام السلطة منذ الازمنة الاستعمارية ، أما المنتمون إلى الأتوسات المحلية ، وكذلك المتحدرون من الهند وباكستان والخلاسيون ، فهم الاغلبية المضطهدة ، المحرومة من حقوق الانسان . ان كل القوى الديمقراطية في العالم الآن هي إلى جانب الشعوب المتاضلة ضد الابرتهيد ، ضد كل اشكال العنف العنصري والسلافي .

من التجربة القومية للاشتراكية

ان القرن العشرين نفسه ، الذي اتسم بتسارع وتائر العمليات السلافية وتزايد المجابية الاجتماعية داخلها ، أعطى ،

من الجبهة الأخرى ، أمثلة على تطور وازدهار الحياة القومية .
كان ظهور أشكال جديدة للاتنوعات ، الأمم الاشتراكية ،
أحد الآثار الجوهرية لتورة أكتوبر الاشتراكية العظمى عام
١٩١٧ التي أطلحت بالثورات المستغلة في روسيا .

قبل هذا الفاصل التاريخي كانت شعوب العالم كلها والأمم
كلها تنقسم إلى مضطهدة ومضطهدة . هذا التقسيم في ظروف
السيطرة المهيمنة للتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الرأسمالية
هو التقسيم الأهم والأساسي من وجهة نظر العلاقات القومية .
في عام ١٨٤٨ كتب ماركس وانجلز في «بيان الحزب
الشيوعي» : «إزايوا استثمار الإنسان للإنسان ، تزليسا
استثمار أمة لأخرى .

وعندما يزول تناسل الطبقات في قلب كل أمة يزول في
الوقت نفسه العدا ، والنقد بين الأمم» (ماركس وانجلز .
«بيان الحزب الشيوعي» ، القاهرة ، مطابع شركة الاعلانات
الشرقية ، سنة ١٩٧٠) .

يؤكد تاريخ بلادنا صحة هذه الكلمات التي قيلت منذ
قراءة قرن ونصف .

إن جواهر لال نهرو ، الزعيم العظيم لحركة التحرر الوطني
الهندية ، الذي كان يعرف بلادنا جيدا ، قال مقعدرا المعزى
«السلال الصريف» لتورة أكتوبر الاشتراكية العظمى في كتابه
«نظرة إلى التاريخ العالمي» : «إن أكثر . . . ما يدعو إلى
الدعشة بتلخص في أن الروس كانوا يُعتبرون في كل مكان ،
وئمة مسوغات لهذا . كسالى وجهلة ومتحاملين وغير قادرين
على القيام بجهود بديية . الحرية هي عادة ، وإذا خرمنا منها
طويلا تنساها . لقد كانت عند الفلاحين والعاملين الروس
الأميين إمكانات قليلة ليطوروا هذه العادة في أنفسهم . . .
في تلك الأيام قاد روسيا أناس (يقصد البلاشفة) = الشيوعيين
بقيادة لينين - ي . ب . د . ب .) استغلوا أن يحولوا هذه
المادة البشرية الفقيرة إلى شعب قوى ومنظم . علم أيبانا
برسالته وثقة بنفسه» .

تنقسم كل أمة بجزاوية إلى معسكرين طبقيين متعاديين

على نحو تناحري - طبقة اصحاب وسائل الإنتاج وطبقة العمال
المُجبرين : وتكون الأمة الاشتراكية من طبقات متساوية
متعاونة توحدها ايدولوجيا مشتركة ، طبقات موحدة خلفيا
وسياسيا .

لقد ناقشت شعوب وطننا معا من أجل انتصار الثورة
الاشتراكية وحاربت معا ضد الرأسماليين والملك والمتدخلين
الاكثليز والفرنسيين والأمريكيين وغيرهم من المتدخلين
الأجانب في الحرب الأهلية اعوام ١٩١٨ - ١٩٢٠ ، وذادت
معا عن الوطن المشترك في الحرب الوطنية العظمى اعوام
١٩٤١ - ١٩٤٥ ضد الفاشية ، وتعاونت وتعاونت معا زمن
السلم . في كل منشأة من منشآتنا ، وفي كل مصنع من
مصانعنا يعمل أناس من مختلف القوميات .

هذا التنوع تمكن مشاهدته في بعض البلدان الرأسمالية
ايضا . في ألمانيا الاتحادية يعيش مئات الألوف من الايطاليين
واليونانيين والأتراك . إن الجديد عندنا لا يقتصر على كون
الناس من مختلف القوميات يعيشون ويعملون كتفا لكثف ،
بل لقد أصبحت تربية أناس مختلف الشعوب على الايمان
بالمساواة المطلقة فيما بينهم هي شعار الدولة الذي ينفذ
على الدوام منذ لحظة تأسيسها .

ويترسخ في غشون بنا ، المجتمع الجديد نظام جديد من
الآراء إزاء المسألة القومية ، ألا وهو الاممية الاشتراكية .
لقد حدثت في الاتحاد السوفييتي في خلال ٧٠ سنة من
وجوده تغييرات ملحوظة في البنية السلافية للبلاد . بيد انه
ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار انه لا يزال في بلادنا عدد كبير
من الشعوب وقوارق كبيرة في عدد أفراد الشعوب على حدة .
يبرز من حيث العدد السورسي (١٢٧,٣ مليون شخص)
والأوكرانيون (٤٢,٣ مليون شخص) ، وكانوا يشكلون معا
في عام ١٩٧٩ أكثر من ثلثي سكان البلاد ، وهناك ايضا ١١
قومية يريو عدد كل منها على مليوني نسمة ، و٩ شعوب
يزيد عدد كل منها على مليون شخص ، أما الاغلبية الساحقة
من الشعوب فتتضم عددا اقل بكثير ، بما في ذلك ٥٠ شعبا

يبلغ تعداد كل منها اقل من ١٠٠ الف شخص ، وحتى ان بعض الشعوب (اليوكرانيين ، النغاسانيين ، التنغيديين) يبلغ عدد افراد كل منها اقل من الف شخص .

ان التغيرات الجارية فسى البنية السلافية للاتحاد السوفيتي ناجمة عن عمليات سواء داخل القوميات او بين القوميات .

من المتعارف عليه ، كما سبق القول ، ان تعمري الى العمليات السلافية داخل القوميات والتي لها طابع تلاحمى عمليات اندماج بعض الوحدات السلافية ذات القربى من حيث الثقافة على نمط الانثوسات الفرعية (او المجموعات الانثوغرافية) في إطار قسم سلافي اساسي . وفي خلال هذه العمليات زمن السلطة السوفيتية أصبحت امم كثيرة اشد ترابطا . وبالتدريج تندمج مجموعة السيتو السلافية الفرعية في الاسترنيين الآخرين ، واللاتفاليون في اللاتفيين ، وتندمج بسرعة الاختلافات بين المجموعات الانثوغرافية داخل الشعوب البيلوروسى والجورجى والاوزبكي وشعوب اخرى .

تضطلع العوامل الاجتماعية الثقافية بدور هام في عمليات التلاحم السلافي . نورد مثال الاراضى الاوكرانية الغربية بعد دخولها قوام جمهورية (اوكرانيا الاشتراكية السوفيتية) فى عام ١٩٣٩ . فى هذه الاراضى لم يكن من النادر سابقا ان تقسو وسيلة لتزرع قومية مجموعات الاوكرانيين الانثوغرافية ، مثل الفوتسولين والليميكين والبويكين . وبعد اعادة التوحيد نال السكان الاوكرانيون المحليون الحق في مدرستهم القومية وتطوير ثقافتهم باللغة الام ، ونتيجة لهذا الاجراء ، ذى الطابع المبدئى تجلت عملية التراس على نحو ملموس فى التقلص التدريجى للهجات الاقليمية وانتشار اللغة الادبية الاوكرانية فى الحديث الشفوى العامى .

والى جانب ذلك وفرت التحولات الاقتصادية الاجتماعية الاشتراكية فى بلادنا ظروفا مؤاتية للتطور العاصف لعمليات التراس بين الانثوسات . ففي مناطق تخوم البلاد التى كانت

متخللة فى تطورها تجلت هذه العمليات فى اتباد الروابط السلافية المتقاربة عن حيث اللغة والثقافة فى اقوام كبيرة وامم . ولاكتمل تشكيل الكثير من امم آسيا الوسطى ، مثل الامة التركمانية التى تكونت من المجموعات القبلية لليوموديين والتيكى والفيلكانيين وغيرهم . ونتيجة لعمليات التراس تشكلت شعوب كثيرة اخرى ، مثل الالفانين (جنوب سيبيريا) الذين انضم الى قواهم الايناي-كيجيون والتيلينغيتيين والتيلوتون وقبائل واقوام صغيرة اخرى . وبالتيجة تقلص كثيرا التبرقش السلافي فى بلادنا .

لقد مضت فى الوقت الحاضر فترة التشاغل الاشد لعمليات التلاحم بين القوميات وداخلها ، ومن الجهة الاخرى لم تكتمل بعد تماما عمليات التراس السلافي الداخلى .

ان التراس الثقافي الداخلى للروابط السلافية لا يقتصر على اندماج المجموعات الانثوغرافية . ومما ينطوى على اهمية كبيرة بالنسبة الى تراس الامم السلافي المعاصر فى ظروف الاشتراكية تزايد تجانسها الثقافي نتيجة لتبديد المطرد للفوارق القبلية وثقافات العمل الذمصى والعنصرى وظروف حياة المدينة والزيف .

ان احصاءات السكان التى اجريت فى بلادنا كانت تبين دائما تغيرات ملحوظة فى تراس مختلف القوميات . بين الشعوب الاساسية للجمهوريات المتعددة انخفض من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٧٩ تراس الروس اكثر من غيرهم : ففى عام ١٩٢٦ كان يعيش فى نطاق رسميا الاتحادية ٩٤,٤٪ من مجموع السكان الروس فى البلاد ، وتقلصت هذه النسبة فى عام ١٩٧٩ الى ٨٢,٦٪ . وهذا ناجم عن هجرة الروس الواسعة الى خارج جمهوريتهم . وانخفض بعض التراس السلافي لدى البيلوروسيين والجورجيين (كان عند الاخيرين اشد تراس بين شعوب الجمهوريات المتحدة بناء على احصاء عام ١٩٧٩ : كان يعيش خارج جورجيا ٤٪ فقط من مجموع الجورجيين) . وعند الاوكرانيين والمولدافيين واللاتفيين والاذربيجانيين ازداد تراس التوزع بالتدريج من عام ١٩٢٦

الى عام ١٩٧٠ ، ثم تقلص بعض الشيء . وهذا التراجع كان يشو باستمرار لدى الارمن والميتوانيين والاستونيين (ما زال الارمن يتسبون كالمسايق باقل تراض للتوزع بين شعوب الجمهوريات المتحدة) .

ترتبط تغيرات معينة في البنية السلافية في الاتحاد السوفييتي بعمليات الاندماج . ويشهد على الصفة الطبيعية لعمليات الاندماج السلافية في الاتحاد السوفييتي واقع ان قضاها الرئيسية هي الزواج السلاف المختلط ، حيث يختار الاولاد الانتماء السلافى لاحد الوالدين ، قاطعين بهذا الغد السلافى للآخر . غالبا ما يعقد الزواج المختلط بين القوميات في ثلاث مناطق للاتصالات السلافية . المنطقة الاولى هي الفنا ، الخلقى لاقامة الشعب ، منطقة الحدود السلافية . والمنطقة الثانية هي المدن الكبرى وورشات البناء الجديدة في سيبيريا - والاراضي البكر المستصلحة في كازاخستان . وتشتمل المنطقة الثالثة التداخل القومى الغربى الذى يفرق تراض توزع انثوس معين .

ان ما جرى في سنوات السلطة السوفييتية من تطور العلاقات السلافية الودية وتقلص الحواجز الدينية ادى الى جانب اشتداد اختلاط الانثوسات الاقليمى ، ولا سيما فى المدن النامية بسرعة . الى زيادة كبيرة لعائلات الزواج هذه . اذا كانت حالات الزواج المختلط سلافيا على نطاق البلاد بامسرها قد بلغ في عام ١٩٦٥ نسبة واحد على اربعين ، فان هذه النسبة وصلت في اواخر الخمسينات الى المئتين ، وفي بعض المدن الكبرى الى الربع . وتستمر بالتزايد نسبة الاسر التى ينتمى فيها الأزواج والزوجات الى انثوسات مختلفة . واذا كانت هذه الاسر فى عام ١٩٥٩ تشكل فى كل ارجاء البلاد ١٠,٤ ٪ من عدد الاسر الاجمالي ، فان نسبتها ارتفعت فى عام ١٩٧٠ الى ١٣,٥ ٪ ، ويعطى احصاء عام ١٩٧٩ النسبة نفسها تقريبا .

ان اتحاد عمليات الاندماج يتوقف كثيرا على الآثار السلافية لهذا النوع من الزواج المختلط قوميا . وثمة قى

غضون ذلك اختلافات اقليمية ملحوظة في تعيين الاحداث الذين قرعوا في اسر مختلفة لانتمائهم السلافى ، وفي تكون وعيهم الذاتى السلافى . وهكذا ، قفى متعلقة الجليليق ، قفى الاسر المكونة من زوجين احدهما ينتمى الى الانثوس المعلى (الاستونى ، اللاتفى ، الليتوانى) والآخر روسى ، يحدد نصف الاحداث انتماءهم الى الروس ، والنصف الآخر الى الانثوس المعلى . اما فى تنقواشيا فان قرابة ٩٨ ٪ من اولاد الاسر التنقواشمية - الروسية يسمون انفسهم روسا . وتجد وضعا مغايرا فى تركمانيا . هناك يعتبر اغلب الاحداث من الاسر التركمانية - الروسية انفسهم تركمانا .

نزه هنا بان الاندماج فى الاتحاد السوفييتى - كما فى اقلية البلدان الاخرى - لا يمارس تأثيرا ملحوظا نسبيا الا فى عدد افراد الشعوب المبعثرة اقليميا ، وكذلك المجموعات السلافية الموجودة فى اراض يشغلها انثوس آخر من حيث الاساس .

يتجلى التكامل السلافى قليل كل شىء فى تقارب ثقافات مختلف الشعوب ، وفى تكوين «شريحة ثقافية» واحدة من حيث الضموم (ولكنها متنوعة من حيث السكلى) وملامح مشتركة فى نمط الحياة . وقاعدة العمليات من هذا النوع تشكلها الرابطة الاقتصادية الاجتماعية والفكرية السياسية للامم والاقوام فى اطار الدولة الاشتراكية الواحدة .

ان ممارسة التعاون بين القوميات وتبادل الكوادر على نطاق واسع يوفران الجوهر الاجتماعى الخلقى الذى يساعد على استيعاب الفكر الاممية .

وتنطوى على مغزى جوهري بالنسبة الى التقارب السلافى تنقلات السكان الكبرى التى تزدى الى النمو التدرجى للعدد السلافى فى الكثير من مناطق البلاد . وهكذا ، فاذا كان عدد الناس الذين ينتمون من حيث قوميتهم الى شعوب اقوام جمهوريات المتحدة وذات الحكم الذاتى ، ولكنهم يعيشون خارجا قد بلغ فى عام ١٩٥٩ قرابة ٣٦,٥ مليون شخص ، الى ١٧,٥ ٪ من سكان البلاد ، وهو مؤشر عام يحدد ذاته ، فان

عددهم وصل في عام ١٩٧٩ الى قرابة ٤٩ مليون شخص ،
اي ١٨,٧٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفيتي . ان سكان
اغلبية المدن ذوو بنية قومية معقدة بشكل خاص . وتحولت
المدن الكبرى الى مراكز للاتصالات السبلالية الحديثة .

يقترن التكامل السبلال اوتق اقتران عملية اوسع ،
عملية ظهور وتطور رابطة تاريخية جديدة ، وهي الشعب
السوفيتي الذي يمثل اول كيان في تاريخ البشرية متعدد
الاثنيات (القوميات) نشأ على قاعدة الاشتراكية .

ان ما يمكن في اساس تشكل هذه الرابطة الاممية من
تقارب بين الامم في الميادين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي
والايدولوجي قد اقترن بنمو رابقتها في المجال الثقافي الذي
يشكل النضيم الاساسي لعمليات التكامل السبلال نفسه .
وفي غضون ذلك فان اتجاه التقارب يقترن دياكتيكيا باتجاه
تطور الثقافات القومية . ويطيحي الا يتجلى هذان الاتجاهان
على نحو واحد في مختلف عناصر الثقافة .

ان العمليات التكاملية ، كما هو معروف ، مميزة بشكل
خاص لمجال الثقافة المادية . وبالنسبة الى خصائص الجوانب
السبلالية للثقافة المادية ، فانها تبقى في المظهر الداخلي
للمسكن امدا اطول مما في عمارة المسكن نفسها ، وتبقى
في زخرفة الملابس امدا اطول مما في الملابس نفسها .
والخاصية السبلالية واسعة جدا في الاطعمة .

واي جانب ذلك يلاحظ ، في بلادنا في الوقت الحاضر اتجاه
ثابت لان تحظى بعض العناصر التقليدية للثقافة التي يحضرها
هذا الشعب او ذاك (او عدة شعوب في منطقة جغرافية معينة)
بانتشار واسع في ربوع الاتحاد السوفيتي بامره ، وذلك
مثل سجاد آسيا الوسطى والقصص الرجالية الاوكرانية
ومصوغات منطقة البلطيق المصنوعة من المعدن والكهرمان
وبعض الاطعمة القوقازية والاوكرانية والروسية الخ .

من المعروف جيدا ان الخاصية السبلالية في مجال الثقافة
الروحية تتجلى منذ قديم الازمنة ويوضح خاص في الفن
الشعبي .

تتسم الحياة الثقافية المعاصرة في الاتحاد السوفيتي بنمو
ثابت لاحتدام الاشكال الاممية لموسيقى المنوعات والموسيقى
السوفونية . ومن التقليدي في الوقت نفسه توجه الناس الى
الاغاني الشعبية في ساعات الراحة ، وفي الاعياد . وفي خلال
الاستطلاعات السبلالية السوفولوجية الاخرى بين الازبكيين ،
مثلا ، اجاب اكثر من ٩٠٪ من سكان الريف وما يربو على
٧٠٪ من سكان المدن (بين في ذلك ٥٢٪ ممن تتراوح اعمارهم
بين ٢٠ و ٤٤ سنة) انهم يفضلون الموسيقى القومية . وبين
المولدافين فضل الرقص والموسيقى القوميين اكثر من ٦٠٪
لا من عداد العمال والمستخدمين لحساب ، بل بين المثقفين
ايضا ، وبلغت هذه النسبة لدى الاستونيين قرابة ١٠ في
المعدن وقرابة ٢٠٪ في القرى بين الشبيبة ومتوسلي الاعمار ،
واكثر من ٣٠٪ من المدن و٧٠٪ في القرى بين الكبار في
السنة . ولكن اداء الاغاني الشعبية هو ، بالطبع ، اوسع من
تفضيلها . اذ يمكن للمرء ان يحب الموسيقى السوفونية
اكثر ، ولكنه يغني الاغاني الشعبية اكثر وسط الاسرة وبعض
الاصدقاء . وحتى الذين كانوا يفضلون المنوعات لوحظ في
اواخر السبعينات نمو اهتمامهم بالموسيقى النولكلورية .

ومن المميز في صدد موضوعنا هذا تطور الحرف الفنية
كذلك . ومصنوعات هذه الحرف تحافظ ، كقاعدة عامة ، على
خاصية سبلالية عالية . وحتى ان هذه المصنوعات تتحول
احيانا - كما هو معروف جيدا - الى رموز سبلالية من نوع
خاص ، وان لم يكن ذلك داخل رايدها السبلالية بقدر ما هو
في نظر مثلي الروابط الاخرى . وفي الوقت نفسه ، فإن
الاسرة المعاصرة من اية قومية (ولا سيما في المدن) لا تتفرج
على البرامج التلفزيونية او تستمع الى البث الاذاعي من
الجمهوريات الاخرى او تقرأ الكتب المترجمة من لغة اخرى
لحساب ، بل وتجمع على نحو خاص تفاصيل البيت الداخلية :
سيراميك اوكراني او منطقة البلطيق ، السكوكات الجورجية ،
السجاد الازبكي او التركماني ، التطريز الروسي الخ . ،
ويمكن ان تستخدم لاقراض نغمة او قومية .

وتقارب شعوب بلادنا يتجلى بشكل فعال في التأثير والافناء المتبادلين بين اللغات وتقاربها ، (لا مجال ، طبعاً ، حتى لمجرد الحديث عن اندماج اللغات ولو في المستقبل البعيد ،) وقد ظهرت وتتميز ثروة من الكلمات مشتركة للغات القومية كلها ، واحتياطي مشترك من المفردات ، وهذه الظاهرة كذلك ملحوظة عندنا بوضوح كاف .

ان ثنائي في اللغة من كلمات اللغة الملاحية الادبية المعاصرة مفهومة عليا لكل انسان مثقف ، وعدد هذه الكلمات اكثر بمرتين في اللغة الكبردينية . وفي غضون ذلك فان الكلمات المشتركة ، كما تبين الاستقصاءات ، هي في اللغة العامة اكثر بكثير مما في اللغة الادبية ، كقاعدة عامة .

تشكل اللغة الروسية المصدر الرئيس للكلمات المشتركة ، ومن خلالها تدخل المفردات الدولية في اللغات القومية الاخرى . كتب الاكاديمي فيتوغرادوف ، اكبر خبير في هذه المسألة : «تتجلى نقاط التشابه والتطابق في لغات بلاد السوفييت الناجمة عن تأثير اللغة الروسية : ١) في اتساع مجال تأثير التعابير الروسية ، ولا سيما الجديدة ، السوفييتية ، في نطقها عن طريق الترجمة العرقية : ٢) في الانتشار المتدفق للكلمات المعبرة عن الواقع السوفييتي ، في حركتها من لغة الى اخرى : ٣) في استيعاب الذخيرة الاساسية للمفردات العالمية عبر واسطة اللغة الروسية : ٤) في الاتجاه المتزايد نحو التدويل اللغوي عامة ، والتدويل اللغوي السوفييتي خاصة» .

اصبحت اللغة الروسية اللغة الثانية لاغلب اناس القوميات الاخرى في الاتحاد السوفييتي ، ولكن هذا لم يضعف لغاتها الام نفسها . لقد اظهر احصاء السكان الاخير في عام ١٩٧٩ ان العدد الاجمالي لمن يتكلم اللغة الروسية بطلاقة او يعتبرها لغته الام في الاتحاد السوفييتي يبلغ ٢١٤ و ٨ مليون شخص (في عام ١٩٧٠ كان عددهم ١٨٣ مليون نسمة) ، او ٩ و ٨١٪ من مجسوع السكان (٧٦٪ في عام ١٩٧٩) . وفي غضون ذلك تعتبر اللغة الام بالنسبة الى ١٣٧,٢ مليون روسي

(١٢٨,٨ مليون في عام ١٩٧٠) ، وبالنسبة الى ١٦,٣ مليون شخص من القوميات الاخرى (١٣ مليوناً في عام ١٩٧٠) ، واللغة الثانية بالنسبة الى ٦٦,٣ مليون نسمة (٤١,٩ مليون في عام ١٩٧٠) .

ولطبعي ان اللغات الاخرى ايضا تؤدي قسطا خاصا ، وان كان اقل ، في ذخيرة مفردات عموم الاتحاد السوفييتي . ان القراء الروس والاوكرانيين والجرجيين والليتوانيين يشعرون بان التيرغيزي جنكيز اشناؤف كاتيبهم ، والاقرتسي رسولي حمز توف شاعرهم ، وتعرض مسرحيات الكاتب المسرحي البولندي يون دروتسي في موسكو وتالين ومينسك . وهذه امثلة مألوفة عندنا .

الى جانب الروسية تنتشر على نطاق واسع في البلاد لغات اخرى لشعوب الاتحاد السوفييتي بمثابة لغات ثانية . وحسب احصاء عام ١٩٧٩ يتكلم هذه اللغات بطلاقة ١٢,٣ مليون شخص ، او ٤,٧٪ من سكان البلاد (٦,٢ مليون في عام ١٩٧٠ ، اي ازداد دهم الى الضعف) ، واكثر اللغات انتشارا بينها هي الاوكرانية والبييلوروسية والاوزبكية والتترية والمولداوية والاذربيجانية والملاحية والجرجية .

ينبغي التنويه الى جانب ذلك بان الاستخدام الواسع للغات التخاطب بين القوميات يقتصر في بلادنا بالمحافظة الراسخة على تصور الانسان للغته الام كلغة قومية . وفي سنوات السلطة السوفييتية لم يتغير هذا المؤثر تقريبا . كما تشير الاحصاءات : كان يعادل ٩٤,٤٪ من سكان البلاد في عام ١٩٦٦ ، و ٩٤,٣٪ في عام ١٩٥٩ ، و ٩٣,٩٪ في عام ١٩٧٠ ، و ٩٣,١٪ في عام ١٩٧٩ .

ان الثقافة السوفييتية العامة تتجسد في جزء كبير من مجالها بالكثير من لغات شعوب الاتحاد السوفييتي ، وتعدد اللغات هو صفها المميز الهام .

ان الصلة المتبادلة في التعاون على قدم المساواة والاهداف المشتركة تكتسب شعوب الاتحاد السوفييتي ، والعلاقات الودية التي نشأت على هذا الاساس بين الناس من

مختلف القوميات تتجلى سواء في التصرفات ، أو في الامزجة والتوجهات .

يمكن ان نورد لفرنسا امثلة كثيرة : ان الاولف من النسيان والشباب الروس والاوكرانيين والجرورجين والارمن قد ذهبوا طوعا لنعمين طشقند ، عاصمة اوزبكستان السوفيتية ، التي دمرها الزلزال ، ولبناء محطة نووية الكهربائية في طاجيكستان السوفيتية . ومن الامثلة الحية على التعاون الاخرى بين الشعوب ورش بناء مثل خط بايكال - كور ومعالجة سايانو-شوشينسكايا الكهربائية ومصنّج اتوم هاش ، وبالمناسية ، فقد عمل في هذه المشاريع متطوعون شباب كثيرون من البلدان الاشتراكية الاخرى .

كما يشهد ، بوضوح كاف في رأينا ، على اعمية السوفييتيين موقفهم العاطفي من الاختلاف بين القوميات ، الامر الذي اكدته ابحاث سوسيولوجية خاصة . ففي مدن مولدافيا ، مثلا ، يبدى انتشار قراية ٩٠٪ من المولدافيين والروس موقعهم الايجابي من العمل في جماعات انتاجية متعددة القوميات ، واعرب ما يربو على ٩٠٪ من المولدافيين والروس في المدينة وحتى ٨٠٪ في الريف عن موقفهم الايجابي ازاء الزواج المختلط . وبينت هذه النسبة اكثر من ٧٠٪ في لانغابا السوفييتية ، ويغف ٨٤٪ من اللاتفيين موقفا ايجابيا ازاء العمل في جماعات متعددة القوميات . ويتبين ان يؤخذ في الاعتبار في غضون ذلك ان اقلية العدد الباقى من الذين استعملهم رايمس اشخاص يقفون موقفا محايدا ازاء الانتماءات القومية فسي العمل . وقلائل هم الناس الذين يقفون موقفا سلبيا ازاء مختلف انواع الاختلاف القومي الميائس . ففي تريا ، مثلا ، لم تتجاوز نسبتهم بين سكان المدن والريف ٤-٤٤٪ (بين التتر والروس) ، مع العلم انهم عادة ، اشخاص لا يحسنون لغة ثانية . ان صحة السياسة القومية الاشتراكية تؤكدنا بين امور اخرى ، وهذا واقع عام . طبعاً ، الظروف الاكثر اهمية لدى الناس حسن مختلف الاعمار .

ان البناء الاشتراكي وظهور وتطور ازوداجية اللغة ، واخيرا تشكل النظام السوفييتي المشترك للثقافة الروحية امور يمكن تقديرها كعملية لاعادة التوجه الثقافية وتكون رابطة ثقافية تاريخية سوفييتية مشتركة ، رابطة لا تجمع في ذاتها ما نستخدم على تسميته بالتقاليد «الثقافية «الغربية» و«الشرقية» بقدر ما تجمع الملامح الراسخة الجديدة التي تكونت في سنوات السلطة السوفييتية .

ان الشعب السوفييتي رابطة سلافية جديدة ، وصفته هذه تفترض جانبين اكيدين على الاقل : فهو ، من جهة ، رابطة متعددة القوميات والاثنوسات ، وهو ، من الجهة الاخرى ، ذو طابع قومي مشترك وسلال مشترك . لا يتمتع الشعب السوفييتي باراض واحدة واساس اقتصادي واحد فحسب ، بل يتمتع كذلك بثقافة مشتركة ودعى ذاتي مشترك . ولا ينبغي نسيان ان وحدته في مجال الثقافة لم تولد من تلقاها ، ذاتها ، بل صنعت في النضال من اجلها ، وهو نضال واع ، على اساس برنامج الدولة الاممي الذي يراعى جدية تامة التقاليد الاممية العميقة لشعوب بلادنا . وهذا ما كتبه الاكاديمي كورناد عن اتحاد الثقافات الشعبية في بلادنا :

«لم تضع ثورتنا اماننا مهمة اقامة نظام اجتماعي جديد تاريخيا فحسب ، بل واقامة نظام للثقافة يناسبه . ويتبنى لهذا النظام ان يكون واحدا لاجتماعنا بامره وان يراعى في الوقت نفسه ان كل شعب في اتحادنا ملك ويملك تقاليده الثقافية الخاصة ، والكثير من هذه الشعوب يملك تاريخه الثقافي الكبير ، العريق ، الخاص .

لنحاول المرور على حدود اتحادنا ، متوقفين في غضون ذلك عند القطاعات الكبيرة وحدها ، اي عند كل من الجمهوريات على حدة . في اقصى شرقنا نرى يورياتيا ، وقد كانت ثقافة الشعب البورياتي في السابق مرتبطة ارتباطا مباشرا بثقافة منغوليا ، ومن خلالها بثقافة التبت . وفي آسيا الوسطى تقع طاجيكستان وتركمانستان وقيرغيزستان واوزبكستان وكازاخستان . وكانت ثقافة هذه الجمهوريات في الازمنة

السابقة ، ولا سيما في القرون الوسطى ، تدخل دائرة ثقافات الشعوب الإيرانية والتركية في الشرق الأوسط ، ومن خلالها كانت تتشايك مع ثقافة شمال غرب الهند ، وحتى أنها كانت تتشايك قديما مع ثقافة مملكة كوشان ، ومن خلال باكثريا مع ثقافة الهيلينية . وذلك دون الحديث عن التشايك المعتمد لثقافة الإيرانيين والأتراك مع ثقافة العرب .

ننتقل إلى ما وراء القفاس . هذه أذربيجان التركية : علاوة على كل الصلات المشار إليها أدت دورا في تاريخها الصلات بيجورجيا وأرمينيا المجاورتين ، أما في خصوص ثقافة الشعبين الجورجي والأرمني فأنها ، كما تعلمون ، لم تكن تنفصل في السابق ، ولا سيما في أرمينيا ، عن الثقافة الإيرانية والتركية والعربية ، وعن ثقافة الشرق المسيحي بأسره ، ومن خلاله بيزنطة أيضا ، وكذلك العالم اللاتيني قديما .

تتحرك من القفاس إلى أوروبا . هذه أوكرانيا ، روسيا كيف سابقا : في ذلك الحاضر كانت من ناحية الثقافة جزءا من منطقة شاسعة لا تقسم السلافيين الشرقيين وحدهم ، بل تقسم السلافيين الجنوبيين كذلك ، والغربيين جزئيا . أن ثقافة بيلوروسيا كانت في السابق ، شأن تاريخيا ، تتشايك مع تاريخ وثقافة ليتوانيا والشعب البولندي . ويرتبط الشعب اللاتفي في تطوره الثقافي سواء بالشعوب السلافية أو بالشعوب الجرمانية . ويرتبط الاستونيون بثقافة السلافيين والسكاندينافيين على حد سواء . أنا لا أتحدث عن ثقافة الشعب الروسي التي ترتبط ارتباطا مباشرا وغير مباشر بثقافة الجزء الأكبر من العالم . وهكذا ، فقد اندمجت في مجرى ثقافة بلادنا تيارات ثقافية مختلفة أشد الاختلاف . ولعلنا مدبرون لهذا جزئيا بشعورنا الحاد على نحو خاص بوحدة البشرية . . .

لم تفقد ثقافة شعوب بلادنا قناعتها وتنوعها ، ولكن الملامح الأممية المشتركة هي على أي حال أهم وأبرز ما في هذا التنوع .

الف الكاتب اللاتفى إيمانت زيمدونييس مع الكاتب

الأوكراني فيتالي كوروتشفس كتابا عن طاجيكستان . يكتب المؤلفان بأسلوب عاطفي ومجازي في مقدمة هذا الكتاب : «كل شعب لا يمتلك بالشعوب الأخرى يغدو وحيدا . إنه بعيد لا يعرف شيئا عن ضباب البحار الأخرى ، عن ضباب الأطفال الغرباء ، وحكمة الشعوب الأخرى . . . والقرمية ، البريوازية أو الانطاعية ، هي أيضا غزلة ، غزلة بالأكراه ، غزلة يكال لها المديح أو تكيهه لذاتها . الغزلة علامة لسوء التفاهم بين الشعوب . وراية الصداقة لا تحمل علامة كهذه» .

بيد أن اتحاد شعوب بلادنا وتعاونها وصداقتها الاقويين لا يمكن أن تشكل بالنسبة اليها مسوغا لطبائنة الذات ، تأميمكم عن أطراف الذات . أن المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي الذي عقد في شباط - آذار (فبراير - مارس) عام ١٩٨٦ . قد أشار بشكل خاص إلى أن «منذ انشائها لا ينبغي أن تغلق أنظارنا بانعدام المعضلات في العمليات القومية» ، والمعضلات من هذا النوع تتجلى في مختلف المجالات . ويمكن أن تغزى اليها الفوارق الكبيرة بين الجمهوريات المتحدة في وقائع نمو انتاجية العمل في الصناعة في المدة الأخيرة . وهكذا ، ففي السنوات الخمس عشرة الأخيرة (حتى عام ١٩٨٤) كانت وقائع هذا النمو في أذربيجان وروسيا أعني بصورة ونصف مما في طاجيكستان . وفي أراض السميينات ومستول التسانينات «الخام» في كازاخستان دخل وطن من وحدة ارضه الانتاج الأساسية أقل مما في الاقتصاد الوطني عموما بمقدار الثلث . وفي تركمانيا لم تبتد انتاجية العمل الاجتماعي نموًا في خلال الفترة نفسها . ومن المفهوم أن هذه فوارق ملحوظة في ميدان دينامية الثقافة المادية ، عن القضايا الجديدة ، التي أخذت تزداد حيوية في السنوات الأخيرة ، الوضع الديموغرافي المتوتر الذي نشأ في جملة من مناطق بلادنا . أن لوحة تجدد السكان في الاتحاد السوفييتي يوما المرضية لنا . نسبيا صارت في المدة الأخيرة تتكون إلى درجة كبيرة على حساب مؤشرات تجدد الشعوب الأصلية في آسيا الوسطى والكازاخيين والأذربيجانيين الذين قبلت وقائع

نموهم ثلاثة اضعاف متوسط وتأثير النمو على نطاق الاتحاد السوفييتي .

ان عدم انتظام العمليات السالدية الديموغرافية في اقترانه بتباين وتأثير نمو انتاجية المعسل قد رافقه في السبعينات ومستوى التنمية ذات تمايز الجمهوريات من حيث تطور بعض عناصر الهياكل الارتكازية الاجتماعية العامة فيها ، بما في ذلك المساكن والخدمات العامة وقاعدة النشر ، وفي تلك الفترة نفسها برزت وسيطرت في بعض الاماكن امة محلية ، اقليمية ، وقد عرقلت تبادل الكوادر بين المناطق ، وتبادل العاملين الضليعين بين الجمهوريات والمركز ، بين مناطق البلاد ومدنها ، وهذا وغيره من التعقيدات في العلاقات القومية تؤدي في بعض الاماكن الى ظواهر سلبية .

في هذه الحالات يتوقف دور وازالة الظواهر المرفوضة في الاختلاط بين القوميات على التغيرات الجذرية في تسوية القضايا الاجتماعية ذات الحيوية بالنسبة الى المرحلة المعاصرة من تطور المجتمع ؛ في تسوية ميزان العرض والطلب لاصناف معينة من العمل ، وفي البناء السكني على الرغم من شدة تأثيره الآن اكثر مما في أي بلد آخر ، وفي الارشاد المهني للتشبيبة ، وفي تحسين الخدمات العامة الخ .

ان السيكولوجيا الوطنية هي في المرحلة المعاصرة مجال هام لتطور الاتجاهات الاممية . اذ ان حب الانسان لشعبه ولارفضه السلاية يقترون عند السوفييتيين بشعور اوسع بالانتماء الى الشعب السوفييتي ، بالوطنية السوفييتية المعتمدة على اساس الاممية ، على افكار المساواة والرابطة الوثيقة بين شعوب بلادنا .

ان اتجاهات تطور الامم وتقاربها المألزمة للعمليات القومية في الاتحاد السوفييتي لها مظاهرها ايضا في بلدان الاسرة الاشتراكية الاخرى . وفي غضون ذلك ينبغي ، طبعاً ، ان يؤخذ في الاعتبار ان الكثير من هذه البلدان وحيدة الانوس ؛ في ألمانيا الديمقراطية يشكل الالمان ما يربو على ٩٩% من مجموع السكان ، وفي هنغاريا يشكل الهنغاريون

٩٨,٦% ، وفي بولندا يشكل البولنديون ٩٨,٤% . تتسم يوغسلافيا بين البلدان الاشتراكية بأكبر تنوع سلاي بعد الاتحاد السوفييتي : ٤٠,٩% من ساكنها صربيون ، ٢٩,٨% كرواتيون ، ٨,٤% سلوفاقيون ، ٨,٢% يوسنيون («مسلمون») ، ٦,٨% البانيون ، ٥,٩% مقدونيون . وتعتبر تشيكوسلوفاكيا ثنائية الانوس اساساً ، حيث يشكل التشيك ٦٤,٠% من السكان ، والسلوفاك ٣٠,٣% . وتضم الفيتنام بنية سلاية فريدة جداً ، ففيها الى جانب اكبر الاقنوسات ، الفيت او الكين الذين يشكلون قرابة ٨٧% من سكان البلاد ، ٥٣ شعباً آخر اكبرها (الثاني والميونغيون والخميريون) اقل من مليون نسمة (٨٥٠ ألفا ، ٧٠٠ ألف ٦٨٠ ألفا على التوالي) ، واصغرها لا تتجاوز عدة مئات من الناس (مثلاً ، يبلغ عدد كل من الروايل السلاية للبراو والرمام والودو ٢٠٠ شخص تقريباً) .

تستمر في البلدان الاشتراكية ، سواء منها الوحيدة الانوس او المتعددة الاقنوسات ، عمليات التلاحم السلاي القومي الداخلي - فمثلاً ، تلاحظ ، بوضوح في زمننا عمليات من هذا النوع عند الامة الكرواتية التي تعيش لديها على نحو متزايد في خلال هذه العمليات الفوارق الثقافية المعاصرة لكل من المجموعات الاثنوغرافية والاقنوسات الفرعية ، ويتطوى على طابع قومي داخلي كذلك التلاحم التدريجي للمجموعات السلاية الاقليمية في اطار الامة السلوفاكية . وتنص في تشيكوسلوفاكيا الفوارق بين التشيك المعتمدين في الاراضي التشيكية ومورافيا ، وكذلك بين المجموعات الاثنوغرافية في مورافيا ، مثل الالبيين والهوراتيين والباناكيين وغيرهم . ويندرج بنشاط متزايد في الامة البولندية الكاشوبيون الذين يعتبرهم بعض الباحثين اقنوساً مستقلاً ، ويعتبرهم آخرون مجموعة اثنوغرافية (انوساً فرعياً) للشعب البولندي (وبالتالي يعتبرون اللغة الكاشوبية لهجة بولندية) .

وتجرى في البلدان الاشتراكية ايضا عمليات اندماج سلاي . ويبرز الزواج المختلط سلاياً كقناة رئيسية لها ، في

هذا الخصوص تنطوي على دلائل كثيرة جدا المعطيات حول هذا النوع من الزواج في يوغسلافيا المعاصرة . ومن المميز قبل كل شيء ان حالات هذا الزواج قد ازدادت بشكل ملحوظ في البلاد في السنوات الخمس والعشرين الاخيرة . وهكذا ، فاذا كانت حالات الزواج المختلط من الناحية القومية تشكل ٩,٣٪ في عام ١٩٥٦ ، فقد وصلت الى ١٢,٤٪ في عام ١٩٦٣ ، والى ١٣,٥٪ في عام ١٩٧٤ . في اغلب الحالات يجري عقد الزواج المختلط اكثر مما يجري حينما يعيش ممثلو القومية غير الرئيسية مستثنين . في صربيا نفسها ، مثلا ، كانت نسبة الزواج المختلط الذي عقده الرجال الصربون في عام ١٩٦٣ لا تتجاوز ٢,٧٪ من مجمل حالات الزواج الذي عقده الصربون ، اما في الجيوبويات الاخرى ، حيث يشكل الصربون اقلية ، فنلاحظ لوحة مقابلة . اذ تبلغ هذه النسبة في كرواتيا ٣٦,٣٣٪ ، وفي مقدونيا ٥٦٪ ، وفي الجبل الاسود ٥١,٥٧٪ ، وفي سلوفانيا ٦٦,٢٦٪ . وتوجد ايضا ظواهر ذات طبيعة اخرى . فالألبانيون نادرا ما يعقدون زواجا مختلطا ، حتى وان كانوا في وسط قومي مغاير . وذلك ناجم بصورة رئيسية عن الفوارق اللغوية والثقافية الدينية الاشد .

يوجد في البلدان الاشتراكية المتعددة الاثنيات اتجاه نحو التكاثر السلالي . مع العلم انه لا يتجلى بوضوح شديد الى الآن . وحتى في يوغسلافيا التي تتجلى فيها هذه الاعراض بوضوح ما يكون ، لا يمكن التحدث ، كما يبدو ، الا عن بداية نشوء رابطة سلافية شاملة على نطاق البلاد بمرحلتها الاولى لهذه العمليات . وقد وجدت هذه الظاهرة تعبيرها الذاتي في الاتجاه نحو تكون وعي ذاتي يوغسلافى عام . وتطرح بصورة متزايدة مسألة مفادها ان مصطلح «يوغسلافين» (يوغسلافى) يمكن الا يعنى الجنسية فقط ، بل كذلك الانتماء القومى لسكان يوغسلافيا ، والشعبية هي انشط من وقف الى جانب استخدام هذا المصطلح للاشارة الى الانتماء القومى اجمالا (عوضا عن التسميات السلافية السابقة : صربى ، كرواتى ،

سلوفانى وما شابه ذلك) : وكذلك تناقش هذه المسألة على نطاق واسع في الادبيات الاجتماعية السياسية في البلاد . ولكن ثمة في يوغسلافيا غير قليل من المعارضين لهذا الاقتراح الذين يشيرون الى ان استخدام هذا المصطلح من شأنه ان يوقف بشكل مصطنع المسيرة الطبيعية لتطور اعم يوغسلافيا واقوامها . ومع ذلك فمن المميز ان احصاء السكان الاكبر في يوغسلافيا (عام ١٩٨١) يشهد على ازدياد عدد الاشخاص الذين سمو انفسهم يوغسلافيين لدى تحديد انتمائهم القومى (السلالي) . وهكذا ، ففي كرواتيا ، مثلا ، ازداد عدد هؤلاء الاشخاص في الفترة بين عامي ١٩٧١ و ١٩٨١ من ١٥,٥ الفا الى ٣٧,٩ الفا (٨٢٪ زيادة) .

ان عمليات التقارب السلالي بين الشعوب لا تنحصر في ظروف الاشتراكية ضمن اطار كل دولة على حدة . فقد شملت الى هذه الدرجة او تلك كل اسرة البلدان الاشتراكية . وفي غضون ذلك انقلبت رابطتها الزوجية على مغزى خاص . واضطلع بدور من الدرجة الاولى في هذا الخصوص نمسرو المستوى الثقافي للجماهير الشعبية الواسعة ، بما في ذلك ارتفاع مستوى التعلم الذي يبرز كاهم اداة لازالة انعدام المساواة الثقافية الموروثة عن الماضي . وفي عملية اعادة بناء نظام التربية والتعليم وترسيخ المساواة في ميدان الثقافة في البلدان الاشتراكية الاوروبية يمكن (مع كل الاختلافات في مستوى الانطلاق في كل منها) ابراز عدة مراحل مشتركة . بدأت المرحلة الاولى عقب انتصار الثورات الاشتراكية في الاربعينات مباشرة واستمرت حتى اواسد الخمسينات ، حينما اجريت في كل مكان اصلاحات اساسية للمدرستين الثانوية العامة والعلية . لقد صفت في هذه المرحلة امتيازات التعليم البرجوازية والفيت والقسايط الدراسية ، وقرر بناء المساكن العامة والاقصام الداخلية لطلوبتنا كمتكافئة لمدارس المدن والريف ، حيث قلص عدد الاولاد خارج المدرسة الخ . وفي خلال اجراءات المرحلة الثانية (في الخمسينات والستينات) ادخلت تعديلات جديدة في

البرامج التعليمية للمدارس والمؤسسات الدراسية العليا تخضع لهيئة تقريب التعليم من الممارسة الاقتصادية ؛ وفي المرحلة الثالثة ، التي بدأت في النصف الثاني من الستينات وما زالت مستمرة الى اليوم ، تدخل في النظام المتكون تعديلات تملأها مقتضيات الثورة العلمية التكنيكية .

ان المبادئ الديمقراطية الجديدة في مجال التعليم وجدت تعبيرها كذلك في تطور شبكة المدارس الثانوية العامة للاقلييات القومية ، وهكذا ، فقد افتتحت في تشيكوسلوفاكيا ، الى جانب المدارس التشيكية والسلوفاكية ، مدارس تعلم باللغات البولندية والهنغارية والاوكرانية . وفي بولندا بدأت تعمل مدارس ابتدائية ومدارس وليسيهات ثانوية عامة للسكان الاوكرانيين والبولنديين والروس والليتوانيين .

وجرت اجمالا تغييرات ملحوظة في مجال التعليم العالي ، الامر الذي اقرن ، بين امور اخرى ، بنمو عدد الطلاب . ومن المميز ، مثلا ، ان نسبة الاختصاصيين ذوي التحصيل العلمي العالي والمتوسط العاملين في الاقتصاد الوطني لبلدان مجلس التعاون الاقتصادي الاوروبية قد ازدادت من ١٢ الى ٢٣٪ في الفترة من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٧٩ .

كان تطور التعليم العام في البلدان الاشتراكية عاملا هاما لاتساع الابحاث العلمية الذي اقرن بالنمو العددي للمكوار العلمية وازدياد مخصصات الدول في العلم . وبالنتيجة وصلت الابحاث العلمية في الكثير من الميادين في البلدان الاشتراكية جميعا الى مواقع متقدمة في العالم .

يبد ان ترسخ الثقافة الجديدة والقيم الثقافية الجديدة لا يجرى في بلدان الاشتراكية من تلقاء ذاته ، بل يقرن بالنضال ضد الاتجاهات القديمة للقيم . فلا يزال يصادف هناك ، مثلا ، تركيز وحيد الجانب على الخصائص القومية المميزة في تطور كل من البلدان الاشتراكية وتطوّر الى هذا التطور بمعزل عن الهيئات الاممية وحاجات التقدم الاجتماعي . وكان يتجلى احيانا سعي الى التوحيد المصطنع للاقليات القومية التي تجزأت تاريخيا وتعيش في اوطان اشتراكية

مختلفة ، مما يشهد على نسيان اولوية التناول الاجتماعي الطبقي للقضايا القومية .

للتغلب في ظروف الاشتراكية على هذه المظاهر للضييق والانانية القوميين ينطوي على مغزى خاص . كما تشهد التجربة التاريخية ، قيام الاغزاب الحاكمة بالتطبيق الثابت لمبادئ الاممية ، ولا سيما ضمان الجمع المتسق بين مصالح كل امة ومصالح الاسرة الاشتراكية بأسرها . ومن الهام كذلك في هذا الخصوص دور القيام في بلدان الاسرة الاشتراكية بنشر وترسيخ المعارف والثقاعات الماركسية بما في ذلك في ميدان الآراء القومية . ومع كل خاصية هذه العملية في كل من البلدان الاشتراكية الاجنبية ، فقد اذت جميعها في سنوات ما بعد الحرب بمهام مشتركة في هذا الميدان . وفي المرحلة الاولى للبناء الاشتراكي كانت مهمة استيعاب الجماهير الشعبية الواسعة للايديولوجيا الماركسية واحدة من هذه المهمات . وقد حلت هذه المهمة عن طريق اقامة نظام منطور للتوعية الحزبية من مختلف الدرجات وادخال مادة الفلسفة الماركسية اللينينية في المؤسسات الدراسية العليا والمتوسطة والتنظيم الدوري للمحاضرات والتدوات الخاصة الخ . وفي المرحلة التالية ينتقل مركز الثقل من الاستيعاب البسيط للمعارف الماركسية الى تطبيقها المباشر في كل مجالات الحياة الاجتماعية . والانتقال الى مرحلة قيام الاشتراكية المتطورة طرح مهمة تحويل العقيدة الماركسية الى اساس للنشاط الاجتماعي والابداعي للفرد .

للتدعيم الحاصل الاممية في الحياة الروحية لبلدان الاسرة الاشتراكية ينطوي تعاونها في هذا المجال على مغزى خاص . ويسرى بينها اكثر من ٧٠ اتفاقية تشمل مجموعة من المسائل المرتبطة بالتعاون الثقافي بين الدول ، وقد عقد ما يربو على ٢٠٠ اتفاقية ومعاهدة خاصة تنظم التبادل الثقافي (جولات العلماء والطلاب ، تبادل الفرق المسرحية والافلام السينمائية الخ .) . ويجري ، مثلا ، تعاون على نطاق واسع بين البلدان

الاقتصادية في ميدان التربية والتعليم ، ويشغل هنا اعداد الكوادر لكلا الجانبين المتعاقدين حيزا كبيرا .

واكتسب التعاون بين البلدان الاشتراكية مقاييس كبيرة في ميدان الثقافة ، هو العلم . ويمكن الاصطلاح على ابراز ثلاث فترات في هذا التعاون . الفترة الاولى (اعوام ١٩٤٥-١٩٥٧) تتسم عموما بقيام التوطيد الجديد للعلاقات العلمية الدولية وببداية تطور التعاون الثنائي على اساس جديد ، اشتراكي . والفترة الثانية (اعوام ١٩٥٨-١٩٧٠) هي زمن التطور الحثيث للاتصالات الدولية الثنائية في ميدان العلم وبداية تطور التعاون المتعدد الاطراف . والفترة الثالثة (منذ مستهل السبعينات) تتسم بالتعاون الواسع الثنائي والمتعدد الاطراف على اساس طويل الامد . واتسع الى حد بعيد في الوقت نفسه تبادل المعلومات العلمية التكنيكية بين البلدان الاشتراكية . ولهذه الاغراض اقيم خصيصا نظام اعلامى دولي . وبعده دور هام في تقارب الحياة الروحية في البلدان الاشتراكية الى اللغات الابداعية بين الكتاب والفنانين والشعراء والفنيين ، والى مهرجانات مختلف انواع الفنون ، والى المعارض وايام الثقافة والبيت الاداعي والتلفزيوني المشترك المنتظم وما شابه ذلك .

وهذه الاتصالات كلها تساعد كثيرا سواء على تقريب المستويات الثقافية ، او على تدعيم الرابطة الفكرية في الحياة الروحية لبلدان الاسرة الاشتراكية . ويزداد في غضون ذلك دور التخطيط المشترك في جملة من ميادين العلم والتعليم ، ان تزايد الصلات الاممية ، القائمة على المساواة المبدئية بين الامم جميعا ، في ميدان الثقافة المادية والروحية على حد سواء ، هو اتجاه جوهري بين بلدان الاسرة الاشتراكية .

* * *

نحن ، الانثوغرافيين ، نتوفاًسّر لنا في بلادنا ظروف ملائمة وننتقل من منطلقات تجعل مادتنا قراعى لدى اداء

الكثير من المهمات الاقتصادية الخظيرة . فعمما تطوّر التكنيك يبقّى الانسان يتجرّبه ومهاراته قوة الانتاج الرئيسية في المجتمع . واستخدم القامصة السلافية في الممارسمة الاقتصادية والاجتماعية العقلية هو ، كما يبدو لنا ، الممة السيرة الهامة لتجربة الاتحاد السوفييتي .

جاء في خطتنا الخمسية الاولى التي اقرت في عام ١٩٢٦ : « . . لا يستطيع الاتحاد السوفييتي أن يبني ويطور اقتصاده الوطني الا بالرعاية الكاملة لكل الخصائص الطبيعية والاقتصادية والقومية لوحده الشاسعة المترامية الاطراف وبمختصر اجزاها المكتونة » . ولخصائص السلافية صلة مباشرة بهذا التخصص . وهكذا ، مثلا ، فان الانتاج المألوف للعمل - وهذا ما تراعياه ايضا في توصياتنا - هو متباين في وسط روسيا وفي اوزبكستان : ان حيفت آسيا الوسطى ازغم المزارعين مدة فرون على «فرصة غدا» كبيرة في اكثر ساعات النهار حارة ، وعودهم على العمل برقابة ، اما النصف الشمالي المتقلب فكان ، على العكس ، يرغب الفلاحين على العمل ينشأط شديد في الطقس الجيد ، حيث «اليوم الواحد يطلع سنة» ، ان تجربة العمل والخبرات المهنية تتصل مباشرة بالتقاليد القومية . ويقسم اقتصادونا في مصلحة التخطيط الجيهوريات المتحدة الى جمهوريات ذات قاننى فسى القوة العاملة واخرى ذات نقص فيها ، ويعزّون الى القضية الاولى آسيا الوسطى وكازاخستان ومولدافيا وما وراء القفلس . ويروضون ، مثلا ، بتطوير الصناعتين النخيلية والغذائية هناك . ولكن هذه التروصية عامة . فيضيف الاختصاصيون : - الانثوغرافيون ان المؤسسات الكبيرة الجديدة لهذى من الرعي لا تستطيع ان تحل هناك قضية تشغيل السكان ، فمن الواضح ان آسيا الوسطى باعلاها الكبيرة تقليديا تحتاج الى معادل نسج صغيرة تقوم بتشغيل القوة العاملة على نطاق القرية او الحي بحيث يكون الوصول اليها متيسرا وسهلا بالنسبة الى الابهات الكثيرات الاطفال ، والى الفتيات . ان تكييف الانسان مع عمل معين امر هام ، ولكن من

الواضح ان تكيف العدل مع الانسان لا يقل اهمية من نواح كثيرة . تجلب الاتقيين والاستراتيجيين فروع الصناعة المتجولة ، مثل صناعة بناء الاجهزة ، اما في آسيا الوسطى ومولدايا فيفضلون الصناعتين الخفيفة والنسيجية . لا ينبغي ، كما ينصح الاثنوغرافيون ، لدى التخطيط الطويل الامد استراتيجيا لتوزيع المؤسسات التصرف في طابقتان كما في لاتفيا ، وفي اذربيجان كما في استونيا .

اذا نبحث في ما هو خاص في ثقافات مختلف شعوب ، ندرس كيف تجل على نحو خاص القضايا البشرية العامة في داخلها ، من تربية (وحسب اوضاع) الاطفال الى مؤازرة الشيوخ ، ومن رعاية الصحة الى بناء المساكن ، وكذلك فان اقطاع النشاط المألوف لطابع الاشغال المضلة واتسكال الاستراحة والنسليات وخصائص الطب الشعبي والفن الشعبي تدخل ايضا في عداد الابحاث العملية للانثوغرافية في بلادنا .

وهذا مثل من الامثلة . تبين للمباحثين السوفيت ان أنظمة استخدام النباتات الطبية لا تتطابق الى حد بعيد لدى ثلاثة من شعوب أمور المتجاورة : الاوديفيين والناناي والاولتشييين . قائلاناي يسبقون اكبر اهمية على جذور الاشجار ، والوديفيون يستخدمون بصورة رئيسية قسي العلاج الاغصان والثمار والاوراق ، اما الاولتشييون فيقدرون في الشجرة اجزاءها الواقعة فوق الارض ، وفي النباتات العشبية اجزائها التي تحت الارض . هذا فسي حين ان الاوديفيين والناناي والاولتشييين يعيشون في ظروف جغرافية واحدة ، ويحيط بهم عالم نبات واحد . وهذا بالنسبة لنا برهان على ان كل شعب يؤدي المهمات العامة بطريقته الخاصة ، وبالنسبة الى الموضوع الذي نناقش اليه الآن ينطوي على اهمية خاصة كون الاطباء يجدون مصادر ليشملوها منها عقاقير ناجعة جديدة . ينبغي ان تكون كل الاكتشافات والاختراعات المحلية من هذا النوع ناجحة وقادرة على منافسة غيرها ، فلا بد ، طبعاً ، من ابحاث

والاختيارات طبية دقيقة ، يجب الاختيار والانتقاء ، واهميتها هنا مساعدة الاطباء على ايجاد ما ينبغي اختياره .

وحسب في الحالات التي تكون فيها بعض الوصفات الدقيقة للطب القديم مفقودة ، يمكن بعضها من جديد . ويكفي مجرد الانطلاق من الحيوانات والنباتات والمواد المعدنية التي يعتبرها هذا الشعب او ذاك ذات خصائص سحرية او حتى مقدسة . من المعروف ان الاعلى كانت مقدسة في اماكن كثيرة ، وكانت تمارس في الشرق الاقصى عبادة الدينشين ، اما الغانتيون والمانيي فكانوا يعبدون الشمس . وليس بالضرورة ان يكون هذا التأييد مرتبطاً حصراً باستخدام الحيوان او النبات في العمارة ، ولكن هذا يمكن ان يساعد على معرفة اين ينبغي البحث .

اجري مؤخرًا علماء بيولوجيون واطباء واثنولوجيون وسمسيولوجيون واثنوغرافيون بصورة مشتركة بحثاً شاملاً في نظام تأمين الحياة وتمتعها لدى الابخازيين ، الشعب الذي يعيش في ما وراء القفازس ويشتهر بنسبة عالية من المعمرين ، وكان معهد الانثوغرافيا لأكاديمية العلوم قسماً الاتحاد السوفيتي المنظمة الرئيسية بين المنظمات المساهمة في هذا العمل . وتثير الانتباه في هذا الصدد الاساليب التبريرية السلافية الخاصة : فليس من المألوف هنا معاقبة الاطفال او حتى توبيخهم ، انهم يتلقون المديح فقط . وينظر الاطفال الى الامتناع عن مدحهم كلوم صادم . يعتبر الابخازيون ان اكبر مصيبة هي ان يكون الانسان وحيداً ، انهم يستقبلون المسنين والوحيدون في اسرهم كاجداد وجدات . وكلما كان الانسان اكبر سناً ازداد افرازه وساعده هذا اكثر واكثر على الاحساس بالاطلئان النفسي .

ان الكثيرين على قناعة بان خصائص التغذية تضطلع بالدور الحاسم في طول العمر ، اما اغلب الاثنوغرافيين فيعتبرون ان الخصائص التربوية مغزى لا يقل اهمية . انا ، طبعا ، ندرس في عداد خصائص الشعوب كيفية غذائنا ونوعيته . (وبالمناسبة ، يقول المثل الشعبي الابخازي :

إذا أردت أن تعيش حياة أطول ، فاشرب المزيد من الحليب
الرائب) وباختصار ، أن استنتاجات العلم غالبا ما تنطبق مع
استنتاجات التجربة الشعبية .

طبيعي أن التدهات ذات الصفة العامة التي تدعو كل
سكان المدن إلى الإقْداء ، بمثل خلاصى السفوح الايغازية لا
تنطوي على مغزى عملي ، ولكن الإطلاع على هذه الوقائع -
وهذا ما ندعو اليه - أمر عام لكل إنسان يعنى التفكير . أن
بعض الأساليب المدعومة للتربية القومية ، والتي يدرسها
الانثوغرافيون ، يمكن وينبغي للتربية العلمية أن
تستخدمها . وصار يظهر في بلادنا في السنوات الأخيرة عدد
متزايد من المؤلفات الخاصة المكرسة للتربية السلافية .

ثمة امكانات كثيرة للغاية تكمن في تطبيق الأساليب
الاقتصادية والتكنيكية التي إعدتها الثقافات الشعبية . وقد
استخدمت في الاتحاد السوفيتي تجربة التثؤكشتيين
والاسكيمو في البعثات القبلية . وهذا مع العلم أن القدوة
الحسنة الجديدة ليست ، فلاسيف ، كثيرة بالشكل الذي
نريده . ولكن هذا الاتجاه السلافى العملي موجود مع ذلك .
فقد نظم ، مثلا ، إنتاج صناعى لزحافات الاسكيمو الشهيرة ،
وبدئ بالتأنتاج اسكى على غرار ما يستخدمه الصيادون
الايفيكويون : عوضا عن جلود الحيوانات تثبت تحت الاسكى
لدائن خاصة .

هناك الكثير مما يمكن استخدامه من هذا النوع ، ولكن
لا يمكن استخدام كل شيء ، طبعا . لا ينبغي اعتبار أن
المساكن والملاطمة والاطعمة التقليدية لكل شعب ثلاثة حشا
بكل دلائلها الظروف حياته . فالامر اعقد من ذلك . إذ أن
تاريخ كل شعب متنوع ، وليست استنتاجات التجربة العملية
هى وحدها التي تغلف طابعها على اسلوب وجوده . بل كذلك
القوالب والادغام . نحن نعرف ، مثلا ، أن الشعوب الاصيلة
فى سيبيريا لم تكن تأكل الفطر ، وأن البلايس التي يسميها
الانثوغرافيون بالملايس القومية ليست دائما مريحة للعسل
وحتى للاستجمام .

إن أهمية الانثوغرافيا التطبيقية واضحة بشكل خاص
حينما يجرى الحديث عن الحرف الشعبية المعاصرة . واليوم
عند بحث الاسرار الحرفية القديمة لا يتوجه المنتجون احيانا
إلى الصناع الضالعين (المستئين) فربما لا يكون لهم وجود إذا
كان يراد بحث الحرفة بعد انقطاع طولي ، بل إلى مواد ابحاث
الانثوغرافيين القديمة والجديدة .

تشير ايضا إلى أن مواد الانثوغرافيا تستخدم كذلك لدى
وضع فلكوس جديدة ، اشتراكية ، تنوع استجمام الانسان
بما هو ممتع وشيق .

وباختصار ، أن مجال تطبيق المعارف الانثوغرافية هو ،
حسب قناعتنا العيبة ، واسع جدا وامكاناته غير محدودة .
ويقدم الاختصاصيون - الانثوغرافيون السوفييت توصيات
والعية تامة إلى صنات التخطيط ومسؤولى الإنتاج والعمالين
فى المؤسسات الادارية والثقافية . وتستخدم توصياتهم
الغرى لتنفيذ الأبحاث العلمية فسى المواد المتجاوزة ، أن
انثوغرافيتنا التطبيقية تصعد قدرتها باستمرار ، ولا سيما
فى المدة الأخيرة . ولعلنا يمكن القول من حيث المبدأ انه
تربخ جذور عادة خاصة تستخدم فى الممارسة نتائج أبحاث
الانثوغرافيين العلمية . ويمكن ، ولو على غرار البيونيكا ، أن
نسمى هذه المادة بالانثونيكا .

تدرس الانثوغرافيا نموذ الحياة فسى جوانبها المرتبطة
بانتشاء الانسان إلى شعب معين . ثمة فسى الارض آلاف
الشعوب ، وكل منها كدس على طريقته تجربة عملية خاصة ،
وغالبا ما يوجد فى داخلها فسى الشعب ، كما سبق وراينا ،
مجموعات سلافية تكونت تاريخيا مع خصائص معيشتها ، ومع
مميزات نشاطها الإنتاجى احيانا ، أى أن عندنا ما نختار
لتطبيقه على المتطلبات المعاصرة والظروف المدعومة . ونحن
نتطرق من أن ابحاثنا يمكن أن تبين ما يستحق بالذات اوسع
انتشار من هذه التجربة العالمية ، ومما يمكن أن يطبقه
آخرون .

أن ما يسمى بالثقافة العصرية التي انتشرت فى كوكبنا

على نطاق واسع ، والتي تسمى بالثقافة الأوروبية أحيانا
والأوروبية-الأميركية أحيانا ، وبالثقافة الصناعية أو ثقافة
المدن أحيانا أخرى . تسمح الى حد بعيد الخصائص السلافية
للسُكوب التي تقع في فلكنها . ولكن هذا ما يزيد من أهمية
دور فقدان معارف ومهارات الثقافات السُكوبية . وهذا ما
ينطبق سواء على السُكوب الكبيرة ، كالسلافية أو العربية ،
مثلا ، أو على السُكوب الصغيرة كالساموانيين أو قبيلة تودا
في الهند . فمن الجميع يمكن ان يتعلم الجيران القريبون
والبعيدون . وكانت منجزات كل من السُكوب تدخل على امتداد
قرون في الأخيرة الثقافية المشتركة للبشرية . ولكن كانت
تنتج هنا قبل كل شيء عناصر ثقافة البلدان التي كانت في
المقدمة من حيث تطورها الصناعي والتكنيكي . وثقافة
الأغلبية الساحقة من سُكوب الأرض ، ولا سيما سُكوب
البلدان النامية ، ممثلة تمثيلا قليلا لا يتناسب وحجمها في
الذخيرة الأساسية للحضارة المعاصرة . وغالبا ما يبقى خارج
"مركبة التقدم" الكثير من المنجزات الروحية والمادية .

ان إحدى المهمات الأساسية ، التقليدية للعلوم
الأنثوغرافي السوفيتي تكمن في تعميم التجربة الدولية التي
كدها تاريخ السُكوب - الأنوسات .

الثقافة . الانجازات الأساسية لتاريخ السلاف

مع كل تنوع التاريخ السلاف لسُكوب العالم تلازمه -
الأمر الذي سعيانا الى تبينه في عرضنا - بعض الانجازات
المشتركة وقوانين معينة . وهي تتجلى بوضوح خاص في
مجال العمليات السلافية ، أي تغيرات الأنوسات-السُكوب
في الزمان . والعمليات من هذا النوع هي التي تشكل
المضمون الرئيسي لتاريخ البشرية السلاف ، وكما تبين
دراسة هذا التاريخ ، فإن عمليات التقسيم السلاف هي أمر
ميز بشكل خاص للمجتمعات ما قبل الطبقة . وعن الأسباب
الأساسية لظهورها انقسام القبائل نتيجة ازدياد حجمها ونسج
المصادر العلمية في نطاق أراضي القبيلة .

وعمليات الانقسام السلاف بالذات تكمن في أساس
انتشار الناس في أرجاء الأرض من منطقة (أو مناطق) نشوء
الإنسان العاقل . وفي التشكيلات ما قبل الرأسمالية كانت
عمليات الانقسام السلاف والهجرات الجماعية البريئة بها
بغاية الأساس لظهور الكثير من السُكوب .

كان انتشار الأوروبيين (الآسيان ، الإنكليز ، الهولنديين
وغيرهم) خارج نطاق أوروبا (في أميركا وإفريقيا الجنوبية
وأستراليا) وما وافق ذلك من ظهور روايت سلافية جديدة
نوعا فريدا من عمليات الانقسام السلاف في العصر الرأسمالي
السكر . وفي القرن العشرين صارت عمليات الانقسام السلاف
تتجلى بمقاييس اصغر بكثير عن السابق .

كما سبق القول ، يطور بعض الغصائل المشتركة لتقانة
الانوسات المتفاعلة .

تطور العمليات السلافية تحت تأثير عوامل مختلفة
بعضها ناتج عن تفاعل الانوسات (ولا سيما في المجال
الغوي الثقافي) ، وبعضها عن اسباب تدرج غير سلافية
(اقتصادية ، اقليمية سياسية ، ديموغرافية ، ايدولوجية
الخ) .

ان العمليات السلافية التاريخية الصرف ، شأن الروابط
السلافية ، عبارة عن ظاهرة متدرجة . وبعبارة اخرى ، يمكن
ان تجري وكأنها على مستويات مختلفة ، يصل وفي اتجاهات
مختلفة احيانا . وبالنسبة تصبح مجموعة واحدة من الناس
تنتمي الى انوس واحد واقعة فسي وقت معا سواء في مجال
التطور « الداخلي » لهذا الانوس والوجه نحو تدعيمه بمثابة
نظام مستقل ، او في مجال عملية موجه نحو توحيد هذا
الانوس مع كيانات اخرى . هذان الاتجاهان المتعاكسان
يعني عن المعاني مختلفان في تاريخ البشرية السلافي
بامره . وهكذا ، فسلان العمليات السلافية الدفيعينية
(الانقسامية) المميزة للمجتمعات البدائية كانت تقترب عادة
بالتراس في اطار اتجاهات التباين . وفي ظروف التنشيطات
الطبيعية السابقة للرسمية كانت عمليات التلاحم في غاية
التعقيد والتناقض .

لقد كان تزايد الاتصالات القبلية مع نمو عدد السكان
العام احد العوامل التي ساعدت على تلاحم الروابط السلافية
القبلية في اقوام .

وكانت الدول الطبقية المبكرة عاملا آخر اكثر اهمية فسي
تشكل الاقوام . وغالبا ما كانت تظهر على قاعدة مجموعات من
التباين المتقاربة . والى جانب قرابة اللغة والثقافة (بمعنى
الكلمة الضيق) الموجودة اصلا لدى هذه القبائل كانت الدولة
في هذه الحالات توحد التباين المتلاحمة من الناحية الإقليمية
السياسية وتخلق رابطة معينة من المصالح الاقتصادية
والاجتماعية وغيرها .

تعدو عمليات التوحيد السلافي هي السائدة ابتداء من
عصر تفكك المجتمع البدائي . وهذه العمليات توصف عادة
بصفة عامة كعمليات تقارب والاندماج . وفي الوقت نفسه
يمكن تحديد العمليات التوحيدية طبقا لنتائج النهائية . وفي
هذا الصدد يصطلح على قرر ثلاثة انماط للعمليات السلافية
ذات الطابع التوحيدي : التلاحم والاندماج والتكامل .

يمكن ان تعزى الى عمليات التلاحم السلافي عمليات اتحاد
عدة وحدات سلافية متقاربة من حيث اللغة والثقافة في رابطة
سلافية واحدة . وينبغي في غضون ذلك تمييز تلاحم الاقوام
من قبائل ومجموعات اثنوغرافية متقاربة عن تلاحم الامم من
اقوام ومجموعات سلافية واقليات قومية متقاربة من حيث
اللغة والثقافة وما يشابه ذلك . وكما ان الشعوب المتقاربة
ترجع اصلا غالبا الى رابطة سلافية لغوية واحدة في
الماضي ، فان تطور عمليات التلاحم هي في جملة من الحالات
بمثابة نفي دياليكتيكي من نزوع خاص لعمليات الانقسام
السلافي .

ومن المتعارف عليه ان تعزى الى عمليات الاندماج
السلافي عمليات ذوبان مجموعات صغيرة لشعب ما (او بعض
مبشليه) في شعب آخر . ويوجد نظمان للاندماج : قسري
وطبيعي ، وكان للاخير منهما دائما ، كما اشار ليتين
مفزي تقديم (راجع : لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد
٢٤ ، ص ١٢٥) .

ويقتصد بالتكامل السلافي تفاعل وحدات سلافية اساسية
(قبائل ، اقوام ، امم) تختلف اختلافا جوهريا من حيث
مؤثراتها للقوى الثقافية ، يؤدي الى ظهور بعض الملامح
المشتركة للثقافة لديها . وهناك تراكيب وثيق بين كل
اشكال العمليات السلافية الصرف ذات الطابع التوحيدي ،
فليس من العاد ، مثلا ، ان يقترب التلاحم السلافي بالاندماج
الى هذه الدرجة او تلك ، والى جانب ذلك تختلف هذه
العمليات عن حيث نتائجها . يسودى التلاحم والاندماج الى
تجانس سلافي كامل نسبي ، اما التكامل فانه يقترب فقط ،

بنية سلافية اجتماعية تقوم بوظائفها . وهكذا ، فإن القوم الألماني ، الذي بدأ بالتكون مع ظهور المملكة الجرمانية في القرن التاسع (الامبراطورية الرومانية المقدسة للامانة الجرمانية) منذ القرن العاشر) بقي بمثابة انيكوس حتى بعد اشتداد التجزئة السياسية في الفترة من القرن الثاني عشر الى القرن الرابع عشر . والى جانب هذا القوم وفي اطاره وجدت في الوقت نفسه بمثابة بني سلافية اجتماعية الاقوام البافاري والسكسوني والشقابي وغيرها من الاقوام التي تكونت نتيجة التجزئة السياسية .

اثر ايضا في عمليات تكون الاقوام الهجرات الجماعية المميزة لآواخر المجتمعات غير الطبقة وبداية المجتمعات الطبقة ، والتي كانت تقتزن بغزو مجموعات سلافية اخرى . في السابق حينما كانت جملة قضايا النسب السلالة تحل بصورة رئيسية على اساس العمليات اللغوية وتخصر ، من حيث الجور ، في تاريخ اللغات كان يعزى الى الهجرات الدور الحاسم في تشكل اقلية اقوام العالم . والان صارت هذه الجملة من القضايا تعالج بصورة شاملة على نحو متزايد . مسح العلم ان الاستخدام المتزايد للمواد الانثروبولوجية الى جانب المسودات الانثروبولوجية مكن من التشكيك في التصورات التقليدية التي ترى ان الانجليزية الساحقة من هجرات الشعوب كانت تؤدي الى الابداء الكاملة تقريبا للسكان الاصليين المحليين او اذاحتهم . وينبغي ان يؤخذ في الاعتبار اجمالا ان التاريخ البشري كان دوما تاريخ اتصالات واختلاط بين مجموعات مختلفة من حيث انتماءها الانثروبولوجي واللغوي والثقافي ، وانه لا يوجد في العالم اي شعب «نقي» لم يتشرب العديد من العناصر الغريبة .

ان الاقوام كاقسام سلافية اساسية فسي المجتمعات الطبقة قبل الرسمية تختلف اختلافا جوهريا عن الكيانات المماثلة في المجتمعات البدائية . وينبغي هذا قبل كل شيء في كون القوم يتميز ببنية اجتماعية مفارقة مبدئيا لبنية القبيلة . اذ لا تعود علاقات الزواج والقربى العامل الاجتماعي

والى جانب ذلك لا ينبغي نسيان عدم رسوخ كيانات الدول الطبقة المبكرة ، بما في ذلك تحرك الحدود السياسية النسبي . ولكن عملية تشكل الاقوام كان يعقدها بشكل خاص تدرج البنية السياسية المميز للانجليزية المجتمعات الطبقة ما قبل الرسمية الذي كان يقتزن بتناقضات حادة يبين الاتجاهات الجاذبة والنافذة ، وكان ميزان هذه الاتجاهات بالذات يحدد كثيرا الاثر الملموسة التي كانت عملية تلاحم القوم تجري في نطاقها باشد ما يكون .

في بعض الحالات كانت تنسم باكثر شدة العمليات التجارية داخل حدود الكيانات السياسية المترامية الاطراف التي تشمل مجموعة كاملة من الروابط القبلية . وكانت اشد منها في حالات اخرى عمليات التلاحم السلالي في اطار وحدات سياسية صغيرة لا تقسم سوى عدة قبائل . ولكن هذين النوعين لعمليات التلاحم كانا ، كقاعدة عامة ، يتعايشان بهذه العجوة او تلك .

ومن الامثلة على عمليات التلاحم على اساس ضيق نسبيا ظهور القومين اللاتيني والاسبرطى وغيرها من الاقوام اليونانية القديمة التي تشكلت في اطار بوليسات على حدة . وهذا مساعد كثيرا على تنشيط هذه العملية في دولة اتيينا تطبيق التقسيم الاداري الجديد (اصلاح كليستين) في القرن السادس قبل الميلاد ، الذي كان قائما على مبدأ اقليمي تحت مدعو الى الحلول مكان التقسيمات العشائرية-القبلية القديمة . ولكن الى جانب الاقوام التي تكونت في نطاق الدول اليونانية القديمة (اليوليسات) ، جرى في النصف الثاني من الالف الاول قبل الميلاد في نطاق الاتحادات السياسية لعموم اليونان القديمة تشكل رابطة اوسع ، وهي القوم الهيليني ، وعلى هذا النحو ، يمكن الحديث عن وجود اقوام من مستويين مختلفين . ونسب غرضون ذلك فان قوم احد المستويين لا يمكن ان يبرز الا بمثابة رابطة سلافية تحت (انيكوس) (بذلك ، كما يقال ، بقوة الاستمرار بعد زوال بنيته الاجتماعية السلالية) ، وقوم المستوى الآخر بمثابة

الاساسى الذى يحرص القوم فى وحدة متماسكة (ولا سيما لدى ظهوره) ، بل القوة السياسية ، اى الدولة بكل صفاتها وعناصرها .

ويختلف القوم عن القبيلة فى مجال الخصائص السلالية ايضا ، فمن جهة ، يؤدى وجود الطبقات المتناحرة الى اضعاف معين للمناخ الثقافى فى اطار القوم مقارنة بما لدى القبيلة ، ومن الجهة الاخرى ، اذا نظرنا الى المسألة من ناحية المكان ، فان التجانس الثقافى فى الاراضى التى يشغلها القوم هو اعلى مما فى الاراضى نفسها قسما التشكيل البديعية ، حتى وان سكنت هذه الاراضى اسرة واحدة من القبائل ، وباختصار ، يجرى اما مجرد زيادة للصلات الاعلامية الثقافية داخل الرابطة السلالية-الاجتماعية (مع تحول اتحاد القبائل او جزء منه الى قوم) ، واما اتساع الاطر السكانية للثقافة (التيجانية-موسع) تشمل القوم على قاعدة عدة قبائل لا تربطها صلة القرى . ويضطلع بدور كبير فى هذه العملية شدد جماهير كبيرة من الناس معا لتأدية اعمال اجتماعية او لاعراض حربية ، وانشاء المواصلات من مختلف الانواع داخل الدولة ، ونقل المعلومات التى لها طابع اوسع ، وبشكل خاص تطور الكتابة التى تؤدى فى حال وجود من يثقلوها على الناس وظائفها الاعلامية حتى وان كان اغلب السكان من الاميين .

والى جانب ذلك تؤدى احيانا العمليات السلالية قسما التشكيلات الطبقة ما قبل الرأسمالية الى ظهور اقسام مكروسلالية ، وذلك ، مثلا ، حينما «يتفوق» كيان اجتماعى سياسى كبير (الدولة) على عدة وحدات سلالية مختلفة المتشابهة تكونت فى السابق فى اطار بنى اجتماعية منفصلة . وفى نطاق هذه الكيفيات تولد احيانا ، الى جانب الاقوام الموجودة فيها ، رابطة سلالية كأنها تقف فوقها مما يجد تعبيره فى ظهور بعض الملامح السلالية المشتركة بالنسبة الى الاقوام جميعا . بيد ان هذه الملامح مقارنة بالخصائص السلالية للاقوام مجرد ملغمة رقيقة ، بالاضافة الى انها ليست موزعة بالتساوى . وكمثال على هذه الرابطة يمكن ان نذكر

الامبرطورية الرومانية المتاخرة بالاتجاه المميز لها نحو محسوس الفوارق بين السكان الذى تجسلى باوضح ما يكون فى النثر الرابع للجنسية الرومانية وقرض الخصائص الرومانية .

الامة هى القسم الاساسى الذى يلى القوم . وهى ممن الناحية الاجتماعية السلالية كيان ذو مستوى محدد تماما ، مستوى المجتمعين الرأسمالى والاستراكي .

تختلف الامة عن القوم من الناحية السلالية كاختلاف الاخير عن القبيلة قريبا . ويتكشف فى غضون ذلك الشكلا ن نفسهما لعلقتهما فى المكان . فالامة هى ، فى بعض الحالات ، نتيجة تحول القوم (تحول القوم الهنغارى ، مثلا ، الى الامة الهنغارية) . والامة فى حالات اخرى محصلة لتلاحم عدة اقوام (الامة الفرنسية ، مثلا ، هى نتيجة اندماج القومين الفرنسى الجنوبى والفرنسى الشمالى) .

ولكن من الجوهرى فى هذا الصدد انه يحدث فى الحالتين الاولى والثانية على حد سواء ازدياد مطرد لتجانس الثقافة ، مما يتجلى بوضوح خاص فى تشكل اللغة الادبية القومية العامة الواحدة ، وفى الزوال التدريجى للفوارق المحلية فى الثقافة العامة . بالمناسبة ، فان الامر لا ينحصر فى ازدياد تجانس الثقافة فقط (احيانا تكون درجة هذا التجانس لدى قوم متكون اكبر مما لدى امة تقسم فى المرحلة الاولى عدة اقوام كذا) . من الامم بكثير كون الامة ، كقاعدة عامة ، تتفوق على القوم بشدة الصلات الثقافية الاعلامية الداخلية ذات الطابع الاقوى (المترام) . مع العلم ان هذا الازدياد للكتابة الشبكية الاعلامية الداخلية يقترن بشبكة اعلامية متعاطلة بين القوميات .

ان عمليات التلاحم السلاى داخل الامم تقتون احيانا باختلاط عرقى . وهذا مميز بشكل خاص للامم الاميريكية اللاتينية التى تقسم فى بنيتها مثل اجناس ثلاثة : الاوربيين والزنوج والعمول (الهنود) ، وجزئيا المتحدرين من بلدان آسيا) . وهكذا ، فنتيجة للزواج العرقى المختلط قسما البرازيل فى غضون اقل من ١٠٠ سنة (من عام ١٨٩٦ الى

عام ١٩١٠) ازدادت نسبة الاشخاص ذوى الاصل المختلط (ولا سيما الغلاسين) من ٢٠ الى ٦٠٪ من عدد السكان .
اصطلح على تسمية التغيرات التى تطرا على الاسم بالعمليات القومية التى هى عبارة عن شكل من اشكال العمليات السلافية الاجتماعية .

ان العمليات القومية (شان اى شكل آخر من العمليات السلافية الاجتماعية) هى ظواهر معقدة للغاية . وهى تشمل مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة غاية الاختلاف : من الاقتصاد الى الرعى الاجتماعى . ولذا لتسهيل تحليل العمليات القومية من هذا النوع اصطلح العلماء السوفييت فى البلدة الاخيرة على فرز جانبين مترابطين اساسيين : الاجتماعى البحث والسلافى البحث . ويقصد بالجانب الاجتماعى فى غضون ذلك الظواهر الاجتماعية بمعنى الكلمة الضيق ، اى بالدرجة الاولى علاقات الانتاج والمجال الطبقي المهنى لحياة المجتمع . ويقصد بالجانب السلافى للعمليات القومية التغيرات التى تطرا على الخصائص السلافية للروابط السلافية الاجتماعية بما فى ذلك الرعى الذاتى السلافى .

ان الدور الحاسم فى العمليات القومية (بمعنى الكلمة الواسع) يعود ، ولا شك ، الى الظواهر الاجتماعية البحث ، ولا سيما الاقتصاد . بيد ان الجانب السلافى لا يمثل الجانب الجوهرى فحسب ، بل ويمثل ، طبعا ، الجانب المكون الثابت لهذه العمليات .

تنقسم الامم ، وفق مؤشراتنا الاقتصادية الاجتماعية ، الى يروجوازية واشتراكية . تتكون الامم البرجوازية من طبقات متناثرة تتشكل البرجوازية والبروليتاريا الطبقيتين الاساسيتين بيتها . وفى ظل الاشتراكية تتغير البنية الاجتماعية للامة تغيرا جذريا . وبهذا المعنى يمثل ظهور الامم الاشتراكية تحولا جذريا لامة المجتمع البرجوازى . وتتسم الامم فى ظل الاشتراكية بوحدة الطبقتين الصديقتين - العمال والفلاحين . ويعود الى الطبقة العاملة الدور القيادى فى حياة الامم الاشتراكية . واذ تقيم الرأسمالية صلة شاملة وجمعية متبادلة

بين الامم ، تخلق بحكم طبيعتها الاستغلالية اضهادا لامة اخرى . والصفة المميزة للامم الاشتراكية على الاممية الاشتراكية والصداقة والتضامن بين الشعوب .

تمارس البنية الاجتماعية للامة تأثيرا جبارا فى تجانسها الثقافى . ان الامة البرجوازية بتناحرها الطبقي تنقسم ، كما اشار لينين ، بوجود ثقافتين . فى المرحلة المبكرة لتطور الرأسمالية تضطلع ثقافة الطبقات السائدة فى الغالب بالدور الرئيسى فى الثقافة الروحية للامة . بيد انه فى المرحلة المعاصرة ، على الرغم من سيطرة المضمون البرجوازى فى الثقافة القومية فى البلدان الرأسمالية ، يتزايد مع ذلك بشكل ملحوظ دور العناصر الديمقراطية للثقافة فى الحياة الروحية . ومع الانتقال الى الاشتراكية يغطى هذا الجانب للثقافة القومية بتطور شامل . وفى غضون ذلك لا بد وان يؤدى حلول تجانس الامم الاجتماعى الى اشتداد عمليات التلاحم الثقافى التى تمثل نفا دىاليكتيكيا لطابعها المزدوج الثقافى السابق . وهكذا ، فان الامة الاشتراكية ليست استمرارا للرابطة القومية السابقة ، بل هى كيان مغاير من نواح كثيرة .

ان التزايد الشديد للصلات الاقتصادية فى ظروف ظهور الرأسمالية هو اهم عامل لتشكيل الامم البرجوازية . ينبغى التنويه على ثمر خاص بالمغزى الذى ينطوى عليه بالنسبة الى عملية التلاحم القومى التبادل المتعاطف فى فترة ولادة الرأسمالية بين المناطق والتداول البضاعى المتزايد والتدريج واندماج الاسواق المحلية الصغيرة فى سوق قومية واحدة .

يمارس عامل الدولة السياسى تأثيرا كبيرا فى عمليات التلاحم السلافى للامم البرجوازية . فلا بد من اجل الانتصار الكامل للانتاج البضاعى من استيلاء البرجوازية على السوق الداخلى ، ولا بد من تلاحم الاراضى المأهولة بالسكان الذين يتكلمون بلغة واحدة فى اطار الدولة .

فى ظروف الرأسمالية يبرز تدرج العمليات السلافية

يوضح خاص . وهي تجرى الى جانب الروابط السلالية الاساسية سواء على مستوى الاقسام السلالية الكبرى او الصغرى ، وبالمناسبة ، فان عمليات التكامل السلالي فى العالم الراسمالي تتجاوز احيانا نطاق الحدود السياسية . ومن المميز فى هذا الخصوص ظهور وعى ذاتى سلالى مشترك لهنود اميركا جميعا فى المدة الاخيرة . اما فى خصوص العمليات السلالية على المستويات الصغرى ، فيمكن الاستشهاد فى هذا الصدد بما يلاحظ فى الولايات المتحدة الامريكية ، مثلا ، من نمو الوعى الذاتى لمجموعات سلالية صغيرة نسبيا تتكون من القادمين (او اخلاف القادمين) من اوربا وآسيا (الايطاليين ، البولنديين ، الارمن ، العرب الخ) .

وباختصار ، تتسم الراسمالية منذ لحظة ظهورها بتشابك العمليات السلالية التى تجرى وكانها على مستويات مختلفة وتعكس ، من حيث الجوهر ، التناقض الديالكتيكي للتطور القومى فى هذا العصر . وهذا الظرف بالذات هو ما يكشف عنه مفهوم الاتجاهين فى المسألة القومية الذى وضعه لينين واشترنا اليه فى نصنا هذا .

على امتداد وجود التشكيكة الراسمالية لم تبق العلاقة بين هذين الاتجاهين على حالها . الاول كان ، كما نوه لينين ، هو السائد فى بدايتها ، و«الثانى يميز الراسمالية الناضجة ، السائرة نحو تحولها الى مجتمع اشتراكى» (لينين ، المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٥ ، ص ٦٧) . ينطوى التفاعل بين هذين الاتجاهين فى ظل الراسمالية على طابع متناقض ، تناحرى ، حيث يقترن باقامة وضغ متميز او حتى سيطرة مباشرة لامة على اخرى . وفى غضون ذلك ، فان وعى الشغيلة الذاتى القومى الذى يتكون فى خلال النضال من اجل «دولتهم» تستخدمه البرجوازية لتسعين النزعة القومية المتطرفة الموضوعة تحت خدمة مطامعها الامبريالية .

ان الثورة العلمية التكنيكية الجارية فى ايماننا تمنق

اكثر واكثر من تناقض العمليات السلالية فى بلدان رأس المال . فمن جهة ، يؤدى تركز الحياة فى المدن والتوحيد القياسى المميزان لها الى تدويل متزايد للثقافة العامة ، ومن الجهة الاخرى ، يساعد تطور وسائل الاعلام على اشتداد الوعى الذاتى السلالى لافسح فئات السكان . وهو يتسم بعدة خاصة لدى الروابط السلالية التى تعيش فى وضع غير متكافى فى الدولة لان اتساع الاعلام يجعل انعدام التكافؤ هذا معروفا للجميع ، وبالتالي يجعله امرا لا هواده فيه لهذا السبب ايضا . وهذا ما يفسر الى حد بعيد المقارفة السلالية الاساسية للعالم الراسمالي المعاصر : على الرغم من التدويل المتزايد لشمط الحياة يجرى فيه احتدام ملحد للعلاقات القومية .

ان المضغلات السلالية المرتبطة فى عالمنا المعقد بشلط الشعوب المشروح تماما الى الاستقلال والتحرر من الاضطهاد القومى ليس من النادر ان تستخدم فى السياستين الدولية والداخلية لتحقيق الاهداف الطبقيّة الضيقة وقمع الحركة الديمقراطية .

هذا فى حين ان الشعب نفسه ، اى اغلبيته الكادحة ، هو وحده الذى يملك حق اختيار الطريق الذى ستمسير عليه البلاد لدى حل المهام الاقتصادية والاجتماعية التى تواجهها ولدى تحديد الاهداف الاستراتيجية لمستقبلها التاريخى . جاء «بيان دلهى حول مبادئ العالم الخالى من السلاح النوى ومن العنف» الصادر فى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٨٦ : «يجب احترام حق كل شعب فى الاختيار الحر - الاجتماعى ، السياسى ، والايدىولوجى» .

ان الجماهير الكادحة وطليعتها الثورية ترفض الايدىولوجيا الرجعية لانعدام المساواة القومية وتدعم الشعور القومى للام المضطهدة بقدر ما يوجد فيها من «مضمون ديمقراطى عام ينتصب ضد الاضطهاد . . .» (لينين - المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٥ ، ص ١٦٦) .

تنظّل الماركسية الى حركة التحرر الوطنى كقدمة ضرورية لقيام الشعوب المضطهدة على نطاق واسع بالنضال

من أجل الاشتراكية . وإلى جانب ذلك من الواضح تماما للماركسيين انه لا يمكن حل المسألة القومية تماما الا بتصفية الطبقات المتناحرة ، الامر الذى يشكل مقدمة جذرية للقضاء على كل اصناف الاضطهاد وانعدام المساواة ، بما فى ذلك فى مجال العلاقات القومية .

ولهذا بالذات فان تأثير مثل الطبقات الكادحة فى العمليات السلافية المعاصرة لا يلقى تعبيره الكامل الا فى ظروف بناء المجتمع الاشتراكى . وهذا ما تشهد عليه بوضوح تجربة اكثر من نصف قرن للبناء القومى فى بولندا والبلدان الاشتراكية الاخرى .

لدى النظر فى هذه التجربة ينبغي التنويه بان من الخطا النقل الى تصور الاتجاهات المميزة للعمليات القومية فى ظل الرأسمالية الى المجتمع الاشتراكى . اذ ان اساس الامة الاقتصادى وبنيتها الطبقيّة ومظهرها الروحى ، اى كل ما يسم نمط الحياة الاجتماعى التاريخى المعين ، تتغير تغيرا جذريا نتيجة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . وإلى جانب ذلك ، اذا كانت الموصفات الطبقيّة الصرف للامة لدى تبدل التشكيلية تتغير تغيرا جذريا ، فان الخصائص السلافية الملازمة لها تبقى الى درجة كبيرة .

وبالتالى يوجد بين الاتجاهين فى المسألة القومية الساريين فى ظل الرأسمالية وفى ظل الاشتراكية تعاقب وتغيرات نوعية على حد سواء . نظرا على اتجاه تطور الامم تغيرات فى ظروف الاشتراكية تحت قائس مستن جديدة للعلاقات القومية ، مثل تأكيد المساواة بين الاجناس والامم واللغات ، وحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، والتقريب بين مستويات التطور الاقتصادى والثقافى ، وعلى اساس اقتصادى واجتماعى مغاير تجرى ايضا فى ظل الاشتراكية عملية التكامل القومى والتقارب بين الامم .

يتجلى الترابط بين هذين الاتجاهين المعدلين سواء فى الظواهر الاقتصادية الاجتماعية ، او فى الظواهر السلافية «الصرف» ، مع العلم ان الاولى تؤثر مباشرة فى الثانية (ولا

سيما فى الوعى السلافى) ، ويمكن للثانية ، بدورها ، ان تمارس تأثيرا معاكسا ملحوظا فى الظواهر الاقتصادية الاجتماعية .

ان التقدم فى مجال القوى المنتجة المقترن بتغيرات اجتماعية جذرية كان ينطوى ، ولا شك ، على مغزى حاسم بالنسبة الى تطور الاتجاهين المذكورين فى المجال السلافى فى بولندا . فهذا التقدم ، وقد سبب تقوية الصلات الاقتصادية سواء داخل المناطق على حدة ، او على نطاق البلاد بأسرها ، اصبح فى نهاية المطاف المقدمة المادية الاساسية للتلاحم السلافى داخل كل من الامم والتكامل القومى داخل الدولة .

منذ السنوات الاول للسلطة السوفييتية خلقت التحولات الاقتصادية الاجتماعية فى بولندا ظروفا مزاوية من اجل التطور العاصف لعمليات التلاحم السلافى . وفى مناطق التخوم من البلاد ، ولا سيما تلك المتخلفة فى تطورها ، تجلت هذه العمليات فى اتحاد المجموعات السلافية المتقاربة من حيث اللغة والثقافة فى اقلام كبيرة وامم .

وفى سنوات السلطة السوفييتية اصبح ايضا الكثير من الامم التى تكونت منذ زمن بعيد اكثر ترابسا . وبالنتيجة ظهرت فى الاتحاد السوفييتى ، من جهة ، شعوب كبيرة جديدة ، وتقلص ، من الجهة الاخرى ، تبرقش البلاد السلافى . تجرى فى بولندا ، كما فى كل الدول المتعددة القوميات ، عمليات اندماج سلافى ايضا . ولدى الحديث عنها ، ينبغي التنويه على الفور بان الحديث يجرى ، اولا ، عن اندماج طبعى ، وبان هذه العملية ، ثانيا ، تمس بصورة رئيسية الشعوب المعشعة اقليميا ومجموعات الناس القمية فى اراض تشغليها قومية اخرى .

يشهد باقتناع على صفة الاندماج الطبعية فى بولندا واقع ان «فتاة» الرئيسية هى الزواج المختلط قوميا . ان الاطفال الذين يتزعمون فى أسر كهذه يختارون عند بلوغهم سن الرشد قومية احد الوالدين . وفى حالة تفضيل هؤلاء الاحداث

لقومية واحدة ما ، فان عدد افراد هذه القومية ينمو ، طبعاً ، على حساب تلك التي لا يتنازلونها . ان نمو الاختلاط الاقليمي وضعف الشعور بتفصيل قومية على اخرى اديا الى زيادة الزواج المختلط من الناحية القومية .

ان التكامل السلافي ، لا الاندماج ، هو ما يشكل الخط الرئيسي للعمليات القومية في بلادنا . وهو يرتبط اوثق ارتباطاً بالتكامل الاقتصادي ، ويتكون بنية اجتماعية وحيدة النضال لدى كل شعوب بلادنا ، ويظهر الرابطة التاريخية الجديدة ، اي الشعب السوفييتي ، على هذا الاساس . والشعب السوفييتي كيان اممي معقد يشمل الى جانب المجالين الاقتصادي والاجتماعي السياسي لحياة المجتمع الثقافية ايضاً .

ادى التكامل السلافي في السنوات التي مرت منذ لحظة قيام الاتحاد السوفييتي الى ظهور ملامح ثقافية مشتركة للشعب السوفييتي . وتجل هذا قبل كل شيء ، في تكون المضمون الاشتراكي الواحد للثقافة الروحية . وتغدو الاممية البروليتارية وروح الوطنية السوفييتية عنصريها الملازمين . لا يجوز ، بالطبع ، الا نأخذ ايضاً في الاعتبار عملية التوحيد الثقافي المرتبطة بانتشار عناصر الثقافة بين شعوب الاتحاد السوفييتي (ولا سيما الثقافة المادية ، مثل السيارات واجهزة الراديو والبرادات وما شابه ذلك) ، والمماثلة لما لدى سكان الكثير من بلدان العالم ، اي العائدة الى الثقافة الانسانية العامة المتحضرة المعاصرة .

ولكن خلافاً للثقافة المادية التي يسيطر عليها الاتجاه نحو التوحيد ، تحافظ الثقافة الروحية لشعوب بلادنا على صيغتها السلافية الى درجة كبيرة . وهذا يرتبط جزئياً بالازدهار الجديد للحرف الفنية وبعث التقاليد الفنية . ولكن ثمة في هذا الخصوص دور كبير يشكل خاص لتطور الثقافة الفنية المحترفة في اشكالها القومية . وعلى الرغم من التبادل القومي الحديث ، نجد حتى الكثير من عناصر الثقافة الفنية ، التي تكتسب طابعاً اممياً ، لا تفقد مع ذلك القدرة على صيانة

الشكل القومي او التجسد في صورة قومية معبرة بهذه الدرجة او تلك ، وفي الوقت نفسه فان التداخل القومي هو الصفة البارزة لانواع الثقافة المحترفة عموماً . وتجرى هذه العملية ايضاً على المستوى اليومي العام للثقافة الروحية . وتنشأ تقاليد واعياد ومراسم واحدة للسوفييتيين وحتى اسماء انثروبولوجية مشتركة .

ان اللغة الروسية ، التي تبرز بمثابة لغة للتفاهم بين كل شعوب بلادنا ، هي اهم عامل لتكوين الثقافة السوفييتية المشتركة ، واهم عنصر لها في الوقت نفسه . ويتكلم اللغة الروسية بطلاقة في الوقت الحاضر اربعة اضعاف سكان الاتحاد السوفييتي على الاقل .

تستمر عملية تكون الثقافة السوفييتية المشتركة . ويؤدي تسطاً في هذه العملية التبادل الثقافي المتوسع دوماً بين بلدان الاسرة الاشتراكية الذي يضطلع بدور كبير في تكوين الحضارة الاشتراكية التي يعود اليها المستقبل التاريخي .